
Bibliotheca Alexandrina
0196378

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الكون والفساد

لأرسطوطاليس

يتلوه كتاب " فى ميليسوس وفى إكسينوفان وفى غرغياس "

ترجمهما من الإغريقية الى الفرنسية وصدّرهما بمقدّمة فى تاريخ الفلسفة الإغريقية
وعلق عليهما تعليقات متتابعة

بارتلمى سانتهلير

أستاذ الفلسفة الإغريقية فى " كلليج دى فرنس " ثم وزير الخارجية الفرنسية

ونقلهما الى العربية

احمد لطفى السيد

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٠هـ — ١٩٣٢م

فهرس

كتاب الكون والفساد

مقدّمة المترجم

بارتلمي سانتهيلير

صفحة

(أصول الفلسفة الإغريقية)

الكون والفساد

الكتاب الأول

صفحة

صفحة

صفحة

الكتاب الثانى

صفحة

فى ميليسوس وفى إكسينوفان وفى غرغياس

مذاهب ميليسوس

صفحة

مذاهب إكسينوفان

مذاهب غرغياس

مقدمة المترجم

بارتلمى سانتهيلير

(أصول الفلسفة الإغريقية)

هذان الكتابان اللذان جمع بينهما فى هذا السفر هما حملة على مدرسة إيليا التى هى من أقدم مدارس الفلسفة اليونانية — مهد الفلسفة هو فى مستعمرات شواطئ آسيا الصغرى : طاليس وفيثاغورث و إكسينوفان... الخ وسابقوهم الحقيقون بالإعجاب هوميروس وسافو... الخ - علم الفلك والرياضيات والتاريخ والطب... الخ — الاتحادات الثلاثة : الأيوليون فى الشمال، واليونان فى الوسط، والدوريون فى الجنوب — جملة الحوادث الكبرى التى تدخّل فى أمرها الفلاسفة من طاليس الى ميليسوس من السنة ٦٢٠ الى السنة ٤٣٠ قبل الميلاد — حرب يونيا مع ليديا ومع مملكة الفرس — الوسائل المادية التى كانت عند الأقدمين لكتابة المؤلفات — الكتب من طاليس الى زمن أرسطوطاليس — شهادات هيرودوت وطوكوديدس و إكسينوفون وأفلاطون وأرسطو — الاستعمال العام لورق البَردى المصرى — صنع الورق على قول پلاين — رسائل شيشيرون — إيضاح هذه الحوادث — ورق البَردىّ المحفوظ فى دور الآثار عندنا (فرنسا) — محابر وأقلام الكتبة التى يرجع تاريخها على الأقل الى نحو خمسة وعشرين قرنا — أوّلية الفلسفة اليونانية — كونها لاتدين بشىء للشرق — المقارنة بينها و بين الفلسفة الهندية — خلاصة القول على مدرسة إيليا — المعنى الحقيقى لنظرية الوحدة .

جمعت عمدا بين هذين الكتابين فى هذا السفر لأنهما، كما يظهر لى، يعبران كلاهما عن أفكار من قبيل واحد . ففى أوّلها يُعنى أرسطو بإيضاح كيف تكون الأشياء وكيف تنتهى، خلافا لمذهب وحدة الوجود ولا تغيّره . وفى ثانيهما المناقشة بعينها موجهة مباشرة الى ممثلى مدرسة إيليا: إكسينوفان مؤسسها، وميليسوس حافظ مبادئها حتى العهد الذى قام فيه سقراط يبدل بالتردّد القديم فلسفة جديدة حاسمة . فالفكرة فى الكتابين متماثلة، ولا فرق بين أحدهما و بين الآخر إلا فى الشكل فقط . فهنا توضيح عام لمبدأ، وهناك نقض خاص للمبدأ المناقض . وسنعود بالاختصار

فى آخر هذه المقدّمة الى تقدير قيمة هذين الكاتبين اللذين يستأهلان أن يُعرفا أكثر مما هما الآن . ولكنى أرغب بديًا فى أن أبين بقدر ما أستطيع من البيان ماذا كانت الحركة الفلسفية التى شاطر فيها إكسينوفان وميليسوس، سواء فى إحداثها أو فى اتباعها .

إكسينوفان وميليسوس كلاهما من الأسماء البعيدة القدم . ومن الصعب لأول نظرة الاقتناع بأن درسهما يبعث اهتماما جديًا هذه الأيام . هذان الفيلسوفان كانا يعيشان فى القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد . وعلى هذا المدى فليس إلا التنقيب وحده ، فيما يظهر ، هو الذى ما زال يوليهما العطف الذى انقضى زمانه ، ويستقصى مذاهبهما المنسية منذ زمان بعيد . لست أقصد فى الحق الى انتقاد التنقيب ، ولكنى أدرك ما يثير ثائره من التحامل البادر عند ما يتوغل فى درس تلك الأزمان البعيدة إذ تنعدم المراجع الوثيقة فلا يبقى لنا من أعيانها إلا آثار لا صور لها . على أنى فى هذا الموطن أكثر مما فى سواه أسأل أن يصغَى الى التنقيب لحظة . فان الموضوع الذى يحاوله فيما يتعلق بإكسينوفان هو موضوع من أهم موضوعات تاريخ العقل البشرى وأكثرها حيوية .

إنه ليس أقل من أن يكون ميلاد الفلسفة فى هذا العالم الذى نحن منه .

أما من جهة الفلسفة الشرقية فاننا لا نعرف، بل ربما لن نعرف أبدا من أمرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها . فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدراكنا ، مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات . حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافى لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا فى الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيرا . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا . ومع التسليم بأنها تقدّمتها فى الهند وفى الصين وفى فارس وفى مصر فاننا لم نستعرْ منها كثيرا ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد اليها لنعرف مَنْ نحن ومن أين جئنا . والأمر على الضدّ من ذلك مع الفلسفة الإغريقية ،

إننا بها نتصل بالماضى الذى منه خرجنا . وعلى الرغم من عماية الكبرياء التى هى فى الغالب جانية الكفران يجب علينا ألا ننسى أبدا أننا أبناء إغريقا . إنها أمنا فى جميع أمور العقل تقريبا . فلئن ساءلنا أوائلها فإنما نسائل أصولنا . فمن طاليس ومن فيثاغورث ومن إكسينوفان ومن أنكساغوراس ومن سقراط ومن أفلاطون ومن أرسطوطاليس الينا لا يوجد إلا فرق الدرجة . نحن جميعا فى طريق واحد مستمر من قرون عديدة، ومتصل بلا انقطاع لا يتغير اتجاهه، بل يصير على مرور الزمان أكثر طولا وأبهى جمالا . والظاهر أننا لا نخجل من الانتساب الى أمثال هؤلاء الآباء . وكل ما علينا هو أن نبق حقيقين ببنوتهم بأن ندرُج على سنتهم .

قد أمكن القول، لامن غير حق، بأن الفلسفة ولدت مع سقراط[1] . والواقع أن لهذا الرجل العجيب من المقام ما يسمح بأن يسند إليه هذا الشرف العالى، بأن يقرن اسمه بهذه الحادثة الكبرى . ولكن سقراط بتواضعه المعروف ما كان ليقبل هذا المجد، فانه كان يعلم أكثر من كل إنسان أن الفلسفة قد كانت تنشأ من قبله بنحو قرنين إلى أن جاء فأفاض عليها قوة وجمالا لم يفارقاها بعده . لم يكن مولد الفلسفة فى آتينا بل فى آسيا الصغرى ، لأنه يجب تأخير هذه الحادثة مائتى عام الى الوراء تقريبا، إلا أن تمحى من التاريخ تلك الأسماء العظام الأولى التى ذكرتها . إن التقدّم الذى افتتح سقراط بابه لم يكن إلا استمرارا لا ابتكارا وإبداعا .

كل الأصول غامضة بالضرورة . يجهل المرء نفسه دائما فى أول الأمر . وإن تعرّف سنة هذه القرون الأولى مقرون بالشك الذى يلحق أيضا الحوادث ذاتها التى مرت كأنها غير محسوسة . ومع ذلك اذا لم يلتزم هنا الضبط غير الممكن فان أوائل الفلسفة اليونانية يجب أن تظهر لنا أجلى من أن يدعو للشك فى أمرها سبب محسوس .

---

(١) راجع مقدّمة تاريخ الفلسفة لفكتور كوزان الدرس الثانى من دروس سنة ١٨٢٨ والتاريخ العام للفلسفة الدرس الثالث ص ١٠٢ .

كان طاليس من ملطية، وقد حقق التاريخ وجوده فى جيش أحد ملوك ليديا نحو آخر القرن السادس قبل المسيح. وبعده بقليل جاء فيثاغورث الذى بعد أن عاد الى وطنه سموس إثر سياحات طويلة فر منه اتقاء لظلم پوليقراطس الذى كان يضطهده، وذهب يحمل مذاهبه على الشطوط الشرقية لإغريقا الكبرى إلى سيبارس وقروطون. أما إكسينوفان فإنه لأسباب أشبه بالمتقدّمة نزح عن كولوفون. ولما آجتمع ببعض المهاجرين من فوكاية، الذين هم بين أنياب الأخطار قد وجدوا آخر الأمر موئلا على شواطئ البحر الترهينى فى إيليا (هيلا أو ڤيليا)، أسس فى هذه المدينة الحديثة العهد وقتئذ مدرسة شهرت ذكرها .

أصرف القول الآن الى هؤلاء الثلاثة العظاء الذين كانوا جميعا رؤساء مدارس خالدات، وإن كنا لا نعرف منها إلا الشىء القليل : مدرسة يونيا، ومدرسة فيثاغورث، ومدرسة إيليا. وعما قريب أستطيع أن أضم الى هذه الأسماء طائفة من أسماء أخر، لا يستطيع تاريخ الفلسفة أن يغفلها كما لا يستطيع إغفال الأولى .

ولكنى، لا لشىء غير الفكرة فى أمر طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان، أشعر بأمر يسترعى نظرى، إنهم ثلاثتهم من هذا الجزء من العالم الهلّينى الذى يسمى آسيا الصغرى وإنهم تقريبا متعاصرون . إن ملطية التى هى فى القارة، وسموس فى الجزيرة التى بهذا الاسم، وكولوفون فى شمال إيفيزوس بقليل، تكاد لا تتجاوز الأبعاد بينها خمسة وعشرين فرسخا .

على هذه المسافة الضيقة وفى وقت واحد تقريبا تجد الفلسفة مهدها المجيد . لكيلا نخرج من هذه الحدود فى المكان والزمان والموضوع نضيف الى هذه الثلاثة الأسماء : طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان، أسماء أَنَكْسِيمَنْدرُوس وأنَكْسمينِس اللذين هما أيضا من ملطية، وهيرَقْليطس الذى هو من إيفيزوس، وأنكساغوراس من كلازومين غربىّ أزمير قليلا فى خليج هيرموز . وأذكر اسم لوكيبُس وديموقريطس اللذين ربما كانا من ملطية أيضا أو من أبدير مستعمرة طيوس، واسم ميليسوس

الذى هو من سموس كفيثاغورث . وفوق ذلك أضيف الى هذه الأسماء أسماء بعض الحكماء الذين هم أقل استنارة من الفلاسفة ولكنهم ليسوا أقل منهم احتراما . فنهم بطّاقُس من ميتيلين فى جزيرة لِسْبُوس وهو رفيق سلاح للشاعر ألقايوس فى محاربة الطغيان ، وقد نادى به مواطنوه ديكتاتورا عليهم فلبث فيهم عشرة أعوام يعمل صالحا ثم نزل عن الدكتاتورية . ومنهم "بياس" من "پريينة" الذى لو اتبع الاتحاد اليونانى ما قدّمه له من النصح لنجا كما ذكر هيرودوت . ومنهم إيزوبس الذى أقام طويلا فى سموس ثم فى سرديس عند كريزوس ، ذلك المولى الفريجى الذى لا ينبغى للفلسفة أن تنسى ذكره فى عداد ذويها ، والذى لم يستنكف سقراط من أن ينظم حكاياته شعراً[1] .

وأذكر كذلك أسپاسيا من ملطية التى حدث عنها أفلاطون فى كتابه المينكسين ، والتى كانت تحدّث الى سقراط ، والتى كانت تعطى لپيركليس دروسا فى البلاغة كانت تؤلف منها أحيانا الخطب السياسية ، والتى خصص لها رفائيل محلا فى مدرسته الآتينية .

من ذلك يرى أن تيديمان الأريب كان محقا حين كنى آسيا الصغرى بـ"أم الفلسفة ووطن الحكمة"[2]. هذه الأحداث القليلة التى جئت على ذكرها والتى يمكن أن يضاف اليها كثير من أمثالها كافية فى إثبات هذه الحقيقة . منذ الآن متى عرض حديث منشأ الفلسفة فى عالمنا الغربى — بالمقابلة للعالم الأسيوى — عرفنا لمن هو ذلك المجد ، وإلى من يجب أن يسند عدلا .

يكفى قليل من النظر للعلم بأن من الممتنع أن تنمو الفلسفة بذاتها وحدها . من البديهى أن جميع عناصر العقل يجب أن تبلغ نماءها قبل التأمل . لأن التأمل المرتب على نمط معين لا يظهر إلا متأخرا وبعد سائر الملكات الأخرى .

(١) فيدون لأفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٩١ و ١٩٣ .

(٢) تيديمان (روح الفلسفة النظرية) سنة ١٧٨١ ج ١ ص ١٣٩ النسخة الالمانية .

وليس بى حاجة إلى التبسط فى بيان هذه الحقيقة المشاهدة فى الأمم وفى الأفراد على السواء . وأقتصر على أن أقرر أن مجرى الأمور فى آسيا الصغرى لم يكن مختلفا عنه فى غيرها . فان الفلسفة على هذه الأرض المخصبة لم تكن نبتا منفردا ولا ثمرة غير منتظرة . وقليل من الكلمات يكفى فى التذكير بأنها كانت هى المنطقة المهيأة لهذا الإنتاج الشريف . وما علىّ إلا أن أسرد أجمل الأسماء وأحقها باعتراف الناس .

فى رأس هذه الطائفة اسم هوميروس الذى ولد وعاش يقينا على شطوط آسيا الصغرى وفى جزرها قبل الميلاد بنحو ألف عام . وماذا عسى أن أقول فى قصائده وكيف أوفّى عبقريته مدحا وثناء . كل ما أقرر أن هوميروس لا يقصر أمره على أنه أكبر الشعراء بل هو أعمقهم فلسفة . وإن بلدا ينتج باكرا أمثال تلك البدائع لحقيق بأن ينتج بعد ذلك عجائب العلم والتاريخ .

بعد هوميروس أقص نبأ قلّينوس الإيفيزوسى الذى هو حربى مثل طورطايس والذى شهد وقت إغارة القمّيريّين وشدا بها فى شعره . ثم ألكمان السردىّ الذى حقّ له أن يعلم لقدمونيا وطن لوكورغس ويبهرها على ما بها من جفاء . وأرخيلوخس البار وصى وألقايوس اللسبوسى ذى الربابة الذهبية كما قال هوراس . وسافو الميتيلينية أوالإيريزية التى لا يكاد يستحق أحد الثناء أكثر منها إلا هوميروس[1] . ثم ميمنرمس الأزميرى شاعر انتصارات يونيا على الليديين . ثم فوكليديس الملطى الذى حمل الشعر قواعد الأخلاق . ثم أناكريون الطوسىّ . وقريب من الشعراء تربندرس اللسبوسى مبدع الموسيقى وواضع طرائقها الثلاث الأصلية : الليدية والفريجية والدورية . ويمكن أن نضيف الى هؤلاء أريون الشاعر الذى هو من لسبوس مثل تربندرس .

---

(١) ر . كتاب فيلمين على عبقرية بندار ص ١٠١ وما يليها . ر . أيضا تاريخ الآداب الإغريقية الذى ألفه أوتفريد موللر . ترجمة إيلبراند ج ١ ص ٢١٨ وما يليها .

ذلك فى الشعر . وكم الى جانب الشعر من الكنوز التى لا تقل عنه فى نفاستها وان قلّت عنه فى البهاء : علم الفلك والجغرافيا أبدعهما أنكسيمندروس وسكولاكس من كاروندا على خليج يسوس . والرياضيات التى أبدعها فيثاغورث وتلاميذه أسلاف أرستارخس السموسى معلم أرخميدس وهيبارخس الرودسى . والتاريخ أبدعه إكسنطس السردى وهيكاتيوس الملطى وهيلانيكوس الميتيلينى ، وعلى الأخص هيرودوت الهاليكارناسى الذى لقب منذ زمان طويل أبا التاريخ . وبودّى لو أعطيه لقبا آخر لو وفقت الى لقب أجمل من هذا وأدخل منه فى الحق . والطب انتقل من جزيرة سموس الى كورينا وقروطون ورودس وكنيدس قبل أن يقر قراره فى قوص بفضل بقراط الذى لا يقل عظما فى فنه عن هوميروس فى شعره . وفن عمارة المدن أبدعه هپوداموس الملطى الذى كان مع ذلك كاتبا سياسيا حلل مؤلفاته أرسطو فى كتابه " السياسة " (ك ٢ ب ٥) . وفن الحفر والصب أبدعهما تيودور السموسى ابن روكوس . وفن التعدين أبدعه الليديون ... ... الخ .

أقف هنا لكيلا نجاوز بهذا التعديد الجاف أبعد مما ينبغى . ولكنه يجب التنبيه الى أن هذا الخصب البالغ حدّ الإعجاز لم ينته بانقضاء تلك الأزمان التى ذكرناها . فان تيوفراسط هو من ايريزا ، وأبيقور ربّى فى سموس وكولوفون ، وزنون فخر الرواق ولد فى كتيون من قبرص ، وايفورس من كومة ، وتيوپومپس من شيوز ، وبرهاسيوس وأپيلس من إيفيزوس وكولوفون ، وإسترابون من أماسية على الجسر (البحر الأسود) مستعمرة إحدى المدن اليونانية من الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ... الخ الخ .

تلقاء هذا المجد السامى الذى لم يمحه ما ظهر بعده لا يسعنى إلّا أن أقف مأخوذا أتساءل : هل عرف الناس أن يوفوا هذه العبقرية وهذا الكمال وذلك الإبداع حقوقها من الإعظام ؟ لا أظن ذلك . وتلك فى رأينا داعية الى تعديل تاريخ هذه

المستعمرات الإغريقية من آسيا الصغرى فى بعض أجزائه على الأقل . تلك المستعمرات التى ندين لها بكل شيء . ولكنى إذا قربت هـذا العمل وحاولت هنا عجالة فذلك لا لأرفع ظلما مرّت عليه القرون لضيق دائرة موضوعى، بل ليحسن فهم الناس لتلك الحركة الخارقة للعادة والتى هى فذة فى تطور العقل الانسانى ، ولأبين حق واضعى الفلسفة وآباء العلم .

لذلك أعرض ، دون مجاوزة الحدود المشروعة، ماذا كانت هذه المستعمرات التى نزحت من إغريقا على شواطئ آسيا الغربية قبل المسيح بأحد عشر أو اثنى عشر قرنا ، وما ذا كانت الحوادث السياسية الرئيسة التى اعتورت تلك الأصقاع مدة قرنين آثنين من عهد إكسينوفان الى ميليسوس، ومن طاليس الى حرب پيلو پونيز . وسنرى أن فلاسفتنا أخذوا بقسط وافر من هـذه الحوادث بل صرّفوها فى بعض الأحيان مع أنهم فى الغالب كانوا لحزها صالين .

و إنى راجع فى كل ماأقدم من القول الى هيرودوت وطوكوديدس و إكسينوفون وما حفر على رخام پاروص أو رخام آروندبل[1] .

كانت المستعمرات الإغريقية على شواطئ آسيا الصغرى مقسمة الى ثلاثة أجناس متميزة تؤلف اتحادات منفصلة : الأيوليون فى الشمال، واليونان فى الوسط، والدوريون فى الجنوب . يقطن هؤلاء وهؤلاء أوطانا متقاربة المساحة . فأما الأيوليون الذين هم أوّل من هاجر من الوطن الأصلى المشترك فانهـم حطوا رحالهم واستوطنوا آسيا بعـد فتح طروادة بقرن تقريبا إذ طردوا من پيلو پونيز عنـد إغارة الهيرقليديين . وأما اليونان فقد جاءوا بعدهم بأربعين سنة تقريبا . وأما الدوريون فكانوا آخر المهاجرين .

---

(١) من بين المؤرخين الحديثين أستند على الخصوص فى تاريخ إغريقا الى ج جروت الذى هو أتم وأحسن ما أعرف .

كان الأيوليون الذين هم أقل الشعوب الثلاثة شهرة وأضعفها امتيازا يقطنون اثنتى عشرة مدينة[1] وهى كومة فريكيون، ولاريسا فريكيون، ونيونتيكوس، وطمنوس، وكيلا، ونوسيون، وإيغيروسا، وبيطانى، وأيغاى، وموريناً، وغروناى، وأزمير. ولكن هذه المدينة الأخيرة قد نزعت من أيديهم وأضيفت الى الاتحاد اليونانى بفضل الذين نفوا من كولوفون والتجئوا الى أزمير واستولوا عليها فى غفلة من أهلها . وقد ضاع من أيدى الأيوليين أيضا بعض المدن الأخرى التى أسسوها على جبال إيدا . وكان لهم خارج القارة خمس مدائن بجزيرة لسبوس ، وواحدة بجزيرة طنـدوس ، وأخرى فى مجموع الجزر الصغيرة التى كان يطلق عليها اسم مائة الجزيرة منذ زمان هيرودوت. ولم يكن للمدائن الأيوليـة من الاسم إلا الخمول . وكانت أرض أيولِس أحسن من أرض يونيا ولكن جوّها كان أقسى من جوّ الأخرى خصوصا فى سرعة التقلب .

وأما اليونان فكان لهم اثنتا عشرة مدينـة كلها على التقريب مشهورة . وهى : ملطيـة وميوس وپرينـة فى قاريا ، وإيفيزوس وكولوفون وليبيدوس وطيوس وكلازومين وفوكاية فى ليـديا وإيروطراى على اللسان الذى يكوّنه جبـل ميماس . وكان لهم جزيرتان : سموس فى الجنوب، وشيوز فى الشمال . ومن الغريب أن اليونان كان لهم أربع لهجات متباينة جدّ التباين : لهجة سموس وكانت لا تشابه واحدة من الثلاث الأخرى ، وملطية وميوس وپرينة كان لهـا ثلاثتها لهجة واحدة . وللمدن الست الأخرى لهجتها، وكان أهل شيوز وإيروطراى يتكلمون بلسان واحد .

أما الدوريون الذين جاءوا بعد الآخرين فكان قرارهم فى الجزء الجنوبى، وليس لهم إلا ست مدن نزل عددهم الى خمس بعد قليل ، وهى : لندوس، وياليسوس، وكاميروس فى جزيرة رودس، وقوص، وكنيدس، وهاليكارناس . على أن هذه المدينة

---

(١) أتبع فى ذكر هذه المدن الترتيب الذى وضعه هيرودوت . ولكن أخذا من الجنوب الى الشمال يجب أن ترتب هكذا : طمنوس، نيونيتكوس، لاريسا، كومة، أيغاى، موريِنا، غروناى، پيطانى، كِپلا، ولا يعرف مكان الأخيرتين .

الأخيرة قد عزلت عن الاتحاد الدورى عقابا لها على أن أحد أهلها كان اتّهم بانتهاك بعض الحرمات المقدّسة .

كل واحد من هــذه الاتحادات الصغيرة كان له معبد جامع مشترك يجتمعون فيه : فللدوريين معبد طريوبيون ، ولليونان معبد نبتون هاليكونى على رأس موكالى فى مواجهة سموس تقريبا ، وفى هذا المعبد كان يجتمع مجلس الاتحاد اليونانى المسمى بانيونيون والذى كان يرأسه دائما شاب من شبان پرييتة . ولا يعرف بالضبط معبد الأيوليين . كانت هــذه المعابد لإقامة الأعياد الدينية عادة ، غير أنهــم فى الظروف الخطيرة كانوا يتداولون فيها فى أمر أخطار الحلف وفيما يمس منافعهم الكبرى .

لم تك هــذه المستعمرات لتشغل جغرافيًّا إلا مساحة ضيقة . فلو أن شهرة المدائن والممــالك كانت تقاس بمقدار امتــدادها لظلت هــذه المستعمرات مجهولة فى التاريخ ، فإن مساحة المستعمرات الأيوليــة واليونانيــة والدورية لا يكاد يتجاوز مجموعها ٧٠ فرسخا فى الطول على ١٥ أو ٢٠ فرسخا فى العرض ، أى أقل من ثلاث درجات فى خطوط الطول وأقل من درجة فى خطوط العرض . ومساحة اسبوس خمسة عشر طولا على خمســة عرضا . وسموس لا يبلغ محيطها ٣٠ فرسخا . وشيوز أكبر منها قليلا .

ومن الطبيعى أن أهتم بأمر اليونان أكثر من الآخرين ، فإنهم كانوا أكثر نشاطا وحذقا فى الملاحة والتجارة والسياسة والفنون والعلوم والآداب . ومن الأمم كثيرة العدد من كان أثرهم أقل ألف مرة من أثر اليونان .

لمــا ترك اليونان أَشَاية الواقعــة شمال پيلوپونيز على خليج كِرِسّا كان لهم فيهــا اثنتا عشرة مقاطعة أو مدينــة . واستصحابا لتذكار وطنهــم الأوّل لم يشاءوا ان يؤسسوا فى آسيا من المستعمرات عددا أكثر مما كان لهم فى إغريقا . ولمــا طردهم الدوريون الذين أغاروا على پيلوپونيز من الشمال اجتازوا برزخ كورنتة واحتمَوا الى أجل مّا على الأقل فى أطّيقا ، وهى الملجأ العادى لجميع المنفيين كما نبه إليه طوكوديدس

فى مقدّمة تاريخه . وعما قليل ضاقت أطِّيقا القليلة الخصب ذرعا بأهلها وآضطر نازحو أشاية الى البحث عن ملجأ آخر . وصادف وقتئذ أن قدروس مات ميتة الأبطال دفاعا عن وطنه، ولما ألغى نظام الملوكية لم يتيسر لأبنائه أن يقيموا فى بلد انقطع فيه رجاؤهم من ميراث أبيهم، فرأسوا المهاجرين فى هجرتهم . فأما نيلاوُس فولّى وجهه شطر ملطية ، وأما اندركلوس فاتجه الى إيفيزوس . ولو صدّقنا رخام پاروس لقلنا إن نيلاوُس هو الذى أسس المدائن الاثنى عشرة اليونانية وأسس رابطة اتحاد تحت ظل الدين هى الپانيونيون الذى لم يكن بعدُ من القوّة على ما كان يرجو مؤسسه .

يظهر أن المهاجرين الذين اقتفوا آثار ابنى قدروس كانوا خليطا ولم يكونوا من صميم اليونان كما يمكن أن يظن . فإن الذين أتوا من أشاية الى أطِّيقا اختلطوا فيها بأجناس مختلفة مختلطة جدّ الاختلاط ليس بينهم وبين اليونان جامعة مشتركة بل لا يشابه بعضهم بعضا ، انما كانوا أَبَانطة من أوبويا ، ومنجيئيين من أُرخومنوس ، وقدميين ودريوپيين وفوكيين ومولّوس وأرقديين وپلاسجة ودوريين من أبيدورس وطائفة من أجناس أخر. وكان كل هؤلاء الرحّل يعامل بعضهم بعضا على حدّ المساواة ، ومع ذلك كان اليونان الذين هم من نسل شيوخ آتينا يعتبرون أشرف هذا الخليط وإن كان ذلك لم يستتبع أية مزية عملية . وإن تلقيبهم بلقب "اليونان" كان فى ذلك الحين وفيما بعده أيضا قليل الرفعة ، فكان الآتينيون يخجلون منه ، وكان الملطيّون فى أوج قوّتهم يحبون أن ينفصلوا من بقية هذا الاتحاد الذى كان دائما قليل الاحترام . وأما اليونان فكانوا من جهتهم أيضا يفخرون بأصلهم ويقيمون مثابرين الأبتوريا الآتينية ، تلك الأعياد الخاصة بالعائلة وبرابطة الأخوّة الشعبية التى كانت موجودة فى آتينا ، ماعدا أهل كولوفون وإيفيزوس فإنهم حُرِموها على أثر قتلٍ حرامٍ ارتكبوه .

لم تكن المهاجرة هينة ولو أنه كان يرأسها أبناء ملك . فلم يحمل المهاجرون الى ملطية معهم نساءهم واتخذوا زوجات بالإكراه ، بل عمدوا الى القاريين فذبّحوا منهم

الآباء والبعول والأولاد ، واستحيَوا النساء واتخذوهنّ زوجات لهم ؛ ولكنهن انتقمن لأنفسهن فأقسمن الأيمان على ألّا يَطعمن مع غاصبيهن طعاما ولا يَدْعونهم أزواجا حتى لا يُذِقنهم حلاوة هذا الدعاء؛ واستنّت بناتهنّ هذه السنة مع أزواجهن عدّة أجيال .

والواقع أن البلد الذى احتلّه المهاجرون كان محتلا قبلهم زمانا طويلا . فقد كان فيه، غير أهليه، خليط من البلاسجة والتوكريين والموصيين والبيثونيين فى الشمال، ومن الفريجيين والليديين والمايونيين فى الوسط، ومن القاريين والليليج... الخ فى الجنوب . وكان هؤلاء قبائل منقسمين على أنفسهم أكثر مما هو الشأن فى الإغريق، ولو أنهم كانوا يقربون القرابين بالاشتراك؛ مثال ذلك قرابينهم الى "مولاسا" فى معبد "المشترى" القارئ . فى أوائل الأمر لم تكن الممالك التى كمملكة ليديا قد اتخذت نظمها بعد . ولو أن الليديين لما زُحزحوا بعد ذلك الى الوسط نشروا سيادتهم بادئ الأمر على تلك الجهات الى الشواطئ، وبعثوا منهم طوائف المستعمرين الى إغريقا الكبرى والى أمبريا وعلى شواطئ البحر الترهينىّ . وأما الموصيون الذين كانوا الى شمال ليديا وغربيها فكانوا أنزع هذه الأمم الى الحرب . والفريجيون الذين هم أكثر توغّلا فى الجهة الشمالية من هؤلاء كانوا يُثْرون من تربية القطعان، يبيعون من أصوافها وأجبانها ولحومها المملحة بأثمان غالية جدّا فى أسواق ملطية . وكان الليديون مشتغلين على الأخص بصناعة المعادن، لأن نصف أرضهم بركانية تخرج الذهب والفضة والحديد والنحاس ... الخ . وكانت أخلاق الفريجيين والليديين أخلاق تهيّب وحياء، ومن بلادهم يأتى أكثر العبيد .

ومع أن اليونان جاءوا الى آسيا بالبحر فلم تكن تظهر عليهم المهارة فى فنّ الملاحة . وعلى قول طوكوديدس لم يكن تفوّق البحرية اليونانية حقيقة إلا تحت حكم قيروش وابنه قمبيز ؛ ومع ذلك فقد كان شأنهم أن أقبلوا بجدّ على أن يتلقوا دروسا عن الكورنتيين الذين كانوا وقتئذ أعلم الناس بإنشاء العمارات البحرية وانتفعوا بتلك

الدروس. على أنهم قد ألجأتهم الحاجة منذ بداية أزمانهم الى التزام الشواطئ فى ملاحتهم. كانت هذه المدائن التى تستجلب كل شىء من داخلية البلاد لا تستطيع أن تحصل على الثراء إلا بتجارة كبرى فى الصادرات والواردات . فكانت كبنوك ومراكز معاوضات بين الأهالى والبلاد التى كان يأتى منها الأجانب . فلم يمض على هذه المدائن زمان حتى ظهرت ثروتها على صورة رائعة . ولما أزدحمت بالسكان وفاضت بالثراء استطاعت أن تنشئ أساطيل قوية ، وعمرت كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال إفريقية حيث كان لصور وسيدون من قبل منشآت فى إغريقا الكبرى وصقلّية وفى بلاد الغالة وفى أسبانيا أمام عمد هيرقليس وفيما وراءها ، وعلى الأخص فى القسم الشمالى لبحر أيغاى وفى هلّيسبنتُس، والبروبونتيد، بل فى البحر الأسود الذى كان يسمى وقتئذ "الجسر"، حتى لقد قيل إن ملطية وحدها كان لها خمس وسبعون أو ثمانون مستعمرة .

هذا النماء الأول للستعمرات الإغريقية بآسيا الصغرى، وعلى الخصوص المستعمرات اليونانية، غير معروف إلا قليلا مع أنه استمر على الأقل ثلاثة قرون أو أربعة؛ فإن التاريخ لم يبتدئ حقا إلا حين دخلت المدائن الهلّينية الحرب مع المملكة الليدية أى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، أعنى من عهد حكم المرمنادة.

روى هيرودوت على طوله تاريخ جوجيس الذى ارتقى عرش ليديا بقتله قندولس ملكها . وهذه الحكاية ليس عليها إلا مسحة الصدق وان كانت ليست مطابقة لرواية أفلاطون التى هى بالبداهة أسطورة . فإن غضب الملكة زوجة قندولس وغدر جوجيس عشيقها ليس فيه شىء من المستحيلات . وأما حكاية الخاتم فليست إلا أسطورة عامية وجدت بعد ذلك بكثير على صورة أخرى فى "ألف ليلة وليلة" . ولقد حدّث أرخيلوخس وهو معاصر لقندولس وجوجيس عن ذلك العسكرى الذى صار ملكا وعن إقدامه وظفره فى إحدى القطع الشعرية

التى كان لا يزال يقرؤها هيرودوت[(1)]. وقد انتهت بموت قندولس العائلة الليدية الأولى التى تدعى أنها سلالة هيرقليس، والتى دام ملكها خمسمائة وخمسة أعوام مدّة اثنين وعشرين جيلا من عهد نصف الإله الذى وصلها بنسبه كبرياؤها . وكان جوجيس هو أوّل الدولة الثانية دولة المرمنادة .

افتتح جوجيس فى أوّل القرن السابع قبل الميلاد عهدا جديدا، إذ أخذ يغير على المدائن الإغريقية ملطية وأزمير وكولوفون . وربما كان الحامل له على ذلك أنه أراد أن يبرر اغتصابه للملك ومطاوعة لبعض الضرورات السياسية، فى حين أن ليديا كانت وقتئذ بينها وبين الإغريق، خصوصا إغريق القارة، علاقات أقرب ما تكون الى السلام .

وقد كان جوجيس، كسائر الإغريق فى آسيا وفى غيرها، يعتقد وحى دلفوس ويخضع له . ولما كان محاطا بالمكايد من كل ناحية منذ تبوّئه العرش، وخائفا من سخط الليديين الذين كانوا شديدى التعلق بالملك الذى ذبحه ، أراد أن يدخل الاله فى قضيته، فاستشاره وقدّم اليه الهدايا الغالية . وقد أقرّ الإله هـذا الغاصب القاتل على عمله . ولكن بوثيا كاهنة دلفوس كانت قد أنبأت بأن عائلة هيرقليس سوف ينتقم لها من شخص الولد الخامس من ذرية جوجيس . وكان هذا الخليفة الخامس هو كريزوس السيئ البخت المشهور بمصائبه أكثر من شهرته بكنوزه التى تضرب بها الأمثال . ولكن لم يك جوجيس فى أوج ملكه ولا الليديون فى سخطهم ليعبئوا بإنذار الكاهنة ، وملك ذلك العسكرى الزانى القاتل ثمانية وثلاثين عاما آمنا مطمئنا ما عدا حروبه مع مدن الشاطئ . والظاهر أن ملطية وأزمير وكولوفون سلّمت له وخضعت لسلطانه .

وقد حكم أردوس خلف جوجيس أكثر منه أيضا أى مدّة تسعة وأربعين عاما . فاستولى على پريينة وهاجم ملطية بلا جدوى لأنها استطاعت ردّ هجماته . وخلفه ابنه سدواتيس، فلم يمكث على العرش إلا اثنى عشر عاما ومات، وكانت سنوه

(١) ر . هيرودوت ك ١ ب ١٢؛ وأفلاطون، الجمهورية ك ٢ ب ٦٩ ترجمة فكتور كوزان .

الست الأخيرة كلها مشغولة بمحاربة ملطية كما كان يفعل أبوه . ولكن هذه المدينة التى لم يكن يستطيع أن يأتيها من البحر نجحت فى الدفاع عن نفسها، على رغم أن عدوها كان يهلك حرثها كل سنة وكان دائما على قدم الاستعداد ليكرر هجماته المخربة . وفى كل مرة حاول الملطيون الحرب فى العراء كانت هزيمتهم أمرا مقضيا . وقد مزقهم العدو كل ممزق مرتين على أرضهم فى ليمنيون وفى سهول مياندروس حيث صادف منهم غفلة وسوء احتياط .

وقد واصل أليات بن سدواتيس محاربة مدينة ملطية خمس سنين، وكان يظن وقوعها فى يديه بالقحط وشيكا لولا أنه استشار وحى دلفوس، كما كان يفعل أجداده، فجنح لعقد الصلح معها . وساعد على ذلك مهارة طراسو بولس طاغية ملطية وقتئذ. إذ أنبأه جلية الأمر صديقه برياندروس بن كوبسيلوس طاغية كورنتا، فأخفى عن سفير ليديا حقيقة الحال السيئة التى وقعت فيها المدينة من جرّاء الحصار، وأوهمه أن فى باطن أسوارها من الأرزاق والذخائر ما لم يجتمع لها مثله من قبل . وبذلك انخدع أليات بما خبّره به سفيره المخدوع وأمضى عهد ملطية فى حين أنه لم يكن بينه وبين الاستيلاء عليها إلا القليل . وقد استمر هذا السلام الذى يرجع الفضل فيه الى الوحى ودهاء طراسو بولس زمانا طويلا . ومات أليات بعد أن حكم سبعة وخمسين عاما حكما مملوءا بالاضطراب . وفى هذا الزمن لم يقطع صلاته الحسنة بكاهنة دلفوس . وقد اعتراه مرض طالت مدّته ، فلما برئ باستشارة الوحى قدّم الى إله دلفوس كأسا جميلة من الفضة قاعدتها من الحديد فنية الصنع صاغها جلوكوس الشيوزى مخترع ذلك النمط الحديث الذى بالغ الناس فى الإعجاب به .

لم تكن حرب ملطية هى الوحيدة التى أجج نارها أليات ، بل استولى على أزمير مستعمرة كولوفون ، وهاجم مدينة كلازومين الواقعة على مسافة قليلة الى الغرب فى الخليج بعينه ، ولكن كلازومين ردّته عنها وحمّلته خسائر عظيمة . غير أن أليات ألهم التوفيق وخدم آسيا كلها خدمة حقيقية بأن حوّل قواه الى محاربة القمّيريين

الذين استولوا فى عهد جدّه أردوس على تلك الولايات الآمنة المخصبة . فإنهم لما طردهم السيتيون الرحّل من مواطنهم اضطروا الى النزوح جهة الجنوب ونفذوا من قوقازيا وولّوا وجوههم جهة الغرب وجازوا هالوس وتقدّموا الى قلب آسيا الصغرى ، وكانوا قد دخلوا سرديس عاصمة ليديا على حين غفلة من أهلها وأحرقوها إلا القلعة القائمة على صخرة شاهقة يجرى من تحتها نهر بكتول فهى وحدها التى استعصت عليهم ، ثم ردّوا عن المدينة بعد ذلك ولكنهم ظلوا يهدّدون الأمن : يخيفون السابلة وينهبون الأماكن المجاورة ، حتى طردهم أليات من آسيا الصغرى ودحرهم الى الشرق وقذف بهم بين الأجناس السامية التى كانت حدود أوطانها تنتهى الى هالوس . ومن يومئذ يظهر أن علاقته بهم صارت من السهولة والعطف بمكان .

لكن هذه العلاقات التى كانت بين ليديا وبين السيتيين هى التى جرت على آسيا الصغرى جيوش الميديين ثم جيوش الفرس الذين هم أشدّ بأسا . فإن فصيلة من السيتيين لما طردوا من إقليمهم القاسى المناخ هبطوا الى أرض ميديا فى الشمال الغربى من نهر الفرات ، فأحسن كُوَاكْزَارِيس ملك الميديين وفادتهم ؛ ولم تقتصر حفاوته بهم على أن مكّن لهم فى وطنه ، بل دفع اليهم صبيانا من الميديين ليعلموهم لغتهم وليتعلموا فى مدرستهم فن الرماية . ولكن بعض هؤلاء المتوحشين المقربين من ملك ميديا غاظهم منه شدّة فى قول وجّهه اليهم ؛ فشفوا غليل صدورهم من هذه الإهانة بأن قتلوا الصبيان الذين هم فى رعايتهم واحتموا بمعية أليات ليتقوا شرّ العقاب الذى كانوا يتوقعون . فطلب كواكزاريس تسليم الجناة وأبى ملك ليديا تسليمهم . ومن ذلك قامت بين الليديين والميديين حرب لم تخبُ نارها خمس سنين أو أكثر . وهذا السبب كان تافها جدا ، بل يظهر أن الخلاف قام على سبب آخر ، لأن المملكتين متجاورتان ؛ والاحتكاك بين أمم ما زالت متوحشة مثار خلاف لا يُتّقَى .

هنا أستوقف النظر لحادثة فى غاية الخطر من حيث تاريخ تلك الأمم ومن حيث تاريخ علم الفلك ومن حيث تاريخ الفلسفة جميعا : كانت تلك الحرب

فى ستتها السادسة والتقى الجمعان وجنودهم على أشدّ ما يكون التحام بين المحاربين، وإذا بالشمس قد كسفت فغشيهم ليل مظلم اضطرهم الى وقف القتال . ليس فى هذه الحادثة ما يبعد احتمال وقوعها ، وليس من الغريب أن تأخذ ظاهرة من هذا النوع بالعقول مأخذا عميقا . غير أن هيرودوت الذى حفظ لنا ذكرها زاد على حكايتها أن طاليس الملطى كان قد تنبأ بهذا الكسوف الشمسى ونبأ اليونان به وبالسنة التى يقع فيها[1] .

لا شبهة لدىّ فى رواية المؤرخ تلك التى قد أُفسحت من البحث محلا لنظريات كثيرة على غاية الخطورة . فقد بحث العلماء أخيرا فى حساب هذا الكسوف بالآلات الفلكية التى بين أيدينا الآن والتى تكاد تكون معصومة من الخطأ رجاء تعيين تاريخ صحيح ثابت بين تلك الروايات المختلطة المشكوك فيها، ولكن لم يمكن الإجماع على أمر علمى محض ولا الاهتداء الى الغرض المطلوب . فإن الأب بيتو قد حسب أن هذا الكسوف ينبغى أن يكون قد وقع فى السنة الرابعة من الأولمبياد الخامسة والأربعين، يعنى السنة ٥٩٢ قبل الميلاد . وأما سان مارتان الذى هو آخر من عُنِى بهذه المسئلة فإنه وجد أن كسوفا كليا يرى فى هالوس حيث ملتقى الجيشين لا يمكن أن يكون إلا فى ٣٠ سبتمبر سنة ٦١٠ ق م (ر . مذكرات مجمع الرسوم الخطية والفنون الجميلة — السلسلة الجديدة — الجزء ١٢) وإذًا يكون الفرق بين التقديرين ثمانية عشر عاما . ويمكننى أن أسرد آراء آخرين من المؤلفين الحديثين ليسوا أقل اختلافا من السابقين . أما پلاين عند القدماء فإنه عيّن هذا الكسوف بغاية الضبط فى السنة الرابعة من الأولمبياد الثامنة والأربعين وفى السنة ١٧٠ من تأسيس روما[2] . وهذا التوافق المشكوك فى ضبطه بين التاريخين يجعل ذلك الكسوف فى سنة ٥٨٠ تقريبا . ولست أريد الدخول فى هذه التفاصيل لأنى لا أتطلع الى إمكان الفصل فيها وإستجلاء

---

(١) هيرودوت ك ١ ب ٧٤

(٢) پلاين . التاريخ الطبيعى ك ٢ ب ٩ ص ١٠٦ طبعة وترجمة ليترى .

غوامضها، بل أقف عنـد حدّ الرجاء فى أن علم الفلك يستطيع أن يضع رأيا قاطعا فى هذه المسئلة التاريخية .

أما المسئلة الأخرى التى أثارت هذه الحادثة ثائرتها فهى : أيكون من الممكن أن طاليس حسب حقيقةً هـذا الكسوف وتنبأ به كما سمع بذلك هيرودوت؟ شك المؤرخون الحديثون فى ذلك . وفى هذه الأيام أنكر ج . جروت(١) أن العلم كان وقتئذ من التقدّم بحيث يسمح بنبوءات مثل هذه وحسابات علمية الى هذا الحدّ . لا أبغى أن أعارض هذا المؤرخ وهو حجة ، ولكنى أنبه إلى أنه يؤخذ من رواية هيرودوت عينها، صادقة كانت أو كاذبة، أنه فى زمانه أى بعد طاليس بقرن تقريبا كان الناس يعتقدون إمكان حساب الكسوف . هـذا وحده يكفى فى إثبات أن العـلم كان متقدّما الى قدر الكفاية فإن مثل هـذا الفرض يشهد بتقدّم هو غاية فى الجدّ لأنه لأجل أن يقبل العامىّ إمكان حساب الكسوف ويصدّقه ويتحدّث به لا بد من أن يكون العلماء قد وفّوا الموضوع بحثا . ومما لاجدال فيه أيضا أن شهرة طاليس بين تلك الشعوب كانت من الرفعة بحيث إنهم نسبوا اليه من غير تردّد هذه المعجزة العلمية . ولقـد قرر بلاين أن هيبّارخس الرودسى أمكنه أن يضع فهرسا لكسوف الشمس وخسوف القمر مدّة ستمائة عام . وفى زمن هذا الكاتب الرومانى لم تكن الحسابات الفلكية لتخطئ مرة واحدة ، حتى قيـل : "إن هيبّارخس كان يحضر مداولات الطبيعة" . وكان هيبّارخس بعـد طاليس بأربعمائة عام تقريبا . وربما كانت المسافة بين علم أحدهما وعلم الآخر متناسـبة مع المسافة الزمنية بينهما ؛ لأنه ليس فى يوم واحد يمكن الوصول الى نتائج علمية مضبوطة الى هذا المقدار . فلست أرى من المستحيل فى شىء أن طاليس فى عهد أليات قد فتح باب علم بلغ به هيبّارخس هذه الغاية البعيدة سنة ١٥٠ قبل الميلاد .

(١) ر . م . ج . جروت . تاريخ اليونان ج ٣ ص ٣١١

أعود الى ما كنا فيه :

بعـد قليل عقد الصلح بين الليديين والميديين بوساطة سوتيزيس ملك كيليكيا ولابينيوس ملك بابل . وزف أليات ابنته زوجة الى أصطياغ بن كوا كزاريس ، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة . واتباعا لعرف هـذه الشعوب قد فصد سفراء الصلح من الجانبين أذرعهم ومص كل فريق من دم الفريق الآخر . ولكن هـذه المحالفة التى عقدت على أكمل ما يمكن من الإخلاص كانت طائر نحس على ليديا ، إذ جرتها الى حرب جديدة انكسرت فيها وفقدت وجودها .

ذلك أنه لمـا مات الملك أليات خلفه ابنه كريزوس الذى قدر عليه أن يكون آخر ملك لجنسـه وحقت بذلك نبوءة هاتف دلفوس . وكان كريزوس هـذا الذى صار اسمه مرادفا للغنى أميرا من خير الأمراء الممتازين . ومع أنه كان شـديد الإعجاب بكنوزه الوراثيـة التى جمعها أجداده الهيرقليون والميرمناديون لم يكن رجلا مترفا ولا ضعيفا كما يبدر للذهن عادة ، فما كاد يلى الملك حتى فكر فى أن يتم عمل أسلافه ويخضع نهائيا جميع المدائن الإغريقية على الشاطئ ، فتجنى عليها بعلل مختلفـة حقا أو باطلا بادئا فتحه بإيفيزوس ، وعما قريب أخضـع الى سلطانه كل المستعمرات إذ قهـر يونيا وأيولس جميعا . ولكن كريزوس أحس أنه لم يصنع شيئا ما دامت الجزر خارجة عن قبضة يده ، فجهز أسطولا ليجاوز عليه بجيشه البحر ، ثم عدل عن هـذه الغزوة التى هى قليلة الجدوى عنـد أمة كالليديين بنصيحة بياس البرينى ، وفى رواية أخرى بنصيحة بطاقس الميتيلينى ؛ اذ جاء الحكيم الى سرديس فسأله الملك عن ماجريات الحال فى الجزائر ، فأجاب بياس : "إن أهل الجزائر يتأهبون لمهاجمة سرديس فى عشرة آلاف فارس" . فأجاب كريزوس : لتشأ السماء أن يركبوا هذا الشطط . فقال الحكيم : "أيها الملك لك الحق أن ترغب فى أن أهل الجزر يرتكبون خطأ كهذا ، ولكن ما ظنك بمـا سيقولون من جانبهم عند ما تأتيهم الأنباء أنك تفكر فى غزوهم من طريق البحر ؟" . ففهم كريزوس الدرس على مرارته ، وقنع بأن عقد عهد محالفة ومودة بينه وبين يونان الجزر .

لما ارتاح كريزوس واطمأن من هذه الجهة بحث فى بسط سلطانه الى جهة الشرق وفى آسيا الصغرى ، وعما قليل وضع يده على جميع الشعوب النازلة إلى هنا من نهر هالوس دون ماوراءه، وهم الفريجيون والميزيون والماريانديفيون والخالوبس والبفلاغونيون وتراقيو ثينيا و بيثينيا والقاريون والبمفيليون حتى الدوريون واليونان والأيوليون . ولم يفلت من قبضته إلا كيليكيا وليكيا فى الجنوب . وكان نهر هالوس هو أحد الثلاثة أوالأربعة الأنهر التى تحدّد هذه البقاع المسماة آسيا الصغرى وترويها ، فهو ينبع من جبال إرمينيسة ويسير من الشرق الى الجنوب الغربى وينفرج على نحو زاوية قائمة ليتجه من الجنوب الى الشمال فيصب فى البحر الأسود شرقى سينوب وطن ديوچين . وبعد نهر هالوس ثلاثة أنهر أخر عظيمة النفع لتلك الجهات تتقاسم بينها شبه الجزيرة، جارية كلها الى الغرب وصابّة فى البحر الأبيض المتوسط يوازى بعضها بعضا تقريبا ، وهى الميااندرس الذى يصب فى خليج ملطية ، والقاوصترس فى خليج إيفيزوس ، والهرموز فى خليج أزمير الى الشمال الغربى قليلا . وكان لكريزوس أن يفخر بأنه تفرّد بالملك فى آسيا الصغرى ، وأنه وصل بالمملكة الليدية الى حدّ من رفاهة العيش وقوة الباس لم يكن لها مثله من قبل . ولكن ذلك هو فى الواقع كان السبب فى خرابها .

فى هذه الأثناء حصلت تغيرات وانقلابات عظيمة فى الشرق وفى البلاد المجاورة للملكة الليدية المترامية الأطراف . فان قيروش خرّب مملكة أصطياغ صهر كريزوس ، وقهر ملوك آشور ، وعاهد ملك هرقانيا ، وفكر فى مهاجمة ليديا التى كان يظهر عليها أنها كانت متحدة مع أعدائه . وبعد أن بسط سلطانه على جميع البلاد شرقى نهر هالوس لم يكن هنالك محل للتأخر عن عبور ذلك النهر ؛ كذلك لم يكن لقوّة الفرس الهائلة مدفع عن أن تمتدّ الى البحر وأن تفتح شبه الجزيرة وكل ما تحويه من الشعوب سواء فى ذلك البرابرة والإغريق . ولقد أدرك كريزوس للحين خطر الموقف الذى يتهدّده ، فلما علم بهزيمة أصطياغ استكمل عدّته للحرب بقدر ما يستطيع .

فما كاد يتعزّى عن موت ابنه الذى قتل فى حادثة فى الصيد، حتى عزم على أن يقف تقدّم الفرس بأن يحالف إغريق الشواطئ وجميع إغريق بيلوبونيز والغرب. ولهذه الغاية أرسل بادئ الأمر يستشير الوحى ليحصل على تأييد الآلهة والاعتقاد العام . وذهبت وفوده فعلا الى دلفوس ودودون، والى أباس فى فوكيدا، والى غار طرو فونيوس ومعبد انفياراوس ومعبد البرنشيد على مقربة من ملطية، بل الى معبد المشترى آمون نفسه . وكان كريزوس يريد أن يضع لهم بادئ الأمر أسئلة يختبر بها صدقهم ثم يستفتيهم بعد ذلك بصورة منظمة فى المسئلة الكبرى مسئلة الحرب مع الفرس التى كانت تقلق باله . فوجد أن هاتِفَىْ دلفوس وانفياراوس أكثر إخلاصا ، فحمل إليهما الهدايا الباهرة التى يمكن قراءة وصفها التفصيلى فى هيرودوت الذى رأى بعض هذه النفائس الغالية فى المحاريب . وعند ما قدّم ملك ليديا تلك الهدايا الثمينة استنشار الهاتفين فى أمر الحرب فكان جوابهما مبهما كله تورية، إذ قالا : " اذا اشتبك كريزوس فى الحرب مع الفرس خربت مملكة عظمى " . أيهما ؟ أدولة الفرس أم دولة ليديا ؟ لم يقل الإلٰهيان بالتعيين ولكنهما نصحا لكريزوس أن خير وسيلة أن يتخذ حلفاء ونصراء من أقوى الشعوب الإغريقية . فعاود كريزوس هاتف دلفوس فى هذه النقطة فعين له الهاتف اللقدمونيين من الجنس الدورى والآتينيين من الجنس اليونانى ، يعنى الهلّينيين والبلاسجة ؛ فأوفد سفراءه الى الأجزاء المختلفة لبلاد الإغريق يخطب ودّهم فلم يجب دعاءه إلا اللقدمونيون الذين هم مائ‌ون إليه لخدم أدّاها لهم قبل ذلك . أما بقية الإغريق، وعلى الخصوص الآتينيين، فلم يدركوا حقيقة الخطر المقبل ولم يجيبوا داعى ملك ليديا . واستنجد كريزوس، على ما يقول سيروبيديا، حتى بأهل مصر. ولكن من المشكوك فيه أن مصر وجهت لمساعدته مائة وعشرين ألف مقاتل كما يروى الرجل الطيب إكسينوفون .

ولقد أوّل كريزوس جواب الهاتف لمصلحته خطأ وأغار على كابادوس من أرض ميديا التى افتتحها قيروش قبل ذلك بقليل، وكان من الضرورى له أن يعبر

نهر الهالوس وهو فى هذا المحل واسع المجرى، ووقع بذلك فى صعوبة كبرى لم يتغلب عليها إلا بحذق طاليس الذى كان قد تبع الجيش الليدى فى عدد غير قليل من مواطنيه؛ فانه اصطنع جسرا عريضا فصل النهر الى عدّة فروع سهل اجتيازها . تلك هى الرواية التى وصلت الى هيرودوت فى حداثة عهدها . ولكن هيرودوت يظهر عليه أنه يعتقد أن الجيش عبر النهر بالبساطة على قناطر لم تنشأ فى رواية العامة إلا بعد هذه الواقعة بزمان . ولما عبر كريزوس النهر استولى على المنطقة التى كانت تسمى بطيريا وخرّبها .

سارع قيروش الى لقاء الغائرين بجميع جيوشه ومن انضم إليهم من أهل البلاد، ولكن قبل أن ينازل الليديين أرسل الى اليونان يستميلهم الى التخلى عن جيش كريزوس ، ولكن اليونان بقوا على عهدهم مع كريزوس لاعتقادهم أن خيانة مخجلة لاتأتى إلا بالعار المجرّد من كل منفعة، لأن الإغريق لا يستطيعون أن يقفوا وحدهم فى وجه الفرس اذا سقطت ليديا فى يده كما كانوا يتوقعون . وإن هزيمة عامة لكل أجناس الإغريق خير من العار ما داموا مصرّين على ألّا يسلموا بلادهم الى الفرس لأوّل وهلة . ولما ٱلتقى الجمعان فى سهول بطيريا شرقى هالوس جرت بينهم حرب طاحنة استعرت نارها طول اليوم الى المساء لم يظهر فيها نصر نهائى لأحد الفريقين على الآخر.

ولكن أضرارها كانت على كريزوس أكبر، لأن جيشه مع بسالة قوّاده كان قليل العدد جدًا بالنسبة الى الجيش الآخر . ولما رأى قيروش ما مس جيشه من القرح لم يشأ أن يبدأ بالقتال فى اليوم التالى، فانتهز كريزوس تلك الفرصة للتقهقر الى سرديس وعزم على أن يبلغ من الدفاع عنها غايته .

ثم استنجد حلفاءه وأما زيس ملك مصر ولابنطوس ملك بابل واستنفر لقدمونيا لنصرته، واعتمد على أنه متى اجتمعت له هذه القوى كلها يجدّد الكرة على جيوش قيروش فى الربيع القادم، وجعل ميعاد حلفائه ونصرائه على تمام خمسة أشهر من يوم الدعوة فى عاصمة ملكه . ولقد أصاب كريزوس الحكمة فى هذه التدابير ، ولكنه ارتكب خطأ جمًا فى صرف جنوده ظنا منه أن قيروش لا يستطيع أن يطلع

على سرديس بجنده الذى نال منه القرح ما نال . وقد خاب ظنه لأن قيروش احتفظ بجنوده وسار بهم بعد أن أخذوا قسطا من الراحة الى ليديا ، فلم يلبث أن نزل السهل الفسيح القائمة فيه مدينة سرديس .

أما كريزوس وإن كان قد أخذ على غرة فانه لم تتحلّ عزيمته بل اعتمد على ما هو مشهور عن أهل ليـديا من الإقدام خصوصا كتائب فرسانهم ، فإنهـم كانوا مقطوعى النظير لمهارتهم فى سـوس الخيل وفى حسن اسـتعمالهم الرماح الطوال التى كانوا يعتقلونهـا . ولكن قيروش من جهتـه قد فكر فى تقليـل قيمة تفوّق فرسان العدوّ ، فسيّر فى مقدّمة جيشه جماله كلها التى لم تعتد خيل ليديا رؤيتهـا ولا رائحتها فجفلت وصعُبت رياضتها ، فترجّل الليديون وأبلوا على الرغم من ذلك بلاء حسنا ، لكنهم بعد التحام هائل انهزموا فلم يجدوا لهم موئلا إلا أسوار مدينتهم .

لمّـا رأى كريزوس أنه محصور بجنود منصورة عَجِل إلى حلفائه وعلى الأخص اللقدمونيين ، لكن هؤلاء بعـد أن تأهبوا لنصرته حسب نص المعاهدة جاءهم نبأ سـقوط سرديس عنوة فى يد قيروش بعـد حصار دام أربعـة عشر يوما ووقوع كريزوس فى الاسر . لمـا وقع ملك ليـديا التعس فى أيدى أعدائه مثقلا بالسلاسل وحكم عليه بأن يحرق حيا هو وبعض أبناء العائلات الكبرى الذين كانوا معـه وسعّرت له النار وكادت تصل الى جسمه ، رقّ له قلب قيروش وأخذته الرحمة على هـذا الملك البائس الذى كان يحتمل تصاريف القدر بالرضا والتسليم ، والذى كان فى هذه اللحظة الرهيبة يذكر نصيحة سولون له حينا وفد عليه وأقام فى معيته . وكانت سنّ كريزوس وقت وقوعه فى الأسر تسعة وأربعين عاما حكم منها أربعة عشر عاما منذ وفاة أبيه ، وبقى بعد ذلك زمنا طويلا فى معية قيروش مرافقا ومعينا له فى غزواته .

إن تاريخ سـقوط سرديس ليس أقل اضطرابا من تاريخ كسـوف طاليس . وأخذا بمـا على رخام باروص تكون سرديس سقطت فى السنة الثالثة من الأولمبياد التاسـعة والخمسين أى سـنة ٥٣٧ قبـل الميلاد . أما فريريت فإنه يقول إنه وقع

فى ســنة ٥٤٥ أخذا بشهادة سوسيقراط الذى استشهد به ديوچين اللايرثى فى كتابه "حياة بيرياندر" . وأما قولى فانه أخره إلى سنة ٥٥٧ فى كتابه "أخبار هيرودوت" .
وعلى كل حال فإن هذا التاريخ على خطره محوط بالشكوك، ولا يزال محلا للتحقيق .

لما غُلب الليديون على أمرهم أحست المدائن الإغريقية خطر مركزها، فعرض الأيوليون واليونان الطاعة على الشروط التى كانت بينهــم وبين كريزوس، فرفضها قيروش مزدريا إياهم، وذكّر اليونان إعراضَهم عنــه حين خطب ودّهم قبل ذلك ببضعة أشهر؛ فلم يبق لهذه المدائن إلا خوض غمار الحرب بعد ذلك الرفض المهين، فدُعيت ندوتهم (الپانيونيون) وحضرها أهــل المدائن كلها إلا الملطيين الذين كانوا اتخذوا للحرب عدّتها من قبل، ولكن حظ الجميع منها لم يكن أحسن من حظ مملكة ليــديا .

من المحتمل أن يكون هذا الحين هو تاريخ النصيحة التى قدّمها طاليس للاتحاد اليونانى، فانه لبصره بالعواقب ارتأى ألّا يكون للمدن اليونانية إلا جمعية واحدة تعقد فى طيوس ، لتوسط مركزها، على أن تحتفظ كل مدينة بنظمها الخاصة، لأنهم متى اجتمعت قواهم كانوا بالضرورة أقدر على مقاومة عدوّهم المشترك، فان الاتحاد وحده هو الذى ينجيهم ما دامت المنازعات الداخليــة هى التى أضعفتهم . ولكن هذا الرأى الســديد لم يكن ليطاع فيهم مع أنه لم يجئ بعــد الأوان ؛ فإن حال اليونان لم يكن بعدُ من السوء بحيث لا يمكن إصلاحه . ولقد نصح لهم طاليس بعد ذلك نصيحة فى وقت أشدّ حرجا فلم تقابل إلا بما قوبلت به سابقتها من الإعراض . ثم نصح لهم بعد ذلك بياس البرينى أحد أعضاء الندوة (الپانيونيون) أن يترك اليونان جميعا آســيا ويتخذوا أســطولا كبيرا يركبونه الى " سردينيا " حيث يؤسسون جمهورية قوية . وأبان لهم بيــاس أنهم إن بقوا فى آسيا لا يستطيعون أن يحمــوا حريتهم . يرى هيرودوت أن اليونان لو كانوا قرّروا هذا القرار الباســل لصاروا أسعد الشعوب الإغريقية كلها، ولكنهم قنعوا بمفاوضة الأيوليين ليرسلوا سفراء الى إسپرطة يطلبون باسمهم وباسم اليونان إعانة الجمهورية إياهم .

لم تشأ جمهورية إسبرطة أن تمدّهم بقوة حقيقية، بل أرسلت رجلا ثقة من رجالها يقال له "لقرين" الى سرديس يطلب الى الفاتح ألّا يسيء الى أية مدينة إغريقية ويهدّده بسخط لقدمونيا . غير أن قيروش الذى ما كان يعرف الى ذلك الوقت ما هى إسبرطة ، أخذ يسأل بها وأعلن — وهو هازئ بهذه الشعوب التى يخالها متأنثة فى أمورها — أنه أولى بها أن يشغلها الخطر المحدق ببلادها عن الخطر الذى يتهدّد يونيا . فى هذا الوقت دعا قيروش اختلاف الأحوال فى بابل وبكتريان والساسيين بل وفى مصر أيضا ، الى التعجل بالسفر من سرديس الى إقبطان، وخلف على المدينة فارسيا يدعى طابالوس ، وجعل على نقل الكنوز التى جمعها ملوك ليديا منذ عدّة قرون ليديًا يقال له بكتياس .

انتهز بكتياس غيبة قيروش فى حصار بابل، ووضع يده على الكنوز التى أؤتمن على نقلها ، وانتبذ بها مكانا بعيدا على الشاطئ ، ودعا الليديين الى الثورة والانتقاض على قيروش ؛ وألف بالمال جندا سار به الى حصر مدينة سرديس التى كان يحميها طابالوس . ولكن هذه الثورة لم تلبث حينا حتى جاء مزاريس أحد قوّاد قيروش بالمدد، واضطر بكتياس الى الهرب والاحتماء فى "كومة" . فلما طلبه مزاريس همّ الكوميون بتسليمه اليه بنصيحة هاتف البرنشيد، لولا رجل شجاع منهم يقال له أرسطوديقوس حمى النزيل ونجّاه من الهلك واستحبّ عصيان الإله على انتهاك حرمات الضيافة فى حق مستجير . ونجا بكتياس الى ميتيلين حيث عادت لأهل كومة نخوتهم، وأرادوا هم أيضا حمايته . غير أن هذا السيئ الحظ قد أخذه الشيوزيون بالقوّة من معبد مينرڤا وسلّموه الى الفرس، لأن قيروش أمر بأن يحضر لديه حيا . وقبض الشيوزيون ثمنا لهذا العار مقاطعة أطرنة الواقعة فى ميزيا تجاه لسبوس، ولكنهم لم يسعدوا فى هذه الأرض التى امتلكوها بذلك الثمن المخجل ، فقد أكد هيرودوت أنه مرّ زمن طويل على أهل شيوز لا يستطيعون أن يقرّبوا للآلهة قربانا ولا أن يضحوا بشىء مما كان يأتيهم من غلة ذلك البلد الملعون .

قسا مزاريس فى التنكيل بالذين خرجوا على الملك فى ثورة بكتياس ، وكتب الرق على سكان بريينة وباعهم بالمزاد ؛ وخرّب بلا رحمة سهول مياندرس جميعها وأباحها لنهب عسكره ؛ ولكن منيته صادفته أثناء هذا الانتقام . ولقد أراد الفرس بهذه الفظائع أن يغلّوا أيدى المغلوبين عن الثورة ، ولكن إغريق الشاطئ ومستعمرات أيولس ويونيا ودوريدا لم يخفهم ذلك بل أخذوا عدّتهم واستجمعوا بأسهم الى حرب غير متعادلة القوى ولا ملحوظ فى نتيجتها الا الفشل والخذلان .

بذلك يبتدئ العهد الثالث والأخير لتاريخ الإغريق فى آسيا الصغرى ؛ فان العهد الأوّل لبث من وقت نزوحهم اليها الى حكم جوجيس غاصب ملك ميديا ، وهو أطولها ، لأنه لا يقل عن ٥٠٠ سنة . والثانى الذى كان مملوءا بالتنازع بين مدائن الإغريق ومملكة ليديا ، ويمتدّ الى هزيمة كريزوس وسقوط سرديس . ولم تكن قوة ملوك الليديين تلقاء قوة الفرس شيئا مذكورا ، لأن الفرس كانوا أمة حرب ملكت جزءا عظيما من آسيا ، وتقدّموا تقدّما كبيرا فى فنون الحرب بفضل قيادة قيروش .

أما الذى خلف مزاريس على التنكيل بالثائرين واستمرار الفتح فهو رجل خليق بكل أنواع الفظائع واقتراف الدنايا يقال له هربغوس اشتهر بعمل مقطوع النظير فى الخسة حتى فى معرض دنايا البلاط الفارسى ؛ ذلك أن "أصطياغ" ملك الميديين ، كان قد أزعجته رؤيا ، فكلّف هربغوس أمينه أن يحتال لقتل الولد الذى ولدته حديثا ابنته منداان من قمبيز ، وكان هذا الحفيد المقصود بالوقيعة هو قيروش ، فقبل هربغوس هذا الأمر ، ولكنه لم يشأ أن يقتل الصبىّ بيده ، فوكل ذلك الى راع أخذته الرحمة من توسلات زوجته ، فاستبدل صبيه الذى ولد ميتا بالذى دفع اليه ليقتله ، ودخلت هذه الحيلة على هربغوس ؛ فلما استكشف "أصطياغ" خفيّة الأمر وعلم بكل ما جرى كظم غيظه ، ولكنه انتقم من هربغوس شرّ انتقام ؛ فأمر بقتل ابن هربغوس سرّا ، ودعاه الى طعام قدّم اليه فيه لحم ابنه فأكله ثم أمر فأحضر رأس الغلام ويداه وقدّمت أثناء المأدبة تحت غطاء الى هربغوس ؛ فلما

كشف عنها الغطاء رأى هذا المنظر الفظيع فلزم السكينة؛ فسأله "أصطياغ" فى ذلك فقال : إنه تعرّف اللحم الذى أكله ولا يسعه إلا الثناء على الملك على ما تفضّل به .

ومع ذلك فان هربغوس قد أصرّ على الانتقام من "أصطياغ" بأن يثلّ عرشه من تحته ، فحرّض قيروش سرّا على العصيان . ولم يصادف هذا الأمير الشاب عناء فى حمل الفرس على نبــذ نير الميديين الثقيل . ولقد بلغت العماية "بأصطياغ" أنه لمـا جاء حفيده على رأس الجيش الفارسى أمّر على الجند هربغوس الذى كان قد نكّل به ذلك التنكيل ، فلم يلبث هذا الأخير أن خانه وانخذل بالجيش ؛ وقهر قيروش "أصطياغ" ولم يقتله بل تركه يعيش فى الخزى . وسقطت مملكة الميديين بعد أن أقامت ٣٢٨ سنة من ديجوسيز بن فراورط . وبقى هذا القسم من آسيا من يومئذ تابعا للفرس الذين لم يحتفظوا به إلا أقل من تلك المدّة حتى سقطت مملكتهم باغارة إسكندر .

ذلك هو هربغوس الذى رمى به قيروش مدائن الإغريق ليخضعها .

ولقــد عُنيت بذكر هــذه التفاصيل على شهرتها لأبين أى الأمم وأى الأخلاق سيكون ليونان الشاطئ علاقة بها .

أخذ هربغوس يبتكر طرائق لفتح المدائن؛ فكان كلما وصــل مدينة أحاط بها ثم حفر حولها خندقا يحصر أهلها فيضطرهم الى التسليم . فبدأ بمدينة فوكاية ، تلك المدينة التى كان لهـا اسم كبير فى ذلك العهد والتى تهمنا بوجه خاص جدّ الأهمية ، لأن أحد فلاسفتنا اكسينوفان كان بها منــذ نفى من كولوفون وهرب مع مواطنيه على الشواطئ البعيدة لبحر طرهينيا . ولقد كان أهل فوكاية أوّل من أزمع السياحات الكبرى المقرونة بالأخطار من جميع الجنس الهلّينى ، فانهــم أوّل من علّم النــاس ما هو البحر الأدرياتيكى وبحر طرهينيا وإيبيريا وطورطايس ، تلك الأصقاع السحيقة فى حدود الأرض وراء عمــد هيرقليس ؛ وهم الذين حوّروا طريقة صنع السفن فرغبوا عن السفن الغليظة المســتديرة إلى سفن ذات خمسين صفا من المجاذيف . وهى المسماة « البانيكونتور » . ولمـا كان لأهل فوكاية صــلات مودّة ومعــاملة

ببلاد طورطايس عرض عليهم أرغانتونيوس ملك هذه الجهة أن يهاجروا إليه إذا شاءوا أن يتركوا يونيا عند ما هدّد الفرس مدينتهم . ونظرا إلى أنهم لم يكونوا قد عزموا على الهجرة بعد ، أعطاهم حليفهم الملك مبلغا عظيما من النقود ليساعدهم على إقامة سور منيع حول مدينتهم ؛ فأقاموا هذا السور الواسع الامتداد من أحجار كبيرة محكمة الرصف جدّا .

وقف هربغوس أمام هذا الحصن العظيم الذى لم يستطع النفوذ منه إلى داخل المدينة ، وبقى محاصرا لها حتى أرهق أهلها إرهاقا ، ثم عرض عليهم عرضا يوافقهم وهو أن يهدموا جزءا من الحصن الأمامى تحتله الفرس إشارة الى أن أهل المدينة أطاعوا فطلب إليه الفوكيون الذين أعياهم الحصار جوابا على هذا العرض هدنة يوم واحد ، وأن يبتعد الجيش الفارسىّ عن مراكزه ، فأجابهم هربغوس إلى ذلك مع توقعه ما سيحصل ؛ فاغتنم الفوكيون هذه الهدنة ، وحملوا على السفن نساءهم وأولادهم وجميع ما يستطيعون حمله خصوصا الأمتعة المقدّسة التى جمعوها من المعابد ، وسافروا إلى شيوز ، فلما جاء الفرس فى اليوم التالى وجدوا المدينة خلوّا ليس فيها أحد من أهلها .

كان الفوكيون قد رغبوا بادئ ذى بدء فى أن يشتروا من أهل شيوز الجزر التى تسمى اينوزوس ، لكن هؤلاء قد رفضوا الصفقة حتى لا يخلقوا لأنفسهم مزاحمين لا يستهان بأمرهم على مرافق التجارة ؛ فاضطر الفوكيون الى أن يوجهوا سفنهم نحو جزيرة قورسقة (المسماة وقتئذ سيرنى) حيث أسسوا فيها قبل ذلك منذ عشرين عاما مدينة « علالية » باشارة الهاتف ، ولكنهم قبل أن يذهبوا الى هذا المنفى النهائى رجعوا الى فوكاية على غرّة من حرسها الفارسى وذبحوهم ، ومع ذلك فان هذا العمل الجرىء لم يمكنهم من البقاء فى وطنهم القديم بل ارتدّوا الى أسطولهم . وليثبتوا أنهم لن يتركوه ألقوا فى البحر كتلة من الحديد وأقسموا ألّا يعودوا قبل أن تطفو هذه الكتلة الثقيلة على سطح الماء . وعلى رغم هذا القسم زين لنصف النازحين أن ينزلوا الى البر ويدخلوا فوكاية ، وأما النصف الآخر الذى

بر بقسمه فقد اعتمد على ألّا يبقى تحت نير المتوحشين الذى لا يطاق، وأبحروا الى قورسقة، فدخلوها آمنين وأقاموا كما يشتهون فى سكينة مدّة خمسة أعوام مع مواطنيهم الذين سبقوهم اليها قبل ذلك بسنين طوال . ولكن أهل طرهينيا وقرطجنة هاجموا الفوكيين، إما حسدا من عند أنفسهم، و إما اضطرارا للكسب وحبا فى السلب والنهب . ولم يكن لدى الفوكيين إلا ستون سفينة ضدّ مائة وعشرين لخصومهم، ولم يبرّر لهم ذلك التردد فى منازلتهم، بل ذهبوا يبحثون عن عمارات خصومهم فى بحر سردينيا، وتحرشوا بهم وطلبوهم للقتال، ولكنهم خسروا فى هـذا الظفر ثلثى سفنهم فرجعوا عجلين الى "علالية"، واحتملوا عائلاتهم وأموالهم ليلجئوا الى موئل آخر آمن من هذا..والظاهر أن جزءا من هؤلاء المهاجرين قد وقع فى يد الطرهينيين والقرطجنيين فقبضوا عليهم وذبحوهم، وذهب الجزء الآخر الى رغيوم فى صقلية، ومن هناك اتجهوا الى الشمال وأسسوا على أرض أونترى مدينة كانت تسمى فى زمن هيرودوت "مدينة هيلا" وهى المعروفة بمدينة إيليا الشهيرة بمدرستها الفلسفية التى شيدت فيها بعد تأسيسها بقليل .

فى نحو هـذا الحين لجأ اكسينوفان الى إيليا هاربا من كولوفون التى وقعت فى قبضة الفرس، وانضم الى الفوكيين الشجعان الذين كانوا مثله يكرهون العبودية . من الواضح أن ما ورد فى شعر إكسينوفان خاصا بإغارة الفرس الذين ما زال يسميهم الميديين، إنما يراد به واقعة هربغوس تلك لا حرب الميديين[1]، كما ظُنّ ذلك أحيانا . وقد يظهر أن تأسيس إيليا الذى شدا به إكسينوفان كما شدا بتأسيس كولوفون كان فى سنة خمسمائة وست وثلاثين أو خمسمائة واثنين وثلاثين قبل الميلاد، بل قد يكون أدنى من ذلك . وعلى كل حال فانه قبل إغارة مردونيوس وداتيس على بلاد الإغريق بثلاثين سنة على الأقل . وليس عندنا ما يفيد أن اكسينوفان عاش الى ذلك الوقت .

---

(١) ولقد جلا الشك فى هذه النقطة فكتور كوزان . راجع القطع الفلسفية والفلسفة القديمة طبعة سنة ١٨٦٥ ص ٣ و ٤

ولسنا نرى فيما حفظ لنا التاريخ من التفاصيل ماذا جرى على كولوفون بخصوصها، وهى من ليديا كمدينة فوكاية ، ولكن المفهوم ضمنا هو أنها وقعت فيما وقعت فيه فوكاية،وأن أهلها الذين لم يقبلوا حكم المتوحشين ركبوا البحر ليلجئوا الى جهات أكثر طمأنينة . حتى أن هيرودوت لم يذكر بعد أخبار الفوكيين إلا أخبار أهل طيوس الذين فعلوا مثل ما فعل أولئك، فحملوا ما قدروا عليه فى سفنهم وقصدوا تراقيا حيث أسسوا مدينة أبدير،وقد كان سبقهم فى الهجرة الى تلك البلاد أحد مواطنيهم المدعو كلازومين . أضاف هيرودوت الى هـذا أن بقية مدن يونيا خضعت لحكم الفرس بعد مقاومة عنيفة . ولا مانع من افتراض أن إكسينوفان كان أحد هؤلاء الأبطال الذين أثنى عليهم المؤرخ، والذين لم يلقوا قيادهم الى الفرس إلا بحكم الضرورة . إلا الملطيين وحدهم فانهم اتفقوا مع قيروش كما ذكر آنفا، وبذلك احترم هربغوس حيادهم اكتفاء بما شتّت وأذل من سائر يونان القارة . وأما أهل الجزائر فانهم بوضعهم كانوا فى مأمن من الغارة،لأن الفرس لم يكن لديهم بعدُ أسطول يطولون به الجزائر ويلقون على أهلها نير العبودية . وأما يونيا وأيولس فانهما أطاعتا غاية الطاعة حتى جند منهم هربغوس حين مشى الى قاريا التى وقعت فى قبضته بعد قليل . وأما الكنيديون فانهم حاولوا الدفاع بالاسراع فى قطع البرزخ الذى يصلهم بالقارة،ثم بدا لهم أن يستسلموا الى الفرس أخذا بنصيحة كاهنة دلفوس . وأما البيداز يون من ضواحى هاليكارناس فانهم قاوموا حتى حين ، ولكنهم قهروا كما قهر الليقيون الذين أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن وطنهم . وبذلك تم النصر لقيروش ، وكان يستطيع أن يغتبط وهو سائر الى إخضاع بابل بأن كل آسيا الدنيا ملك له الى البحر.

كانت جزيرة سموس وقتئذ أقوى الجزر ذات مركز سام بما لها من الروابط بإغريقا وبمصر . وبينا كان قمبيز المفتون ابن قيروش يغزو مصر ليقضى على نفسه فيها كان يوليقراطس يحكم سموس ؛ وقد مكّن له فيها بحسن إدارته وقلة تحرجه ومبالاته ، حتى جعل الجزيرة من الرخاء محسودة الوفر من كل نظائرها . وكان من أمره أنه أقام فيها ثورة انتهت بأستيلائه فيها على السلطان هو وأخويه بنتنيوت

وسيلوسون ؛ إذ اقتسم الإخوة الثلاثة حكم المدينة لكل منهم قسم معلوم . ولكن بوليقراطس لم يلبث أن تخلّص من أخويه إذ قتل أحدهما وشرّد الثانى وخلص له الحكم وأطاعه أهل المدينـة . وقد أراد أن يثبت لنفســه الملك المغصوب فارتبط بأمازيس ملك مصر ، وتبادل وإياه الهدايا النفيسة . ولم يمض عليه حين حتى نبُه ذكره ، وعمّت شهرته بلاد الإغريق ، وكان سعيد الطالع موفّقا فى مشروعاته إلى غاية المنى ؛ وكان أسطوله مؤلفا من مائة سفينة من ذوات الخمسين صفا من المجاذيف ، وكان يبلغ عدد رماته وحدهم ألفا .

ولم يكن مع ذلك ليرعى لجيرانه حرمة بل كان يضرب عليهم الإتاوة بغاية الجرأة ، وكان من مبادئه السياسية ألّا يُبقى حتى على أصـدقائه متى قضى الظرف إلا أنه كان يعوّض عليهم بعـد ذلك . وكان قد غزا عدّة جزر حوالى سموس ، بل عدّة مدن فى القارّة . ولما ساعد اللسبوسيون الملطيين عليه حاربهم وقهرهم فى وقعة بحرية ، وسخّر جميع الأسرى مصفّدين بالأغلال فى حفر الخندق العميق الذى كان يحيط بأســوار المدينة . وكان من نتائج ظلمه أن بعض أهل سموس هجروها من هول ما يلقون من الجور واستجاروا بإسبرطة ، فأبحر اليه اللقدمونيون فى أسطول قوىّ ، وحاصروا المدينة أربعين يوما ، ولكنهم ارتدّوا على أعقابهم بفضل بأس بوليقراطس أو بفضل ماله . وبقى هذا الطاغية مستبدّا بالحكم مهيب الجانب لا يُغلب على أمره ، حتى إن من لم يريدوا من السموسـيين الاستسلام لمظالمه لم يكن لهم وسيـلة إلا الهجرة بعيدا عن ملكه الى حيث ينزلون منزلا يرضـونه . ولم يكن ليأمن على نفســه الطوارئ بذلك الخندق العميق الواسع ، بل اتخذ نفقا تحت الجبل سلك فيه الى المدينة ماء غدقا ، وبنى رصيفا شاهقا متقدّما فى البحر ، جعـل به المرفأ أكثر ملاءمة لرسوّ السفن ، ثم بنى معبدا اشتهر بأنه أكبر المعابد المعروفة . وقد ذكر أرسطوطاليس أيضا هذه الأعمال العظيمة التى عملها بوليقراطس .

وكان هذا الطاغية محبا للآداب والفنون ، ويقال إنه أوّل من أنشأ مكتبة . وكان مثل ذلك فى تلك القرون زخرفا نادرا ، كانت مصر وحدها هى صاحبة الإبداع

فيــه . وكان يؤوى إليه الشعراء ، وكان أنقريون الطيوسى بعض جلسائه ومادحيه .

فى صدد الكلام على عهد طغيان پوليقراطس هذا، ينبغى أن نورد خبر الصلات التى كانت لفيثاغورث به والتى لدينا عنها معلومات مضبوطة ، فان يَمْبليك وفورفريوس وديوچين لايرث يلتقون فى هذه النقطة ،وليسوا بالضرورة إلا صدى كثير من المؤلفين الذين هم أقرب عهدا بزمن فيثاغورث وكتبوا ترجمته مثــل أرسطوكسين الموسيقى تلميذ أرسطو وأبلّنيوس الصورى وهرميب وديوچين وأنتيفون ... الخ . كان فيثاغورث بن منيزَارْخس يدلى بأمه إلى أكبر عائلات سموس، ويمكن أن يتصل نسبه بأَنصى مؤسس المستعمرة ، ويظهر أن أباه قد جمع مالا وفيرا من تجارة القمح وكان صوريا على رأى بعض المؤرّخين، وطرهيذيا على قــول البعض الآخر . وكان يستصحب ابنــه معه فى سياحاته منذ حداثتــه ، فطاف الصبى مع أبيــه تلك البــلاد التى عُنِى بدرسها بعد ذلك ؛ فلمــا صار فى سنّ التّعــلم ، ورأى أبوه فيه مخايل وعليه سيما النجابة ، وصله بأعلى الرجال امتيازا فى زمنه : طاليس — على ما يقال — وأنكسيمندر وأنكسيمين الملطى وفرقليــد السيروسىّ . وقــد عرف فيثاغورث فينيقيــا وهو شاب إذ صحب أباه إليها . ولــا أراد الســفر الى مصر زوّده پوليقراطس بكتاب توصية الى أمازيس، وذلك يثبت أن رأى فيثاغورث فى پوليقراطس وقتئذ على الأقل لم يكن كرأيه فيه بعد ذلك .

لم تكن مدّة إقامة فيثاغورث بمصر محل اتفاق فى التاريخ ، فمن مترجميه ، مثل يمبليك، من حددها باثنين وعشرين عاما و إن كان ذلك قليــل الاحتمال . لــا أسر عسكر قمبيز فيثاغورث سيق الى بابل ،وهناك اتصل بالمجوس كما اتصل بكهنة مصر مدّة إقامته بها، إذ كان محل إعجاب بذكائه و رجاحة عقله وحسن روائه . ولما رجع الى وطنه وهو متقدّم فى السن ،أى كانت سنّه ستا وخمسين سنة على قول يمبليك ،فتح فيه مدرسة . وظل السموسيون الفخورون بمواطنهم يعقدون مداولاتهم السياسية قرونا عدّة بعد

ذلك فى مجلس نصف حلق مسمى باسم فيثاغورث . وقد قال أرسطوكسين : إن فيثاغورث لما ترك سموس فرارا من ظلم پوليقراطس لم يكن يتجاوز من العمر أربعين سنة ؛ وربما كان قوله أوجه، لأنه أقرب عهدا الى هذه الأحداث من يمبليك، ومن المحتمل أن يكون أعلم بها منه ما دام أنه تلميذ أرسطو الذى كان يشتغل كثيرا بفلسفة فيثاغورث . وأما شيشيرون فانه ذكر فى كتابه "الجمهورية" : أن فيثاغورث وصل الى إيطاليا فى الأولمبية الثانية والستين أعنى فى سنة ٥٢٨ قبل الميلاد، أى فى السنة التى جلس فيها طَرْخان العظيم على العرش . ولما كان شيشرون (على لسان سيبيون) يقصد الى تصحيح خطأ تاريخى شائع . فمن الراجح أنه يعرف حق المعرفة صحة ما ذكر وأنه غير مخطئ .

ومهما تكن حياة فيثاغورث محجوبة عنا مع ما كان من اشتغال كثير من الكتّاب الأقدمين بها ، فالظاهر أن من المحقق أنه هاجر من سموس المحرومة الحريةَ ليجد بلدا فى إغريقا الكبرى لا تشمئز فيه نفسه من مشاهد الظلم ويستطيع أن يتمتع فيه بالاستقلال الذاتى الذى كان فى حاجة إليه . وكذلك فعل إكسينوفان فى نحو هذا الزمن، إذ كان يفرّ من اضطهاد الفرس الذين كانوا أشدّ ظلما من طغاة الإغريق . كان ذلك هو الحظ المشترك لأمثال هؤلاء ؛ فليس من السهل أن يبقى المرء وطنيا أو فيلسوفا ينوء بحمل الضغط الذى يأتيه أمثال أولئك الأسياد . وعلى ذلك حمل فيثاغورث الى قروطون والى سيباريس مذاهب عجيبة فيها بلا شك شىء من الديانات الشرقية التى اتصل بأهلها، ولكنها حقيقة باحترام كل من يحبون الحكمة والانسانية .

ولم تصل إلينا مذاهب فيثاغورث إلا عن طريق الوسطاء، إذ لم يجتمع لنا شىء من مؤلفاته الكثيرة التى وضعها[1] فيما يظهر على مايقول هيلير قليطس، والتى مع كون فيلولاوس أذاعها لأوّل مرة بعد ثلاثة أو أربعة قرون من وضعها كان يطلبها أفلاطون بأغلى ثمن .

(١) ديوچين اللايرثى . حياة فيثاغورث ف ٦ ك ٨ ب ١ . وان الرسائل بين أنكسيمين وفيثاغورث ربما لا تكون منتحلة . ديوچين اللايرثى فيما كتبه عن حياة ذينك الفيلسوفين .

أما پوليقراطس الذى شاطر فى أسباب تعليم فيثاغورث فانه لقى حتفه على أسوأ ما يكون بعد سنين قلائل من اعتزال الحكيم سموس التى صارت أحط من أن تكون وطناله ، ذلك بأن أورطيس الذى رسمه قيروش مرزبانا على سرديس حاول أن يوسع سلطان الفرس ويدخل الجزائر تحته ،فعزم على أن يوقع بالطاغية الذى أتى سموس الواقعة أمام حكومته قوّة ومنعة ، فأرسل الى پوليقراطس سرّا رسولا يخبره عنه بأنه مهدّد شخصيا بغضب قمبيز البالغ حدّ الصرع ، وأنه يريد أن يوذع ماله مكانا أمينا ، ويرجو السيد أن يقبل إيداعها عنده ؛ ولكيلا يتظنن فى قوله طلب إليه أن يرسل ثقة له ليريه خزائنه المملوءة بالذهب المضروب ، على شريطة أن يبقى نصف المال للمرزبان والنصف الثانى يكون لپوليقراطس ينفقه على مشروعاته الواسعة المدى إلى حدّ فتح إغريقا كلها .

لم يطق شرهُ پوليقراطس صبرا ، فأرسل أمين أسراره مندريوس الى "سرديس" ليحقق خبر كنوز أورطيس الذى خدع الرسول وأراه صناديق مملوءة حجرا مغطاة سطوحها بالذهب ، فرجع الرسول إلى سيده وقرّر له ما رأى ، ففرح پوليقراطس وعوّل على أن يذهب بنفسه لإحضار الذهب ؛ وعبثا حاول أصحابه وعائلته منعه ، حتى لقد كان منه أن هدّد ابنته بألّا يزوّجها إلا بعد زمن طويل حين تشبثت بمنعه وقت ركوبه الفلك . ومضى وفى صحبته عرّافه المدعو هيلى الذى لم يصل علمه الى كشف هذه الأحبولة . فلما وصل الى حيث ينتظره أورطيس أمر الغادر بالقبض عليه وصلبه . ومع أن هيرودوت لم يكن به مظنة ضعف للطغاة ، فإنه رثى لحال پوليقراطس الذى كان من العبقرية والسؤدد بحيث لا يستحق هذه الميتة الشنعاء . وكان فى معية پوليقراطس فى هذه السفرة المشئومة ، غير ذلك العرّاف المغفل ، ديموكيد الطبيب الشهير من قروطون الذى وقع هو أيضا بهذه الأحبولة فى الرق ، ثم دعى بعد

ذلك بقليل الى بلاط دارا ليعالجه من ٱلتواء مفصليّ أصابه ، وذلك حين أمر دارا مهلك المجوس بقتل أورطيس لارتكابه فظائع لا مصلحة فى ارتكابها [(١)] .

لما خلت سموس من پوليقراطس لم تستأخر عن الوقوع فى قبضة الفرس، لأن الطاغية لما ذهب الى حيث لقى حتفه كان قد خلف على الجزيرة أخاه منـدريوس الذى هو أقل كفاية من أن يلى الحكم ، وجاءت جنـود أوطانيس المرزبان الجديد تحت قيادة سيلوسون أخى پوليقراطس الذى نال حظوة عند دارا بسبب أنه عرفه فى مصر حيث منفاه، فهرب مندريوس وترك الجزيرة، فتولى أخوه شاريلاوس قيادة الحامية ، وبعد مقاومة عنيفة سقطت الجزيرة فى أيدى الفاتحين، ودخلها سيلوسون فوجدها خلوًا من سكانها .

ولما انتصر دارا على بابل بفضل إخلاص زوپيروجّه قواه الى محاربة السيتيين، فصنع له مندروكليس المهنـدس السموسى القنطرة المشهورة التى عبر عليها جيشـه بغاز البسفور، وهى قنطرة من المراكب لم يكن طولها أقل من أربع غلوات أى نحو ٨٠٠ متر . ولا بد أن يكون اتخاذ مثل هذه القنطرة من أصعب ما يكون، وكانت واقعـة ، على رأى هيرودوت ، بين بيزنطة و بين معبـد قائم على مصب البسفور . ولكى يخلد هذا الملك العظيم ذكرى هذا العمل أغدق على المهندس السموسى نعمه ، وأقام عمودين على جانبى الشاطئ كتب عليهما باللغتين اليونانيـة والآشـورية . وقد رسم مندروكليس فى معبـد چونون لوحة تمثـل القنطرة وجيوش الفرس تعبر فوقها تحت نظر دارا جالسا على عرشـه . وقد شفع دارا جيشـه البرّى بأسطول عظيم يقوده اليونان والأيوليون وفريق من أهـل هلّسبون ؛ وأمر الأسـطول أن يدخل البحر الأسود ، ثم يدخل مجرى الدانوب ونهر الإستر ، ويقيم قنطرة على النهر فى محل تفرعه الأوّل الى عدّة فروع . واتجه دارا بجنوده فى البر من تراقيا الى تلك

(١) السنة ٢٣٠ من تأسيس روما أو ٥٢٣ قبل الميلاد على رأى پلاين لـ٣٣ ب ٦ ص ٤٠٣ طبعة ليترى .

النقطة، وكانت عدّة جنوده البرية سبعمائة ألف مقاتل وعدّة سفن أسطوله ستمائة سفينة، وكانت هذه الجيوش البرية والبحرية مؤلفة من جميع الأمم التى تشملها مملكة الفرس المترامية الأطراف من شواطئ آسيا الصغرى الى الهندوس .

وتقدّم الملك العظيم، على بعد الشقة وصعوبة المسالك، فى طريقه بين تلك الأمم الجافلة التى كانت تولى الأدبار أمامه وتستدرجه شيئا فشيئا الى مفازاتها الواسعة وتلك المهامه التى لا تجاز، كما وقع فى أيامنا هذه لفاتح آخر ليس أكثر منه بصرا بالعواقب ولا أقل منه نحسا فى الطالع . وقد عُنِي دارا فى انتصاراته الموهومة بأن يقيم فى طريقه أعلاما وأعمدة نقش عليها بالعبارات الفخمة: «إخضاع الجيتيين» . وكان يبنى آثارا سهلة البناء، فانه أمر بأن يلقى كل جندى من جيشه العرمرم وهو سائر حجرا فى مكان معين، فيجتمع من هذه الحجارة أكمة عظيمة يخيل أنها هرم . ولقد وجد جيش دارا حتى فى هذه المجاهل بعض آثار النفوذ الإغريقى، فان أولئك الرحلّ الذين كانوا يعبدون «ذالمكسيس» الذى كان، كما يقال، عبدًا لفيثاغورث بن منيزارخس فى سموس، والذى بعد أن صار حرا وغنيا عاد الى مواطنيه بشتات من المدنية الهلّينية إذ نقل اليهم شيئا من عقائد سيده العالم . غير أن هيرودوت لم يقبل هذه الرواية وردها بأن «ذالمكسيس أو غيبليزيس» كان أقدم من فيثاغورث بكثير، وأن فيثاغورث أعجب بحكمته العالية[1] . ولكن تلك الرواية المشهورة مهما كانت كاذبة تدل على الأقل على ما لاسم الفيلسوف من الاحترام منذ تلك الأزمان، فإليه تنسب الثقافة الأخلاقية والإصلاح الموفق الذى وإن لم يتم كان سببا فى التهذيب من حال أهل تراقيا المتوحشين .

على أن دارا لما وصل إلى المحل المعين على نهر الدانوب، وجد اليونان نفذوا أمره بإقامة قنطرة المراكب، كما أقاموا قنطرة البسفور . ولما عبر الجنود النهر أراد دارا رفع القنطرة حتى يتبعه الإغريق فى غزوته، ولكن قويس رئيس

(١) هيرودوت ك ٤ ب ٩٥

المتالنـة كان لحسن الحظ أسدّ رأيا من الملك ، فانه وصل إلى اقناعه ببقاء القنطرة لأنها طريقه الوحيد عند التقهقر، وعلى ذلك أمر دارا اليونان أن ينتظروه ستين يوما فان لم يعد فى هذه المدّة هدموا القنطرة وسافروا .

حدث ما كان سهلا توقعه، فان جيش دارا بعـد أسفار نحو الشمال متعبة عديمة الفائدة اضطر إلى أن يعود خاسرا تاركا مرضاه وجرحاه . وكانت حاله حال ذلك الجيش العظيم لسـنة ١٨١٢ الذى كان فى تلك البـلاد تقريبا يقاتل أولئك الأعداء أنفسهم الذين خدعوه الخديعة عينها . ولـما انتصر السيتيون على دارا من غير حرب تقـدّموه إلى قنطرة الدانوب ، وكان دارا سـيلاقى ما لاقى نابليون فى عبور نهـير بيريزينا لولا أمانة الإغريق الذين وكل إليهم حراسـة القنطرة ، فان السيتيين حرضوهم على كسرها قائلين : إن ميعاد الستين يوما قد مضى ، وإنهم قد أوفوا بعهدهم . وقد نصح لهم ملتياد الآتينى الذى كان قائد أهل شرسـنيز وهلّسبون وطاغية عليهما والذى صار بعـد ذلك فاتح مرطون، أن يهدموا القنطرة وينسحبوا الى بلادهم وبذلك يهلك الجيش الفارسى ويستردّ اليونان حريتهم، وكانت نصيحته ستجد آذانا صاغيـة، ويكون لهـا من الأثر ما لم يكن لاغراء السيتيين ، لولا أن اجتمع رؤساء اليونان وقرّروا بنـاء على رأى هستيا الملطى أن ينتظروا دارا ويخلصوه . وكان مع هستيا من رءوس اليونان سطراطيس الشيوزى وأوسـيز السموسى ولوداماس الفوكى . وكان أرسطاغوراس الكومى وحده رئيسا للأيوليين . ولم يكن الوفاء بالعهد هو الذى حمل أولئك الرؤساء على هذا القرار الغريب، بل هى المصلحة الشخصية ، فان هستيا لم يصادف عنـاء فى إقناع زملائه الذين مصلحتهم كمصلحته بأنهـم إذا فقدوا تأييد الفرس لهم لم يلبث واحد منهم سـيدا على مدينته التى يحكمها ، بل إن الأمة متى تخلصت من حكم الأجنبىّ تسـارع الى حكم الديموقراطية ، وتحرم رؤساءها الحاليين كلّ سـلطان عقابا لهم على قبولهم المزايا التى خصهم بها الملك الكبير . وقد رجح لدى الرؤساء هذا الرأى وأمكن لدارا،وقد اقتفى السيتيون أثره، أن يفرّ منهم بعبور النهر .

ما ذا كان عساه أن يقع لو أن اليونان كسروا القنطرة وهلك بذلك دارا وجنوده ؟ تكون داهية دهياء على مملكة الفرس من غير شك ، ولكن هذه الضربة مهما كانت خطورتها لا تكون هى القاضية، لأن هزائم مرطون وسلامين وپلاتة لم تكن لتكفى لهذا الغرض . حقا ربما كانت يونيا تستطيع أن تتنفس من ضيق الخناق بعض الزمن وتسترد استقلالها ، ولكن إغارة جديدة أكثر حدّة بالضرورة من سابقاتها ترجعها الى الخضوع . فلم يكن حان الوقت لسقوط الفرس الذين كانت أمتهم وقتئذ فى قوة الشباب وطور النمو الأوّل ، ولكن هذا لا ينفى الإجرام عن أنانية الرؤساء اليونان فانهم كانوا يستطيعون البقاء على عهد دارا بأسباب أشرف من الأسباب التى اتخذوها .

لما وصل دارا الى سستوس ركب البحر الى آسيا وخلف مغباز على الجنود فى أوروبا ، وليفتح تراقيا ومقدونيا . وبعد قليل دعى مغباز الى صوص، وكذلك هستيا الذى ظهر أن من عدم التبصر تركه وحده فى تراقيا ، حيث أقطعه دارا إقطاعات واسعة فى مرسينة جزاء له على خدمته .

ولقد منيت بلاد اليونان بجهد جديد ومصائب جدد تختمر فى باطنها ، فان هستيا لما ترك ملطية نزل عن السلطة الى أرسطاغوراس صهره وابن عمه ، فجاء الى هذا الأخير بعض المنفيين من نكسوس يستنجدونه، وأحسّ من نفسه قلة الحول فى أن يقوم بمشروع فتح نكسوس وحده ، فرجع فى الأمر الى أرتافرن أخى دارا ومرزبانه على سرديس وجميع تلك الجهات التى هى أوّل مرزبانية فى المملكة ، فطمع أرتافرن فى الاستيلاء على نكسوس وما يليها من مدن السكلاد وحصل من دارا على الاذن بتسيير مائتى سفينة تحت تصرّف أرسطاغوراس، ولكن الشقاق قد دبت عقاربه بين الأحلاف فاستطاعت نكسوس أن تدافع عن نفسها وأن تصدّ هجمات محاصريها وتردّهم بالخيبة بعد حصار أربعة أشهر، وعلى ذلك لم يوفق أرسطاغوراس الى تحقيق شيء مما وعد به مرزبان سرديس ، فخاف من ذلك على سلطانه الخاص، وعقد

العزم على ألا يكون نصف مذنب فغلظ ذنبه ، وأوقد نار ثورة صريحة دفعه اليها أيضا سلفه هستيا الذى كان لا يزال فى صوص عند الملك الكبير، ولكى يجذب قلوب الملطيين اليه نزل عن حكومة الطغيان ، ورتب بدلها حكومة الشعب ، ودعا المدائن اليونانية الأخرى الى العصيان،فاستجابت لدعائه وطردت جميع الطغاة الذين نصّبوا عليها تنصيبا .

ان ما أتاه أرسطاغوراس من الإقدام الكبير كان بعد استشارة أصحابه . فأما هيقات الملطى المؤرخ فكان رأيه ألا يوقدوا نار الحرب فى الحال وليس لديهم المال الضرورى، فلما لم يستطع الإقناع برأيه ألحّ فى وجوب توجيه كل قواهم نحو البحر، بفكرة أنهم فيه أقدر على الهجوم منهم فى البر، ولهذه الغاية نصح بأن يأخذوا جميع أموال كريزوس التى جمعها فى معبد البرنشيد ، ولكنهم أصمّوا آذانهم عن الاستماع لهذا الرأى السديد ، وأصروا على الثورة على أى حال . وكان أرسطاغوراس يشعر تماما بضعف يونيا فذهب إلى أسبرطة ليتخذها حليفة له .

ولقد عُنى أرسطاغوراس ليزيد كليومين ملك أسبرطة علما بحقيقة مشروعاته بأن يبين له فى أثناء المفاوضة مواقع البلاد التى كانت موضوع الحديث وهى ليديا وفريجة وقبادوس وفارس ... الخ . بينها له مرسومة على صحيفة من النحاس حملها معه،وكان وقتئذ من أحدث مايكون رسم خريطة جغرافية. ويظهر أن أنكسيمندروس هو صاحب هذا الاختراع البديع ، ولكن كليومين لم يفه إلا بسؤال واحد : "ما هى المسافة بين بحر يونيا و بين المحل الذى يقيم فيه الملك ؟ " فأجابه ببساطة : " مسير ثلاثة أشهر" وكان ينبغى لأرسطاغوراس أن يحسب وقع هذا الجواب فى نفس رجل أسبرطى؛ لأن كليومين بعد أن سمع هذا الجواب أمر نزيله أن يبرح لقدمونيا قبل غروب الشمس ، و رفض مع الأزدراء المال الذى حمله إليه ليحاول إغواءه به . وكان ما قاله أرسطاغوراس عن المسافة حقيقة واقعية ، فان هيرودوت قد عدد بالضبط والعناية المائة والإحدى عشرة محطة الواقعة على الطريق

الجميل الذى أنشأه دارا من سرديس إلى صوص على نهر كواسب أوكراسو البعيد جدًا من مدينـة بابل نحو الشرق . فكان ١٣٥٠٠ غلوة أو ٤٥٠ برزنجا والـبرزنج هو فى المتوسط ٣٠ غلوة أو بعبارة أخرى ٦٠٠ فرسخ، فكان لا بد للقيام بمشروع ضخم كهذا عبقرية اسكندر ومائتا عام حرب على مملكة الفرس الضخمة ، ولم يكن لكليومين من خلقه ولا من زمانه ما يجزئه على معاناة أمثال هذه المشروعات .

لمـا فشل أرسطاغوراس فى أسبرطة قصد آتينا لأنها صارت شيئًا فشيئًا أقوى ممـا كانت عليه منذ قلبت طغيان البيزستراتيين ، وأخذت ترسل السفراء إلى أرتافرن مرزبان سرديس حتى لا يصغى إلى مزاعم هيپياس الذى التجأ إليه . ولمـا لم ينجح أرسطاغوراس فى استمالة كليومين ، ونجح فى استمالة سكان آتينا ، وعدّتهم ثلاثون ألفا — كما ذكره هيرودوت بعبارة ملؤها التهكم ، إذ ذكرهم بأن ملطية كانت مستعمرة لاجدادهم — فتقرر أن يرسلوا إلى يونيا عشرين سفينة لنصرتها . وكان ذلك — كما رواه أيضا هيرودوت ، بداية الحـرب التى فيهـا ابست الجمهورية حلل الفخر بتخليص الإغريق والتى فيها لاقت دولة الفرس هزائم قاسية كانت طلائع لخرابها العاجل . وقد حمـل أرسطاغوراس البيون أيضا على الثورة ، وهم أولئـك الذين أخرجوا من ضفاف إستريمون إلى فريجة بأمر دارا ، وهربوا منها إلى شيوز وسافروا من شيوز إلى لسبوس ومنها إلى دوريسكوس ومنها عادوا إلى بلدهم الأصلى .

لمـا وصلت السفن العشرون الى إيفيزوس وانضم اليها خمس سفن أخرى من إريتريا لاقوا إخوة ارسطاغوراس يقودون جند ملطية لأن أخاهم أقام بالمدينة يباشر بنفسه حركة التعبئة وقد ترك الجيش البرى الأسطول فى مياه إيفيزوس وتقدّم هو على ساحل "قايستر" يجوس خلال طمولوس حتى وصل الى سرديس ، فأخذها من غير حرب تذكر وحرقها بغـاية السهولة ، لأن سطوح منازلهـا مغطاة بالقصب اليابس . ولم يتمكن أرتافرن إلا من الاستعصام هو وجنوده بالقلعة . وقد انزعج الفرس والليديون لمـا رأوا المدينة غنيمة النار ، ولكنهم استجمعوا شجاعتهم وخرجوا الى المحاربين وثبتوا

أمامهم حتى اضطروهم الى التقهقر نحو الشاطئ ، ونهض الفرس المرابطون على الهالوس الى المعركة فلم يجدوا اليونان فى سرديس فاقتفوا آثارهم الى ايفيزوس حيث نالوا منهم نيلا فى واقعة كبرى .

ولقد أخذ اليأس من الآتينيين كل مأخذ من جراء هذه الهزيمة فانسحبوا على رغم رجاء ارسطاغوراس وإلحاحه ، ولكنه هو لم ييأس . بل اعتمد على جنوده الخاصة وعلى مساعدة مدن هلّسبون وقاريا وجزيرة قبرص العظيمة وإذ ذاك كان أونيزيلوس طاغية سلامين منتقضا على الفرس .

لما علم دارا بما أتاه الآتينيون من المشاطرة فى إحراق سرديس أقسم أن ينتقم منهم ويجزيهم على هذه الاساءة شر الجزاء ، وأرسل هستيا بديًّا ليعيد اليونان الى الطاعة بفضل دسائسه ، ولم تكن مع ذلك أحوال اليونان بخير . بل إن قبرص سلمت بعد مقاومة شديدة ، وقاريا التى كانت ثائرة ردّت الى الطاعة وكلازومين سقطت فى قبضة أرتافرن وأوطانيس ، وكذلك سلمت كومة أوليد ، فلم يستطع ارسطاغوراس احتمال هذه الخيبة فانزوى فى مِرسين بلد حميه هستيا . وكان هيكاط الملطى يرى أن الأوفق لهم الالتجاء الى جزيرة ليروس حيث يمكنهم البقاء حتى يعودوا الى ملطية فى الوقت المناسب . ولما سافر أرسطاغوراس الى تراقيا قتل أمام قلعة وهلك جيشه .

ولم يكن حظ هستيا بأحسن حالا من ذلك فان أرتافرن تظنن فى أمره ، واطلع على دسائسه ففرّ بعد عناء من سرديس الى جزيرة شيوز فانتبذوه بفكرة أنه صنيعة الفرس ، ولكنه بعد ذلك كسب جاذبيتهم بأن أظهرهم على ما فعل لاقامة ثورة اليونان فحملوه الى ملطية حيث قابله أهلها بفتور ، لأنهم بعد أن نالوا حريتهم كانوا يخشون أن يعيد اليهم أيام طغيانه ، ولما نفى من وطنه حصل من أهل لسبوس على بعض السفن يطوف بها جهة بيزنطة ينهب أموال الذين لا يريدون أن ينضموا اليه .

أخذت العاصفة التى أثارتها ثورة أرسطاغوراس تهمى على رأس يونيا التى لم تتقهقر أمام هذا الخطر المزعج . انعقد البانيونيون وقرّر الحرب ؛ ولم تكن هناك

فكرة فى حرب برية فلم يؤلف جيش تما وعولت ملطية على أن تنفرد بحماية أسوارها التى يهددها العدو ، ولكنهم رتبوا أسطولا عظيما تجتمع سفنه فى لادى وهى جزيرة صغيرة قبالة ملطية ، فاجتمعت اليه السفن من كل ناحيـة حتى إن الأيوليين أرسلوا سبعين سفينة فكان الملطيون ومعهم ثمانون سفينة فى الجنـاح الأيمن جهة الشرق ، وكان مع البريينيين اثنتا عشرة سفينة ، ومع الميونتين ثلاثة ، ومع أهل طية سبع عشرة ، ومع الشيوزيين مائة سفينة ، ومع الاريتريين ثمان ، والفوكيين ثلاث فقط كالميونتين ، وكان مع أهل سموس فى آخر الجناح الأيسر الى جهة الغرب سبعون سفينة ؛ فكان هـذا الأسطول الكبير العدد فى طاقته أن يقاوم حلفاء الفرس الذين هم الفينيقيون والقبارصـة والصقليون والمصريون ، ولكن تسلل الشقاق بين اليونان ، وحقـد بعضهم على بعض حتى يوم الوقيعـة فلم يتناصروا كما ينبغى . وكان السموسيون واللسبوسيون أول من فر من حومة القتال . ويكاد الشيوزيون أن يكونوا وحدهم هم الذين صلوا سعير الحرب وقاموا بواجبهم ولكنهم كانوا أضعف من ألا يهزموا . وختمت الحرب بهزيمة تامة . وكان دينيس رئيس الفوكيين بطلا مغوارا ، وكانت عزيمته بحيث يضمن الظفر لو أطاعوا أمره ، فلما انهزم لم يجد مناصا من الهرب على شواطئ فينيقيا ، ومن هناك الى صقلية حيث يشن الغارة على القرطجنيين والطرهينيين .

بعـد هزيمة لادى حوصرت ملطيـة برا وبحرا فأحسنت الدفاع عن نفسها ، ولكنها أخذت عنوة بعد حصار مهلك ، فذبحت رجالها وسبيت نساؤها وأطفالها ، وسيق بهم أرقاء بأمر دارا الى مصب نهر دجلة ، واحتل الفرس المدينـة والسهل الذى يحيط بها وأعطوا بقية ما كان يتبعها من الأرض الى بيذاز يى قاريا . أما آتينا التى تخاذلت عن ملطية وتركتها ، فانها ألمت لمصائبها التى هى نذير بمصائب أدهى وأمر . ولقد صاغ هـذه الواقعة المحزنة الشاعر المأسأى فرينشوس فى رواية تمثيلية أبكت جميع شهود تمثيلها ، فحكم على الشاعر بتغريمه ألف درهم ومنعت الرواية منعا باتا .

ثم قصـد الفرس جزيرة سموس فلمـا رآهم أهلها ومعهم أقيس بن سـيلوزون طاغيتهم القديم الذى كان نفـاه أرسطاغوراس تفرسوا ماسينزل بهم القدر فاستحبوا

الرحيل من أوطانهـم على أن يحتملوا ظلمه مرة أخرى ، فهاجروا من جزيرتهم الى قَلَقْطَة حيث كان يدعوهم الى صقلية أهـل زنكل . وكان السموسيون هم وحدهم اليونان الذين هاجروا هذه المرّة هم والملطيون الذين استطاعوا أن يفرّوا من المذبحة . ودخل أقيس سموس تحت حماية الفرس الذين آستثنوا معابد هـذه المدينة وحدها من الإحراق اعتدادا بجميل السموسيين الذين تخاذلوا عن اخوانهم يوم لادى .

وقد حاول هستيا أن يقـاوم من جديد بعـد أن آنضم إليـه بعض اليونان والأيوليين، ولكنه قُبض عليه قرب أطرنة فى ميزيا وسيق إلى أرتافرن فى سرديس فقتله صلبا وأرسل رأسه مصبرة بالملح إلى دارا فى صوص .

ولمـا قضى الأسطول الفارسى فصـل الشتاء فى ملطية فتح جميع الجزر شـيوز ولسبوس وتنـدوس ... الخ فى حين أن الجيش البرى يستكمل فتح جميـع المدائن الإغريقية .

ولقد كان لآنتصار الفرس نتائج فظيعة، كما أنذر الفرس بذلك قبله بست سنين حين بدأت ثورة أرسطاغوراس، فإنهم كانوا يذبحون الرجال ويخصون أجمل الفتيان ويرسلون أجمل الفتيات الى صوص ، ويحرقون المدائن وما فيها من المعابد ليلتقموا لحرق معبـد سيبيل إلّهة سرديس . وفى أثناء ذلك كان أرتافرن عامل أخيـه دارا يدخل فى إصلاح الشقاق بين اليونانيين،وكان يضرب عليهم الجزية التى بقى مقدارها ثابتا لم يتغير إلى زمن هيرودوت أى بعد ستين سنة ، ثم أخذ مردنيوس صهر دارا قيادة جيش جرار فى البر والبحر وسار به فى يونيـا يقيم حكومة شـعبية متجها الى أوروبا ليعاقب آتينا و إريتريا على مساعدتهما فى عصيان مستعمرات آسيا الصغرى . فأما إريتريا فقد أسلمها بعض الخونة فقهرها داتيس، وحرقت معابدها وصفد رجالها فى الأغلال يساق بهم أرقاء الى صوص . وأما آتينا التى هدّدها الخطر بعـد إريتريا بأيام فانها اقتحمت الحرب وحدها هى والپلاتيون اقتحام الأبطال، وصدّت الغازين فى مَرَطون . وعلى ذكر مرطون أمسك عن القول لأنى لا أقصـد رواية عجائب

الشجاعة والوطنية . وما ذا أنا قائل فى الوطنية ! آتينا التى سيكون من أمرها أن تنير العالم بذكائها قد خلصته وقتئذ بعزيمتها التى لا تتزعزع، فاذا كان قدّر للفرس أن ينتصروا ما كان عسى أن تصير إليه المدنية الغربية؟ وما ذا يكون مصير أوروبا؟ الله وحده يعلم ذلك ولكن آتينا تستحق اعترافا أبديا بجميلها . وقد صيرت مرطون بلوغ الطرموفيل وأرتيميزيوم وسلامين وبلاته وميكال تجاه سموس من الممكنات . وكان أول شرط لقهر المتوحشين هو عدم الخوف منهم، ذلك هو السنة الحسنة التى استنتها يونيا والتى أخذت بها آتينا فى هذا الظرف أمام خطر مزعج . لقد افتدتنا مدينة مينرفا (آتينا) من الاستعباد الأسيوى منذ اثنين وعشرين قرنا . نحن الذين نعرف اليوم آسيا بعلاقة أننا نمدنها نستطيع أن نرى أكثر من اغريق ملتياد وطمستوكل من أية هاوية انتشلونا . ونستطيع أن نحلف كما فعل ديمستين بأسماء الأبطال شهداء مرطون .

فى كتاب هيرودوت ينبغى أن تقرأ هذه الحكاية الخطيرة على بساطة فى سردها كتبها بعد الواقعة بأقل من ثلاثين سنة، وإنه ليخاطب فى أولمپيارجالا أخذوا بحظ من ذلك الانتصار ومن الحوادث التى كان يمكن أن يكون هو لها شاهد عيان . فلا أريد أن أكرر ما حدّث به ذلك المؤرخ الشريف من سيرة المجد، ولكن لى بعض كلمات على يونيا لأتمشى بالحوادث إلى العهد الذى كان فيه ميليسوس آخر من علم من فلاسفتنا فى سموس مذاهب مدرسة إيلى .

لما قهر اليونان اضطروا الى أن يخدموا سادتهم ويتبعوهم فى حروبهم ضد إغريقا ، ففى سلامين كان من سموس اثنان من قواد الأسطول الفارسى : طيومستور بن اندروداماس وفيلاقس بن هستيا ، وقد أبليا بلاء حسنا ضد سفن لقدمونيا حين كان الفينيقيون يحاربون سفن آتينا، ولكنه مهما كان لإغريق آسيا الصغرى من العمل فى تأليف جزء عظيم من أسطول دارا وإكزاركسيس، فانهم لم يكونوا إلا ليتربصوا الفرصة المناسبة للعصيان . بعد هزيمة سلامين جاء أسطول الفرس

يقضى الشتاء فى كومة وفى سموس بعد أن وصلت الملك المغلوب ومعيته . فلما جاءت السنة التالية حضر الأسطول الإغريق تحت قيادة ليوتيخيدس ملك أسبرطة يبحث عن أسطول الفرس فى مياه آسيا الصغرى أظهرت له جميع مدائن الشاطئ والجزر استعدادها لمظاهرته والعصيان على الفرس ، وعلى الأخص جزيرة سموس ، فانها كانت تلتهب شوقا إلى خلع طيومستور الذى رماهم به المتوحشون طاغية عليهم . فأرسلت لهذا الغرض رسلا إلى ليوتيخيدس سواء فى أسبرطة أوديلوس ، ليؤكدوا له استعدادها . وربما كانت هذه المخابرات هى التى قوت رئيس الإغريق على الحضور لمهاجمة الفرس فى موضعهم ، ولكن المتوحشين منذ الدرس القاسى الذى تلقوه فى سلامين لم يكونوا ليجرءوا على اقتحام حرب بحرية . وقد أذنوا للأسطول الفينيق أن ينسحب ، ولم يكد يبق معهم إلا يونان وإغريق من الشاطئ ، فغيروا مركزهم من سموس الى ميكال حيث جروا سفنهم إلى البر وأحاطوها بسور يصح أن يكون خط دفاع ، وإلى جانبها جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة تجران الذى عهد إليه إكزاركسيس فى المحافظة على يونيا . وكان الفرس يظنون أنهم من موضعهم هذا فى حصن حصين . ولزيادة الحيطة قد نزعوا السلاح من أهل سموس الذين كانوا يتهمونهم بأن لهم ضلعا مع ليوتيخيدس والذين كان منهم أن افتدوا بمالهم أسرى آتينا وردوهم إلى وطنهم ، وفوق ذلك فقد كلف الفرس الملطيين بحماية الطرق المؤدية إلى قمم ميكال ، وعلى ذلك لم يكن لديهم أدنى ريب فى أن يصدوا من حصنهم كل هجمة عليهم من العدو ، ولكنهم مع ذلك قد أهلكهم الآتينيون والقورنتيون بفضل شجاعتهم وبانتقاض أهل سموس وأهل ملطية ، فدمر جيشهم تدميرا ، وقتل قائده تجران وحرق أسطولهم ورجع الإغريق ظافرين من هذه الموقعة مثقلين بالغنائم .

كانت يونيا قد تخلصت من حكم الأجنبي بعد واقعة ميكال ، ولكن هل تستطيع أن تقوم قائمتها بنفسها وتدفع عنها خنق المتوحشين متى تركت الى قواها وحدها ؟ . كان من المشكوك فيه أن لها طاقة على المقاومة ، فاجتمع القواد فى سموس وتداولوا فيما اذا كان الواجب على اليونان أن يهجروا نهائيا سواحل آسيا الصغرى

ويلتجئوا الى قسم من إغريقا يعين لهم ، فعارض الآتينيون جدّ المعارضة فى هـذا القرار مع أنه كان من الميسور تعويض اليونانيين على حساب الخونة الذين كانوا قد تخاذلوا عن الدفاع فى القضية العامة عند الغارة الميدية . وأما البلوبونيزيون فانهـم انضموا الى هذا الرأى من غير مشـقة ، ووقف الأمر عند عقد معاهدة محالفة مع السموسـيين والشيوزيين واللسبوسـيين وجميع الذين شاطروا فى الظفر . وقد كان الجيش الفارسى قـد التجأ الى سرديس حيث كان أكزاركسيس باقيا منـذ رجوعه المخجل ثم تركها توا الى صوص ليستر عاره ويكظم غيظه . ولـما أصبح الأسطول الاغريقى سيدا على بحر إيجه كله لا يهاب فيه عدوّا رجع الى جهة پيلوپونيز سائرا على امتـداد كل الشواطئ حاملا من أبيدوس بعض بقايا قنطرة أكزاركسيس المشهورة لجعلها فى المعابد تذكارا لذلك الانتصار .

لـما أمنت يونيا شر غارات الفـرس أخذت تعمر ما تخرّب ووضعت نفسها تحت حماية آتينا التى تربطها بها تذكارات المـاضى ومنافع الحال وضعا تاما بقـدر الإمكان ، وبهذه المثابة تحزبت يونيا مع آتينا ضدّ اسبرطة التى كان ملكاها ليوتيخيدس وپوزانياس موضعا للتظنن فيما يتعلق بعلاقاتهما مع المتوحشين . لقـد كانت آتينا قوية جدّا فى البحر بحيث تستطيع أن تقدّم ليونيا مساعدة عاجلة مفيدة فى حين أن اسبرطة لا تستطيع أن تقدم هذه المساعدة ولو أرادتها . من أجل ذلك أخذ اليونان بحظ عظيم فى اتحاد ديلوس وشاطروا بمقدار وافر فى النفقات العامة التى أنفقها الحلفاء للتحصن من هجوم المتوحشـين كرة أخرى ، وكان ذلك على أثر حوادث پلاتة وميكال أى فى نشوة الاسـتقلال المستردّ وبحبوحة الثقـة المتبادلة (نحو سـنة ٤٧٧ قبل الميلاد) .

ولكن آتينا كان من شأنها أن جاوزت فى استعمال السلطان الذى أوتيته عفوا فجرّت على نفسها الغيرة والأحقاد التى سببت بعـد ذلك حرب پيلوپونيز فى وقت كان عدوّهم المشـترك لا يزال فيه بقية . وأخذ سلطان آتينا ، كما نبه اليه أرسطو ،

يثقل على نفوس حلفائها الذين هم مساوون لها لا رعاياها ، وبخاصة أهل نكسوس وطاشوز الذين عوملوا معاملة قاسية ظالمة (٤٦٧ – ٤٦٥) ولم يكونوا ليستسلموا الى غطرسة الآتينيين فى أوامرهم . غير أن الأسطول الآتيني وهو مؤلف من مائتى شراع كان يمخر دائما على شواطئ آسيا عزيز الجانب مهيبا من الأسطول الفينيقى الفارسى الذى هرب أمامه حتى بلغ مياه النيل . كانت تلك خدمة حيوية ليونيا . من أجل ذلك كانت يونيا من جانبها تتسامح فى كثير من الامتهان الذى كانت تجنيه عليها حليفتها القوية فى مقابل هذه الحماية المستمرة التى تنالها . والظاهر أن اعترافها بجميلها كان الى الغاية القصوى حين رأت أن استقلالها مضمون بمعاهدة استكرهت آتينا على عقدها الملك الكبير بعد عدة انتصارات داوت الهزيمة التى وقعت فى مصر (٤٥٥ قبل الميلاد) . وهذه المعاهدة التى يرجع الفضل فى نصوصها الى دهاء سيمون وأعماله فى قبرص ، كانت تنص على أن فارس تترك شواطئ آسيا الصغرى التى يقطنها الإغريق حرة تمام الحرية فلا تضع عليهم جزية ولا تدنو بجنودها الى خط على مسافة معلومة من الشاطئ ، وفى مقابل ذلك يتعهد الآتينيون وحلفاؤهم ألّا يغزوا بعد الآن قبرص ولا صقلية ولا فينيقيا ولا مصر . وقد أرسل الاغريق سفراء الى صوص حيث صدق على المعاهدة وكان قَلْياس هو الممثل لآتينا (نحو ٤٤٩ قبل الميلاد)[1] .

صارت جمهورية آتينا وقتئذ فى أوج قوتها ، فانها كانت على رأس اتحاد بحرى تكاد تتصرف فيه على هواها ، مؤيدة بطائفة من الأحلاف فى القارة ، سيدة على مستعمرات عديدة على جميع سواحل بحر إيجه وعلى الهلّسبون و بحار الاغريق ، يضطلع بأعبائها رجل مثل بيريكليس . فهى لذلك كانت تتطلع الى بسط سلطانها المطلق على جميع الجنس الاغريقى . وهذا الطمع هو الذى أعماها وذهب بها . من بين حلفائها كانت سموس وهى أشدّهم بطشا وكانت تحتفظ هذه الجزيرة الكبيرة تلقاء آتينا بنوع من المساواة فى المعاملة قد لا يأتلف وما تضمره الجمهورية من مشروعات بسط سلطانها ،

(١) ألح ج جروت إلحاحا شديدا فى بيان الأهمية الكبرى لهذه المعاهدة . (تاريخ الاغريق ج ٥ ص ٤٥١ وما بعدها) .

فحدث شجار قليل الخطورة بين سموس و بين ملطيـة بشأن أرض پريين الصـغيرة جرّ الى المداخلة الآتينية فان الجمهورية قد دعت الفريقين الى التقاضى أمامها . وكانت سموس تخشى تحيز پيريكليس لملطية التى هى وطن أسپاسيا فرفضت قبول هذا التحكيم المريب فأرسلت آتينا لفورها أربعين سـفينة لإرغام سموس على الطاعة ، فقُلبت حكومتهم من الأوليجارشية الى الديموقراطيـة ، وأُخذ خمسـون من أعيان الأهالى وعدد مثله من أبناء العائلة الرفيعة رهائن وضعوا فى جزيرة لمنوس . وبقيت حامية فى سموس لتحقيق نظام الحكومة الجديدة (نحو ٤٣٩ قبل الميلاد) .

كان هـذا التصرف من جانب آتينـا فظيعا فقوبل بمثـله لأن منفيي سموس ذهبوا الى بيسوتنيس مرزبان سرديس يستنجدونه فأمدّهم ببعض مقاتلين فقصدوا سموس وعدّتهم سبعمائة رجل ، وآنقضوا على حرس الجزيرة الآتينى بياتا وأسلموهم إلى بيسوتنيس . وفى الوقت عينه كرّة رابحة مثل الأولى على جزيرة لمنوس ردت اليهم رهائنهم ، وفوق ذلك تحالفوا مع بيزنطة التى تكاد تكون مثلهم فى التبرم بحكومة آتينا ، وكان ذلك مفيدا لهم . كل هذا إنما هو خطر جدى يتهدّد الجمهورية ، فلو احتملت عصيان سموس لذهب ذلك برآستها وبسلطانها الذى كانت تؤيده هدنة الثلاثين عاما التى عقدت قبل ذلك ببعض سنين مع اسبرطة عدوّها الوحيد المريب ، لذلك عقدت آتينا العزيمة على التنكيل بسموس تنكيلا يمنع سـواها من أن يهم بتقليدها . ستون سفينة أرسلت سراعا الى الثائرين انفصل منها ست عشرة إما لمراقبة الأسطول الفينيق على شطوط آسيا ، لأن بيسوتنيس لا يفوته أن يضعه تحت تصرف الثائرين ، وإما ليأتى بالمـدد من جزيرتى شيوز ولسبوس اللتين بقيتا تحت الطـاعة ، ولكن من الجـائز عليهما أن تقلبا ظهر المجن . وبقى الأربع والأربعون سفينة أمام سموس تحت قيادة پيريكليس أحد القوّاد العشرة السنويين الذين من بينهم سوفكل الشاعر الذى نشر "أنتيجون" السنة المـاضية . ومع أن السموسيين كانوا يتوقعون هذا الهجوم ، فانهـم كانوا ذهبوا لمحاصرة ملطية ، وكانوا عائدين إذ آلتقوا مع پيريكليس

بالقرب من جزيرة تراجيا، ومع أنه كان لديهم سبعون سفينة من بينها عشرون تحمل رجال حرب فان پيريكليس لم يتأخر عن منازلتهـم وآنتصر عليهم، وعوّضت خسارة سـفنه بالمدد الذى جاءه وقدره أربعون سـفينة جاءت من آتينا وخمس وعشرون من لسبوس وشيوز اللتين قدّمتاها باخلاص .

وقد تلت الواقعة البحرية واقعة برية، إذ نزل الآتينيون الى الأرض، وآنتصروا على الثائرين وأسرعوا فى إقامة أسوار عالية تحصر المدينة من ثلاث جهات فى حين أنها مضيّق عليها من جهة البحر أيما تضييق . وفى هذا المركز الحرج تنّى للسموسيين أن يرسلوا خمس سفن تحت إمرة استيزاغوراس يستعجل الأسـطول الفينق الذى كانوا أحوج ما يكونون إليه . وليتدارك پيريكليس خطر تجمع هذا الأسطول أسرع بسـتين سفينة ممـا معه أمام سموس متجها الى قونوس فى قاريا حيث كانت هى موطن الاجتماع كما كان يقال . فلما بعد پيريكليس خرج السموسيون مستقتلين، ولم يكن خط دفاع الآتينيين قد تم بعد فانهزموا وخربت بعض سفنهم ودارت عليهم الدائرة فى البر والبحـر، ولكن نجاح السموسيين لم يكن ليلبث مدّة فان پيريكليس لمـا رجع بعد غيبة أربعـة عشر يوما غير مجرى الحال، ولكن فى تلك المدّة كانت المدينة قـد آستطاعت أن تدخر الزاد وفيرا وآستعدّت لمقاومة حصـار جديد . عاد الحصار كما كان وقوى الحصار البحرى بستين سفينة جاءت من آتينـا وثلاثين من لسبوس وشيوز فكادت تكون عدّة مجموع السفن مائتى شراع تحيط بسموس .

فى هذه الحادثة نال ميليسوس القدح المعلى فى الوطنية وسـعد الطالع، إذ كان على رأس الأسطول والجيش فانتهز غيبة پيريكليس وحرك حمية مواطنيه بغاية الاقدام وكسب الظفر الذى تكلمنا عنه آنفا . ويظهر على قول بلوتارخس فى ترجمة پيريكليس مستندا الى أرسطو : أن ميليسوس هزم پيريكليس نفسه فى واقعة بحرية أولى، غير أن طوكوديدس الذى شهد هذه الوقائع لم يقل شيئا من ذلك فتكون هـذه الرواية محلا للشـك ؛ ومع ذلك فان النجاح الأوّل لميليسوس لم يكن من شأنه أن يخلص

وطنه، فإن بيريكليس لما جاءه نبأ هزيمة جيشه عجل الى سموس فخرج ميليسوس للقائه ، ولكنه انهزم فى حرب برية، ويمكن أن يكون هزم أيضا فى واقعة بحرية . وقد استمر الحصار على أضيق مما كان . وبقيت سموس وفيها ميليسوس تقاوم تسعة أشهر، لأن بيريكليس كان أحب اليه أن يأخذها بالأناة حتى مع إنفاق المال والزمان من أن يسفك الدماء الآتينية .

فلما جاء السموسيون على آخر زادهم سلّموا ودكّ بيريكليس أسوارهم وأخذ سفنهم واضطرهم الى دفع نفقات الحرب التى قدّرت كما قيل بألف طالنطن، أى خمسة ملايين من الفرنكات فى زمننا، فدفعت سموس على الفور جزءا من هذا المبلغ الطائل وقتئذ، وتعهدت بدفع الباقى مؤمنا عليه برهائن قدّموها . ويقال إن بيريكليس أبدى فى هذا الظرف ما تقشعر له الأبدان من الفظاعة فى معاملة بعض الأسرى الذين ماتوا تحت العصا بعد تعذيب عشرة أيام، ولكن الذى روى هذه الفظائع مؤرخ متأخر من سموس وهو دوريس فى عهد بطليموس فيلادلفوس . ولا شك فى أن روايته تشفّ عن الحقد الوطنى، فان بلوتارخس زيّف هذه الرواية التى لم يجد لها أصلا فى طوكوديدس ولا فى أرسطو ولا فى إيفورس وهم الذين استرشد بمؤلفاتهم فى ترجمة بيريكليس .

يظهر أن آتينا كانت تعلق أكبر أهمية بقمع ثورة سموس، لأن مثلها من شأنه أن يُحتذى . فاذا قلد سموسَ غيرُها تداعت مشاريع الجمهورية الآتينية رأسا على عقب . من أجل ذلك قوبل هذا الظافر فى آتينا عند عودته اليها بأجل مظاهر التحمس، وأقيمت حفلات المآتم الفاخرة لشهداء هذه التجريدة ووكلت المحكمة المقدّسة أمر تأبينهم الى بيريكليس . ليس لدينا نص هذا التأبين، ولكننا يمكن أن نأخذ عنه فكرة من التأبين الذى نقله لنا طوكوديدس من حيث المعانى على الأقل، ذلك التأبين الذى أقيم لشهداء حرب البيلوپونيز، فان بين الحربين علاقة مشابهة : لأن كلتيهما فتنة داخلية تمزق وحدة الإغريق . وقد قوبل مدح شهداء حرب سموس

بغاية الحفاوة ، فان بيريكليس لما نزل عن منصة الخطابة قامت اليه النساء جميعهن متأثرات بالاعتراف بفضله يعانقنه ويتوجنه بالأزهار والعصائب ، كما كان يصنع بالمصارع المنتصر فى حفلة الألعاب العمومية ؛ إلا امرأة واحدة لم تشرك الجماعة فى ذلك الإعجاب المجمع عليه ، تلك هى إلبينس أخت سيمون الذى كان زمنا طويلا منافس بيريكليس وأقبلت عليه تقول له : " حق إنها أعمال مجد حقيقة بهذه الأكاليل ! ولقد أضعنا رجالنا لا فى حرب الفينيقيين أو الميديين ، كما فعل أخى سيمون ، ولكن فى تخريب مدينة محالفة تدلى بأصلها الينا وجعل عاليها سافلها " .

لم يكن هذا الانتقاد إلا مصداق الحقيقة ، ولكن الظافرين قد كانوا سكارى بخمرة الظفر . ولم يكن حظ سموس إلا نذيرا بما غيبه القدر لكثير من المدائن الإغريقية الأخرى فى الحرب الكبرى التى كان يتوقعها بيريكليس . والظاهر أنه هو أيضا كان متأثرا بنجاحه الى حدّ لا يأتلف مع اعتدال أخلاقه المعروف . فاذا صدّقنا فيه الشاعر يون الشيوزى لحسبنا بيريكليس يفخر بأنه فاق أغاممنون الشهير الذى قضى عشر سنين فى فتح مدينة أجنبية ، مع أنه لم يقض إلا تسعة أشهر للاستيلاء على أكثر المدائن اليونانية مالا وأعزها نفرا ، ولكن كلمة بيريكليس هذه إنما نقلها صديق لسيمون خصمه فهى بذلك بعيدة الاحتمال ، لأن كلمة كهذه تخرج من فم رجل سياسة لا تعدّ إلا غشما ، إنها فخر شخصى سيئ الذوق ومعاجزة فى غير موضعها موجهة للحلفاء ، ولكن مهما كان انتقاص هذا الشاعر له حقا أو باطلا ، فانه كاف فى الدلالة على ما علقته آتينا من الأهمية على هذه الحرب قصيرة العمر غزيرة الدماء . وعلى رأى طوكوديدس الذى هو مؤرخ شاهد عيان أن السموسيين لو كانوا انتصروا فى هذه الحرب لأخذوا من آتينا سيادة البحر ، فكانت هذه الحرب على ما هى محل للأسف حرب موت وحياة بالنسبة للجمهوريتين . فلما خضعت سموس رغم مقاومة ميليسوس العنيفة لم يبق لآتينا شىء تخشاه الا شرّ نفسها ، وذلك نوع من الخطر تلهو عن الشعور به المدائن كما تلهو عنه كبرياء الأفراد .

لا أريد أن أجاوز بهذه الاعتبارات التاريخية الى أبعد من ذلك بل يظهر لى أنها على إيجازها كافية لأن تكشف بوضوح عن حالة الوسط الحقيق الذى نشأت فيه الفلسفة والذى عاش فيه الأعيان الذين نشتغل بأمرهم وعملوا أعمالهم . وإنى ملخص أبرز رسوم هذه اللوحة التى رسمتها لانعاش حياة تلك الأزمان أو بعض أجزائها على الأقل .

أجل ظهرت الفلسفة لأول مرة فى آسيا الصغرى قبل الميلاد بستة أو سبعة قرون ، انها المستعمرات الاغريقية التى خرجت من يونيا پيلوپونيز، وهى التى أشعلت هذا المصباح فى أقطار نصف متوحشة ونقلته الى آتينا حيث كان الاستعداد للانتفاع به تاما ، فان أنكساغوراس الكلازومينى عاش مع سقراط ، وسقراط هو أب لأفلاطون ، ويمكن أن يقال إنه أب لأرسطو أيضا ، ولكن قبل أرسطو وقبل أفلاطون وقبل سقراط كانت بذور الفلسفة مبذورة على أرض أخرى ، وكان من اللازم أن تنقل الى أطيقا حيث تؤتى ثمراتها . نعم إن الفلسفة كانت مسبوقة هناك كما هو شأنها فى كل ناحية بالشعر ، فان هوميروس أنشد من قبل أن يفكر فيثاغورث بأربعمائة أو خمسمائة عام ، ولكن العلم بجميع صوره : الفلك والرياضيات والطبيعة والتاريخ والطب ، كل ذلك تبع الفلسفة وناصرها ، لأن الفلسفة هى التى نفخت روح الحياة فى كل هذه الفروع واكتسبت بها قوى جديدة .

فى وسط المنازعات المدنية والحروب الأجنبية والتجارة والصناعة والملاحة الى الجهات السحيقة والوقائع والأخطار المتنوعة ، فى وسط حروب الأبطال التى كان يذكى نارها فئة قليلة من الرجال الأذكياء الأحرار على دولة فخمة ، فى وسط كل ذلك يجب أن يوضع مهد الفلسفة الخاشع المجيد . لم يكن هاجر فيثاغورث وإكسينوفان الى شواطئ إيطاليا وإلى إغريقا الكبرى إلا سخطا على الطغيان أو الاضطهاد . وما لقحت ايطاليا إلا بهذين الأستاذين اللذين جاءاها من الشاطئ الآخر للبحر ، ولكنها لم تثمر لأن النبات الغريب لم يجد فيها الأغذية الضرورية

لنضجه . فكان أن ترجع الفلسفة الى منزلها الأوّل الذى منه درج أوائل المهاجرين لتكسب فيه صورتها الحقيقية وتكتسى ثوب جمالها وتستوفى قسطها من العظمة وحقها من الاستقلال الذى كللها به استشهاد أهليها . غير أن هذه الفلسفة ذاتها مهما دعا الظاهر الى أنها ابتُدعت فى إغريقا أفلا يكون من المحتمل أن تكون اقتبست الشرارة من قبس الاختلاط مع جيران إغريقا ؟ فان طاليس قد عاش مع الليديين ، وأصل أجداده من فينيقيا . وفيثاغورث الذى يمكن أن يكون هو أيضا من أصل فينيقى زار حقيقة سوريا ومصر وكلدة ما ذا تعلّم هناك ؟ وماذا جلب منها ؟ أو بعبارة أخرى بماذا تدين الفلسفة الإغريقية جدة فلسفتنا وأم غربنا للعلم الشرقى ؟ هل من عليم يحل هاتين المسئلتين ؟ هل العقل اليونانى بل العقل الغربى اقترض شيئا مّا من العقل الشرقى العتيق ؟ هذه أيضا مسئلة مظلمة على ما لدينا من النور الحديث ، وسأحاول الجواب عليها بعد، غير أنى بادئ ذى بدء أبغى تكملة لما سبق أن أثير مسئلة أقل بسطا ولو أن لها أهميتها وفائدتها فإنها مع قلة تسديدها جوهرية .

نحن نعرف فلاسفتنا ونعرف بعض الحوادث الرئيسة فى حياتهم. نعرف بعض مؤلفاتهم إن لم تكن لدينا كلها . و إذا كان هوميروس هو وحده الذى وصل إلينا كاملا تقريبا بفضل أفلاطون فقد كان يمكن أن يصل إلينا الآخرون اذا لم تكن المصادفة أعدمت تآليفهم التى هى مستودعات أفكارهم . إذًا فقد كتب الأقدمون! ومن ذا الذى يجعل ذلك موضعا للشك! هذه النظرية التى أقربها هنا ليست قاصرة على ما يتعلق بطاليس وفيثاغورث و إكسينوفان ومعاصريهم ولكنها تنسحب أيضا على من قبلهم وعلى من بعدهم إلى مسافات طويلة ، كيف خرجت من أيدى مؤلفيها تلك المؤلفات التى هى الآن تحت أيدينا كاملة أو آثارا ناقصة ومخرومة . وعلى أى مادة كتبت بادئ الأمر وماذا كانت وسائط الكتابة فى عهد إكسينوفان بل فى عهد ليكورغوس أو هوميروس؟ ولأجل أن يكون بحثنا فى حدود وضعية ضيقة

تساءل كيف كانوا يكتبون فى المستعمرات الإغريقية بآسيا الصغرى فى حاجات تجارتهم النشطة ومقتضيات سياستهم المعقدة الحازمة وشعرهم الحادّ وعلمهم العجيب وبالجملة فى سائر حاجات عيشة اجتماعية راقية مليئة بالأعمال .

أظن أننا الآن بحيث نجيب على هذه المسئلة بطريقة قاطعة واضحة تمام الوضوح . ولكن قبل أن نقول كلمتنا فى هذا اللغز نرى من الحسن تقديم حوادث مسلّم بها لنبين أن استعمال الكتابة قبل الميلاد المسيحى بسبعة قرون فى آسيا الصغرى بل فى فارس نصف المتوحشة كان من الانتشار والسهولة على ما هو عليه عندنا الآن . كانت موادها أشياء أخرى ولكنها تكاد تساوى المواد التى نستعملها اليوم إلا أعجوبة المطبعة . لم يكن للناس فى تلك الأزمان البعيدة ورق كالأوراق التى عندنا ، ولكنهم كان لديهم ما يساويه وما يؤدّى لهم المطلوب من الورق .

أفتتح بالمصادفة هيرودوت وطوكوديدس وإكسينوفان وأفلاطون وأرسطو وآخذ الأشياء كما رووها بل كما رأوها وكما استعملوها .

أضمر هربغوس وهو فى معية أصطياغ ملك الميديين أن ينتقم من سيده القاسى انتقاما وينتصف لنفسه ، وأراد أن يتفق مع قيروش الذى على حداثة سنه كان له بين الفرس من النفوذ ما سيخرج منه مملكة فسيحة الأرجاء . لما لم يسع هربغوس أن يتصل مباشرة بالأمير الشاب الذى يحمل هو أيضا ما يدعوه للانتقام ، أرسل خادما أمينا يحمل اليه بعض الصيد ، وجعل فى بطن أرنب كتابا أخفاه فيه يحرّض به قيروش على الثورة ، ويؤكد له مساعدته إياه . ما ذا فعل قيروش؟ لما فتح بطن الأرنب بيده ، كما أوصى المهدى خادمه به ، وقرأ الكتاب بمعزل ، وضع كتابا مزوّرا يفيد أن أصطياغ قد عينه رئيسا على الفرس التابعين وقتئذ للميديين . وقرئ ذلك الكتاب المزوّر على أعضاء عائلة الأشيمينيين فصدّقوه ، وبهذه المثابة قادهم قيروش على غير علم منهم وحارب بهم أصطياغ وخلعه[1] . ولم يكن هربغوس وقيروش مع ذلك

(١) هيرودوت ك ١ ب ١٢٣ وما بعده .

إلا متوحشين ، ولكن ها نحن أولاء بصدد أناس متعلمين في آسيا الصغرى وفى مصر .

وهذا پوليقراطس طاغية سموس وهو على سرير ملكه متمتعا بالرفاهية الى غايتها والناس الذين يعجبون به أو يخافون بطشه يكبرون منه حذقه وسعادته . وكان له بأمازيس الحكيم ملك مصر رابطة اتفاق بل صلة صداقة نخاف أمازيس على صاحبه ذلك الموفق المهيب مما اجتمع له من التوفيق المستمر أن يتغير له الدهر، وهو يعلم أنه لا ثبات للحظوظ الانسانية فنصح له أن يحذر الغِيَر فى تقلب القدر، كتب له بذلك خطاب عطف ونبوّة أوصاه فيه أن يضرب على نفسه قربانا يتقى به سخط الحظ الخادع الخائن إن استطاع . فأجابه پوليقراطس الذى يخشى على نفسه ما يخشاه صاحبه بخطاب أرسله اليه فى مصر، ذكر له فيه الوسيلة التى اتخذها ليصيب نفسه بمحض اختياره بمصيبة موجعة، والمصادفة الخارقة للعادة هى التى صيرت قربانه عبثا . فكان أمازيس و پوليقراطس يتبادلان الرسائل بين سموس ومنفيس على نحو السهولة التى يتخاطب بها التجار فى وقتنا الحاضر بين أزمير والاسكندرية[1] . ليست أدّعى أن الخطاب الذى نسبه هيرودوت الى أمازيس صورة رسمية من خطابه الأصلى لا يتطرّق اليها الشك ولكنه لا محل لأدنى شك فى أن الملكين كانا يتبادلان الرسائل الكتابية .

كذلك كان پوليقراطس نفسه قد جمع مكتبة كثيرة الكتب كما ذكرنا آنفا، وقد كانت فى العالم الإغريقى احدى الباكورات التى استمتع بها پوليقراطس وأنفق فى جمعها مالا طائلا . ويقولون نحو ذلك بالنسبة الى بيزيسطراط المتقدّم بالزمان على پوليقراطس . يقولون إنه أنشأ مكتبة فى آتينا وجعلها مكتبة عمومية ليلطف من حال الشعب بهذه المزية وبغيرها، ولكن ناقلى هذا الخبر الينا هم من المتأخرين، لأن أحدهما أطينى والآخر أولوچل ، غير أنى لا أجد أسبابا تحمل على الشك

---

(١) هيرودت ك٣ ب ٤٠ وما بعده .

فى روايتهما . فأما پوليقراطس فان مصر كانت له قدوة ما كان أسهل عليه تقليدها كما سنبينه بعد، وكان فى استطاعته أن يجمع آثار المؤلفين الذين يعجبون سكان الشواطئ الذين يطربون للشعر و يتذوقون طعوم العلم منذ عهد هوميروس. وأما بيزيسطراط فمن المؤكد أنه اذا لم يكن فتح مكتبة للجمهور فهو على الأقل قد اقتنى الكتب واشتغل بنفسه فيها لغرض سياسى محض. وروى بلوتارخس فى كتابه "حياة طيسى" أن بيزيسطراط سلخ من "هيزيود" بيت شعر كان يمكن أن يجرح صالف الآتينيين، وأنه زاد على قصيدة هوميروس بيتا من شأنه أن يسرّهم ؛ فذلك الحذف وهذه الاضافة كيف يمكن إثباتهما إلا أن يكون لديه نسخ من تلك القصائد يمكن فيها التغيير والتبديل .

نرجع الى استعمال الرسائل فى العهد الذى نحن بصدده .

ان أوريطيس مرزبان سرديس الذى عامل پوليقراطس بتلك القسوة الفظيعة استوجب بسلوكه الوحشى سخط كل من حوله ، فان أحد زملائه عاب عليه أحبولته التى نصبها لطاغية سموس ، فقتله هو وابنه . وكان دارا الذى ارتقى عرش الملك حديثا ساخطا على أوريطيس الذى فوق ما قارف من الآثام تلكأ فى حرب المجوس والفرس بعد موت قمبيز، وكان ذلك أكثر مما يلزم للملك الجديد من الأسباب التى تحمله على التخلص من مرزبان قوى يسوس فريجة وليديا و يونيا جميعا و يقود جيشا عرمرما . ولأن يقبض عليه جهرا بالقوّة فيه ما فيه من عدم التبصر خصوصا فى ابتداء حكم جديد . ومع ذلك فان أوريطيس دسّ على سفراء دارا الذين جاءوا يدعونه الى مقابلة الملك من قتلهم سرا، فصار بجملة مافعل مستحقا للعقوبة ، ولكن كان يلزم مداراته بعض الشىء وتجنب ثورة أصبح حدوثها قريب الوقوع، فدعا دارا أكابر الفرس وطلب اليهم أن يخلصوه من ذلك العاصى إما بقتله و إما بالقبض عليه و إحضاره، وفى كلتا الحالتين لا ينبغى اتباع غير طريق الحيلة ، فتقدّم اليه منهم ثلاثون دفعة واحدة كلهم يعرض قيامه بهذا العمل وحده ، فلم يشأ دارا أن يختار من هذه العروض الصادرة عن الاخلاص واقترع بين أصحابه فصادفت القرعة باجى بن أرطوطيس .

ما ذا فعــل باجى ؟ كتب كثيرا من الأوامر تتعــلق بمسائل شتى ، وختم كل واحد منها بختم دارا ، فلمــا وصل الى سرديس ســلّم هذه الأوامر الى سكرتير الملك بحضرة أوريطيس ، لأن كل مرزبان كان لديه ممثل للملك ؛ ففضّ السكرتير الخاتم عن تلك الأوامر وقرأها على الضباط العظام الذين كانوا حول أوريطيس . وكانت تلك الأوامر موجهة اليهم بنوع أخص ، فتلقوا جميعا أوامر الملك بغاية الطاعة والاحترام . فسرّ باجى بهذه المحنة الأولى ورأى أن فى استطاعته الاعتماد على طاعتهم ، فأفضى اليهم سرا ببعض الأوامر التى يأمرهم فيهــا دارا بالانفضاض عن أوريطيس والانقطاع عن خدمته ، فأطاعه الضباط أيضا وألقوا رماحهم دلالة على أنهم تركوا المرزبان ، فلمــا تحقق باجى من تأثيره فيهم جعــل سكرتير الملك يقرأ عليهم أمره إياهم بقتل المرزبان ، فهجموا عليــه فخر صريعا تحت طعنات ســيوفهم ، وبذلك أخذ منه القود لپوليقراطس ، ونال دارا بغيته من الانتقام[1] .

على ذلك كان الفــرس أنفسهم فى زمن دارا يستعملون الكتب بالسهولة التى يستعملها بها الإغريق الذين هم أرق منهم تعلما وأكثر مدنيــة ، فان الملك الكبير كان يرسل أوامره الى جميع أجزاء مملكته الفسيحة الأرجاء . وكانت هذه الأوامر مكتوبة بالأوضاع وبالمواد التى ربما لا تزال تستعملها الى الآن تلك البلاد القليــلة المدنيـــة .

لمــا اتهم الإغريق پوزانياس بأن له ضلعا مع الفرس وكرهوه عزم فعلا على خيانة قضيتهم الشريفة التى طالمــا خدمها فى پلاتة ، فراسل أكزاركسيس بكتاب يعرض عليه فيه أن يخضع له أسبرطة وبقية بلاد الإغريق ، فقبل ملك الفرس عرض ذلك الخائن ، وكتب إليــه بخط يده كتابا أرســله إليه مع أرطباز مرزبان دسكيلينس . فلما أحسن أهــل إيفورُس خيانة ملكهم ، كتبوا اليه ينذرونه بأن يغادر طروادة ويعود الى أســبرطة حيث يستطيعون مراقبة سلوكه . فــلم يجرؤ پوزانياس على

(١) هيردوت ك ٣ ب ١٢٦ وما بعده .

بمخالفتهم ، وعاد الى مقر ملكه ، ولكنه لم يكفّ مع ذلك عن مراسلته الجنائيــة ، ولكن الرجل الذى سلم اليه آخر الرسائل خاف على نفسه لأنه لم يعد ولا واحد من الرسل الذين حملوا أمثال هذا الكتّاب الى دارا ، ففضّ غلاف الكتب بعد أن قلد الختم الموضوع عليها ليقفلها كما كانت ، فتحها ليرى ما اذا كان لخوفه محل ، واذا به يقرأ توصية على قتـله ، فحمل الكتب الى أهل إيفورُس وبلغهم أمر الملك الذى كان يسلم إغريقا للمتوحشين .

إن تاريخ طيميستوكل أشـبه ما يكون بتاريخ پوزانياس وإن كان أقل منـه جناية ، لأن الآتينيين كانوا حرضوه على الخيـانة بأن عاقبـوه بالنفى ظلمـا فكاتب أرطقزاركسيس . ولمـا هرب من أرغوص الى قرقير ومنها الى الملك أدميت ملك الملوص ، ومن عنده الى اسكندر ملك مقدونيا جاء آخر الأمر الى ايفيزوس حيث كتب الى الملك الكبير يطلب اليه ملجأ أباه عليه الإغريق . وقد روى طوكوديدس صورة ذلك الكتّاب ولا محل للتظنن فى صحته (1) .

من غير النافع أن نعدّد الأمثلة لأنها مستفيضة فى جميع المؤرخين الذين لم أذكرهم وليس من الضرورى أن نذهب بالتمثيل بعيدا ، فقد وضح أن الناس فى إغريقا وفى آسـيا الصغرى كانوا يسـتعملون الكتب فى الأعمـال العمومية والخصوصـية على نحو ما نسـتعملها نحن تقـريبا ، وبوسائل أشـبه ما تكون بوسائلنا من حيث المـادة التى كان يسهـل الحصـول عليهـا من غير عناء ، وأنهـم يختمون الأوراق على نحو ما نختم أوراقنا بالطوابع الرسميـة ، وبالأختام التى يمكن تقليدها من غير أن تكسر... الخ .

وماذا كانت تلك المواد ؟ — .

تجيبنا على ذلك عبارة هيرودوت الصريحـة ، فان ذلك المؤرخ العظيم للأزمان الأولى للعالم الاغريق قال فى عرض حديثه عن كيفية نقل "قدموس" الحروف الهجائية من فينيقيا الى القارة عند اليونان ما يأتى :

(1) طوكوديدس ك ١ ب ١٢٨ وما بعده .

" يطلق اليونان على الكتب من قديم الزمان اسم الدفاتر أو الجلود لأنهم "
"لما لم يكن عندهم ورق فى تلك الأزمان كانوا يستعملون للكتابة جلود المعزى"
"والغنم ، بل فى أيامنا ما يزال كثير من المتوحشين يكتبون على الدفاتر أو جلود من"
"هذا النوع"[1] .

وقد أتى هيرودوت بما لا يقل عن ذلك عجبا ، فانه ذكر أنه رأى بنفسه عند زيارته طيبة فى بيوسيا فى معبد أپولون الأسمينى ثلاثة نصائب منقوشا عليها بالحروف التى كانت تستعمل فى يونيا ، وهذه النقوش بالغة فى القدم الى لايوس أبى أوديب أى بعد قدموس بأربعة أجيال .

إن الكلمة التى يستعملها هيرودوت عبارة عن الكتب هى كلمة " بيلوس " ودلالتها معروفة بصورة مضبوطة ، فان هذه الكلمة تدل على جزء معين من بردى مصر . ولم يترك تيوفراسط محلا لأقل شك فى هذا الصدد ، فانه فى كتابه "تاريخ النباتات"[2] قد وصف النباتات المائية ، وتبسّط فى وصف البردى الذى ينمو فى ماء النيل ، وعدّد الاستعمالات المهمة المتنوعة التى يصلح لها البردى ، وبعد أن قال : إن من الخشب تصنع المراكب ، قال : "ومن البيلوس تصنع الشرع والحصر والملابس أحيانا والنعال والحبال وأشياء أخرى كثيرة أهمها الكتب " بيليا " المعروفة عند الأجانب حق المعرفة . وعلى ذلك يكون معنى بيلوس الذى ذكره تيوفراسط هو ذلك الجزء من ساق البردى الذى لمرونته ومقاومته يقبل هذه الاستعمالات المختلفة بالنسج واللىّ .

وخلاف مكتبتى بيزيسطراط و پوليقراطس ، فالثابت من الأدلة التفصيلية التى أتى بها أفلاطون أن الكتب فى زمنه على المعنى الذى نفهمه نحن من هذا اللفظ كانت منتشرة جدّ الانتشار بآتينا . وقد روى سقراط نفسه فى كتاب "فيدون" أنه سمع ذات يوم انسانا يقرأ كتاب انكساغوراس وفيه أن العقل هو نظام كل الأشياء

(١) هيرودوت ك ٥ ب ٥٩ وما بعده .
(٢) تيوفراسط وتاريخ النباتات ك ٤ ب ٩

ومبدؤها . ولمـا قرعته هذه الحكمة البالغة رجا أن يجـد فى انكساغوراس حل كثير من النظريات بعد ما سمع من براعة الابتداء، بجد فى طلب مؤلفاته وهو يظن أنه سيتعلم منها علم الخير والشر، فقرأها على شوق الفهم، ولكنه كلمـا تقدّم فى القراءة خاب من رجائه فألقى بها الى جانب ليعود الى تفكره الذاتى؛ اذًا كان اسقراط كتب يراجعها ويتركها، كما يفعل بيننا عشاق العـلم والحكمة سواء بسواء ، يرجعون الى كنوز دور الكتب فلا يجدون فيها شفاء الغلة الذى يطلبونه .

وروى أنتيفون فى أوّل كتابه « پرمينيد » نقلا عن رواية فيتودور أحد أصحاب زنون الإيلى قال : " لمـا أتى پرمينيد وكان قد تقـدّم فى السن الى آتينا مع تلميذه أقام فى حىّ السيراميك خارج الأسوار فانتقل إليه سقراط فى رُفْقة ليسمع قراءة كتب زنون" وكانت تلك هى أوّل مرة حمل فيها زنون و پرمينيد هذه الكتب الى آتينا . وكان سقراط وقتها صغير السن . وكان زنون نفسه هو الذى يقرأ كتابه لأن پرمينيد كان غائبا فى تلك اللحظة وكان على وشك أن يفرغ من القراءة إذ عاد فيتودور ومعه پرمينيد ومستمع آخر هو أرسطوطاليس الذى صار بعـد ذلك أحد الثلاثين ، ولم يسـمع فيتودور إلا قليلا ممـا كان باقيا ، ولكنه أقام الى آخر التلاوة التى كان قد سمعها قبل ذلك فى جلسة أخرى .

لمـا أصغى سقراط الى النهاية طلب الى زنون أن يتفضل بإعادة القضية الأولى من الكتاب الأوّل فأجاب طلبه مع الارتياح، وأخذ الكتاب وأعاد الجملة التى وقف فيها سقراط والتى أراد سقراط استحضار ألفاظها حتى يدخل فى مناقشة المعانى : " اذا كانت الموجودات متعـدّدة لزم عليـه أن تكون متشابهة وغير متشابهة فى آن واحد فيا بينها ، وهـذا مستحيل لأن غير المتشابه لا يمكن أن يكون متشابها ، وما هو متشابه لا يمكن أن يكون غير متشابه أيضا " وآبتـدأ الجدال وقتئـذ فكرر سقراط قضية زنون ، وسأله اذا كان هذا حقا هو ما يريده ؟ فأكد زنون أن ذلك هو غرض كتابه ، فالتفت سقراط الى پرمينيد وقال له : " أرى واضحا أن زنون متصل بك لا بصلات الصداقة فقط بل بكتاباته ، فالواقع أنكما تقولان جميعا معنى

واحدا، و إن اختلفت العبارة، فان أحدكما يثبت أن الكل هو واحد، و يثبت الآخر أن التعـدّد ممتنع" فاعترف زنون بأن الحق فى جانب سقراط ، وأنه ما كتب كتابه إلا انتصـارا لمذهب پرمينيد ضدّ أولئك الذين يبغون جعله سخريّا ، وأن كتابه جواب على نصراء التعدّد ، وأن الغرض منه أن يبين لهم أن مذهبهم نفسه له نتائج أسخف من المذهب المضادّ . وزاد على ذلك زنون بقوله : "إنى ألفت هذا الكتاب مدفوعا بدافع المجادلة ، فسرق منى قبـل أن أسائل نفسى عمـا اذا كان ينبغى نشره أو لا ينبغى . على هذا كنت يا سقراط تخدع نفسك اذ اعتقدت أن هذا الكتاب إنما أملته على رغبة رجل ناضج بدلا من أن تنسبه الى شاب يميل به ما لطبع الشباب من حب المغالبة" .

واستمر حديثهم دائرا على موضوع الوحدة والتعدّد بمـا هو معروف لديهم من المواربة والمغالطة ممـا أكفّ عن الاسترسال فيه ، فحسبنا هـذه التفاصيل دلالة على أن زنون و پرمينيد لمـا جاءا من إيليا الى غرب إغريقا الكبرى كان فى بلدهما كتب كما فى آتينا ، وأن هؤلاء المتناظرين كانوا يتخـذون الكتب لمـا نتخذه نحن من الأغراض يقرءونها ويعيـدونها ويقفون ببعض جملها للتحقق منهـا . ونحن فى شأننا لا نقلب إلا على مثالهم صفحات ما لدينا من الكتب التى فى حجم الثمن أو الاثنى عشرى التى ليست بأكثر مطاوعة للتقليب من كتبهم .

وفى مقدّمة فدر الرشيقة قابل سقراط ذلك الشاب الذى خرج يتنزه فى الخلاء بعد أن مضى صباحه قاعدا . فيم قضى فدر صبحه إذًا؟ فى استماع قطعة كان يقرؤها له ليزياس بن سيفال، وما زال مأخوذا بما قرئ عليه . وقد كان ليزياس أتى خصيصا لهذا الغرض من بيره الى مونيشيا ، فطالب سقراط من صديقه الشاب أن يفسر له ذلك الكلام العجيب، فامتنع فدر بفكرة أنه أقل علما من أن يكرر مثل تلك العبارات الجميـلة ، ولكن سقراط الذى كان عليما بشغف صاحبه رقيق الحاشية أكد له أنه لا بد أن يكون قد حفظ تلك القطعة عن ظهر قلب، لأنه لا بد أن يكون استعاد

من مؤلفها أن يقرأها عدة مرات وأنه لم يقنع بذلك بل لابد أن يكون أخذ الكراسة المكتوبة فيها حتى يقرأها على خلاء ، وأن ذلك كان شغله الشاغل الذى ألهاه عن الخروج صبيحة يومه ، فأخذ فدر يتنصل بحجج ضعيفة، ولكن سقراط ألحف فى المسألة فأظهره فدر على الرسالة المخطوطة التى كانت بيده مخبأة تحت طرف ردائه، وأخذ الصاحبان يحثان وهما سائران على شاطئ الألصوص حيث كان يغمر فيه سقراط قدميه ليبترد، عن مكان يناسب القراءة بالراحة حتى وصلا الى مجلس تحت شجرة ساج عالية ظليلة بجانب شجرة كف مريم يعطر نَوْرها الهواء على مسمع من خرير عين صافية بين التماثيل والأصنام القائمة للحور ولنهر أخلاوس ، فجلس فدر وسقراط فى الظل على الحشيش الغض وقرأ الشاب كتاب ليزياس فى النسخة التى معه .

فأثنى سقراط على بلاغة ليزياس ، ولكنه لم يصل الى حد إعجاب صاحبه الشاب وقال له : إن هذا الموضوع قد كتب عليه الحكماء فى الأزمان القديمة بما لا يقل إجادة عن هذا ؛ وحسبك منهم الحسناء سافو الشاعرة أو الحكيم أنقريون بل حسبك أى كاتب من الكتاب ؛ فلم يصدق فدر من ذلك شيئا وسأله أن يأتى بأحسن مما أتى به ليزياس، وإن لم يفعل على الفور فلن يقرأ له شيئا بعدها، فأخذ سقراط لفوره فى مسابقة ما ظنها مستحيلة عليه . وأعاد كلام ليزياس فى نفس الموضوع على ما فيه من الشطط والإشكال ، ولكنه ارتقى كثيرا عن هذه المنافسة التافهة فى موضوع مطروق ، وانتهز هذه الفرصة ليعطى الشاب درسا فى الخطابة والذوق . إن ليزياس يكتب أكثر مما ينبغى فيجب تعلم الحكم على مؤلفاته حتى لا تعطى من القيمة أكثر مما تساويه فى الحقيقة، وان رجال السياسة البصراء يربئون بنفوسهم عن تأليف مؤلفات تكون بعدهم موضوعا لانتقاد الخلف انتقادا قاسيا ، فاذا كتبوا بالمصادفة شيئا كتبوه بكل عناية حتى لا يعاب عليهم . وهذا بيريكليس أخطب الخطباء وتلميذ أنكساغوراس العظيم لم يترك شيئا مكتوبا .

و بينـا سقراط يرسم قواعد الخطابة الحقيقية إذا به يصل الى اختراع الكتابة والكتب . على حسب أسطورة محفوظة فى نقراطس، احدى مدائن الدلتا ، ربما كان سولون قد وعاها من هناك ، أن الكتابة من اختراع الإله توت وهو أفضى بها الى الملك طاموس الذى كان يحكم فى طيبـة . ولم يعجب طاموس بهـذا الاختراع كما أعجب به مبـدعه ، وخشى على المصريين من الكتابة التى يبعـد عليها أن تصـيرهم أكثر حكمة بل تضرهم متى جعلتهم يعتقدون أنهـم يعلمون ما يقرءونه قراءة سطحية فى كتبهم . قال سقراط معضـدا رأى طاموس : "يكون الانسان" "من البساطة بمكان اذا تصوّر أنه يمكن إيداع أى فن من الفنون فى الكتب . وأنه" "يمكن تعلمه منها ، كما لو كان قد خرج يوما من الكتب شىء بيّن متين ؛ إلا ما يكون" "من تنشيط الذاكرة عند الذى كان يعلم من قبل ماتحويه الكتب . وإن محصلات" "الكتابة أشبه بمحصلات الرسم . سل لوحات الرسم تجبك بسكوت جليل ، وسل" "الكتب تجبك دائمـا بهذا الجواب . وقد تعتقد عند استماع ما فيها أنها عليمة ،" "ولكن مقالا متى كتب دار فى كل ناحية ، فيقع فى أيدى من يفهمونه كما يقع" "فى أيدى الذين لم يكتب لأجلهم ، وانه لا يعرف لمن يتكلم وأمام من يلزم الصمت ." "فاذا آحتقره أو عابه أحد بغير حق التجأ الى أبيه ليساعده ، لأنه لا يستطيع أن" "يقاوم ولا أن يساعد نفسه " .

فسقراط يحط من شأن هـذه المقالات الميتة فى طى الكتابة التى تحويها و يرفع فوقها قدر المقال الذى ينقشـه العلم فى نفس الذى يتعلم ، ذلك المقـال الحىّ الملىء بالحياة هو الذى يبقى فى الذهن ، وما منزلة المقال المكتوب منه إلا الشبح الباهت . هـذا هو ما ينصح لفـدر أن يكثر العناية بمزاولتـه . ان الشاعر والناثر يصححان ويحرّران ألف مرة ما قد كتبا ، يزيدان عليه أو ينقصان منه ، ولكن يلزمهما قبل كل شىء أن يهتما بما فى نفسيهما و يرعيانه حق رعايته ، تلك هى الوسيلة لآستحقاق ذلك اللقب الجميل لقب الفيلسوف . ذلك هو الرأى الذى يمكن أن يعطيه فدر الى

ليزياس، وذلك هو الرأى الذى يعرف سقراط كيف يجعل أصحابه الشبان يتذوقونه، وعلى الأخص إيزقراط الجميل الذى عليه مخايل النبوغ .

أنا لا أناقش رأى الحكيم الآتينى مهما ظهر لى منه عدم ائتلافه مع ذوقه السليم المعروف، ولكن أياً كانت قيمته فانه ينتج منه أن سقراط وفدر وجميع أصحابهما يستعملون الكتب كما نستعملها نحن؛ يكتبون مقالاتهم ومؤلفاتهم كما نفعل نحن، ويدرسونها ويصححونها ويهذبونها كما نفعل نحن . وينتج من هذا فوق ما تقدّم أنه منذ زمن أفلاطون كان ينسب اكتشاف الكتابة واختراع الكتب الى مصر . ولا شك فى أن أفلاطون وهو من ذرية سولون يجب أن يعلم أكثر من غيره شأن تلك الأسطورة التى جاء بها جدّه الأمجد من البلد الأجنبى .

وعلى هذه الوقائع القاطعة نزيد وقائع من العصر ذاته . لما وصل إكسينوفون رئيس تقهقر عشرة الآلاف من بيزنطة الى سلميديس آخر نقطة وصل اليها فى الشمال، حكى أنه عند دخوله فى البحر الأسود وجد سفنا كثيرة جانحة فى الرمل تحت جرف الشاطئ، وأن أهل تراقيا سكان تلك المنطقة يسارعون الى نهب أولئك الغرقى التعساء ويتقاتلون على أيهم يسرق من السلب أكثر من غيره . ولذلك توجد منقولات كثيرة على هذا الشاطئ الخبيث ينقلها الملاحون فى صناديق من الخشب، ومن بينها كتب لا شك فى أن أولئك المتوحشين ما كانوا يفهمونها، ولكنهم يحفظونها ليبيعوها[1] . ونظرا الى أنه كان يوجد عدد عظيم من الجاليات الاغريقية فى تلك الجهات بيزنطة وغيرها، فليس مستحيلا أن فكر أولئك الملاحون فى الاتجار بالكتب، وربما كانوا ينقلونها من الشواطئ الأسيوية ومن آتينا والمدائن الأخرى لليونان النازلين والمهاجرين الذين مع بعدهم عن وطنهم تتوق أنفسهم الى الاقتباس من نوره الذى هم أحوج ما يكونون اليه فى غربتهم .

لا أقول بأنه فى زمن أفلاطون بل فيما قبله لم يكن يوجد فى آتينا أصلا كتبية يبيعون الكتب ويشترونها فذلك محتمل جدًّا، ولكنه ليس عندنا على ذلك شهادات

(١) اكسينوفون . أناباز . ك ٧ ب ٥ ف ٤ ص ٣١٣ طبعة فرمان ديدو .

تقارن فى قدمها ذلك الزمن . فان أول شهادة من هذا النوع تنسب الى زنون الستيومى، فان زنون قبل أن يترك مدينة ستيوم وهى مستعمرة فينيقية فى قبرص اشترى حمولة من الأرجوان ليربح فيها فى آتينا وذهب يستفتى الهاتف عن أحسن طريقة للعيشة، فنصح له الهاتف أن يصير فى لون الموتى . وفسر زنون هذه النصيحة بأنه يجب عليه أن يعكف على قراءة كتب الأقدمين حتى يشحب لونه . فلما وصل الى آتينا بعد غرق محزن دخل عند كتبى وأخذ يقرأ بلذة شديدة الكتاب الثانى من مذكرات إكسينوفون على سقراط ، فسأل الكتبى وهو مسحور بلذة ما قرأ : أين يمكنه أن يقابل المؤلفين الذين يكتبون مثل هذه الملح؟ فأشار له الكتبى باصبعه الى «قراطيس» الذى كان مارا وقتها فى الشارع، فعجل زنون الى الأستاذ يتعقب خطاه حتى وصل اليه وتتلمذ عليه، ولكن لما لم يستطعم ذلك الجفاء الغليظ اعتزل قراطيس إذ أصبح فى قدرته أن يضع مؤلفات لاتقل عن مؤلفات أستاذه وأخصها كتابه على فيثاغورث.(١) وكان عمر زنون وقتئذ ثلاثين عاما، وعلى الاحتمال الغالب أن أرسطو وقتها كان لا يزال حيا، فان ذلك كان فى آخر ملك اسكندر .

أقص حادثة أخيرة أستعيرها من نظريات أرسطو فى الفصل السادس عشر الباب السادس (ص ٩١٤ ف ٢٥ طبعة برلين) يتساءل المؤلف : لماذا قطع الكتب يعطى هيئات مختلفة على حسب ما اذا كان هذا القطع مستقيما أو بانحراف ؟ أترك التفسير الى ناحية لأنه لايهمنا هنا ، ولكن ذلك يبين أن أرسطو كان لديه كتب من جنس كتبنا وعلى الأقل من جهة كونها مقصوصة على صورة منتظمة قليلا أو كثيرا . بعد ذلك فى الفصل الثامن عشر يبحث أرسطو : لماذا تنيم القراءة بعض الناس ؟ ولماذا بعضهم على الضد من ذلك يتناول الكتاب حين يريد أن يبقى ساهرا ؟ كل ذلك يعين استعمالات للكتب أشبه ما تكون بما نفعل نحن .

(١) ديوجين اللايرثى ك ٧ حياة زنون الستيومى .

كان فى آتينا بعضهم يقرأ فى سريره وليس معدوما فيها هذا الصنف من النـاس الذين يأتون هذه البدعة عندنا .

من أين جاءت هـذه الكتب ؟ وعلى أى مادة كانت مكتوبة ؟ لا أتأخر فى الجواب : كانت مكتوبة على ورق البردى ، وكان البردى يجىء من مصر . منذ أقدم الأزمان كان بين مصر و بين إغريقا روابط مستمرة ، ومن باب أولى كان بين مصر وآسيا الصغرى . وان أقدم الهجرات التى اتبع فيها سبيلُ إناخوس وسِكْرُوفس وكثير غيرهم إنما عادت من شواطئ النيل جالبة معها الى الهلّين فى عداد ما جلبته لهم أسماء جميع آلهتهم المتنوعة الى اللانهاية ، و بعـد ذلك ضاعفت العلاقاتِ دواعى التجارة والحروب . وفى تلك القرون التى نحن بصددها كانت مصر متدخلة دائما لمصالح شتى فى سياسة جميع الأمم المجاورة لها ، وعلى الأخص سياسة المدائن الاغريقيـة التى على الشاطئ . ولما أن فتح الفرس مصر صارت هذه العـلاقات أكثر توثقا واستمرارا ، فان أسطول المصريين وجيوشهم كانت تشهد كل حين وقائع البر والبحر . ومن البديهى أن الأمم المختلطة على هذا النحو تتبادل كثيرا من الأشياء بحكم الضرورة . وكانت مصر وقتئذ الوحيدة تقريبا فى إنتاج البردى فكانت تصدّر منه كميات وفيرة الى بقية العالم .

قد كان من السهل على مصر وهى التى اكتشفت الكتابة وهى التى تخرج البردى وتستعمله تلك الاستعمالات الصادرة عن المهـارة والذكاء أن تتصوّر أيضا إنشاء المكاتب ، فان الكتب متى كتبت وجب جمعها وحفظها لحفظ الذكر لكل مااشتملت عليه . وعلى الرغم من قول طاموس وأفلاطون وسقراط فقد ظهر أن تلك المحفوظات مفيدة ونفيسة جدّا . ذلك ما كان هو الواقع . فان أوزيمندياس أحد ملوك مصر يعتبر أنه أوّل من اقتنى مكتبة أو من أوائل من اقتنوا مكاتب . وتذكار هذا الحادث العجيب نقـله إلينا ديودور الصقلّى الذى زار مصر فى الأولمبية ١٨٠ كما كان زارها هيرودوت من قبـله بأربعمائة وخمسين عاما ورأى بعينيه كل ما يتكلم عنه تقريبا .

بعـد أن قال كلمة عن قبور الملوك التى كان عددها سبعة وأربعين على رواية الكهنة والتى لم تكن إلا سبعة عشر حين زارها ديودور[1]، وصف بغاية التفصيل الأثر الشهير لأوزيمندياس ، ومن بين العمائر التى تنسب الى هـذا الملك دار الكتب المقدّسـة المنقوش على وجهتها : " دواء النفس " . ولا يستنتج من كلام ديودور نفسه أن هذه المكتبة كانت لا تزال قائمـة فى زمنه ، فأمّا أنها وجدت فذلك ما لا يكاد الشك يتطرّق اليه . ولقد كان لدى الكهنة المصريين كتب بالغة فى القدم مسجل فيها تاريخ البلاد سـنة فسنة تسجيلا منتظما والوراثة غير المنقطعة على عرش مصر لأربعمائة وسبعين فرعونا وخمس ملكات،ولم يشأ ديودور أن يكرر بالنسبة لعهد كل فرعون ما كانت تحويه هذه الكتب التى يظهرأنه اطلع عليها،ولكنه وضع خلاصتها وعلى تلك الوثائق بنى عمـله . فاذا لم تكن هذه المكتبة موجودة قبـل المسيح بخمسين عاما فلا أقل من أن يكون ذكرها واردا فى تلك السنويات الرسمية التى كان لا يزال يمكن الاطلاع عليها مهما كان مبلغها من الضبط قلة أو كثرة[2] .

وعلى رأى علمائنا المشتغلين بالآثار فإن أوزيمندوس الذى كان يسميه الإغريق أوزيمندياس هو فرعون من العائلة السادسة عشرة . وهذه العائلة يقترن عهدها تقريبا بعهـد إناخوس أى بتاريخ نحو ألفى سـنة قبل الميلاد . فان الهكسوس أو عرب الرعاة تكوّن العائلة السابعة عشرة .

مثل هذه الأحاديث ربما كانت تظهر لنا حديث خرافة، إذ لا يمكن التصديق بوجود كتب فى زمن بالغ من القدم حدّ الغاية ،اذا لم نكن حاصلين الآن فى متاحفنا على

(١) نزلت اليها بنفسى فى السنة ١٨٥٤ عند سياحتى فى مصر ووجدت أن إعجاب ديودور كان أقل من حقيقة الواقع بكثير . (ر . رسائل على مصر طيبة وفيلى ص ٢٧٤ وما بعدها (بارتلمى سانتهلير) .

(٢) يتكلم ديودور على الأقل مرتين أوثلاثا على سياحته فى مصر . ر . المجموعة التاريخية ك ١ ب ٤٤ ف ١ ، ب ٤٦ ف ٧ . وفيما يتعلق بمكتبة أوزيمندياس راجع الكتاب عينه ب ٤٩ ف ٣ . وإذما حادث سولون كهنة سايس ذكروا له كتبهم المقدسة وفيها سنويات البلد منذ ثمانية آلاف عام (رطيماوس ترجمة فكتور كوزان ص ١٠٩) .

الأدلة، التى لا تقبل التهم، المثبتة لهذه الحوادث، ففى باريس وفى طورينو وفى ليدن وفى برلين ... الخ أوراق البردى والمخطوطات التى يصل تاريخها الى ثلاثة عشر وأربعة عشر قرنا قبل الميلاد المسيحى بل الى أبعد من ذلك . ولكلّ أن يراها ولمعرفة تاريخها ليس عليه إلا أن يستفتى شمبوليون ودى روجى وماريت وأميدى بيرون وليمانس ولپسيوس ... الخ . إن بردية طورينو الشهيرة التى تكلم عنها شمبوليون فى خطابه الى دى بلاكاس (ص٤٢) هى على الأقل من القرن الثالث عشر قبل المسيح كما بينه لپسيوس (تودتنبوخ ص ١٧) وفى كتاب الملوك نقل لپسيوس (لوحة ٦) مخطوطة يصل تاريخها الى العائلة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وذلك ما يبلغ بنا الى أقصى مما ذكرنا . ووصف ماريت فى مذكرته عن دار الآثار ببولاق (ص ١٤٨) برديا وجد فى طيبة فى نحو المترين طولا يتعلق باحدى الثلاث العائلات الأولى للأمبراطورية الجديدة، وهذه المخطوطة لا يقل عمرها عن ١٢٨٨ سنة قبل الميلاد بل يمكن أن تكون من سنة ١٧٠٠، ومخطوطة أخرى (ص ١٥٣) طولها أربعة أمتار ونصف على ٠،٣٥ ارتفاعا وهى من متعلقات العائلة الثامنة عشرة فتكون من سبعة عشر قرنا قبل الميلاد . ويمكن ايراد أمثلة من هذا النوع الى ماينشاء، ولكن حسبنا ماأوردناه وما أظن بنا حاجة الى المجاوزة بالايضاح الى أبعد من ذلك فقد كل .

أكثر من ذلك . قد وجد بجانب المخطوطات الأدوات التى تصلح لكتابتها فناجين تحوى المادة الملونة وقصب الأقلام، وذلك ما يعدل عندنا المحابر والريش، والمصاقل التى تصقل البردى قبل الكتابة عليه، والمقالم التى توضع فيها الأقلام . وفى دار الآثار بليدن توجد ألواح الكتابة ومعها دوى فيها يميز المرء بغاية الوضوح الحبر الأسود أو الأحمر وقد جفّ فى باطنها ودوى من البرنز... الخ . وكل هذه الآثار إنما هى سابقة على العائلة السادسة عشرة على رأى ليمانس (ص ١٠٨ ف ٢٤٥) وفى دار الآثار ببولاق توجد ألواح الكتّاب، ومعها كل لوازمها وهى كما قرّر ماريت سابقة لعهد ابراهيم (ص ٢٠٩) وعلى ذلك يكون عمرها من ٣٥ الى ٤٥ قرنا .

وفى باريس فى متحفنا المصرى أيضا جميع الأدوات اللازمة للكتّاب (القاعة المدنية — دولاب P . درج X) . وكذلك فى قاعة الموتى (درج LM) ترى المخطوطات إما على ورق البردى أو على القماش ، كل ذلك غير أوراق البردى الكبيرة المنشورة المحبوكة بالأُطر المغطاة بالزجاج والتى تبلغ أطوالها عدّة أمتار . وفى ليدن مخطوطات تبلغ أطوالها الى اثنى عشر مترا . والواقع أنه كان يمكن صنع ورق البردىّ الى طول غير متناه ، لأن العرض وحده هو المحدود ولا يكاد يزيد عن ٣٠ سنتيمترا .

من التفاصيل التى تقدّمت والتى يمكننا أن نزيد فى إيضاحها عند الحاجة أظن أننا نستطيع استنتاج النتائج الآتية التى هى كذلك ، كما يظهر لى ، حوادث ثابتة — :

إن فلاسفتنا للقرن الخامس والسادس قبل الميلاد كتبوا مؤلفاتهم سواء فى آسيا الصغرى أو فى إغريقا الكبرى ، وقد وصل الينا بعض أجزاء هذه المؤلفات من خلال الصعوبات التى كانت تقترن بنقل الكتب ، قبل اكتشاف المطبعة واختراع الورق من القطن ومن الكتّان أو استعمال الرق . وإن كتب إكسينوفان ومِيليسوس بل ربما كتب طاليس وفيثاغورث أيضا كلها كتبت كما يكتب كل الناس وقتئذ على ورق البردىّ المصرى . ولا بد أن تكون صورها على شكل ورق البردىّ المحفوظ فى دور الآثار . ومن الممكن أن تكون أوراق البردىّ رتبت ، منذ عهد قديم وبالتحقيق منذ عهد أرسطو ، بحيث يكون شكلها كشكل كتبنا الحاضرة . ومن ثم تيسر جمع الكتب فى المكاتب ، فان المكاتب التى ينسبونها الى پوليقراطس وبيزيسطراط لم تكن بلا شك إلا تقليدا للمكاتب المصرية التى كان أشهرها دار الكتب التى أنشأها أوزيمندياس .

ما الذى بقى علينا تعرّفه ؟ ربما كان شيئا واحدا هو الذى تقتضيه نفوسنا الطُّلَعة بحكم عاداتنا الجديدة فى دقة التحرّى وهو صنع البردى المخصص للخطابات ولمؤلفات الكتّاب . ومن محاسن المصادفات أن پلاين الذى ليس أقل منّا حبّا للاطلاع قد نقل الينا هذه المعلومات اذ يقول لنا كيف كان يصنع ورق البردى فى زمنه .

ومن المفهوم ضمنا أن هـذه الصناعة قد نالها بعض التحسـين بمرور الزمن الطويل الذى يبتدئ من عهد أوزيمندياس الى القرن الأول للميلاد، ولكن الأصول الرئيسة لهذه الصناعة لا بد أن تكون قديمة جدّا بل الظاهر أنه لم يكد يدخل عليها أقل تغيير.(١)

وقد عنى پلاين عناية كبرى بوصف هـذا القصب المسمى برديا نظـرا الى "أن المدنية وتذكار الأشياء مرتبطان باستعمال الورق، وبهما يتعلق تخليد ذكرى الرجال". أما ڤرّون فانه لم يبلغ بتاريخ استعمال الورق الى أبعد من عهد اسكندر الأكبر وتأسيس مدينـة الاسكندرية . وقد يكون ذلك صحيحا فيما يتعلق باستعمال الورق فى روما، ولكننا قد رأينا آنفا أنه لا يمكن أن يكون صحيحا بالنسبة الى مصر ولا الى إغريقا ، وپلاين لا يشاطر رأى ڤرون مهما كان معتبرا . وهاك ما يقوله فى ذلك النبات النفيس الذى يريد درسه :

ينبت البردىّ فى المستنقعات أو مياه النيل الراكدة على عمق لا يزيد على ذراعين، جذره المعوج فى ثخن الذراع تقريبا، وساقه مثلث الأضلاع ويندر أن يعلو أكثر من عشرة أذرع يتناقص سمكه من تحت الى فوق . فأما جذره فيسـتعمل وقودا وقد تتخذ منه بعض الآنية، وأما ساقه الحطبىّ فتتخذ منـه القوارب، ومن قشرته تنسج الشُّرُع(٢) والحصر والملابس والأغطية والحبال . وذلك ما قرأناه آنفا عن تيوفراسط ونقله عنه پلاين بلا شـك . وإن بردىّ مصر فى كل الاستعمالات التى ذكرناها خير من كل بردىّ آخر، فان البردىّ الذى ينبت فى سوريا أو على شواطئ نهر الفرات بقرب بابل بعيد عليه أن يساوى البردى المصرى خصوصا فى صنع الورق.

ولصنع الورق يقسم البردىّ الى أشرطة رقيقة جدّا وعريضة بقدر الممكن . وأحسن شريط منها هو شريط قلب النبات ثم الذى يليه على هذا الترتيب. وبهذه الطبقات الداخلية وحدها كان يصنع ورق الكتب المقدّسة وسمى الورق من ثم باسم هيراتى .

(١) پلاين . التاريخ الطبيعى ك ١٣ ب ٢١ وما بعده ترجمة وطبع ليترى .

(٢) وهـذا ما كان يبصره هيرودوت حينما كان يسيح فى مصر ك ٢ ب ٩٦ وعندنا فى متحف اللوفر نعال من البردىّ .

و بعد حين أعطى لأعلى درجة من الورق المنق بالغسل اسم أغسطس، كما سميت الدرجة الثانية من الورق باسم ليفى امرأة أغسطس، وكان الهيراتى اذًا فى الدرجة الثالثة، وورق الدرجة الرابعة سمى أنفتياترى نسبة الى المكان الذى كان يصنع فيه . ومن أنواعه المتدركة الى أسفل ورق سايس الذى يصنع من قراطة البردى ثم وراق الطينيوطيق من مدينة قريبة من سايس ويباع بالوزن،ثم ورق الأنبوريتيك أوورق المَتْجر، ولا يصلح إلا للظروف أو لف البضائع، وبعد هذه الأشرطة تأتى قشرة البردى وهى أشبه ما تكون بقشرة الخيزران لا تصلح إلا لصنع الأحبال التى لها خاصة البقاء فى الماء .

كل أنواع الورق كانت تصنع بطريقة واحدة،ولا يكون الاختلاف الا فى مادة الورقة. ومتى أخذت الأشرطة بعناية تنشر على نحو خوانٍ مندى بماء النيل، فان هذا السائل الحامل للطمى يصلح كلزاق لتقوية الأشرطة وضمها بعضها الى بعض . وعلى هذا الخوان الممال نوعا تلزق الأشرطة على طولها وتقرض من نهايتها حتى تصير منتظمة ومتساوية فى الطول ثم يؤتى بأشرطة أخرى توضع بالعرض على شكل تعريش، ولوقاية الورق من التمزق كانوا يضعونه تحت المكبس فيحصلون منه على الورق الذى يعرضونه بعد ذلك للشمس ليجفّ . ثم يضعون هذه الأوراق بعضها فوق بعض لتكون منها فرائد الورق التى لا تتجاوز عدة الواحدة منها عشرين ورقة . وكان الورق مختلف العروض،وأحسن ما كان فى عرض ثلاثة عشر إصبعا، والهيراتى لم يكد يتجاوز عرضه الأحد عشر، وقال فانيوس أن هذا الورق الهيراتى الذى اشتق اسمه من اسم ذلك الصانع الماهر الذى أبدعه لا يتجاوز العشرة . والورق المتجرى كان فى عرض ستة أصابع . وكان يمكنهم أيضا أن يصلوا الأوراق أطراف بعضها ببعض ليحصلوا على ورق لا نهاية لطوله كما عندنا .

وكانوا يقدّرون الورق كما نقدّره نحن برقته ومتانته وبياضه وصقله . وقد اهتم الأمبراطور كلود بتحسين ورق أغسطس الذى كان يجده أرق مما يلزم وأكثر شفافية

بجعل منه ورقا جديدا بأن جعل السدى من أشرطة الدرجة الثانية واللحمة من أشرطة الدرجة الأولى ، وبهذه الطريقة زيد فى عرض الورق إذ بلغ عرضه ذراعا فى الفرخ الكبير. وكانوا يفضلون ورق كلود فى الكتب ويستعملون ورق أغسطس فى المخاطبات .

وكانوا يصقلون الورق بقطعة من العاج أو بمحارة ناعمة، ولكنه كان من اللازم الوقوف بهذه العملية عنـد حدّ معين ، وإلّا زلِق الحبر فلا يأخذ فى الورق وتكون الحروف المكتوبة معرّضة لأن تمحى عما قريب، وذلك هو الذى يحصل فى ورقنا حين يجاد صقله أكثر مما يلزم . ربما يكون حسنا فى مرأى العين، ولكنه لا يطيب الانتفاع به . وقد كان يحدث ماء النيل الحمِع ضررا من هـذا النوع متى صُبّ من غير احتراس فى ابتـداء العملية اذ يجعل الورق غير قابل للكتّابة بل يترك فيه رائحة يعرفونها له وبقعا كان يلزم لازالتها أن يخرقوها من مواقع البقع ويرقعوها بغاية الدقة حتى لا يفطن لها المشـترى، لحسن سـبك الغش فيها، إلا بالاسـتعمال إذ يشرب الورق الحبر فى مواضع الرتق ويجعل الحروف سائحة لا تقرأ إلا قليلا .

لذلك قال پلاين إنه لتوقى تلك العيوب المختلفة كان يلزق الورق بكيفية تجعله أطرى من قماش الكتّان نفســه، ووجد أن هذه الطرائق فعالة جدّا قال : إنه رأى عنـد أحد أصحابه وكان مغرما بخطوط المؤلفين مخطوطات لشيشيرون ولأغسطس ولفرجيـل على ورق من هذا النوع ، بل رأى عنــده مخطوطات لطيبريوس وقايوس غراكّوس مضى عليها مائتا عام مما يدل على أن لصق الورق كان من الجودة بحيث يقاوم كرّ الزمان .

وبعد أن أورد پلاين هذه التفاصيل عاد ينقض رأى ڤرّون فى أن استعمال الورق حديث فى إيطاليا وحاول أن يثبت ، ضـدّ مذهب ذلك العالم، أن الكتب كانت معروفة منذ زمن "نوما بومپليوس" فقد عثر فى تابوت هذا الملك الذى وجد فى زمن قنصلية سيتيغوس وبيبيوس طنفيلوس، بعد موته بخمسمائة وخمس وثلاثين سـنة،

على كتب من الورق . كذلك ثلاثة كتب جاءت بها العرّافة الى طرخان الأجل كانت مكتوبة على ورق حرقت منها اثنين والثالث الذى قبله هذا الملك البصير قد حفظ الى عهد سيلاّ ثم باد فى حريقة روما . واذا أريد برهان دامغ غير منقطع الأثر على استعمال الورق فى الزمن القديم فما على المريد إلا أن يتصفح رسائل شيشيرون فيجد فيها المعلومات المضبوطة القوية فى هذا الموضوع . فان الناس ما زالوا يستعملون الأوراق مع السهولة القصوى ، ويسرفون فى استعمالها الى الغاية . كتب شيشيرون الى أطيقوس كل يوم بل مرات عديدة فى كل يوم تارة رسائل طويلة ، وتارة أخرى تذاكر بسيطة ، يرسل إليه مع رسوله بعض أسطر أو صحيفة إذا لم يكن لديه مايقوله أكثر من ذلك أو سلسلة من الصحائف لا آخر لها اذا انطلق قلمه يتدفق أو اذا حضرته مناقشة مسائل هامة . ومتى كان موضوع الكتاب يهم عدّة أشخاص عُمل منه نسخ بعددهم أو صُرّح للرسل إليه باتيان هذا العمل ، أما اذا كان موضوع الكتاب دقيقا يشطب الكاتب غير مرة العبارات الناقصة عن تأدية المعنى المراد تماما ، ويرجع مرات على ما كتب ويهذبه ويحرره . واذا كان الكاتب قد أخذ منه التأثر مأخذا يبكيه ترك دموعه أحيانا تمحو الكتابة ، ومتى فرغ من الكتاب طواه وختمه . فاذا نسى الكاتب شيئا أو أهمل تفصيل معنى من المعانى فتح الكتاب من جديد ، فان كانت الورقة لا محل فيها كتبت الزيادة بالعرض . ومتى قرأ الكتابَ المرسلُ اليه وكان لا يتضمن شيئا يراد حفظه مزّقه . ولا يتساهل فى ذلك اذا كان المرسل قد أوصى بحفظ سرّه . فاذا طرح الكتاب مطرحا من غير أن يمزقه فيمكن ردّه إلى مرسله اذا طلب ردّه اليه . فاذا لم يجد أحدهم ورقا مسح الكتابة من على ورقة أخرى وكتب عليها بعد غسلها أو كشطها . متى فرغ الكاتب من كتبه جمعها وسلمها الى البريد يوصل كل كتاب الى المرسل إليه بغاية الأمانة . وقد تنتهز الفرصة فيكتب الى أصحاب متعدّدين فى جهة واحدة ، فاذا فكّ المرسل إليه الصرّة وزع الكتب على المرسل إليهم ، وعند الحاجة قد تُرسل الرسل الى الأشخاص البعيدين .

ويمكن أن يحمل الإنسان بنفسه كل هذا التعب، يكتب كتبه بيده ويختمها ويرسلها، وقد يتخذ له سكرتيرا يكل اليه كل ذلك، يملى عليه الكتاب ويوقع عليه بتوقيعه. فاذا كان المرء متعبا، وعلى الأخص اذا كان به رمد اضطر الى تكليف غيره، وفى هذه الحالة يعتذر لصاحبه بعجزه عن أن يمسك القلم، كما نقول نحن فى هذا المقام. وهؤلاء السكاترة هم محل أمانة بالضرورة متى كانوا يطلعون على أسرار العائلة والأعمال الخصوصية والسياسية. وفى الغالب يستحقون هذه الكرامة التى يؤتون إياها، ولكنهم أحيانا يخونون ساداتهم ويفرون بما معهم من الأوراق. ولما أنهم عادة من الأرقاء يقتفى أثرهم ويقبض عليهم إلا اذا أبعدوا فى فرارهم بحيث لا يمكن الوصول اليهم. ويخلف الخادم غير الأمين أو العاجز خادم أكثر أمانة وأوفر كفاءة، كل ذلك على عجل بحيث لا ينقطع سير المراسلة زمنا طويلا.

واذا كان استعمال الكتابة فى الشؤون الخصوصية من السرعة والسهولة على ما وصفنا فقد كان استعمالها فى الشؤون العامة لا يقل عن ذلك الوصف، فان تحرير جميع العقود الرسمية يحصل بغاية السهولة. ومتى استكملت هذه العقود الشرائط المطلوبة عمل منها نسخ بقدر عدد المنتفعين بها. كذلك الأوامر تصدر الى الموظفين القائمين بالأعمال التنفيذية من كل الطبقات والمخاطبات الادارية تحصل بوسائل سريعة مأمونة يظهر أنها تشبه على الأقل ما هو عندنا الآن. فإلى أقاصى حدود الجمهورية تصل الأوامر العالية التى يصدرها مجلس الشيوخ ويتخذ من هذه الأوامر صور رسمية تحفظ بمحافظ السجلات، ولولا المحن المتنوعة التى قلبت حال العاصمة الرومانية الخالدة من فتن داخلية ونهب وحرائق وحروب خارجية وهجوم وغارات ... الخ. لولا ذلك كله لكان المرجح أن تكون بين أيدينا تلك الوثائق التى هى أنفس للتاريخ منها لارضاء حبنا الاطلاع على ذخائر الفن. فان المادة التى كتب عليها كل ذلك يمكن حفظها بدون أن تتغير مدة ثلاثين قرنا، كما تشهد به أوراق البردى المحفوظة فى دور الآثار عندنا. فاذا أصابنا ما أصابنا من فقد معالم من ذلك القدم المحترم المخصب فانما كان ذلك من خطايا الناس لا من خطيئة الزمان.

كذلك كان استعمال الكتب منتشرا عاما فى عهد شيشيرون كاستعمال الخطابات كما هو الحال فى أيامنا، فلم يكن أحد من الأهالى ذو ميسرة وعلى شيء من العلم إلا له مكتبة على شكل المكاتب التى كانت لأهالى الاسكندرية وفى سائر مدائن الاغريق من قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون[1]. كان لكل امرئ فى روما مجموعة من الكتب يختارها لنفسه بنفسه أو بواسطة صديق له عوضا عنه اذا كان لهذا الصديق من مركزه مكنة من ذلك أو كان معترفا له بحسن الذوق فى هذا النوع. وقد كان من شيشيرون أن كلف أطيقوس إذ كان فى آتينا أن يرسل اليه تماثيل وزخارف ليزين بها مكتبته التى كان يسميها الاكاديمى. ولما كان أطيقوس يريد أن يتخلص من بعض كتب نسخها ويريد بيعها رجاه شيشيرون فى ألّا يبيعها من غيره لأنه كان معجبا بمكتبة أطيقوس، وكانت مؤلفة بعناية خصوصية، فطلب اليه تلك النسخ ليجعلها أساسا لمكتبته، ولا يكون عليه بعد ذلك إلا أن يكملها على حسب ما تقتضيه حاجته ودراسته وهواه، كان ذلك فى سنة ٦٨٦ ولم تكن سنّ شيشيرون تجاوز الأربعين، ومع ذلك يفكر فى أن ينزوى من ميدان العمل الى مسكن جميل هادئ يعيش فيه مع كتبه "تلكم الصحب القدماء" التى يحب مخالطتها حبا جما، كما كان يقول ذلك لقرّون الذى هو أيضا يفوق شيشيرون فى الشغف بالعلم والأبحاث المتنوعة فى قديميات وطنه وقديميات الأمم الأجنبية. حين تمكن شيشيرون من بعض ساعات الراحة والعزلة حبس نفسه فى مكتبته التى زخرفها وزينها، واختفى وسط كتبه حتى كان يجعل منها ركاما عظيما يحيط به من كل ناحية. ومتى لم يكن لديه ما يرغب فى مراجعته استنسخه عند أحد أصحابه، فاذا كان لبعض الأصحاب مثل هذه الحاجة قضاها لهم على خير وجه فيكلف كتبته ومقرّبيه وسكاترته بنسخ الكتاب المطلوب، ويجد لذة فى إهدائه كما كان يسرّه أن

(١) نقل سويتون أن قيصر كلف قرّون بإنشاء مكتبات عامة فيها الكتب الاغريقية واللاتينية. وقد وضع قرّون مؤلفا خاصا بالمكتبات ولكنه مفقود مع الاسف. راجع كتاب جستون بوازيير ص ٢٢، ٤٧ على قرّون.

يتقبل كتابا يرسل اليه . وكان من الجارى فى عرفهم أن الرجل يهدى الى صاحبه الكتاب الذى يعرف أن له فيه رغبة مستترة أو كان له به حاجة من غير أن يطلبه . واذا زار أحدهم آخر فوجد كتابا يوافقه أعير إياه فيردّه بعد أن يقضى منه حاجته الخ.

يمكننى أن أضاعف هذه التفاصيل الى غير نهاية ، ولكن ما الفائدة فى ذلك والناس يعلمون أن الرومان فى آخر الجمهورية وقبل بلاين الذى أجاد لنا فى كيفية صنع الورق بمائة وخمسين عاما كانوا قد اتخذوا من البردىّ كل ما نتخذه الآن نحن من الكتّان ومن القطن ، فكان الناس يكتبون فى روما بمقدار ما نكتب نحن فى الأغراض الاجتماعية عينها وبنفس السهولة والحدّة ، بل مع تشابه تام فى الشهوات والمباراة . كانت المادّة مختلفة ولكن الموضوع واحد . ولا أجد بين الحالين خلافا إلا الخلاف الكبير الذى هو المطبعة التى لم تكن لتستكشف إلا بعد ذلك بخمسة عشر أو ستة عشر قرنا . كان نسخ الكتب والأوامر الادارية والخطابات أمرا غاليا وبطيئا ، وذلك يستتبع أن تكون تلك النسخ قليلة العدد وفى غاية التعرّض للضياع . جاءت المطبعة فجعلت النشر والنقل والحفظ ألف مرة أكثر أمانا وألف مرة أكثر سرعة وألف مرة أرخص ثمنا . بيد النساخ استُبدل ضبط المكينة المعصوم وقوتها التى لا تعرف حدّا ورخصها الذى لا ينافس ، ولكن ذلك لم يكن مهما قيل فيه إلا تغيرا ماديا صرفا ، فان المقصود متوفر فى الأزمان الغابرة . على ذلك يكون المخترع الحقيق الكبير لا يزال هو الشيخ توت أو أىّ ساحر آخر من السحرة المصريين الذى أنطق البردىّ والحروف التى رسمها عليه قلم الكاتب مغمورا فى مادة ملوّنة . وعلى الرغم مما كان يفكر فيه البصير طاموس فان المقالة المكتوبة فى الذهن لم تكن لتكفى إلا الذى يحملها فى طيات نفسه لأنها منعزلة وشبه صماء . وما كانت المقالة لتعيش إلا بالكتابة ، و يمكنها أن ترجو من العمر ما لا ينبغى للفرد الفانى أن يرجوه أبدا ، فان أوراق البردىّ لا تزال تكلمنا ، وسوف تكلم أحفادنا أزمانا طوالا مع أن طاموس قد حبس عن الكلام منذ أربعين قرنا .

من ذا الذى كان يعرف ما افتكره لو لم يكن أحد الكتبة الأقل حذرا منه قد سجل لنا أقواله التهكمية على صفحات البردى التى شدّ ما كان يستهين بشأنها ذلك الفرعون الحكيم المسرف فى الحكمة .

*
* *

بعد أن ثبتنا فلاسفتنا فى نصابهم من حقيقة الحوادث التى كانت تعتور حياتهم فى حال الدراسة أو فى حال الحرب، فى حال الاقامة أو فى حال التشريد. وبعد أن بيّنا الظروف الحسية التى ألفوا فيها مؤلفاتهم صار جائزا لنا عن بينة وشىء من الاطمئنان أن نتساءل الى أىّ حدّ كانت أصلية هذه الفلسفة؟ انها كما يظهر لنا نبتت نحو القرن السابع قبل الميلاد فى آسيا الصغرى المرتبطة بروابط وثيقة مع جميع البلدان المحيطة بها فبأىّ شىء هى مدينة لها ؟ وهل استعارت منها شيئا؟ أم هل هى مستقلة تمام الاستقلال لم تتبع سواها؟ وهل لم تنهل شيئا من غير مناهلها الذاتية؟ أكانت مذاهب طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان محض ابداع لها من الأصلية ما لشعر هوميروس وسافو وأرخيلوكس وألكايوس ؟ وبعبارة أخرى هل الغرب الذى فتح صدره للحياة العلمية يدين بشىء للشرق الذى هو مخالط له والذى هو معتبر أنه متقدم عليه بكثير فى هذا الطريق الوعر الذى حده النهائى هو الفلسفة ؟

أجيب من غير تردّد بالسلب وأن إغريقا لم تدن لأحد غيرها، وان المساعدات التى وردتها تكاد تكون من خفة الوزن بحيث يمكن الجزم بأن إغريقا فى العلم أيضا كانت ذات إحداث وإبداع، شأنها فى بقية الأشياء الأخرى ، واذا كانت تلقت شيئا عن جيرانها فما هو إلا أصول عديمة الصور فصوّرتها هى وبلغت من تصويرها حدّ التمام بحيث يمكن القول بحق إنها هى التى أوجدتها فى الواقع .

وعلىّ أن أقرر بادئ ذى بدء ماذا يُعنى بالفلسفة ؟ وحسبى حدّها وهو : "اتجاه العقل اتجاها نزيها الى العلم" . المشاهدة لأجل العلم من غير غرض آخر إلا فهم العالم الذى نعيش فيه وظواهره وأصله ونهايته . هذا هو المعنى الذى تولد

وقتئذ لأول مرة فى العقل الانسانى والذى ، من طاليس وفيثاغورث و إكسينوفان الى عهدنا ، لا يزال ينمو من قرن الى قرن ، والذى ينمو فى المستقبل بلا انقطاع ما دامت القرون وما دام الزمن الذى يقاس بها على بقاء النوع الانسانى" . ذلك هو ما أجادت الفسلفة فى بداية أمرها عمله أن اعتنقت جميع العلوم بلا استثناء . وما هو إلا بسبب ضعف عقلنا وضرورات البحث العام أن انفردت العلوم الخصوصية شيئا فشيئا وانعزلت أمها الفلسفة عن أولادها ، ولكنها ما زالت تغذيها وتتوكأ عليها . ولم تلبث الفلسفة أن حددت دائرتها الخاصة المتوزعة أجزاؤها فى العلوم المختلفة التى الفلسفة أصلها وتمامها ، ولكنها فى تلك الأيام الأولى كانت مختلطة بجميع العلوم ، لأن العلوم لم تكن بعد قد خرجت منها . من هذا سمت نفسها بذلك الاسم الجميل المتواضع ، فإن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية الفلياز (سيقونيا) أجاب بأنه فيلسوف وهو اسم لم يسمع من قبل . الفيلسوف ليس إلا صاحب الحكمة أى صاحب العقل ذلك العقل الذى يدرس الأشياء ويدرس نفسه أيضا . وقد كان فيثاغورث يقول : " حال الناس فى الحياة يسعون فيها يشبه حال الجمهور يتقاطرون الى الأعياد الرسمية . ففى جمعيات الجمهور الفسيحة لكل واحد من الساعين اليها أغراض مختلفة ، أحدهم يقصدها ليبيع فيها بضائعه مدفوعا بحب الكسب ، وآخر لا يقوده اليها إلا حب المجد والرغبة فى أن ينال قصب السبق فى القوة أو فى المهارة . وطائفة أشرف من هؤلاء لا يظهرون فيها إلا لمشاهدة جمال محال تلك الاجتماعات وعجائب الصناعة المعروضة لأنظار الجميع . كذلك فى الحياة ، للناس الذين تضمهم الجمعية الانسانية مشاغل متباينة . فمنهم المجرورون بجواذب الثروة والتمتع التى لا تقاوم . وآخرون مملوك عليهم أمرهم بالطمع فى السلطان والشرف وهما لا ينالان إلا بالحروب الحادة والمنافسات التى تسفك الدماء ، ولكن الغرض الأسمى للرجل هو إمعان النظر فيما فى هذا الكون من الجمال المتنوع الذى يقدمه لأنظارنا وبذلك يستحق عنوان فيلسوف . فمن الحسن أن ينظر المرء الى أقطار السموات الفسيحة يتتبع سير الأفلاك التى تتحرك فيها على قدر غاية فى النظام ، ولكنه لا يستطيع فهمه جيدا

إلا بالمبـدأ المعقول المجرد الذى يسـير الكون ويحصى كل شىء عددا ومقياسا ، فالحكمة تنحصر فى التعرّف بقـدر الممكن لهذه الظواهر الإلهيـة الأبدية الأوّلية التى لا تتغير . والفلسفة ليست إلا التتبع المستمر لهذه الدراسة الشريفة التى تنير الناس وتصلحهم[1] " .

منذ البـداية قد علمت الفلسفة ما كانت تفعل . منذ خمسـة وعشرين قرنا لم تبحث الفلسفة إلا فى تحقيق الفكرة التى قامت بها عنـد خطواتها الأولى بالتـدرّج تحقيقا كاملا . وما زالت حكمة فيثاغورث هى حكمتنا وان كانت العـلوم قد رقت رقيا كبيرا جدًا ، ولكن الفيلسوف لم يتغير فانه سيبقى دائما هو الذى يتأمل فى الأشياء ويلاحظها ليفهمها وليفهم نفسه ، هذا هو معنى العلم والفلسفة الذى أنسب شرفه الى إغريقا دون سواها . فمن إغريقا تلقيناه من غير أن يكون افتكره أحد من قبلها فى هذا الشرق الذى كانت تعتقده ويعتقده غالب أهل زماننا ينبوع كل نور وحكمة .

ممن كانت تستطيع إغريقا أن تستعير هـذا المعنى وقتئـذ ؟ أمن مصر أم من فينيقيا أم من الفرس أم من الهنـد؟ لا أرى غير هذه الأمم أحدا كان يستطيع أن يعـلم الاغريق شيئا وأقول : إن هذه الأمم ولو أنها علمتهم أشياء كثيرة فلم تعلمهم الفلسفة أصلا . لاشك فى أن كثيرا من فلاسفتنا وفيثاغورث على الأخص ساحوا سياحات طويلة فى تلك البلاد وأنهم ذهبوا اليها ليتعلموا ، فان فيثاغورث الذى ربّما كان يدلى الى فينيقيا بعائلتـه ذهب الى مصر كما فعل طاليس من قبل وكما فعل هيرودوت بعده بقرن وأقام فيها ويقال : إنه لقن الأسرار الخفية . وقد يمكن تصديق ذلك بسهولة ، لأن سولون ذهب اليها أيضا . والظاهر يدل على أنه لم يقف عند محادثة كهنة سايس[2] فى أمر الأطلانديد ، ومن المحتمل أيضا أن فيثاغورث جاوز مصر الى كلدة وتحادث مع المجوس كما كان قـد تحادث مع الكهنة المصريين . والفضل

(١) يمبليك ، حياة فيثاغورث ب ٧ ف ٥٨ ، ٥٩ طبعة فرمان ديدو وعلى أثر ديوجين اللايرتى . فبكل هذه الوثائق وثائق يمبليك وفرفريوس يمكن جمع حياة فيثاغورث المهمة ونبذة تامة عن مذاهبه الأصلية .

(٢) راجع طياوس أفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٠٧ وما بعدها .

فى ذلك يرجع الى الطريق الملكى الذى أنشأه دارا يصل به المسافر من سرديس الى صوص فى أعماق فارس وراء دجلة والفرات من غير مشقة إلا طول السياحة التى تقطع فى ثلاثة أشهر . وليس يرى لماذا لا يدفع حب العلم الى إزماع مثل هذه السياحات فى حين أن السياسة، حتى قبل فتح ذلك الطريق، كانت تقتضى كلَّ وقت علاقاتٍ من هذا النوع . وقد كان حكماء الإغريق مشوقين دائما الى زيارة مصر وفينيقيا وكلدة وهى البلاد الشيقة التى كانوا يؤمونها ليجدوا فيها كنوز العلم . والواقع أنهم جابوا تلك الأقطار الشاسعة مع ما عليه الوصول إليها من المشقة .

ماذا جلبوا منها ؟ الآن وعلى أثر الاكتشافات اللغوية والأثرية التى جاء بها قرننا الحاضر والمعلومات الهيروغليفية والكتابات وأوراق البردىّ المصرية وكتب زورواستر وكتب الهند المقدّسة ودين البراهمة والبوذيين، نقول إن طريق الجواب مفتوح أمامنا، ونستطيع أن نرى فيه أحسن مما رأى الإغريق، نرى ما ذا كانت حكمة الشرق المزعومة . تلقاء الآثار المفسرة بالضبط الكافى إن لم يكن بالكل فعلى الأقل بالجزء نعلم ما ذا تساويه وما ذا يمكنها أن تؤتيه ، يبحث فيها عبثا عن الفلسفة وهى عنها غائبة فكيف يكون الإغريق حتى مع تناول الأسرار الخفية قد وجدوا الحكمة فيها ما دامت لم تكن فيها .

نطَّرح الى جانبٍ فينيقيا ويهودة جميعا، فان التوراة أثر ذو قيمة لا تقدّر إن بما تشتمل عليه وإن بما خرج منها، ولكنى لا أرى أن إغريقا استعارت منها شيئا أيا كان، واذا كانت كتب اليهود المقدّسة قد وصلت إليها بأية طريقة كانت فلماذا تخفى ذلك وهى قد أعلنت إعلانا عاليا بل عاليا فوق ما يلزم حكمة مصر وحكمة المجوس ؟ أىّ عقبة اعترضتها فى اطراء الحكمة العبرانية اذا كانت عرفتها ؟ يمكن أن يؤسف على أنها جهلتها، وأنا أظن أيضا أن إغريقا التى كانت مستعدّة للرقىّ بنفسها كانت تجد من دراسة كتب موسى مساعدة قوية ، ولكنها ما علمت منها شيئا .

والقول بضد ذلك يمكن أن يكون دليلا على إيمان حاد ، ولكنه ضلال مبين لا ينهض واقفا أمام أدلة الحوادث . فلما ترجم التوراة السبعون بعد ذلك أى فى عهد بطليموس الثانى فيلادلفى (٢٧٥ قبل الميلاد) أمكن الإغريق أن يقرءوها وليس يرى أنهم تحركوا لها ولا آستناروا بها ، ولو قرئت عليهم فى زمن طاليس وفيثاغورث لكان أثرها أقل من ذلك أيضا ، ولو فسرت لهم لما كادوا يفهمونها ولا يصغون إليها . والواقع أنها لم تفدهم شيئا .

أقول عن مصر ما قلته عن فينيقيا ويهودة تقريبا ، فمن عهد الاكتشاف العظيم الذى أتاه شمبوليون ومن كل الأعمال التى تبعته وأيدته يعلم ماذا كانت أرض الفراعنة القديمة ، فقد يكون الانسان واثقا من أنه لن يصادف فيها ما يدل على الفلسفة إلا بيانات غير منتظرة من نوع جديد . كانت الاعتقادات الدينية مستفيضة فيها ، وكانت عريقة فى أصليتها جميلة على ما فيها من شذوذ ، ولكن العلم بالمعنى الخاص لم يكن بها ، وكل شىء يساعد على إثبات أنه لم يكن فيها أصلا بل لم يكن ممكن الوجود بها على رغم ما عليه أهلها من الذكاء الحقيقى ، إن ذلك لا يقلل من أهمية دراسة مصر ، ولكنه لا ينبغى أن ننتظر منها ما ليس فيها . لها سنويات وليس لها تاريخ . يمكن أن يكون لها مشاهدات مضبوطة لبعض الحوادث الطبيعية والفلكية على الأخص ولكنها ليس لها علم . لها مذاهب دينية وليس لها فلسفة . حالها كحال فينيقيا جارتها وحال يهودة التى كانت خاضعة لها وتخلصت منها منذ عهد موسى . يمكن أن يكون لها معلومات كبرى ولكنها لم تمذهبها ولم تركزها على مبادئ معينة .

وللحكم على مجوس كلدة لدينا ما ذكره هيرودوت وما كتبه الكتاب المعاصرون وما تعلمنا إياه الكتب الدينية المجوسية التى فتح لنا مغالقها حديثا علماء اللغات وفى مقدمتهم إيجين بورنوف .

أما على قول هيرودوت الذى يظهر أنه رأى المجوس عن كثب فانهم لا يكادون يكونون إلا عرافين . عند ما أراد أصطياغ ملك الميديين أن يفسر الحلم الغريب الذى

رأته آبنته منداان قصد الى المجوس المحترفين بتعبير الرؤيا واتبع نصيحتهم مع التحرّج، إذ أمر بقتل حفيده قيروش . وعند ما يريد قمبيز أن يزمع حملته الجنونية على مصر يعهد الى مجوسيّ القيام بأعباء الدولة مدّة غيابه فيسىء المجوسيّ فى ثقة الملك به و يجلس على العرش أخاه سمرديس الكاذب، ولكن الفرس غاظهم هذا الاغتصاب الذى يفضى الى خضوعهم للمجوسيّ، فاتفق سبعة منهم تحت إمرة الفارسى دارا بن هستاسب وذبحوا الأخوين اللذين تبوءا الملك غصبا . وهم هم المجوس الذين يفسرون حلم اكزاركزيس، إذ يهمّ بمحاربة إغريقا وعلى رأيهم يمشى؛ و بينا هو فى الطريق على ضفاف الستريمون، اذا بالمجوس يذبحون الخيل البيض يستفتحون بها باب النصر . فلما شتت الأسطول (٤٨٠ قبل الميلاد) بريح عاصف على شاطئ تراقيا فى رأس سبياس، غير بعيد من أطوس حيث هلك أسطول آخر قبل ذلك بعشر سنين، اذا بالمجوس يقربون قرابين للريح ليهدئوا ثائرته فى اليوم الرابع . وبالجملة لا يقرّب قربان إلا بحضرة مجوسيّ لينشد ما يسميه هيرودوت تيوجونى (أنشودة الآلهة) ليتم بذلك الاحتفال الدينيّ .

من أجل ذلك كانت فى إغريقا القديمة وعلى الخصوص فى روما شهرة للجوس وكراهة لهم فى آن واحد؛ ومن آسمهم اشتق اسم ذلك الفن الخفيّ الذى هو "السحر" وهو مخوف عند العامة وطالما غرّر بهم . وقد أنحى عليه پلاين بالسخط فوق ماقد يستحق[1] . ومنذ عهد أرسطو كانت تلصق هذه التهم بمجوس الفرس والكلدان، فان هذا الفيلسوف قد أفرد مؤلفاً خصيصا بذلك وسماه "الماجيك"[2] ليدفع عنهم التهم التى ظهر له فسادها . وفى كتابه المسمى "فى الفلسفة" ظن أن من الواجب عليه أن يشتغل بأمر المجوس الذين يعتبرهم أقدم عهداً من كهنة مصر، ولما وصل الى لاهوتهم تكلم عن الأصلين اللذين يعترفون بهما : الحسن والقبيح "أورومازـ وأريمان" .

(١) پلاين التاريخ الطبيعى ك ٣٠ المخصص كله لهذه المسئلة .

(٢) ديوچين اللايرثى فى مقدمته ف ٨ .

ومن الكتّاب المتأخرين عن أرسطو من جعل المجوس آباء الجمنوزوفست (فلاسفة الهند المتريضين) بل آباء اليهود أيضا . وفى كتاب دانيال الذى كتب فى عهد دارا أن مجوس بابل ليسوا إلا منجمين وسحرة ومفسرى أحلام. ومع ذلك كانوا يلقبونهم بالحكماء، ولكن الخدم التى تطلب منهم لا تكاد تدل على أنهم أرفع درجة من المحتالين والسحرة الدجالين ، فهل هم أنفسهم أولئك الذين كان لهم أرصاد فلكية فى بابل قدّرها أرسطو خير تقدير[1]؟

ولكن المجوس اذا كانوا فلكيين مهرة فليسوا فلاسفة، وكتبهم الدينية (زِنْد) التى نعرفها الآن بطريقة أكيدة تبين لنا ذلك بغاية الوضوح . فان الفنديداد والْيَسْنا والْيَشْت وجميع القطع المنسوبة الى زورواستر (زاراتُسْترا) تشتمل على آثار من ديانة ظاهر عليها الجلال والقوة فى خلال تلك الظلمات ، ولكنها لا تشتمل على مذهب فلسفى. وهذه الكتب هى كل ما يمكن اسناده الى مجوس كلدة. فاذا كان فيثاغورث قد اطلع عليها بالمصادفة فإنه لم يدخل منها شيئا فى مذهبه الخاص : صلوات وأدعية وأناشيد وعقائد مبهمة وغير مستقرة وآثار من سير مقدسة وخرافات ليست هى خرافات الفيداس وليست كذلك من خرافات الإغريق ، ذلك على الأخص هو كل مايمكن أن يقرأ فى كتبهم. وهذا فى الحقيقة لا ينقص من أهميتها الكبرى، فإن تاريخ الديانات يمكن أن يكتشف فيها الأصول النفيسة للغاية، ولكن تاريخ الفلسفة لا يجد فيها شيئا يجنيه ، وعلى ذلك لم يكن المجوس ولا المصريون قد أوحوا الى إغريق يونيا شيئا .

أفتكون الهند؟ ولا هى أيضا .

ليل حالك لا يزال يغشى الأصول الهندية وأخبارها؛ ولأن هذه البلاد ما كتبت قط تاريخها نصادف أكبر العناء فى ترتيب الحوادث والوقائع المتنوعة التى تتعلق بها . كذلك الحوادث الخاصة بالعلوم والآداب لا تخرج عن هذا الخفاء

(١) أرسطو كتاب السماء ك ٢ ب ١٢ ف ١ ص ١٧٨ من ترجمتى .

الغام . ومع ذلك يبين لنا، وسط هذا الاختباط الذى يكاد لا يخلص أبدا، بعض الأصول الرئيسة الحقة على ما فيها من شدّة الابهام، فيمكن الجزم بأن آثارا بعينها من آثار العقل الهندى أقدم أو أحدث عهدا من بعض آثاره الأخرى . من ذلك أن أنواع الفيدا، وعلى الأخص الفيدا التاريخى الذى لقب مع التسامح بلقب "الريك" هى متقدّمة على سائر البقية . وجماعة الفيدا أو على الأقل تلك المتقدّمة لا يكاد يقل عمرها عن خمسة عشر قرنا قبل الميلاد، غير أن هذه الأناشيد الشعرية ليس فيها شيء من الفلسفة . أما الخرافات الفياضة النامية فيها فانها تشبه الخرافات اليونانية، كما أن بين لغتى اليونان والهند البرهمانية مشابهة أخوّة، ولكن الطابع الفلسفى معدوم منها بالمرّة . وأما الأوپانيشاد التى يمكن أن يوجد فيها هذا الطابع بعد البرهمانيات فمن المؤكد أنها متأخرة عن الأزمان التى نحن بصددها ، فمع أن طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان هم من القرن السادس قبل المسيح فان الأوپانيشاد لا يمكن إبلاغ أقدمها إلا الى القرن الرابع .

وعلى ذلك لم يكن الإغريق ليستعيروا شيئا من الهند مع افتراض أنه كان من الممكن فى ذلك الزمان أن يكون لهم مخالطة مستمرة بحكماء شواطئ الهندوس، بَلْهَ حكماء أواسط شبه جزيرة الهند أو شرقيها . وما عرف العالم الاغريقى بجماعة الجمنوزوفست إلا بتجريدة الاسكندر وسفارة ميغاستين، ولكن الاسكندر وميغاستين هما متأخران بمائتى عام عن حكماء سموس وملطية وكولوفون .

حتى أن الهند خلافا لمصر ويهودة وفارس لها فلسفة حقيقية نعرفها فى مجموعها ونعرف منها آثارا تفصيلية . وربما ندرسها دراسة تامة نقرر منذ الآن أننا نعلم أن هذه الفلسفة مستوفية كل الشرائط اللازمة للعلم على النحو الذى نعنيه نحن اليوم، والذى كان يعنيه الإغريق دائما . أنها لمستقلة تمام الاستقلال، وغرضها كغرض حكمة الاغريق تفهم العالم والانسان . ولاشك فى أنها درست كليهما على غير الوجه المفيد، ولكنها جعلتهما شغلها الوحيد، فينبغى أن يكون لها بمذاهبها الستة التى تتقاسمها وتؤلفها مركز عظيم فى التاريخ العام للعقل البشرى .

ما هو تاريخ هـذه الفلسفة ؟ والى أىّ زمن تنسب ؟ ذلك هو كل ما يهمنا فى هذا المقام .

قد كان يظن أن أحد هذه المذاهب الذى هو مذهب سَعَنْخِيَا الملحد من كَلّا كان سابقا على البوذية . ولما أن بوذا مات سنة ٥٤٣ قبل الميلاد يكون سعنخيا معاصرا لطاليس ومعاصريه الآخرين . وكانوا يُقَفُّون مذهب سعنخيا بالمذاهب الأخرى على ترتيب معين لا يخلو من التحكم كثيرا أو قليلا ، باعتبار أن كل هـذه المذاهب متأخرة عنه . وبالتبع تكون متأخرة عن فلسفة آسيا الصغرى ، ولكن يظهر أن هذا الترتيب أصبح الآن معدوم النصير ، لأن أغزر البراهمة علما متفقون على ترتيب سعنخيا بعـد البوذية بزمان طويل . إن الفلسفة لم تظهر فى الدين القـديم إلا لاستئصال شأفة الإلحاد أو على الأقل لتفلّ من غرب به . وإن مذهب سعنخيا الذى هو ملحد وروحانىّ معا ما يكون إلا طليعة التوفيق بين اعتقادات الدين الجديد وبين الاعتقادات الجائية من فيدا ، ويكون "النّيَايا" أو المنطق جاء نفسه قبل سعنخيا الحاجات المناظرة وتكون الفيدعتنا متأخرة عن الاثنين (١) .

ليس بى من حاجة الى الدخول فى مناقشات من هـذا النوع ، ولا أريد أن أجاوز بالبحث حدود ما قدّمته من القول ، وإلا كانت إفاضة فى العبث ، فإن من البين أننا حتى اذا وضعنا سعنخيا فى الترتيب الوجودىّ قبل ظهور البوذية وجدنا أن الاغريق لم يكن فى وسعهم أن يعرفوا من مذهبه شيئا عند ما أخذوا يفلسفون لأوّل مرة . ومع افتراض أن سـياحة فيثاغورث بلغت به بابل وصوص ، فانها لم تعلمه مذاهب لم تكن خلقت فى بنجاب أو على شطوط نهر الجنج .

ينبغى أن يزاد على هذا أن "داراسانا" الفلسفة الهندية على ما هى معروفة عندنا منذ كولبروك وما تلا مذكراته المشهورة من المعلومات ليس بينها وبين الفلسفة الإغريقية فى تلك الأزمان الأولى علاقة مشاركة . فلا فى طاليس ولا فى فيثاغورث

(١) ر . مؤلف برجا «حوار على الفلسفة الهندسية» لندن ١٨٦١ فى قطع الثمن ص . ٥ وما بعدها . وكان الأستاذ برجا أستاذا فى مدرسة بيشوب بكلكتا أهدى مؤلفه الى جون ميور .

ولا فى إكسينوفان يمكن العثور على أثر للمشابهة أو التقليد . وهـذا مفهوم بالبداهة مادام الظاهر كله يدل على أن الفلسفة البرهانية لم تَنْمُ إلا بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة .

ومتى خرجنا بالهند من الموضوع صار من العبث أن نبلغ بالبحث الصين، فان لاوتسو معتبر أنه عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، ولكن الفلاسـفة الاغريق الأول لو كانوا قرءوا الثاوتى كنج وهو كتاب الطريق والفضـيلة لما استطاعوا أن يجدوا فيه ما يصلح لهم[1] .

على ذلك لا الصين ولا الهند ولا فارس ولا مصر نفسها لم تلهم الاغريق شيئا من فلسفتهم . وسأبين فيما يلى أى حظ من التأثير كان للمذاهب المصرية فى مذهب فيثاغورث، ولكنه يمكن الجزم بصورة عامة أن الفلسـفة الاغريقية باعتبار أنها فى مهدها فلسفة بالغة فى الأصلية غايتها . وبأن معنى العلم على الصورة التى صورتها بها هذه الفلسفة وقتئذ كان باكورة فهم العقل البشرى للعلم، تلك هى نتيجة كبرى أعترف بغـاية الارتياح أنها ليست أمرا جديدا، كما قـد يبين من الاعتبارات التى تقدّمت . بل قد تقدّمنى بزمان رجال ارتأوا هـذا الرأى من غير أن يكون قد توفر لديهم كل ما لدينا من الأدلة .

فإن العالم المحقق بروخر كان يكتب منذ قرن كامل فى هذا الموضوع . وقبل أن يصل الى الفلسفة الاغريقية بحث عن بدايات الفلسفة فى الأرض جميعها . فراح يستجوب على التعاقب العبرانيين والكلدانيين والفرس والهنود والعرب والفينيقيين والمصريين وطائفة من أمم أخرى ، فلم يعـثر فيها على الفلسفة التى ينشـدهم إياها عبثا ، حتى بلغ الاغريق فقـال : "الآن لنبلغ الاغريق هـذه الأمة المشهورة منـذ كانت صبية فى المهد بدرس الحكمة والفنون، والتى عنـدها وجدت الفلسفة مقرها الذى بغته زمنا طويلا بعد أن تلقت هذه الأمة عن المتوحشين بعض الجراثيم من المعارف الالهية والبشرية" .

---

(١) راجع مؤلف استانيسلاس جوليـان " لاو — تسين — تى — كنج " المطبعة الملكية سنة ١٨٤٢

ثم بعد أن درس النظريات القديمة لأنساب الآلهة التمثيلية والفلسفة السياسية للحكماء أضاف هذا العالم الرصين مؤرخ الفلسفة الى ما تقدّم ما يلى محدثا عن مدرسة يونيا :

" الى هنا لم نقدّر فلسفة الاغريق إلا وهى صبية تربّ فى مهدها ، ولكنا قد بلغنا الآن منها الطور الذى فيه بدأ العقل البشرىّ يزاول الفلسفة الحقة ، ويظهر بالأفكار المرتبة مظهر المشغوف بالنفوذ فى حقيقة الأشياء . فإلى العبقرية الاغريقية ينبغى أن ننسب هذا المجد كما بينته آنفا وفى أوّل هذا التاريخ عند البحث فى الأصول الصحيحة للفلسفة (١) " .

وأما أنا من جانبى فلا أزيد على ترديد عبارة برونحر، وأعدّنى سعيدا باستنادى الى هذا الحجة المحترم المتين الذى تقدّم بمائة عام ما لدينا فى هذا العصر من المعلومات البينة . نتيجتى كنتيجته . نعم إغريقا أصيلة على الاطلاق . أعطت كل العالم ولم يعطها العالم شيئا إلا ما ربما يكون من بذور كانت عقيمة فى غيرها فعرفت هى وحدها أن تنبتها .

لن أتوسع فى الكلام على مذاهب طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان ؛ بل أفترض أنها معروفة بمقدار ما يمكن أن تعرف من القطع النادرة التى نجت من البلى وأقف عند بعض الملاحظات العامة الى غاية العموم . من البيّن أنّ أكملَ هذه المذاهب الثلاثة على نسبة كبيرة هو مذهب فيثاغورث . ونحن لا نستطيع أن نتعرّفه إلا من خلال الشروح التى وضعتها عقول قليلة التفوّق جاءت بعد المصنف بستة أو سبعة قرون ، ولكنها مع ذلك كافية فى بيان أن الدراسة التى كان يزاولها حكيم سموس شدّ ما كانت أفسح ميدانا وأكثر ضبطا من دراسات معاصريه ، فيها الفلسفة بتمامها تقريبا مع أجزائها الأصلية التى تتألف هى منها . وفوق ذلك فان دراسة العلوم وعلى الأخص العلوم الرياضية بلغت فيها شأوا بعيدا . ومن البلية أن شخص فيثاغورث كمذهبه لا يزال يحيط به من الظلام حجاب لا شىء يمزقه ، ولا شك فى أن هذا الحجاب العظيم انما جاء كِبَره من السكوت الذى آلتزمه فيثاغورث وألزم إياه تلاميذه الذين بقوا محتفظين بتنفيذ أمره مدة عدّة أجيال . وكان فيلولاوس

(١) برونحر تاريخ الفلسفة سفر (١) ص ٣٦٤ ، ٤٥٧

السابق لأفلاطون بقليل هوأوّل من علّم القاعدة — على ما يؤكدون — ونشر المذهب بل ربمـا نشر كتب الأستاذ أيضا .

ومما لا يقل عن هذا مطابقة للواقع هو أن فيثاغورث على فلسفته كان يحتفظ فى نظرنا بشىء من النحو الدينى إن لم يكن فى أفكاره فعلى الأقل فى الجمعية التى ألفها والتى لا يُدْخل اليها الا بعد امتحان قاس يجوزه المريد، فليست الفيثاغورية مفتوحة للكافة كالمذهب الطبيعى لطاليس، ولا كمذهب ما وراء الطبيعة لإكسينوفان. لفيثاغورث تلاميـذ ، ولكنهم بعض أعضاء لجمعية منتظمة خاضعة لملاحظة شديدة ومحصورة فى حدود لا تجتاز؛ إنها نوع من مدينة فلسفية دينية سياسية قاسية وضيقة الحدود . فلم تلبث أن آرتاب فى أمرها جيرانها فخربوها بالحديد وبالنار وما كان أسهل عليهم ذلك نظرا الى أن هـذه الجمعية من الوداعة بمكان . ومن البديهىّ أن نظـام المدرسة الفيثاغورية كان على مثال مدارس الكهنة المصريين، وربمـا كانت على مثال مدارس المجوس أيضا . وإن تناسخ الأرواح هو عقيدة شرقية صرفة لم تتأقلم فى العـالم الهلّينى، مع أن أفلاطون وضعها تحت إشرافه . كان فيثاغورث مؤسس مدرسة ورئيس جمعية معا ومبدع مذهب لا يتلقاه إلا أشياعه، وبهذه المثابة كان بين فلاسفة الإغريق وحيـدا فى هذا الباب . وينبـغى أن يرجح أن سياحاته فى مصر وكلدة هى التى أوجدت فى نفسه مقاصد من هذا النوع فنقلها الى بلاد قلما توافقها وتنجح فيها ، ولكنها مع ذلك جعلت لفيثاغورث مركزا قدسيا علميـا معا فبقى به علما فردا متميزا عمن قبله ومن بعده . مذهبه العلمىّ غير تام ، ولكنه عظيم جليل . ومذهبه الأخلاقىّ طاهر لا غبار عليه حتى إن مذهب أفلاطون مع كونه أشدّ منه تعمقا لم يرجح عليه فى طهره .

ولندَعْ الى جانبٍ شخصيات الفلاسفة ونبـه الى أن الفلسفة الإغريقية بتمامها كانت موضوعة فى وضع اسـتثنائىّ أفادها جدّا وهو أنهـا لم يكن أمامها أبدا ديانة مبنية على كتب مقدّسـة ، وقد كان الأمر على ضدّ ذلك فى مصر ويهودة وفارس وفى الهنـد حيث لم تكـن الحال قاصرة على أن الدين قد سـبق الفلسفة فى تلك

البلاد، كما هو الحال عادة فى كل زمان . بل إنها اعتمدت فوق ذلك على أسس معتبرة أنها إلٰهية ، ومع ذلك أقامت قرونا طوالا كافلة لسد الحاجات الأدبية والأخلاقية فى تلك الأمم . وبعد ذلك خرجت الفلسفة من المحاريب فمثلا فى بلاد الهند البرهمانية أو البوذية استطاعت الفلسفة أن تنمو نموّا كبيرا متحللة من القيود الأولى وإن كان نجاحها لم يكن عظيما . أما فى بلاد الاغريق فلم يكن ما يشبه ذلك، لأن الاغريق لم يكن لهم كتب إلٰهية ولا موحى بها . وقد كان أُرْفى ولينوس وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى كلهم ما كان يتكلم إلا بأسمه هو دون أن يسند ما يقول الى الإلٰه . ولما كان الاشراك بالله متغير الصور منثورا فى البلاد لا ينتظمها على حال واحد لم يُستطع الوصول الى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص، فلم يكن للكهنة نقابة قوية ذات سلطان وكان الناس يحترمونهم ولكن لا يطيعونهم ، ولم تكن الروابط بين الهيئتين إلا مفككة العرى، لأنها إنما تبحث عن معتقدات عامة يغير من عمومها فى كل جهة أساطير محلية لا نهاية لها، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية، وهواتف يستشيرها الناس وقتما يريدون، وألعاب عمومية . والكتاب الوحيد الذى أخذ بمجامع قلوب الاغريق إنما هو قصيدة حماسية . إن قصيدة من شعر الحماسة تسحر العقول ولكنها لا تهديها ، تأخذ بالقلوب ولكنها لا توجب الايمان ، إنها تنمى الاحساسات الشريفة بما تقدّم من التذكارات الوطنية، ولكنها لا تسوّى سبل السلوك . فما قصيدة حماسية بالتوراة ولا هى بالزاندافستا ولا بمنتراس البراهمة ولا بالقربان المثلث عند البوذيين . فالواقع أن الفلسفة كانت هى وحدها دين الملين .

وما تنسب عظمة الفلسفة الاغريقية التى لا تزال تدهشنا ونتعلم منها بعد خمسة وعشرين قرنا إلا الى استقلالها المطلق . ولو أنها كانت تحت وصاية ديانة حسنة النظام أفكانت تظهر قواعدها بهذه السهولة التى ظهرت بها ؟ أو كانت تحيا تلك

الحيـاة الطيبة القوية ؟ أوكانت تلد للعالم تلك الملح من التآليف وتؤتى ذلك الثمر اللذيذ ؟ من ذا الذى يعرف ذلك ؟ لا شك فى أن الجنس الهلينى كان عجيب الاستعداد فقد نجح فى ميدان الفلسفة، كما نجح فى ميادين الأعمال الأخرى، ولكن أما كانت تذبل هـذه الخواص العجيبة لو أن العُصَارة التى تغذيها جرت فى قنوات أخرى من قبـل وخصوصا فى قنوات الديانة ! ولم يكن تاريخهم الخرافى إلا لعبا تلعب به الملكات ، فكانت الخواص العليا للنفس فى سعة من أن تتخذلها نحوا جدّيا آخر وتبحث عن غذاء لهـا أغزر مادّة وأدخل فى باب الحق . بعيـد علىّ أن أنكر نعم الديانات على الناس ، وأرى أن من الخير أن تكون قد سبقت الفلسفة دائما ، وعنـد جميع الشعوب ، ولكنى لا أستطيع أن أحجم عن القول بأنه اذا كانت ديانة الهلّين أكثر جدّية مما كانت عليه لأوشكت فلسفتهم وعلومهم أن تكون أقل فى الجد مما كانت عليه بكثير ، وتلك خسارة لا تعوّض على الاغريق وعلينا أيضا لأننا نحن أبناؤهم ومظهر استمرار حياتهم .

ولئن أنسب الى آسـيا الصغرى وتلك الجمهوريات الاغريقية الصـغيرة التى كانت مقيمة على شواطئها كلّ المجـد الطارف فى اختراع الفلسفة والعلم والشـعر والموسيقى وكثير من الفنون الأخرى ، فإنى لا أقصد الى أن أغمط آتينا حقها من المجد المقطوع النظير ، ذلك لأنه من آتينا خرج فى زمن قدروس أهل بعض هذه المستعمرات التى جمعت بين النشاط والذكاء والشاعرية والحربية، وفى آتينا اجتمع اليونان . بل يمكن القول بأن آتينا أعطت من دمها ومن روحها تلك الجاليات التى لم تستطع أن تظلها تحت سمائها بعـد أن أقاموا بهـا زمنا طويلا . ثم ان تلك المستعمرات لم تستطع أن تحفظ فى أوطانها جراثيم للفلسفة التى تمخضت هى عنها، فإنه اذا كان طاليس بقى فى ملطية فان فيثاغورث قد هاجر من سموس الى سيباريس وقروطون، واكسينوفان ترك كولوفون الى ايليا . فلما نفيت الفلسـفة موقتا من إغريقا الكبرى بما فيهـا صقلية وجدت سـلطانها الحقيقى فى آتينا آخر مطافها،

وجدته بسقراط وأفلاطون فى عهد أنكساغوراس و پيريكليس وفيدياس وسوفكل ، على ذلك تكون آتينا قد حوت أسمى مظهر للذكاء الاغريق ، وتكون الأمّ المخصبة التى ولدت المُلَحَ من كل نوع ، فان الفلسفة لمـا اقتُلعت مرّتين رجعت الى الأرض الأولى التى منهـا خرجت المستعمرات اليونانية لتؤتى فيها أجمـل زهرها وأنضج ثمارها . ولم تكن الفلسفة فى آسيا الصغرى إلا عارضا جاءت به المصائب السياسية ، فأقامت فيها قليلا ولكن بعد أن انبعث نورها الساطع . فلما استقرت بآتينا مكثت بها أكثر من ألف سـنة من عهد پيريكليس الى عهـد چستنيان فهى معلمة روما وجدّة الاسكندرية ومنافستها الجديرة دائما بالاحترام .

من أجل ذلك يظهر لنا أن آتينا و يونيا أو بلفظ واحد إغريقا كان لها على من عداها فضـل وسؤدد لا يطاول، ومن أجل ذلك نضع منزلتها من سماء المجـد فى أوجها ، لا يقاربها فيـه ولا على مسافة كبرى تلك الأمم التى حاربتهـا ومزقتها ولكنها لم تقهرها مع أنهـا تربى عليها فى العدد ألف مرة . فمن ذا الذى يقـام له وزن بجانب الإغريق فى باب الشـعر والفنون والعـلم والفلسفة ؟ لست أعنى السيتيين ولا سائر تلك الشعوب الرّحل فى شماليها ، ولكنا أعنى الفرس والهنود بل المصريين أيضا . ماذا عسى أن تكون القرون الأولى لولا الهلّين؟ ماهى تلك المعارف الانسانية التى ليس لهم فضل فى أمرها ؟ ولقد أراد مؤرخو الانسانية ومنهم هِردَر أن يتلمسـوا أسباب هـذا التفوّق الخارق للعادة من ظروف وأوضاع كلها مادّية كشكل أرضهم وحال جوّهم وحاجات تجارتهم ... الخ ؛ ولكن مع أن تأثير هـذه الظروف لا ينكر إلا أنها لا تستطيع أن تحل لنا مشاكل هذه النظرية الدقيقة ولا أن تفسر لنا سر هـذا التفوّق تفسيرا مقنعا ، فان شواطئ آسـيا الصغرى وضفاف بحر إيجه وأطّيقا ، و پيلو پونيز و إغريقا الكبرى لم تتغير عن أصلها ، ومع ذلك أين هى تلك الروح التى كانت تنعش الهلّين فى تلك العصور الخصيبة ؟ ماذا صارت روح تلك الشـعوب التى لم تتغير أوطانها المخصبة الجميلة منذ ذلك العهـد الى اليوم فان أخلافهم لا يُعدّون الآن شيئا فيما يتعلق بارتقاء المدارك الانسانية .

لا نكاد نجد لهذا السؤال جوابا ممكنا إلا الواقع نفسه ، فإنا لنرى كيف كانت اغريقا فوق كل الأمم حتى بالبقايا القليلة التى وصلت الينا من أعمالها، ولكن لماذا اصطفى هـذا الشعب الصغير فى زمن معين خلال قرون عديدة ليكون عنوان النور الأبدى الهادى لجميع الأمم فيما يتعلق بالمعقولات؟ ذلك سرّ من أسرار العناية الإلهية ليس لنا بالتفوذ فى كنهه يدان، بل هو كسائر أسرار الله تنال إعجابنا ولاينالها فهمنا.
ان الإغريق ، الذين لم يكن لهم على النوع الإنسانى سعة النظر التى تقدّمها لنا اليوم فلسفة التاريخ مدعمةً بشتى الملاحظات، قد حاولوا مع ذلك أن يفسروا لأنفسهم أعجوبة عبقريتهم . وانى أوثر أيضا فى هـذا المقام أن أستجوبهم بدلَ أن أجيب عنهم فى هـذه المسئلة، أولئك هم ثلاثة شهود عدول من عصر واحد تقريبا وهم بقراط وأفلاطون وأرسطو، يشهد أحدهم باسم علم وظائف الأعضاء ، والثانى باسم الفلسفة والوطنيـة ، والثالث باسم السياسـة . ولا بأس من أن نتخذ بجانب هؤلاء شاهدا على الشعر إيشيل الذى كان يقاتل فى مرطون .

فمن كتاب بقراط على الأهوية والمياه والأماكن ، ذلك الكتاب الذى يتخيل قارئه كأنما مَدَدُه فيما أتى به من النظريات هو العلم الحديث، استطرد فيه المؤلف بحكم ضرورة استيفاء موضوعه الى المقارنة بين الجنسين والوطنين اللذين يعرفهما حق المعرفة، لأنه عاش فيهما فقال :

" أريد بالمقارنة بين آسيا وأوروبا أن أبين كيف أن كلتيهما تخالف الأخرى "
" فى كل شىء، وأنه ليس بين الأمم التى تقطن كلتيهما أية مشابهة فى البنية . وقد "
" يكون من التزام مالايلزم تعديد جميع الفروق، بل أكتفى بأكثرها أهمية، وأشدّها "
" بروزا للعيان، لأعرض رأيى الذى آرتأيته فى ذلك، فأقول: إن آسيا تختلف عن "
" أوروبا اختلافا عظيما بطبيعة حاصلاتها جميعا، سواء فيها ماتخرج الأرض ومايخرج "
" من ظهور الناس الذين يزرعونها. فكل مايتولد فى آسيا يفضل مايتولد فى أوروبا "
" فضلا كبيرا فى الجمال وفى بسطة الجسم . جوّها أكثر اعتدالا ، وأممها أدمث "
" أخلاقا وأسهل قيادا، والعلة فى ذلك هى التوازن التام بين الفصول ... فان الماشية "

" التي ترعى في أرض آسيا حسنة المنظر خصبة التكاثر إلى حدّ مدهش، وتربيتها "
" ناجحة الى الغاية . وأما الناس فيها فنموّهم عظيم ، يمتازون عن الأجناس الأخرى "
" بجمال صورهم وفضل قامتهم ، ولا يختلف بعضهم عن بعض في الرّواء ولا في الصورة . "
" ويمكن أن يقال : إن مثل هذه الجهة بينها وبين الربيع نسب يكاد يكون متصلا "
" بالنظر لتأليف فصول السنة ولطف آثارها ، ولكن لا شجاعة الرجولة ولا مصابرة "
" المشاق ولا إجهاد النفس في العمل ولا شدّة البأس كل هـذه الصفات لا تنمو "
" في مثل هذه الطبيعة ، سواء فيه الوطنيون والمستوطنون ، بل إن حبّ الملاهي "
" عندهم يتغلب على ما عداه من الميول الأخرى " .

" أما من جهة ضعة النفس وعدم الشجاعة فإن الأسيويين إذا كانوا أقل ميلا "
" للحرب وأكثر سلاما في الطبع من الأوروبيين فعلة ذلك إنما هي على الخصوص "
" في حال إقليمهم حيث لا توجد تقلبات شـديدة لا في الحرّ ولا في البرد بل "
" قليلا ما يشعر بتغير الجوّ ، وحيث لا يعـترى العقل صدمات ولا يعرو الجسم "
" تغيرات . وتلك انفعالات من شأنها أن تكسب الخلق وحشة وتمزج به ميلا "
" للجماح والعصيان أكثر ممـا تفعل الحال الجوّية دائمة التماثل . ألا إنها التغيرات "
" من النقيض إلى النقيض هي التي تنبه العقل الإنساني وتمنعـه من أن ينام "
" في ظلال السكون . تلك هي الأسباب التي يتعلق بهـا على ما يظهر لي ضعة "
" نفوس الأسيويين " .

" ينبغي أن يضاف الى ذلك حال النظامات ، فإن جزء آسيا الأكبر خاضع للملوك . "
" وحيثما كان الناس لا يملكون حرية أشخاصهم لا يعنيهم المرون باستعمال السلاح ، بل "
" يصرفون كل عنايتهم في أن يظهروا بمظهر العَجَزة غير الصالحين للخدمة العسكرية ، "
" ذلك بأن الخطر ليس مقسوما بينهم قسمة عادلة ؛ إذ يسعى الرعايا الى خوض غمار "
" الحرب يذوقون فيها من المتاعب ألوانا يموتون فيها من أجل أسيادهم بعيدين عن "
" أبنائهم وعن نسائهم وعن كل ما هو عزيز عليهم . وفي حين أن كل ما يأتونه من "

"ضروب النشاط والبسالة انما يجنى أسيادهم ثمرته يكبُر به قدرهم وتشتدّ به عصبتهم؛"
"فإن أولئك المحاربين لا يجنون من وراء كل ذلك الا الأخطار والهلاك. وفوق ذلك"
"فان هؤلاء الرعايا لا بد لهم من أن يروا فى الغالب دخول الأعداء وانقطاع الأشغال"
"سببا لجعل غيطانهم حصيدا جرزا . بهذه المثابة ترى الذين آتتهم الطبيعة فى هذه"
"الأمم قوة فى القلب وميولا حسنة قد تمنعهم تلك النظامات السياسية من الانتفاع بها."
"وإن أكبر برهان على ما أقدّم هو أن فى آسيا جميع الأمم الإغريقية والمتوحشة"
"المتحللة من نير السيادة والتى تضع قوانينها بنفسها لنفسها وتشتغل لحسابها هى أكثر"
"الأمم الأسيوية ميلا الى الحرب. ولما أنها كانت تتعرّض لأخطار الحروب لحسابها"
"الخاص فكانت تتمتع بثمرة شجاعتها أو تحتمل سوء نتائج جبنها ليسوا كالأسيويين"
"المحكومين بالملوك، فإن الشجاعة تفقد وجودها بالضرورة فى قلوب الرجال الخاضعين"
"لحكم الملوكية، نفوسهم مستعبدة فلا يكادون يهتمون بمعاناة الأخطار بمحض"
"إرادتهم من أجل توسيع سلطان غيرهم. ولكن الأمر على ضدّ ذلك إذا كان الانسان"
"غير خاضع إلا الى قوانينه الذاتية واذا كان يعرّض نفسه للخطر من أجل منفعته"
"الخاصة لا من أجل منفعة غيره . من هذا شأنه يقتحم المخاوف طائعا مختارا ويلقى"
"بنفسه بكل قلبه فى جميع مهاوى المصادفات، لأنه سيجنى لنفسه ثمرة انتصاره."
"من أجل ذلك كانت القوانين مساعدة عن سعة على تكوين الشجاعة" .

"تلك هى المقارنة العامة التى يمكن تقريرها بين أوروبا وآسيا فى كل الأشياء.[1]"

ذكر أفلاطون فى كتابه المينكسين حيث لا يزيد سقراط على أن يكرر مقالات أسپاسيا الشاعرة الملطية تمجيدا للاغريق الذين قهروا قبائل آسيا ما نصه :

"لما جاء الفرس الذين هم سادة آسيا وحكامها يسعون لإذلال أوروبا قابلهم"
"آباؤنا أبناء هذه الأرض فقهروهم ودحروهم. ولتقدير قيمة هذا العمل العظيم ينبغى"

---

(١) بقراط كتاب الأهوية والمياه والأماكن ب ١٢ ، ١٦ ، ٢٣ ص ٥٣ ، ٦٣ ، ٨٧ طبعة ليترى ج ٢

"أن ننتقل بالفكرة الى العصر التى كانت فيه آسيا كلها خاضعة الى ملكها الثالث،[1]"
"فأولهم قيروش الذى لما مكنته عبقريته من تحرير مواطنيه الفرس أخضع اليه"
"سادتهم الميديين، وحكم بقية آسيا الى حدود مصر. ثم فتح ابنه مصر وسائر الأقطار"
"الافريقية التى استطاع أن يصل إليها . وثالثهم دارا قد بسط حدود مملكته"
"ومدّها الى سيتيا بفتوحات جيشه البرى، وأما أساطيله فجعلته سيد البحر والجزر،"
"واذ كان لا يجرؤ أحد على مقاومته وقد ذلت له هامات الأمم فكم من أمة قوية"
"حربية ألقت عنانها الى الفرس ودخلت تحت نير سلطانهم ... ! اذا استحضر"
"الانسان هذه الظروف فى ذهنه أمكنه أن يقدّر حقا البسالة التى أتاها يوم مرطون"
"أولئك المقاتلون الذين صبروا على مهاجمة المتوحشين، وعاقبوا تبجح آسيا وكبرياءها،"
"والذين أثبتوا للاغريق بما جاءوا به من الأنفال والغنائم أن قوة الفرس لا تستعصى"
"على المقاومة، وأنه لا شىء من كثرة العدد ولا من سعة الثروة يقف أمام الشجاعة ..."
"لذلك ينبغى أن يسند ثناء هذا النصر الأول الى أولئك المقاتلين . وأما الثانى فثناؤه"
"مسند الى الظافرين فى الوقائع البحرية بسلامين وأرطيميس . وقد ضرب أبطال"
"مرطون مثلا للإغريق عامة أن فئة قليلة حرة تكفى لردّ غارة جيوش المتوحشين"
"البرية، مهما كانت لا تحصى عددا، ولكنه لم يكن ليثبت أن ذلك ممكن أيضا"
"فى البحر كما أمكن فى البر حتى وقعت الواقعات البحرية فاستحق بها أولئك"
"البحارة المهرة ما أحرزوا من المجد لتخليصهم الاغريق من الخوف الأكبر، ولأنهم"
"صيروا الأساطيل الفارسية لا تزيد مهابة على الجنود الفارسية . أما الواقعة الثالثة من"
"وقائع الاستقلال الاغريقى من حيث الترتيب التاريخى ومن حيث شدّة الإقدام"
"فهى واقعة بلاتة، وهى أوّل واقعة اشترك فيها اللقدمونيون والآتينيون وباءوا"
"بمجدها جميعا، وقد كان اللقاء فيها حرجا والخطر محيقا فتغلبوا على كل شىء . ويا له"
"من فضل يستأهل مدائحنا ومدائح قرون المستقبل» .

(١) إيشيل . (الفرس البيت ٧٦٥ وما يليه) يذكر عددا آخر . يرى أن آسيا فى عرف إيشيل وأفلاطون كان حدّها الشرقى أرض فارس .

الى أى شيء فى الاغريق تسبت أسپاسيا هـذه الشجاعة وهذا المجد؟ الى علة واحدة، الى الحرية التى كانت تتمتع بها آتينا . قالت : "ها أنتم هؤلاء ترون كيف أن أجداد هؤلاء المقاتلين وأجدادنا وهؤلاء المقاتلين أنفسهم الذين ولدوا بالطالع المسعود وربوا فى مهد الحرية قد أتوا هـذه الفعال الجميلة العمومية والخصوصية لغرض واحد هو خدمة الانسانية" (1) .

وما كان هذا النشيد الا أليق ما يكون بالأعمال التى يشدو بها . وحقيق بأسپاسيا أن تمتدح آتينا وأبناءها . ولما قام مينكسين يشكر سقراط عند انصرافه لم يتمالك نفسه من أن يجهر بهـذا القول : "وحق المشترى إن أسپاسيا لسعيدة بأنها وهى امرأة تقدر على كتابة مثل هذه المقالات" .

ولا شك فى أن هـذا الشاب قد أصاب فيما قال، إلا أنه فاته أن هـذه المرأة كانت من ملطية وأن أجدادها، مع أنهم كانوا لا يزالون أضعف من الآتينيين، قد حاربوا الفرس غير مرة من قبل أن تتولى آتينا أمر قهرهم .

وأخيرا فان أرسطو يشرك أفلاطون وبقراط فى رأيهما ، فانه لما تكلم على الصفات المطلوبة فى سكان المدينة فى حكومة منظمة قال :

"لكى يلم المرء بهـذه الصفات ما عليه إلا أن يطرح نظره الى أشهر المدائن"
"الاغريقية والى بقية الأمم المختلفة التى تتقاسم سطح الأرض ليرى أن الأمم التى"
"تسكن الأقاليم البـاردة حتى فى أوروبا هى على العموم مملوءة بالشجاعة ولكنهم"
"على التحقيق أقل ذكاء فى العقل ومهارة فى الصناعة ، وبهـذه المثابة يحتفظون"
"بحريتهم خير احتفاظ، ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام، ولم يستطيعوا"
"مطلقا أن يقهروا جيرانهم . أما فى آسيا فالأمر على ضدّ ذلك، فان أممها أكثر"

(1) مينكسين أفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٩٦ وما بعدها . ذلك هو الذى ذكره أيضا إشيل على لسان جماعة المنشدين يجيبون آتوسا أم اكزاركسيس : "لا يستطيع مخلوق أن يقول إن الآتينيين عبيده أو رعاياه" الفرس البيت ٢٤٢

"ذكاء وقابلية للفنون، ولكنهم تنقصهم قوة القلب ويصبرون على البقاء تحت نير"
"العبودية المؤبدة . أما الجنس الإغريقى الذى هو بموقعه الجغرافى وسط بين هؤلاء"
"وهؤلاء فإنه يجمع صفات الطرفين ويجمع بين الذكاء والشجاعة ؛ يعرف كيف يجمع"
"بين حفظ الحرية وبين تأليف حكومات غاية فى النظام . فهو جدير إذا"
"توحدت كلمته فى حكومة واحدة أن يفتح العالم"(١) .

هذا رأى ثلاثة رجال ، أولئك هم أرسطو وأفلاطون وبقراط فى عبقرية اليونان، إنهم لم ينفوا عن الإغريق المؤثرات الخارجية التى آثارها أظهر من أن تخفى، ولكنهم اهتموا على الخصوص بالأسباب الأخلاقية . وما ضلوا فيما ذهبوا إليه، لأننا نحن الآن مع أننا أكثر تنورا، بما أصبنا من التجربة الطويلة، لا نستطيع أن نزيد شيئا على هذه الاعتبارات الصادقة المستمدّة وجودها بنوع مّا من الحس؛ فلتبق إغريقا أذًا ما كانت فى العصور الأولى مدفونة فى طيات مجدها ، ولكن خالدة ما خلدت أعمال الانسان التى تقع فى يوم من الأيام ثم تتلقفها أيدى البلى مهما كان موضعها من الجمال والكمال .

كنت أريد أن أفرغ من هذه المقدّمة التى طالت أكثر مما ينبغى، ولكنها لا تكون كاملة إذا لم أرجع بها إلى الكلام على الكتابين اللذين تقدّمهما وإذا لم أبسط القول على المسألة الكبرى التى تشبثت بها مدرسة إيليا، تلك المدرسة التى يمثلها إكسينوفان ومِيلِيسوس أعنى بها وحدة الموجود وعدم تغيره . وما أدراك ما هى تلك المناقشة التى ثار ثائرها فى بداية الفلسفة وقام بها رجال تقلبوا فى الأعمال الحيوية من حرب وسياسة وسياحة واستعمار؟ وإذ نراهم فلاسفة ونظريين نراهم جميعا يزاولون المقاصد العملية بهمة مدهشة، وأنى لنا إدراك التوفيق بين الحالين اذا لم نلم بالأخلاق والعادات والضرورات التى كانت فى تلك الأزمان المضطربة! كان طاليس فى جيش ألياط وكان أحدَ المؤتمرين فى البانيونيوم ؛ وفيثاغورث يجوب البلاد الأجنبية زمنا

(١) أرسطو . السياسة ك ٤ ب ٦ ف ١ من ترجمتى ص ٢١٧ من الطبعة الثانية .

طويلا على كثرة الأخطار وبعد الشقة ؛ وإكسينوفان الذى نفى نفسه طوعا من وطنه المقهور بالفرس يذهب للانضمام إلى الفوكيين فيما وراء البحار ؛ وميليسوس يدافع عن سموس ضدّ الآتينيين بعزمة لم يتغلب عليها پيريكليس إلا بعد طول العناء، أولئك قوّاد وساسة يشتغلون بما وراء الطبيعة ! أمر شديد الندرة دائما ! وفوق ذلك فإنهم يظهر عليهم أنهم فنوا فى دقة التدليل، تلك الخاصة التى كانت تتهم بها عن بينة مدرسة إيليا . إذا سلمنا بما ذكره أفلاطون فى كتابه المسمى "پرمينيد" فإن ذلك الانتقاد والتهمة كانا من الصحة بمكان ولا شك أن من الغريب أن تملك التدقيقات المنطقية على مثل هؤلاء الرجال عقولهم ، غير أنه يجب التنبيه إلى أن پرمينيد مع كونه تلميذ إكسينوفان وخليفته قد شرع لنفسه طريقا غير طريقه فسخ من أفكاره وغلا فيها ، وربما كان ذلك أثرا من آثار الروح العامة المنتشرة وقتئذ فى إغريقا الكبرى، تلك الروح التى كانت وقتئذ تبدع فى صقلية فن الخطابة والتى غلت فى نظريات فيثاغورث على العدد إلى حدّ الإفراط .

ليست تلك روح إكسينوفان التى تتجلى فى المقطوعات التى بقيت لنا من آثاره وفى الكتاب الذى أترجمه الآن فى هذا المجلد . وعلى رأيى أن هذه النقطة هى التى ينبغى أن نوجه النظر إلى الإمعان فيها للإصابة فى تقدير قيمة هذه المذاهب الناشئة وقتئذ ، والتى لم تكن لتأخذ بعدُ مركزا ثابتا فى العقل الإنسانى فى بداية هبوبه من سباته .

أوّل نظرة فى الطبيعة التى تحيط بنا تظهر لنا بادئَ الأمر وحدة الوجود ، وما يكون إلا بعد ذلك بالزمان أن نميز بالجهد والتحليل أجزاء مختلفة فى هذا المجموع العام الذى يسحر جلاله أبصارنا ويعيي إدراكنا . ولم تستطع الهند لا قبل الفلسفة الإغريقية ولا بعدها أن تخرج من تأثير فكرة الوحدة بل فنيت فيها بكليتها وبقى العلم على المعنى الخاص غريبا عنها على الإطلاق طول حياتها، كان لها نظريات للتهجم فيها نصيب قليل أو كثير، وتصوّرات للعقل فيها حظ وفير أو ضئيل، كلها قائمة على

الأصل العام للأشياء، ولكن لم يكن فيها دراسة خاصة وضعية للظواهر الطبيعية، ذلك هو أساس العبقرية الهندية وعظمتها . لا يوجد شيء أكثر من ذلك فى الفيدا والبرهمانا والأوبانيشاد والأناشيد الحماسية والقوانين ولا فى الدراسانا الفلسفية . أما العبقرية الإغريقيـة فإنها اتفق أن تسحرها ظواهر النظرة الأولى فى الوجود، ودفعت بذلك الخطر عن نفسها؛ ولئن كانت قـد اتجهت وقتا ما إلى فكرة الوحدة فإنها قد عرفت لحسن الحظ كيف تتخلص منها لتـدرس عن قرب دراسـة منتجة بعض الأجزاء الأصلية لهذه الوحدة التى ليست فى الواقع إلا صورة اللانهاية عينها .

ذلك هو الواقع حتى ان طاليس حين بحثه فى التعبير عن ماهية العـالم كان يدرس الأصل المـادى الذى تكوّن منه، ومع أنه قد أخطأ هذا الأصل الذى ظنه المـاء فإنه على كل حال كان يعتمـد على ما يشـاهد بالحس فى الطبيعـة ليتعرّف أسرار الأشياء . يشتغل بالهندسـة ويتتبع جريان الكواكب فى أفلاكها ما دام أنه كان على وشـك أن يتنبأ بكسوف الشمس . وعلى رأى أرسطو ، وشهادته قاطعة فى هذا المعنى، أن طاليس كان يسلم بأن العـالم مملوء بالآلهة القائمة بأمر النفس وبالحركة ، وليس فيثاغورث بأقل استمساكا بفكرة الوحدة مع أنه كان يجزئهـا، ولم تلهه استكشافاته الرياضـية والفلكية لحظة واحدة عن النظر فى توافق النظـام العالمى،فكان يعترف بوجود طوائف متخالفة فى هذا النظام،ولكنه معذلك يعترف على وجه الخصوص بوحدة عجيبة ، وعلى رأيه أن الأضـداد اثنين اثنين تكوّن كلًّا واحدا يكون أرقى منها . وأن الوحدة هى الأصل الحقيقى فى العالم المـادى كما هى فى العدد، وبذلك ارتقى فيثاغورث إلى تعريف الله دون أن يميزه تمييزا تاما عن العالم الذى ينظمه ويسيره .

أما عند إكسينوفان فإن فكرة وحدانية الله وقدرته هى ظاهرة بغاية الوضوح دون أن يتعمق فيها كما تعمق فيها أفلاطون من بعده وكما هو الحال على الخصوص فى اللاهوت المسيحى . وأظن أن هـذه النظرة الأولى فى الوحدة الإلهية هى التى

ألقت جلالها الباهر وخفاءها فى نظريات مدرسة إيليا . وعندى أن ذلك هو الذى يفسر أغلاط هـذا المذهب الشريف . إن نظر إكسينوفان لم يكن بعيـد المدى، إن شئتم، ولكنه على الأقل لا يضـل . أما پرمينيد فإن به ميلا إلى السفسطة التى حملت تلميذه ذنون على أن ينكر الحركة وحملت غرغياس على تأييد أبعـد مذاهب العدمية ضلالا وأقلها تنزهًا . وأما ميليسوس فإنه لزم الحـدّ الوسط بين الأسـتاذ صاحب المذهب وبين الذين غلوا به حتى وقعوا فى المحال . وإنّى مقارب بين إكسينوفان وميليسوس وذاكر الفروق الأساسية بينهما على ما يظهر لى :

لقد كان إكسينوفان مليئا باحترام هـذا المذهب الذى لم يدركه أحد من قبله بمثل ما أدركه هو من الوضوح والجلاء ، لذلك نفى عنـه خيالات الشعراء اللطيفة التى تحط من مقامه كما نفى عنـه الأنترو پومورفيزم الجـافى الذى هو مذهب العوام (تصور ذات الله تعـالى على صورة الإنسان) . تعالى الله عما يصفون من النقائص وعن صـور الكائنات الفانية وعن صور هؤلاء التعساء الذين يجعلونه على صورتهم . ليس كمثله شىء فى الوجود لأنه لمـاذا يكون المثيل خالقا بدلا من أن يكون مخلوقا ؟ وإن الله الذى لا يمكن أن يأتى من موجود يشابهه لا يمكن من باب أولى أن يأتى من شىء يكون دون مقامه . إذًا هو لم يخلق من شىء فيكون بالضرورة أزليـا . وأخذا بنتيجة ليست أقل ضرورية من الأولى يكون قديرا على كل شىء . لو كان آلهة متعدّدون لكانوا أقوى أو أضعف بعضهم من بعض، وعلى ذلك لا يكون إله ، لأن خاصة الإله أن يملك كل شىء ولا يملكه شىء أيا كان . ولمـا كان الله أزليا قديرا على كل شىء لزم على ذلك أن يكون واحدا ، لأنه لو كان له منافسون لمـا أمكنه أن ينفذ أحكامه ويحقق إرادته العليا .

من ذلك ترى أن فى إكسينوفان بعض مبـادئ جليلة لم يرفضهـا اللاهـوت المسيحىّ بل تقبلها بالعناية قبولا حسنا، ولكن نظر إكسينوفان قد اضطرب فى هذه النقطة، وليس فى ذلك مايوجب الاستغراب . ولقد أراد أن ينفذ نظره فى حقيقة

الذات الإلهيــة فأخذه العثار فى هذا الطريق الوعر الذى ضل فيه كثير غيره، فانه يقول : الله الذى لا يشابهه شيء من الحوادث هو على الأقل يشبه ذاته، وهو هو فى جميع أجزائه وهو بكله هو فى كل جزء منها . قد يكون ذلك مقبولا ولكن إكسينوفان لمــا وقع فى الاستعارات التى لا تساوى قيمتها إلا ما تساويه الأنتروبومورفيزم التى انتقدها بحق أخذ يشبه الله بفلك ، وكانت النتيجة عنــده أن الله لا يمكن أن يكون لا لا متناهيا ولا متناهيا، وأنه لا يمكن أن يكون له حركة ولا سكون، كما أنه لا أول له ولا وسط ولا آخر. ومع ذلك فإن اكسينوفان لم يخدع نفسه فى أمر الصعوبات غير المتناهية التى تقف فى حل هذه المسئلة، ودليل ذلك ما قاله فى هذه الأبيات الجميلة التى نقلها الينا سكستوس أمبيريكوس .

„ لا أحد من الكائنات الهالكة يستطيع أن يرى جليا فى هذه الأعماق، وان "
„ يستطيع أحد أن يعرف حقيقة ماهية الآلهــة والعالم، تلك المــاهية التى أحاول "
„ الكلام عليها . .فاذا لقى أحد يوما بالمصادفة الحقيقة التامة لمَّـا عرف هو نفسه "
„ أن يقدُر ما وصــل اليه منها، وليس فى كل ما يقال فى هــذا الشأن إلا محض "
„ تشبيه وتقريب " .

والظاهر أن پرمينيد لم يتمشّ بالبحث فى هذا الموضوع الكبير الى الحدّ الذى وصل اليه أستاذه . وأما ذنون تلميذ پرمينيد وواضــع فن الجدل فإنه ، على ما قال ديوجين اللايرثى نقلا عن أرسطو، قد وصل فى هذا الموضوع الى لا أدرية غلا فيها غرغياس الى أقصى حدّ ، ولكنى أكرر أنى لا أشـتغل بذنون ولا بپرمينيــد بل أتخطاهما الى ميليسوس فهو الذى أقصد درسه بعد إكسينوفان .

مع أن ميليسوس يفصله عن رئيس المذهب ثلاثة أو أربعة قرون ، فانه أحرص الناس على أن يحذو حذوه ويلتزم تعاليمه ، إلا أنه ، عوضا عن أن يبقى متمسكا بإله إكسينوفان الواحد الأزلى القادر على كل شيء بل والمدرك لكل شيء أيضا، زاغ عن الطريق ووضــع الموجود موضع الإله فاشتغل بالموجود آخذا إياه

فى كل تجرّده وفى كل عقمه . غير أن التأملات الميتافيزيقية مهما قلّ فيها الضبط فان ذلك لا يقلل من جمالها ولا من تعمقها الاستثنائى .

الموجود لا يأتى من الموجود وإلا لزم عليه أن يتقدّم نفسه وهـذا تناقض . ومثل ذلك فى التناقض أن يتولد الموجود من المعدوم . على ذلك لم يكن الموجود قد وجد فى زمن ما ، وعليه يكون الموجود أزليا وفوق ذلك لا يعتريه الفساد ولا الانتهاء ، لأنه إما أن يتغير الى معدوم وهذا محال ، و إما أن يتغير الى موجود آخر و إذا فلا يكون منعدما ، فالموجود على ذلك كان دائمـا ويكون دائمـا ، وما دام أنه لم يوجد من العـدم فهو لا أوّل له ، وما دام لا يمكن فناؤه فهو لا آخر له ، وما دام لا أوّل له ولا آخر له فهو حتما لا متناه ، وما دام لا متناهيا فهو واحد ، لأن اللا نهـاية منافية للتعـدّد ، إذ لا يمكن تصوّر اثنين أو عدّة لا متناهيـة . ومتى كان الموجود أبديا واحدا لا متناهيا كان بالنتيجة غير متحرّك ولا قابل للتغير ، لأنه فى أى مكان غير ذاته يمكنه أن يتحرّك ؟ ولمـا كان موصوفا بالوحدانية المطلقة فأى تحوّل أو تبدل أو تغير يمكن أن يلحقـه ؟ ولو أمكن أن يتبـدّل بغيره أيًّا كان لانتفى أن يكون شبيه نفسه ولانعدمت صـورته الأولى وجاءته صورة أخرى . ومع تقـدّم الزمن ينعدم هـذا الموجود الأبدى واللانهائى ويتحوّل الى لا شىء . ولمـا كان الموجود أبديا لا متناهيـا واحدا كان لا يمكن أن يكون له جسم ، فلا يمكن أن يكون ماديا ، لأنه اذا كان ذلك لزم عليـه أن يكون ذا أجزاء متمـيزة بعضهـا عن بعض ، وهـذا ينافى وحدانيته ولا نهايتـه وأبديته . لا شىء كائن حقيقـة الا الموجود . وجميع الأشياء التى تؤكد لنـا حواسنا وجودها ليست إلا مظاهر خدّاعة متحوّلة كثيرا أو قليلا ، فهى غير موجوـة بالمعنى الخـاص ما دامت متغيرة وما دام أنها تهلك بعـد أن تولد . أما الموجود الحقيق فانه لا يتحوّل ولا يتغير أبدا ولو أن الأشياء التى تظهر أمام حواسـنا كانت موجودة كما نظنها للزم على ذلك أن تكون غير قابلة للتغير وأبدية كالموجود نفسـه ، فلا شىء بموجود إلا الوحدة ، وأما التعدّد فلا وجود له أصلا .

أما أنا فانى أجد أفكار ميليسوس هـذه خليقة به، و بالمدرسـة التى هو أحد أعضائها . لا شك فى أنهـا متناقضة من بعض الوجوه ، ولكننا من خلال هـذه الرسوم الباليـة والمقطوعات القليـلة نشعر لها بعظمة وقوة لم يوفهما تاريخ الفلسفة حقهما من حسن التقدير، وربما كان هذا الغمط منذ أرسطو .

وإنى أعترف بأن انكساغوراس مفهوم خير فهم بعد إكسينوفان وميليسوس، فإن أنكساغوراس الذى هو معاصر لقائد سموس (ميليسوس) هو الذى جلا الغوامض عن علم الطبيعة وقواعد نظام الكون فى عصره بأن أدخل عليها تلك الفكرة الصالحة : أن العالم يديره العقل المدبر .

ولقد أُعجب سقراط بهذا المذهب مع أنه يرى أن أنكساغوراس لم يكن ليستقصى كل نتائجه، كما أننـا نعلم ما صرح به أرسطو من الثناء الجميـل على أنكساغوراس إذ يقول : لقد جاء أنكساغوراس بعد كثير من الضـلالات، أشبه ما يكون برجل سليم العقل يتكلم وسط المجانين[1] . فمن البغى أن ينتقص فضل أنكساغوراس أو أن ينازع فيه بعـد ما كان من شهادة سقراط وأرسطو، فإن له الفضل الأوفى فى هذا المذهب؛ وليس شاذا عن المألوف أن كلمة من عبقرى تكشف القناع عن المغيبات العلميـة . قد يقال إن إكسينوفان وميليسوس همـا اللذان وطّآ لهـذا المذهب بنظرياتهما التى هى أقـرب ما يكون منـه . ولا مشاحة فى ذلك فان لهما نصيبهما الوافر من ذلك الفضل .

ذلك هو المعنى الحقيقى لمذهب الوحدة فى مدرسة ايليا التى طالما حُجب من نورها وصُغر من قدرها على نسب غير مضبوطة ، وما الوحدة الإيلية إلا الله طلبوا معرفته يتلمسونها بين حجب الجهالة الأولى ويدرسونها، كما يمكن أن تدرس فى تلك الأزمان اذ العلم والمشاهدة العلمية لا يزالان فى بدايتهما . فلم تكن تلك الوحدة قد وصلت بعدُ الى ما قرره أنكساغوراس من الإدراك الإلهى ولا ما قرره سقراط وأفلاطون من العناية

(١) أرسطو الميتافيزيقا ك ١ ب ٣ ترجمة فكتور كوزان . وقطع فلسفية الطبعة الخامسة ص ٤٠٢

الربانيـة . غير أن تقرير تلك الوحدة مع ذلك كان الجـرثومة الأولى لكل هـذه المذاهب . ومهما يكن من صدق الانتقادات التى يمكن توجيهها الى المذهب الذى يرأسه إكسينوفان، فلا شك فى أن تلك التوجهات الساميـة هى التى آتته عظمته وخطره فى تاريخ الفلسفة .

أقف عند هـذا الحدّ وألخص ببيان أوفى تلك المعانى التى جئت على إيضاحها بشىء من الضبط ربما كان أقل مما كنت أريد .

قد ظهر لى أن مجىء الفلسفة الى عالمنـا الغربى حادثة من الخطر بحيث أردت أن أحيطها بكل ما يجلو خفاءها معتمدا فى ذلك على استجواب التاريخ عن الأمم وعن الظروف التى اعتورت هذه الحادثة . وممـا ينبغى التنبيه اليه أن هذه الحادثة إنمـا كانت من احتكاك أوروبا بآسيا، وان كان ذلك قد حصل من قبل فى حرب طروادة إلا أن ظروف هـذه الحرب مطروحة جانبا لأنها خرافيـة أو لقلة العلم بها . ذلك الاختلاط حصل فى بقعة من الأرض ليس فيها من السعة إلا بمقدار ما يلزم لتحرك الجاليات الإغريقية وفى عصر يعتبر نسبيا عصر توحش ولكنه كان مملوءا بالخصب الذى لم يتجدد بعد من وقتئذ الى الآن . على ذلك كانت آسيا الصغرى هى السابقة على آتينـا التى فاقتها من بعض الوجوه، كما يشهد بذلك هوميروس، ولكن آسـيا التى حملت بهذا الأصل العجيب تحت تأثير أمم غريبة عنه لم تستطع تعهده وإنماءه، فعاد منها يستكمل قوته وكماله الى الأرض العتيقة التى كان قد خرج منها منذ خمسـة أو ستة قرون .

ولقد تصـدّيت فوق ذلك لتبيين أن العبقرية الإغريقيـة هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها . فاذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئا من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الإبهام . لا مراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الإنسانيـة مقام كبير، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة أو فى العلم بعبارة أعمّ ليسوا شيئا مذكورا فى جانب الإغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا

منهم . ولقد أثبتت مقارنة اللغات فى أيامنا هذه أن لغة الإلياذة ولغة الڤيدا كانتا فى الأصل لغة واحدة ، وأن اللسان الإغريق والسنسكريت أخوان ولدتهما أم واحدة ، ولكنه اذا كان الأصل الذى اطُّرح فى أزمان ما قبل التاريخ واحدا ، فان ما قدّر على الأخوين كان مختلفا جد الاختلاف ؛ لأن العالم الاغريق قد أنتج الآداب والعلوم والفنون التى تنسج الآن على منوالها ، وشاطر بحظ عظيم فى تقدّم المدنية المسيحية حتى وصلت الى ما هى عليه الآن ؛ فى حين أن العالم الهندى ما أنتج إلا البرهمانية والبوذية ؛ فهو نازل عنا بمراحل على الرغم من المزايا المتعددة التى يكون من الظلم عدم الاعتراف له بها . بين العالم الإغريق وبين العالم الهندى تأتى بلاد فارس التى توسطت بين العالمين فى المكان كما هى فى الزمان ، ولكنها لم تشغل مركزا يذكر لها ولم تستفد منها الإغريق إلا المجد الخالد الذى أحرزه أمثال ملتياد وليونيداس وطيمستوكل والإسكندر .

ومع ذلك فان الهند وفارس وإغريقا ومصر ويهودة نفسها ، مهما كانت الفروق بينها فى المعقولات ، كلها هى الخمسة فروع متفرّعة عن جنس واحد . فان علم أنساب الشعوب ووصفها الذى لا ينبغى أن يكون له أهمية عظمى فى هذه الأبحاث ، لكنه مع ذلك لا ينبغى أن يغفل أمره فيها قطعا ، هذا العلم قد كشف الغطاء عن مشابهة تامة بين هذه الشعوب منطوية تحت فروق فى الأخلاق وفى العقل وفى اللغة ، وهذا الجنس الرفيع الذى يجمع الخمسة الشعوب المذكورة هو ما يسمونه بالجنس الهندى القوقازى . وإن الأمم السامية نفسها متفرّعة منه أيضا كالأخرى وإن كانت قابلياتها تخالف قابليات الأخرى على الإطلاق فهى قوية فيما يتعلق بالدين عقيمة فيما عداه تقريبا ، ولكن فى هذه العائلة الكبرى الجميلة التى كأنها احتكرت لنفسها الذكاء الحقيق يقف الإغريق بجملتهم فى صفها الأوّل . وحينما كانوا يسمون من عداهم بالمتوحشين لم تكن كبرياؤهم بالغة من السوء الحدّ الذى كان يظن بهم . ومع أنه كان خيرا أن يكونوا أكثر تواضعا فان الهلّين المدفوعين الى هذه الكبرياء بدواعى غرائزهم الصادقة لم يكونوا مخدوعين على شرف مقامهم أكثر مما ينبغى .

والآن ونحن فى وسعنا أن نحكم حكما خلوا من الغرض نقول إنهم أحق من سواهم بقصب السبق . ومهما يكن من حال المستقبل فليس من الهيّن عليه أن ينزعهم من هذا المقام. أما أنا فلست أتردّد فى إسناد هذا المجد إليهم، مع أنى لا أنكر ما كان لمنافسيهم من العظمة بل من التفوّق فى بعض الوجوه، ولكن من الذى يمكننا أن نضعه فى حلبة المجد فى مستوى فوق مستوى الهلّين وقد جاءونا يقدّمون بين يدى دعواهم الشعر والآداب والفنون والعلوم والفلسفة والتاريخ ؟ .

ولقد بينت، على مهد الفلسفة الناشئة، مقام مدرسة إيليا وما لإكسينوفان ومليسوس من الأهلية الخاصة بين طاليس وفيثاغورث .

ينبغى أن نكرر أن كل ما نسرده من هذه الحوادث التاريخية إنما هو تاريخنا ولو كان منذ خمسة وعشرين أو منذ ثلاثين قرنا، ذلك بأننا أبناء الإغريق، ولولاهم لما وصلنا الى ما وصلنا إليه، فان إغريقا هى التى علمت روما، وبواسطة روما وإغريقا فتحت المسيحية بلادنا ومدّنتنا بعد أن انتفعت بكل ما تقدّمها ومهد لها السبيل . وإن العلم على جميع صوره كان معدوما فى الشرق، فاخترعه الإغريق ونقلوه إلينا[1] . وما كان من روما والعالم الحالى بتمامه منذ إغارة المتوحشين إلا أن اقتفوا هذا الأثر الذى عفا رسمه أحيانا ولكنه لم ينعدم أبدا .

وإنى إذ عنيت بإيضاح هذه الآثار الأولى أردت أن أوفى أجدادنا حقهم وأن أذكّر بما علينا من الواجب نحوهم بأن بينت مراكزهم وخدماتهم للإنسانية . ن العقل الانسانى بطىء فى سيره فيحسن به وهو سائر فى طريقه غير المتناهى أن يلقى نظره الوقت بعد الوقت الى الوراء ليرى من أين ابتدأ سيره وليسدّد خطاه فى المستقبل غير المحدود الذى ينتظر قدومه ! .

فبراير سنة ١٨٦٦

(١) راجع مقدّمتى لكتاب السماء لأرسطو ص ٧٩

الكون والفساد

الكتاب الأول

الباب الأول

الموضوع العام لهذا الكتاب — تمحيص المذاهب السابقة — آراء مختلفة — تمحيص نظريات أنكساغوراس ولوكيبس وديمقريطس — نقض خاص لمذهب أمبيذقل — الاستشهاد ببعض أبياته — المعانى المختلفة التى يحمل عليها كون الأشياء تبعا لما يسلّم به من الوحدة أو التعدد للعناصر الأولية .

§ ١ — لأجل أن ندرك الكون والفساد فى الأشياء التى تتولد وتهلك بالطبع يلزمنا، كما هو الحال فى البقية ، أن نقدر على حدة عللها ونسبها . وسننظر أيضا عند معالجة النمو والاستحالة ما هى كل واحدة من هاتين الظاهرتين ونبحث ما إذا

ـ ك ١ ب ١ ـ أخذ فيلوپون يثبت أن هذا الكتاب متصل جد الاتصال بكتاب السماء . ودليله الأصلى فى ذلك أن كتاب السماء ينتهى بجملة فيها أداة استدراك لا يوجد معادلها الا فى هذا الكتاب . وهذا الدليل ليس قاطعا جدا . ولكن من المحقق أن مواد الكتابين مرتبط بعضها ببعض فضل ارتباط ، وأن أرسطو بعدما درس السماء والخواص العامة للأجرام اللامتغيرة التى تؤلفها أمكنه أن يفكر فى اتمام هذه الدراسة بدراسة الأجسام التى من شأنها فى الطبيعة أن تتولد وتهلك تابعة فى ذلك قوانين منتظمة . الصلة اللغوية بين الكتابين موجودة كما نبه اليه فيلوپون ولكن الصلة المنطقية بينهما هى أيضا أحق .

§ ١ — بالطبع — أراد أرسطو، وهو لا يشتغل الا بالأجسام المكونة أو الهالكة بفعل الطبيعة ، أن يخرج جميع الأجسام التى تكونها أو تهلكها الصناعة الانسانية . فان هذه الاجسام يمكن أن تكون موضوع دراسة خاصة . — عللها ونسبها — اللفظ اليونانى الذى عبرت عنه بالنسب هو أيضا مبهم

كان طبع الكون وطبع الاستحالة هما واحداً بعينه أو هما متميزان بالحقيقة كما هما متميزان بالاسم الدال على كليهما ؟ .

§ ٢ — من القدماء من رأوا أن ما يسمى كونا مطلقا ليس إلا استحالة والآخرون منهم رأوا أن كون الأشياء واستحالتها ظاهرتان مختلفتان. فالذين يزعمون أن العالم كلٌّ ذو صورة واحدة ويجعلون الأشياء كلها تخرج من مبدإ واحد بعينه هؤلاء يلزمهم بالضرورة أن يروا الكون مجرّد استحالة وأن يفترضوا أن ما يولد بالمعنى الخاص إنما هو يستحيل . وعلى ضدّ ذلك الذين يسلمون بأن المادة تتألف من أكثر من عنصر واحد كأمبيدقل وأنكساغوراس ولوكيبس . هؤلاء

جدا . وقد حاول فيلوپون أن يوضحه فلم يوفق الى ذلك . وربما كان لفظ «تحوُّلات» صالحا أيضا .
— النمو والاستحالة — ينبغى الرجوع الى تعريف هذين اللفظين فى كتاب الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٣ ف ٧ وك ٥ ب ٣ ف ١١ ومابعدها . فان النمو هو حركة فى الكم وأما الاستحالة فانها حركة فى الكيف .
— الكون والاستحالة — أما الكون بالمعنى الخاص فهو الانتقال من اللاوجود الى الوجود . وأما الاستحالة فهى ليست الا مجرد تغير فى الكائن الموجود من قبل . — بالحقيقة — زدت هذا اللفظ لاتمام الفكرة . لأجل تبيين الفرق بين الكون وبين الاستحالة استشهد فيلوپون ببيت شعر لهوميروس . ولكن هوميروس لا يكاد يصلح حجة ذات وزن فى هذه الفروق اللفظية والميتافيزيقية .

§ ٢ — من القدماء — سيرى أن أرسطو يعنى بهم أمبيدقل وأنكساغوراس ولوكيبس وديمقريطس ... الخ . — كونا مطلقا — يعنى الانتقال من العدم الى الوجود . — ليس الا استحالة — يعنى إدماج ظاهرتى الكون والاستحالة . — ظاهرتان مختلفتان — هذا الرأى هو وحده الصحيح فان الكون والاستحالة معنيان لا يمكن إدماجهما أحدهما فى الآخر . — ان العالم كلٌّ ذو صورة واحدة — أو أنه لا يوجد إلا عنصر واحد بعينه هو الذى يكوّن كل شىء بلا استثناء . وهؤلاء الفلاسفة هم على العموم اليونان وأصحاب مدرسة إيليا التى كانت تؤيد مذهب وحدة الجوهر ووحدة الموجود . — مجرّد استحالة — قد زدت على المتن كلمة مجرّد . — ما يولد بالمعنى الخاص — هو الذى سماه التولد المطلق كما نبه اليه فيلوپون . — المادة تتألف من أكثر من عنصر واحد — أو أنه «يوجد أكثر من مادة واحدة» . ولقد سمى هنا أنصار تعدّد العناصر وأما أنصار الوحدة فلم يسمهم . أقام فيلوپون نفسه مقام أرسطوطاليس وذكّر بأن طاليس لم يك ليقبل إلا الماء عنصرا أوحد ، وأنكسيمين وديوجين الأپلونى يقول كلاهما بأنه الهواء . وأنكسيمندروس يقول بأنه عنصر وسيط بين الهواء وبين الماء . وكان هرقليطس يقول بأنه

يجب أن يكون لهم رأى مضاد للأوّل تماما . § ٣ — ومع ذلك فان أنكساغوراس فى هــذا قد نكر التعبير الخاص وغلب فى لغته الخلط بين وُلد وهلك و بين تغــيّر . على أنه يعترف بتعــدّد العناصر كما يفعل فلاســفة آخرون . كذلك قال أمبيدقل إن عناصر الأجسام كانت أربعة و إنه باضافة العنصرين المحرّكين يكون المجموع ستة عناصر . أما أنكساغوراس فإنه ارتأى أنها غير متناهية فى العدد كما كان يرى لوكيبس وديمقريطس . والواقع أن أنكساغوراس كان يعتبر عناصرَ الأجسامَ المركبة من أجزاء متماثلة ، المتشابهة الأجزاء ، مثل العظم واللحم والنخاع و جميع المواد الأخرى التى كل جزء منها مرادف للكل . ٤ — ويزعم ديمقريطس ولوكيبس أن جميع الأجسام مركبة فى البداية من أجزاء لا تتجزأ أو ذرّات وهى غير متناهية لا فى عددها ولا فى أشكالها . وأن الأجسام لا تختلف فى أصلها بعضها عن بعض إلا بالعناصر التى تتركب منهــا

النار . أما فلاسفة التعدد فان أمبيدقل كان يقبل القول بالعناصر الأربعة كما قال به أرسطو النار والهواء والمــاء والارض . وأما أنكساغوراس فانه كان يفترضها تلك الاجسام المتجانسة المتشابهة الأجزاء واللا متناهية . وديمقريطس ولوكيبس كانا يفترضان هــذا الفرض بالنسبة لذراتها اللامتناهيــة فى العــدد وفى اختلاف أشكالها . (ر . الفقرات الآتية) .

§ ٣ — نكر أنكساغوراس التعبير الخاص — فى عهد أنكساغوراس لم تكن لغة الفلسفة قد تكوّنت كما حصل ذلك بعدُ . — كما يفعل فلاسفة آخرون — يعنى المذكورين بعد ذلك . — العنصرين المحرّكين — هــذان العنصران المحركان اللذان يقول بهما أمبيــدقل هما التنافر والعشق أوّلهما يفرق الأشياء والثانى يجمعها . — ستة عناصر — يعنى عنصرى الحركة مضافا اليهما العناصر الاربعة العادية الارض والمــاء والهواء والنار . وعلى رأى أمبيدقل أن هذه الاربعة الاخيرة منفعلة فقط وأما الآخران فانهما فاعلان ومحرّكان . — من أجزاء متماثلة المتشابهة الأجزاء (هوموميريس) — أحد هــذين التعبيرين ليس الا ترجمة للآخر — كل جزء منها مرادف للكل — فان جزء العظم يسمى عظما وجزء من اللحم يسمى لحما فى حين أن جزء اليد لا يسمى يدا ... الخ وعلى ذلك يوجد من العناصر الأوّلية المتشابهة بمقــدار ما يوجد من الجواهر المختلفة ولذلك كانت عناصر أنكساغوراس غير متناهية فى العدد .

§ ٤ — أجزاء لا تتجزأ أو ذرات — كلا الاسمين مرادف للآخر تماما . واسم الذرات أكثر استعمالا وقد بين فيلو پون هنا وجه الخــلاف بين مذهب أبيقور فى الذرات و بين مذهب ديمقريطس فإن أبيقور

وبوضع هذه العناصر وترتيبها . § ٥ — ويظهر هنا أن أنكساغوراس من رأي معارض لرأى أمبيدقل لأن هذا الأخير يقول بأن النار والماء والهواء والأرض هي الأربعة العناصر وأنها أبسط من اللحم أو العظم أو أى عنصر آخر من العناصر المتشابهة فيما بينها أو الأجسام المتشابهة الأجزاء . ولكن أنكساغوراس على الضد من ذلك يزعم أن الأجسام المتشابهة الأجزاء هي بسيطة وأنها هي العناصر الحقيقية بينما أن الأرض والنار والهواء مركبة وأن جراثيم العناصر منتشرة فى كل مكان .

§ ٦ — على ذلك متى ادُّعى أن جميع الأشياء تخرج من عنصر واحد لاغير لزم ضرورة اعتبار كون الأشياء وفسادها كمجرّد استحالة . فيكون إذًا الموضوع للظواهر دائما واحدا ودائما هو بعينه . فإنما على موضوع من هذا القبيل يمكن أن يقال إنه يعانى استحالة ولكن متى سلم بأنواع متعدّدة للجواهر وجب التسليم أيضا بأن الاستحالة تخالف الكون . لأن كون الأشياء وفسادها حينئذ يحصلان باتحاد العناصر أو بافتراقها .

وفى هذا المعنى أمكن لأمبيدقل أن يقول :

ليس لشىء من طبع ثابت ، وما الكل إلا اختلاط وافتراق

يقول بعدم تناهى الذرات فى العدد ولكنه لا يسلم بأنها غير متناهية فى الأشكال . — إلا بالعناصر التى تتركب منها — أو بعبارة أخرى « التى تأتى هى منها » . هذا من أجل التخالف غير المتناهى فى طبيعة الذرات . — بوضع هذه العناصر وترتيبها — هذا لعدم التناهى فى الأشكال .

§ ٥ — من رأى معارض — لا يجد فيلوپون بين رأى أنكساغوراس ورأى أمبيدقل من مسافة التعارض ما تدل عليه عبارة أرسطو . — النار والماء والهواء والأرض — ذكرتها بهذا الترتيب لأن أرسطو ذكرها كذلك . — أنها أبسط من اللحم — قد يؤخذ من صوغ هذه الجملة أن أمبيدقل كان يعلم مذهب أنكساغوراس وينتقده . ولكن التاريخ الزمنى لا يسمح بذلك . ولعل المراد هنا هم أتباع أمبيدقل كما يدل عليه تعبير النسخة الإغريقية لا أمبيدقل نفسه . — جراثيم العناصر — هذه الجراثيم شدّ ما تقارب إذًا الذرات التى هى منتشرة فى كل مكان على حسب مذهب ديمقريطس .

§ ٦ — ادّعى أن جميع الأشياء تخرج من عنصر واحد لا غير — هذا مذهب لم يقبله أرسطو أبدا . — كمجرّد استحالة — رف (١) آنفا . — الموضوع للظواهر — قد زدت على النص اللفظ الأخير . — يعانى استحالة — يلزم فى الواقع وجود موضوع دائم حتى يمكن أن يكون على التعاقب محلا للاستحالات التى

§ ٧ — هذا تعبير، كما يرى، يلائم تماما فرض هؤلاء الفلاسفة . وتلك هى أيضا طريقة تعبيرهم . و إذن فإن هؤلاء الفلاسفة أنفسهم مضطرون الى الاعتراف بأن الاستحالة أمر مخالف للكون . ومع ذلك فإن من المحال أن توجد استحالة حقيقية على حسب المبادئ التى يقررونها . على أنه من السهل الاقتناع بصحة الرأى الذى نقرره هنا . فالواقع أنه كما أن الجوهر فى حال السكون نجده يعتريه فى ذاته تغير فى العظم يسمى النمو والنقص كذلك أيضا يمكننا أن نشاهد فيه الاستحالة . § ٨ — ولكن من جهة أخرى ليس أقل من ذلك فى باب المحال إيضاح الاستحالة على حسب ما يقوله الذين يسلمون بأكثر من عنصر واحد . لأن التأثرات التى تجعلنا نقول بوجود الاستحالة هى فصول للعناصر، أريد أن أقول، الحار والبارد، والأبيض والأسود، والجاف والرطب، واللين والصلب، وجميع الخواص الأخرى المشابهة كما يقوله أيضا أمبيدقل :

الشمس فى كل مكان بيضاء مملوءة بالحرارة ، وفى كل مكان المطر ينشر غشاءه و برده .

تتابه إذ يمر من البارد الى الحار ومن الأبيض الى الأسود... الخ أو على التبادل . — بأنواع متعددة الجواهر — عبارة النص بالضبط « أجناس متعددة » . — باتحاد العناصر أو بافتراقها — تحت تأثير العشق والتنافر كما يريد أمبيدقل .

§ ٧ — فرض هؤلاء الفلاسفة — الذين يقولون بتعدد العناصر . — وتلك هى أيضا طريقة تعبيرهم — أو بعبارة أخرى « ان الفرض الذى نسنده اليهم هو الذى يسلمون به » . — مضطرون الى الاعتراف — لا يظهر أن أمبيدقل أنكره بالضبط، ومن حق هذا القول أن يوجه الى ديمقريطس وأنصار الوحدة . — أن توجد استحالة حقيقية — النص أقل من هذا ضبطا فى التعبير . — نجده يعتريه — إنما يستشهد أرسطو الى المشاهدة الحسية وعلى رأيه أن الاستحالة ليست ظاهرة أقل وضوحا من النمو أو الذبول اللذين تدركهما حواسنا بغاية السهولة . ان الفكرة فى هذه الفقرة لا تزال مضطربة خافية ولم أستطع جلاءها كما أردت على الرغم من تفسير فيلو پون وتفسير إسكندر الافروديزى الذى نقله بجانب تفسيره . — نشاهد فيه الاستحالة — أو تغير الكيف .

§ ٨ — الذين يسلمون بأكثر من عنصر واحد — قد يظهر من هذا أن الفقرة السابقة موجهة الى الفلاسفة الذين يقولون بوحدة الجوهر، ولكن النص لا يساعد على هذا التفسير . — التأثرات — أو التغيرات . — فصول للعناصر — أو بعبارة أوسع «الفروق التى توجد بين العناصر» . — الحار والبارد — بطريقة عامة

إنه يقرر المميزات عينها لسائر الأشياء . وينتج من ذلك أنه إذا كان الماء لا يخرج من النار، ولا الأرض من الماء . فإن الأسود لا يمكن أن يخرج من الأبيض، ولا الصلب من اللين . وهذا التدليل بعينه قد ينطبق على جميع التغيرات الأخرى . وهذا بالضبط إذًا ما كان يُعنى بالاستحالة .

§ ٩ — ولكن أليس من البين أنه يلزم دائما افتراض وجود مادة واحدة لا غير لأجل الأضداد، سواء أتغيرت بالنقلة فى الأَين أم تغيرت بالنمو أو النقص أم تغيرت بالاستحالة ؟ يلزم ألّا يكون إلا عنصر واحد ومادة واحدة بعينها لأجل جميع الكيوف التى تُتبدل بعضها ببعض . وإذا كان العنصر واحدا فهناك أيضا استحالة .

§ ١٠ — وعلى ذلك يظهر لنا أن أمبيدقل يناقض الحوادث الأكثر واقعية ويناقض نفسه معا . لأنه يزعم معا أن العناصر لا يمكن أن يجىء بعضها من البعض الآخر بل على الضد يأتى منها سائر الأشياء ، وفى الوقت عينه بعد أن رد إلى الوحدة الطبيعةَ كلها كاملة ما عدا التنافر ، قد استخرج بعد ذلك كل شىء من الوحدة التى تخيلها . فعلى رأيه الأشياء بانفصالها عن هذه الوحدة

كل المقابلات بالتضاد التى تتوارد وتتعاقب على موضوع واحد بعينه . — ينتج من ذلك — ليست هذه نتيجة تنتج بالضرورة من مذهب أمبيدقل . — وهذا بالضبط اذًا ما كان يعنى بالاستحالة — ولا يظهر أن أمبيدقل ينكره .

§ ٩ — ولكن أليس من البين — على هذه النظرية راجع كتاب الطبيعة ك ١ بَ ٧ ف ٩ وكتاب المقولات ب ١١ — بالنقلة فى الأَين ... ... بالنمو ... ... بالاستحالة — تلك هى أنواع الحركة الثلاثة التى يقول بها أرسطو وقد شرحها فى كتاب الطبيعة . — مادة واحدة بعينها — عبارة النص ليست من البيان على هذا القدر . — التى تتبدل بعضها ببعض — والتى هى بناء على ذلك أضداد ، فان الجسم بعينه هو الذى يكون بالتناوب حارا أو باردا أو أبيض أو أسود ... ... الخ .

§ ١٠ — يناقض الحوادث الأكثر واقعية — بإنكاره وجود الاستحالة وهى ظاهرة مشاهدة بغاية السهولة . — رد الى الوحدة — ذلك هو (سفيروس) إله المادة المظروف فيه العالم على رأى أمبيدقل بفعل العشق الى أن يأتى التنافر فيكشفه عنه من جديد بأن يفصل العناصر . — ما عدا التنافر — ما دام هو الذى يجب أن يقطع من جديد الوحدة التى أوجدها العشق . — فعلى رأيه — يظهر أن ما يلى هو نقل حرفى لعبارة أمبيدقل

العنصرية بواسطة بعض فصول و بعض تغايير فهذا الشيء بعينه صار ماء وآخر صار نارا. وبهذه المثابة يسمى الشمس بيضاء حارة والأرض كثيفة صلبة . ولكن متى محيت هذه الفصول، و يمكن أن تمحى ما دامت متولدة فى وقت بعينه، أمكن للأرض بالبداهة أن تأتى إذًا من المـاء كما يمكن أيضا للماء أن يأتى من الأرض. كذلك الحال بالنسبة لجميع الأشياء الأخرى التى جرى عليها التحول والتغير ، لا فى الزمن الذى يتكلم عنه فقط بل التى تتغير أيضا فى هـذا اليوم . § ١١ — زد على ذلك أن فى مذهب أمبيدقل توجد مبادئ منها يمكن أن تتولد الأشياء وتنفصل من جديد، وعلى الخصوص متى سلمنا بالتنازع الأبدى المتبادل بين التنافر والعشق . فانظر كيف أن الأشياء فيما يظهر تتولد إذًا من مبـدأ واحد . لأن النار والمـاء والأرض وهى لا تزال مجتمعة لم تكن لتكوّن كل العـالم . ولكنه بهـذه النظرية لا يعرف إن كان يلزم الاعتراف بأن لهنّ مبدأ واحدا أو مبادئ متعدّدة وأعنى بهنّ الأرض والنـار والعناصر التى من هـذا القبيل . ذلك بأنه فى الواقع من جهة ما يُفترض كمادةٍ مبدأً منه تأتى الأرض والنـار متغيرتين بالحركة المتحصلة فانه لا يوجد اذًا الا عنصر واحد لا غير . ولكن

ولكن البيان غير جلى وفيه الغموض العادى الذى يوجد فى نقوض أرسطو . — فهذا الشيء بعينه صار ماء — لا يظهر أن هذا هو مذهب أمبيدقل الحقيق فان رأيه هو أن العناصر كلها مكوّنة ولا تتغير ، بل هى فقط تجتمع أو تفترق تحت التأثير القدير للعشق والتنافر . — و يمكن أن تمحى — قد لا تكون هذه هى فكرة أمبيدقل الحقيقيـة . — ما دامت متولدة فى وقت بعينه — يظهر أن أمبيدقل على الضد من ذلك يعتقد أن هذه الفروق أبدية . — بل التى تتغير أيضا فى هذا اليوم — فى مذهب أرسطو ولكن لا فى مذهب أمبيدقل .

§ ١١ — زد على ذلك أن فى مذهب أمبيدقل — ليس النص بهذا الضبط من البيان ، فان المعارضة الجـديدة تنحصر فى أنه فى مذهب أمبيدقل توجد مبادئ سابقة على العناصر وعلى ذلك تكون هذه العناصر ليست عناصر حقيقية .

— التنافر والعشق — هما مبدآن سابقان للعناصر يجمعانها و يفرقانها . — من مبدإ واحد — حينما يتكشف (سفيروس) إله المـادة من جديد بفعل التنافر . — مبدأً واحدا أو مبادئ متعدّدة — يكون على الأقل الاثنان التنافر والعشق . — كمادة — يمكن ألاّ تكون هـذه أيضا فكرة أمبيـدقل ، فان التنافر والعشق لا يكونان بالضبط العناصر و إنمـا يفعلان بها فقط .

من جهة أن هذا العنصر عينه هو متحصل من اجتماع هذه الجواهر التى تتحد ينتج أن هذه الجواهر قبل اجتماعها هى ذواتها أشد عنصرية وسابقة بطبيعتها .

§ ١٢ — ولكن يلزمنا فى دورنا أن نتكلم بطريقة عامة على كون الأشياء وفسادها على معناهما المطلق، وسنعيد البحث فيما اذا كان هذا الكون أو لم يكن وسنقول كيف يكون هو . ثم نتكلم أيضا على الحركات البسيطة كالنمو والاستحالة .

— أشد عنصرية — هذه هى عبارة النص نفسها . § ١٢ — فى دورنا — زدت هاتين الكلمتين للدلالة على الانتقال الذى لم يذكر بالنص هنا ، فانه بعد أن استعرض أرسطو على التوالى مذاهب الآخرين سيبين مذهبه وسيتكلم أولا على الكون مرجئا الكلام على نمو الأشياء واستحالتها الى ما بعد .

الباب الثانى

عدم كفاية نظرية أفلاطون — عود على نظرية ديمقريطس ولوكيبس — نظرية جديدة على كون الأشياء وفسادها — النمط المتبع — أهمية مسئلة الذرات — رأى ديمقريطس ولوكيبس — رأى أفلاطون فى كتابه طيماوس — خطأ هؤلاء وهؤلاء — وجوب الأخذ بملاحظة الأحداث على الأخص — فضل ديمقريطس من هـذه الجهة — أفكار فى قابلية الأشياء للقسمة — يمكن افتراض القسمة لا متناهية — صعوبات هذه النظرية — صعوبات ليست أقل خطرا من نظرية الذرات — نقض هـذه النظرية — المعنى العام الذى يحمل عليه كون الأشياء .

---

§ ١ — لم يدرس إذًا أفلاطون الكون والفساد إلا من حيث طريقة وجودهما بالأشياء بل لم يكن ليدرس الكون فى كل عمومه بل اقتصر على كون العناصر . ولم يقل شيئا على تكوّن جميع الأجسام التى هى من جنس اللحم والعظم وسائر الأجسام المشابهة لها ولم يتكلم على الاستحالة ولا على النمو ولم يبين كيفية إدراكه إياهما فى الموجودات .

§ ٢ — على أنه يمكن الجزم بأنه لم يتكلم أحد على هذه الموضوعات إلا بطريقة سطحية جدا ما عدا ديمقريطس فانه يظهـر أنه فكر فى كل المسائل ولكنه يخالفنا فى إيضاح الطريقة التى بها تحدث الأشياء . ولم يفكر أحد كما قلنا آنفا فى إيضاح النمو إلا ماربما يكون على المعنى الذى تفهم الكافة به هذه الظاهـرة . أعنى بأن يقال إن

---

§ ١ — لم يدرس إذًا أفلاطون — رجع ارسطو إلى فحص مذاهب أسلافه . — إذًا — هذه الكلمة موجودة فى النص دون أن يكون لها وجه يبررها . — طريقة وجودهما بالأشياء — يحتمل أن أرسطو يريد أن يقول إن أفلاطون لم يدرس الكون إلا فى الحـال الراهنة للأشياء من غير أن يحاول الصعود إلى الأصـل ، فاذا كانت هذه هى فكرته فقد لا تكون صادقة تماما إذ قد يوجد فى طيماوس ما يناقضها . — على كون العناصر — دون كون الكيوف التى تنتاب العناصر . — على الاستحالة ولا على النمو — يعنى النوعين الآخرين للحركة .

§ ٢ — ماعدا ديمقريطس — مدح ديمقريطس هذا يمكن أن يظهر عظيما جدا بعد ذلك الانتقاد السابق الموجه إلى أفلاطون . — كل المسائل — ليست عبارة النص فى هذا القدر من الضبط . — التى بها تحدث الأشياء — هـذا ليس تام الوضوح ، ولكن عبارة النص أدق من ترجمتنا . ولا شك فى أن أرسطو يريد

الأجسام تمو لأن الشبيه يأتى فينضاف إلى الشبيه . أمّا كيف تحصل هذه الظاهرة فذلك مالم يوضحه أحد البتة حتى الآن . § ٣ — ومع ذلك فلم تُدرس أيضا بعدُ مسئلة الاختلاط ولا أية واحدة من المسائل التى من هـذا القبيل ولا مثلا مسئلة معرفة كيف تفعل الأشـياء وتنفعل وكيف أن شيئا بعينه يفعل الأحداث الطبيعية وآخر بعينـه ينفعل بهـا . § ٤ — لمـا لم يهتم ديمقريطس ولوكيبس إلا بصور العناصر استخرجا منها استحالة الأشياء وكونها . وعلى هذا فمن انقسام الذرات ومن اتحادها يأتى الكون والفساد ومن ترتيب الذرات ووضعها تأتى الاسـتحالة . ولكن لمـا كان هؤلاء الفلاسفة يحسبون الحقيقة فى مجرد الظاهر وكانت الظواهر متضادة ولا متناهية بالعدد معا اضطروا أن يجعلوا أشكال الذرات لا متناهيا أيضا بحيث إن الشىء الواحد يمكن أن يظهر ضـدّ ما هو لنظر هـذا الرائى أو ذلك تبعا لتغيرات وضعه ويظهر متغير الصورة بمجرد أن تختلط به أو تزاد عليـه أصغر جزئية أجنبية . ويظهر أنه صـار غير ذاته جملة بتغـير موضع جزء واحد من أجزائه . ذلك كما أنه يمكن أن تستخدم الحروف بعينها لتأليف مأساة أو فكاهة حسبما يُختار .

أن يقول إن ديمقريطس موافق له فيما يتعلق بكون الأشياء ولكنه يخالفه فى كيفية حدوث هذه الظاهرة . — فى إيضاح النمو — لا يُرى أن ارسطو نفسه قد سد هذا النقص (ر. الطبيعة ك ٦ ب ١٦ ف ٥ من ترجمتنا) . § ٣ — ومع ذلك فلم تدرس أيضا — بعض هذه المسائل قد درس إما فى كتاب الطبيعة وإما فى الكتاب الرابع من الميتيرولوجيا (الآثار العلوية) ولكنى لا أعرف إذا كان ارسطو قد تعمق فى البحث فيها إلى أبعد مما فعل أسلافه . § ٤ — لما لم يهتم ديمقريطس ولوكيبس إلا بصور العناصر — ليست عبارة النص على هذا القدر من الضبط . وهذا المعنى هو معنى فيلو پون وقد يمكن ترجمته هكذا : "بعد أن تخيل ديمقريطس ولوكيبس صور العناصر" . — الذرات — أضفت هذه الكلمة لأن مذهب ديمقريطس معلوم تماما ومذهب الذرات لا يقبل فى الحقيقة إلا القسمة والاتحاد والترتيب والوضع عللا لجميع الظواهر . — يحسبون الحقيقة فى مجرد الظاهر — هـذا هو المذهب الذى اعتنقه بعـد ذلك السفسطائيون وطالما حاربه سقراط (ر. فروطاغوراس لأفلاطون) . — أشكال الذرات — أضفت أيضا هاتين الكلمتين . — تبعا لتغيرات وضعه — مثل فيلو پون لذلك بطوق الحمامة فانه تبعا لمسقط الضوء وموضع الرائى يتلون بالألوان المختلفة .

§ ٥ — ولكن لما كان كل الناس من غير استثناء تقريبا يعتقد بوجه العموم أن كون الأشياء واستحالتها هما ظاهرتان مختلفتان جدا ، وأن الأشياء لتكون أو لتفسد يجب أن تتحد أو تنفصل فى حين أنها تستحيل بتغيرات فى خواصها ، وجب علينا من أجل ذلك أن نقف على هذه المسائل التى يعرض منها فى الواقع صعوبات حقيقية متعددة . اذا لم يجعل كون الأشياء ، مثلا ، إلا اتحادا فان لهذه النظرية طائفة من النتائج غير القابلة للتأييد . ولكن هناك براهين أخرى قاطعة على صحة المعنى المضاد ، ومن الصعب جدا نقضها ، تثبت أن كون الأشياء لا يمكن أن يكون شيئا آخر إلا مجرد اتحاد وأنه اذا كان الكون ليس اتحادا فمن ثم لا يوجد كون أصلا وأنه ليس إلا استحالة . لذلك يجب أن نعالج حلّ هذه الصعوبات مهما كانت خطورتها .

§ ٦ — النقطة الأصلية فى ابتداء هذه المناقشة هى معرفة ما اذا كانت الأشياء تكون وتستحيل وتنمو أو تعانى الظواهر المضادّة لهذه الظواهر بسبب وجود ذرات أعنى أعظاما أولية غير قابلة للقسمة أو ما إذا كان لا يوجد أصلا أعظام غير قابلة للقسمة . هذه النظرية هى من الخطورة بالمكان الأعلى . ومن جهة أخرى بفرض وجود الذرات يمكن أن يتساءل أيضا عما إذا كانت — كما يريد ديمقريطس ولوكيبس

— جزء واحد من أجزائه — ليست عبارة النص على هذا القدر من الضبط . — تستخدم الحروف بعينها — أو بعبارة أصرح « حروف الهجاء » .

§ ٥ — كل الناس — يشمل أنكساغوراس وأمبيدقل . — كون الأشياء واستحالتها — من الصعب فى الواقع خلط الظاهرتين وجعل احداهما الأخرى . وإن عبارة النص فى التمييز جلية غاية الجلاء . — وجب علينا أن نقف — سيكون ذلك موضوع هذا الباب والأبواب التالية . — طائفة من النتائج غير القابلة للتأييد — هذا مبهم .

§ ٦ — هى معرفة — ما اذا كان يوجد ذرات او لا يوجد . — تكون وتستحيل وتنمو — تلك هى الأنواع الثلاثة للحركات التى الأشياء قابلة لها . — الظواهر المضادة لهذه — يعنى الفساد والاستحالة الى كيف مضاد والنقص . — أعنى — أضفت هذه الكلمة . — هذه النظرية هى من الخطورة بالمكان الأعلى — لذلك عاد أرسطو الى الكلام عليها مرات عدة . — كما ذكر فى طيماوس — ر كتاب السماء ك ٣ ب ٧

— هــذه الأعظام غير المنقسمة هى أجساما أو ما اذا كانت مجرد ســطوح كما ذكر فى طيماوس . § ٧ — ولكن من غير المعقول ، كما بينا فى غير هذا الموضع ، أن نجاوز بتحليل الأجسام الى حد تصييرها سطوحا . وعلى ذلك يكون أقرب الى المعقول القول بأن الذرات هى أجسام . على أنى لأعترف أن هــذا الرأى هو أيضا قليل الشبه بالمعقول . ومع ذلك يمكن فى هذا المذهب كما قد قيل أن تفسر استحالة الأشياء وكونها بتبدل الجسم الواحد تبعا لدورانه أو لتماسّه أو تبعا لاختلاف أشكاله . ذلك ما يفعل ديموقريطس وهذا هو الذى أدى به الى انكار حقيقة اللون مادام اللون فى عرفه إنما يكون من حركة الأجســام حول مركزها . ولكن الذين يقبلون قسمة الأجسام الى سطوح أولئك لا يمكنهم بعد ذلك أن يدركوا اللون . لأنه بجمع السطوح ذوات السعة بعضها مع بعض يمكن الوصول فقط الى تكوين جوامد ولكن لا يمكن الوصول الى إيجاد أى كيف جسمانى .

§ ٨ — والسبب الذى جعل هؤلاء الفلاسفة يرون ، أقل من الآخرين ، الظواهر التى هى محل وفاق بين الناس جميعا هو عدم المشاهدة . وعلى ضدّ ذلك الذين استزادوا من فحص الطبيعة ، أولئك أحسن حالا فى استكشاف هــذه المبادئ التى يمكن أن

ف ١٤ § ٧ — فى غير هذا الموضع — فى كتاب السماء ك ٣ كما يقول أيضا فيلوپون . — الى حد تصييرها سطوحا — هــذا الرأى ليس هو رأى افلاطون فى طيماوس الى حد ما يظهر على أرسطو أنه يذهب اليه هنا . — على أنى لأعترف — عبارة النص أقل وضوحا من هذه . — كما قد قيل — يرى فيلوپون أن الألفاظ التى يستعملها أرسطو فى هذا الموضع على قــول ديمقريطس هى ألفاظ مأخوذة على الأخص من لهجة أبدير . — دورانه ... تماسه — هذان التعبيران ليسا بالفرنسية أكثر ضبطا فى أداء المعنى من نظيريهما باليونانى . — الذين يقبلون قسمة الأجسام الى سطوح — مثــل أفلاطون أو فلاســفة آخرين . — أن يدركوا اللون — أو أى كيف آخر للأجسام . عبارة النص أقل ضبطا من هذه .

§ ٨ — محل وفاق بين الناس جميعا — عبارة النص مبهمة قليــلا فلست واثقا من أنى حصّلت المعنى جيدا . — عدم المشاهدة — يوصى أرسطو هنا بمشاهدة الأحداث كما يوصى به دائما ولكنه لم يكن فى موضع آخر مبينا وجازما كما هو فى هذا الموضع . ر . مقدّمة ترجمتى للميتيرولوجيا ص ٤٢ وما يليها . — التى يمكن أن تنسحب بعدُ — أو بعبارة فيلوپون وهى : "التى يمكن أن تشمل عددا من الحوادث ما أكثره" .

تنسحب بعدُ على حوادث ما أكثر عددها. ولكن هؤلاء الذين هم تائهون فى نظريات معقدة لا يلاحظون الأحداث الواقعة وليست أعينهم موجهة إلا الى عدد قليل من الظواهر وهم يحكمون بسهولة كبرى . § ٩ — هاهنا أيضا يمكن أن يُرى كل الفرق الذى يفرق بين الدراسة الحقة للطبيعة وبين دراسة منطقية محضة . لأن هؤلاء الفلاسفة من أجل أن يبينوا مثلا أنه يوجد ذرات أو أعظام غير قابلة للقسمة يدّعون أنه اذا لم تكن تلك الذرات فان المثلث نفسه، المثل الأعلى للثلث، يكون مؤلفا مع أن ديمقريطس فى هذه المسئلة يظهر أنه لم يعول فى حلها إلا على دراسات خصوصية وطبيعية محضة . ومع ذلك فان ما سيلى من هذه المناقشة سيبيّن لنا ما نريد أن نقول بأوضح من ذلك .

§ ١٠ — من الصعوبة الكبرى افتراض أن الجسم يوجد وأنه عِظَم قابل للقسمة الى ما لا نهاية وأنه من الممكن تحقيق هذه القسمة . فماذا يبقى فى الواقع فى الجسم الذى يمكن أن يخلص من قسمة كهذه؟ فاذا افتُرض أن شيئا قابلا للقسمة مطلقا وأنه يمكن حقيقة قسمته هكذا فلا يكون من المحال فى شىء أنه أمكن

والفرق بين العبارتين عديم القيمة . — تائهون فى نظريات معقدة — عبارة النص تفيد أيضا "ولكن هؤلاء الذين هم بعيدون عن الأفكار العامية ... الخ" . — بسهولة كبرى — وبخفة أكثر . § ٩ — الدراسة الحقة — أضفت هذه الكلمة الأخيرة . — هؤلاء الفلاسفة — يعنى أفلاطون ومدرسته . — اذا لم تكن تلك الذرات — أضفت هذه الكلمات التى يظهر أنها ضرورية . — المثلث نفسه المثل الأعلى للثلث — هذه الكلمات الأخيرة ليست إلا تفسيرا لما سبقها . فان المثلث نفسه فى لغة مذهب أفلاطون هو المثل الأعلى للثلث . — مؤلفا — أى قابلا للقسمة وهذا يناقض تماما نظرية المُثُل . — ما يلى من هذه المناقشة سيبيّن لنا ... بأوضح من ذلك — يشعر أرسطو نفسه بأنه لم يقل هنا قدر الكفاية ليكون بينا تماما . يدافع فيلوپون عن أفلاطون ضد أرسطو الذى لم يحصّل جيدا فكرة أستاذه . ويظن فيلوپون أن هذه النظرية قد يمكن أنها موجودة على الأكثر فى مذاهب أفلاطون غير المكتوبة .

§ ١٠ — من الصعوبة الكبرى — كل المعنى فى هذه الفقرة غامض . واليكها بأبسط عبارة : "من الصعب أن يفهم أن الجسم يمكن أن يقبل القسمة الى ما لا نهاية وأن لا توجد فيه الأجزاء التى لا تتجزأ . لأن هذه القسمة تفنى الجسم عن آخره ولا يبقى منه شىء وبذلك يوصل الى أن الجسم مؤلف من مجرد نقط ليس

قسمته مطلقا مع أنه لم يقسم فى الواقع ولا أنه قد قسم فعلا . والأمر كذلك اذًا فيما إذا يقسم الشيء بالنصف . وعلى العموم لو أن شيئا قابلا بالطبع للقسمة الى اللانهاية قد قسم لما كان ذلك محالا البتة . كما لا يكون محالا أن يفترض إمكان قسمته عشرة آلاف مرة مضروبة فى عشرة آلاف مع أنه لا أحد يستطيع المجاوزة بالقسمة الى هذا الحدّ .

§ ١١ — ما دام الجسم معتبرا أنه حائز لهذه الخاصة فلنسلم أنه يمكن قسمته مطلقا على هذا النحو . ولكن إذًا ماذا يبقى بعد هذه التقاسيم ؟ هل سيكون عظما؟ لكن ذلك غير ممكن لأنه إذًا يوجد شيء فرّ من عملية التقسيم وكان الفرض، على الضدّ، أن الجسم قابل للقسمة من غير أى حدّ ومطلقا . ولكنه اذا لم يبق جسم ولا عظم وظلت القسمة مستمرة فإما أن القسمة لاتقع إلا على نقط و إذًا تصير العناصر التى تركب الجسم عديمة العظم واما ألّا يبقى هناك شيء أصلا . § ١٢ — ينتج من ذلك أنه سواء أكان الجسم يأتى من لا شيء أم يؤلف من أجزاء فالأمر على الحالين تصيير الكل الى ألّا يكون إلا ظاهرا . حتى مع التسليم بأن الجسم يمكن أن يأتى

لها أبعاد أصلا" . — وأنه من الممكن تحقيق هذه القسمة — عبارة النص أقل من ذلك ضبطا . — الذى يمكن أن يخلص من قسمة كهذه — لأنها ستعدم نهائيا كل ما تركب منه الجسم . — فلا يكون من المحال — هذا فرض يمكن دائما فرضه ولا يلزم عليه شيء من المحال . — إذا يقسم الشيء بالنصف — يعنى اذا قسم دائما الى اثنين كل ما يبقى من الشيء فى التقسيم المتتابع أو اذا قسم الى أجزاء غير متساوية ، بكلتا الطريقتين يوصل الى اعدامه كله بهذا التقسيم غير المتناهى . — المجاوزة بالقسمة الى هذا الحد — لعدم كفاية الآلات التى يستعملها الانسان .

§ ١١ — معتبرا أنه حائز لهذه الخاصة — عبارة النص أقل ضبطا من هذا التعبير . — ماذا يبقى — تكرار للمسئلة الموضوعة فى الفقرة الماضية . — بعد هذه التقاسيم — زدت هذه الكلمات لبيان الفكرة قليلا . عظما — يكون أيضا قابلا للقسمة . — من غير أى حد ومطلقا — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — عديمة العظم — لأن النقط الرياضية مفروض أنها لا عظم لها البتة . § ١٢ — يأتى من لا شيء — أعنى من نقط ليس لها أى امتداد . — ألّا يكون الا ظاهرا — تلك هى النتيجة التى استنتجها السفسطائيون من مذهب ديمقريطس . — بأن الجسم يمكن أن يأتى من نقط — النص ليس بهذه الصراحة ،

من نقط فلا يكون هناك أيضا كمّ . وفى الواقع لو أن هـذه النقط كانت تتماسّ لتؤلف عظما واحدا وأن العظم كان واحدا وأنها كلها فيـه فان جميع هـذه النقط المجتمعة ما كانت لتجعل الكل أكبر لأن الكل بانقسامه الى نقطتين أو عدة لا يكون لا أكبر ولا أصـغر من ذى قبل ، بحيث إنه مهما جمع من تلك النقط فلا يمكن الوصول أبدا الى تأليف عظم حقيقى منها . § ١٣ — إذا قيل إنه يوصل بالقسمة إلى ألّا يحصل منهـا إلا كنشارة الجسم فحتى على هـذا الفرض لا بد من أن الجسم يأتى من عظم أيا كان ، وتبقى المسـئلة كما كانت وهى كيف أن هـذا الجسم الأخير قابل للقسـمة فى دوره . فاذا قيل إن ما انفصل ليس جسما بل هو صورة ما قابلة للانفصال أو خاصة ما فينتج من ذلك أن العظم يتحول الى نقط والى تماسّات محولة بهذه الطريقة . وإذًا يكون من غير المعقول الاعتقاد بأن العظم

— كم — لأن النقط لا تمثل كية ما . — لا أكبر ولا أصغر من ذى قبل — مهما كان عدد نقط القسمة .

— عظم حقيق — أضفت لفظ حقيق .

§ ١٣ — كنشارة الجسم — عبارة الاصل دقيقة ويظهر أن الفكرة غامضة ولو أنها فى الحقيقة واضحة . فان أرسطو يفرض أنه يراد اثبات وجود الذرات وأن قسـمة الجسم لايمكن أن تمشى الى اللا نهـاية . فاذا وصل بالتقسيم الممكن غاية الامكان الى تصيير الجسم مسحوقا كنشارة الخشب عنـد قطعه ولكن قطع النشارة مهما دق حجمها فان لهـا امتدادا وترجع المسئلة بالنسبة لهذه الاجسام الصغيرة الى ما كانت عليـه بالنسبة للجسم الذى كانت تؤلفه باجتماعها من قبل . — عظم أيا كان — فان قطع النشارة مهما صغر حجمها لها دائما عظم قابل للتقدير . — فى دوره — زدت هاتين الكلمتين . — إن ما انفصل — أى بالقسمة البالغة أقصى حدّ لهـا . — قابلة للانفصال — قال فيلوپون إن فى هـذا رواية أخرى وإن فى بعض النسخ المخطوطة عبارة « غير قابلة للانفصال » بدل عبارة « قابلة للانفصال » . والسـياق يقتضى على الظاهر أوفقيـة العبارة الأخيرة . ومع ذلك فان فيلوپون يفضـل معنى عبارة « غير قابلة للانفصال » لان الصورة فى الواقع غير قابلة للانفصال عن الجسم بمعنى أنهـا تنعدم بانعدامه ولا يمكن أن تكون شيئا بدونه . ولقد أثبتّ فى ترجمتى عبارة الرواية المشهورة ولكن الاخرى هى مناسبة أيضا . — الى نقط والى تمـاسّات — نظـريات أبطلت آنفا . — أشياء ليست أعظاما — ما دام أن النقط والتمـاسّات لا يمكن أن يكون لها على ما هو المفروض أى امتداد الى أية جهة ما .

يمكن أبدا أن يأتى من أشياء ليست أعظاما . § ١٤ — ولكن فوق ذلك فى أى مكان تكون هـذه النقط سواء أفترضت عديمـة الحركة أم افترضت متحرّكة ؟ إنه لا يوجد أبدا إلا تمـاسّ واحد بين شيئين فلا بدّ أيضا من افتراض أنه يوجد شىء ليس هو التمـاسّ ولا القسمة ولا النقطة .

لو قُبـل إذًا أن كل جسم أيا كان مهما كان امتـداده يمكن دائمـا أن يقبل القسمة مطلقا لكانت تلك هى النتائج التى يوصل اليها .

§ ١٥ — من جهة أخرى اذا أمكننى بعـد القسمة أن أركب الخشب الذى نشرته أو أية مادة أخرى بأن أعيد اليها وحدتها الأولى وأن أجعلها مثل ما كانت تماما فمن الواضح أنى أستطيع أن أفعل ذلك فى أية نقطة بلغتها فى كسرى الخشب . إذا فبالقوة الجسم قابل دائما للقسـمة مطلقا وبدون حدّ . ماذا يوجد إذًا هاهنا خارجا عن القسمة وبمعزل عنها اذا قيل إنها خاصة للجسم ؟ يمكن دائمـا أن يسأل كيف أن الجسم يتحلل الى خواص من هـذا القبيل وكيف يمكن أن يتألف منها وكيف أن هذه الخواص يمكن أن تنفصل عن الجسم .

---

§ ١٤ — فى أى مكان — يعنى : « فى أى جزء من الجسم ؟ » — افترضت متحركة — كما يفعل الرياضيون اذ يسلمون بأن النقطة متى تحركت أحدثت خطا كما أن الخط يحدث السطح والسطح الجسم . وقد نبه فيلوپون الى أنه يمكن اعطاء هذه الجملة صورة الاستفهام أو صورة الايجاب على السواء . — أنه يوجد شىء — يعنى الجزأين الماديين اللذين يتماسان أو أنهما متقاسمان فى نقطة تفصلهما . — لو قُبل إذًا — ر . ما سبق ف ١٠ هذا هو ملخص القسم الأول من كل هذه المناقشة . فانه اذا لم تقبل الذرات وقبل القول بأن كل جسم قابل للقسمة مطلقا فتلك هى النتائج غير المعقولة التى تؤدى اليهـا هذه النظرية . فيستنتج من هذا مع ديمقريطس حقيقة نظرية الذرات . ومع ذلك فان هذا المخلص يمكن أن يظهر أنه سابق لوقته

§ ١٥ — من جهة أخرى — برهان جديد لإيضاح وجود الذرات . — مثل ما كانت تماما — يظهر أن هذا مناقض لمـا قيل سابقا ف ١٣ — فى أية نقطة بلغتها فى كسرى الخشب — وعدد النقط يمكن ألاّ يتناهى ما دامت النقط مفروضا أنها عديمة الامتداد . — فبالقوة — إن لم يكن بالفعل لعلة واحدة هى عدم كفاية الآلات التى يستخدمها الانسان . — خارجا عن القسمة و بمعزل عنها — لا يوجد فى النص إلا كلمة واحدة لهذا المعنى . — الى خواص من هذا القبيل — تكرير لمـا قيل آنفا ف ١٣

§ ١٦ — إذا كان إذًا محالا أن الأعظام تتكون من مجرّد تماسّات أو نقط فإنه يلزم ضرورة أن يوجد أجسام وأعظام لا تتجزأ . ولكن هذا الافتراض عينه للذرات يخلق محالا لا يمكن تخطيه ولو أن هـذه المسئلة قـد فحصت فى غير هـذا الموضع إلا أنه يلزم أن يحـاول حلها هنا أيضا . وللوصول الى ذلك يلزم أخذها من جديد بتمامها من البداية .

§ ١٧ — نقول إذًا بادئ بدء إنه ليس من غير المعقول فى شىء تقرير أن كل جسم محسوس هو معا قابل للقسمة وغير قابل للقسمة فى نقطة ما ما دام أنه يمكن أن يكون قابلا للقسمة بالقوّة المجرّدة وغير قابل للقسمة بالفعل . ولكن الذى يظهر أنه محال تماما هو أن جسما يكون قابلا للقسمة وغير قابل لها معا بالقوّة لأنه اذا كان ذلك ممكنا فلا يكون أبدا بهذا الوجه أن الجسم يجمع بين الخاصتين بأن يكون غير قابل للقسمة وقابلا لها معا بالفعل . بل أنه يكون فقط قابلا للقسمة بالفعل فى نقطة ما . و إذًا

---

§ ١٦ — اذا كان إذًا — تلخيص لتأييد نظرية ديمقريطس . — أجسام وأعظام لا تتجزأ — أو بعبارة أخرى ذرات كما كان يقرّره ديمقريطس . — للذرات — أضفت هذه الكلمة لزيادة البيان . — غير هذا الموضع — ر . كتاب السماء ك ٣ ب ٤ ف ٥ وراجع كتاب الطبيعة فى مواطن عدّة حيث نظرية الذرات ملمع اليها إلماعا لا مبينة بيانا وضعيا . ويستشهد فيلو پون على الأخص بالكتاب السابع من الطبيعة حيث لا أجد فيه أنا شيئا من هذا القبيل . ويستشهد أيضا برسالة الخطوط غير المنقسمة التى ينسبها الى تيوفراسط بدلا من أرسطو اتباعا لرأى بعض المؤلفين .

§ ١٧ — معا قابل للقسمة وغير قابل لها — بالفعل هـذا محال ولكن يمكن أن احدهما إمكان مجرد والأخرى قسمة بالفعل . وإذًا فالجسم فى الذهن قابل للقسمة الى اللانهاية . ولكن فى الخارج تقف القسمة عند حد بسرعة . — قابل للقسمة بالقوّة المجردة وغير قابل لها بالفعل — عبارة النص أقل ضبطا . — يكون قابلا للقسمة وغير قابل لها معا بالقوّة — يعنى منقسما وغير منقسم فى آن واحد بالقوّة . وعلى رغم تفسير فيلو پون ومجهوداتى فإن هذه النقطة فيها من الغموض ما لم أستطع أن أزيله بالمرة . واليك البيان الذى يمكن فهمها به : " إن جسما لا يمكن أن يكون معا قابلا وغير قابل للقسمة حتى بمجرّد القوّة لأنه اذا كان كذلك بالقوّة كان كذلك أيضا بالفعل . وهاتان القابليتان فى الخارج لا يجتمعان مطلقا . فكل الذى يمكن حقيقة هو أن الجسم يكون قابلا للقسمة فى نقطة ما . وهذا لا يفيد أنه قابل للقسمة مطلقا لأنه حينئذ

لا يبقى منه شيء مطلقا ويتحوّل الجسم إلى شيء غير جسمانى . ومع التسليم بأنه يمكنه أن يكون ثانية إما بأن يأتى من النقط أو أن لا يأتى من شيء أبدا على الاطـلاق فكيف يصير كون الجسم من جديد ممكنا .

§١٨ — أما ما هو بيّن فهو أن الجسم ينقسم بالفعل إلى أجزاء متميزة ومنفصلة وإلى أعظام أصغر فأصغر دائمـا تتباعد بعضها عن بعض وتنعزل . ولكن من المحقق أيضـا أن هذه التجزئة البعضية لا يمكن أن يجاوز بها إلى اللا نهاية وأنه ليس من الممكن أيضا قسمة الجسم فى أية نقطة ما لأن هذه القسمة غير المحدودة ليست ممكنة الإجراء ولا يمكن أن تمشى إلا إلى حد معين . § ١٩ — يلزم إذًا أن توجد ذرات أو أعظام لا تتجزأ خصوصا اذا سلم أن كون الأشياء وفسادها يحصلان أحدهما بالتفرق والآخر بالاجتماع ذلك هو الاسـتدلال الذى يظهر أنه يبين ضرورة وجود الأعظام غير القابلة للقسمة أو الذرات . ونحن نتكفل باثبات أن هذا الاستدلال يرتكز من حيث لا يشعر على سفسطة مستورة بستار سنكشفه عنها .

لا يبقى بعد القسمة شيء أصلا ويتحوّل الجسم إذًا إلى شيء غير جسمانى . — الجسم ... غير جسمانى — هذا التقابل موجود بلفظه فى النص . — من النقط — التى هى ليست محسوسة ما دامت مفروضة عديمة الامتداد . — من شيء أبدا على الاطلاق — أو ربمـا كان "من العدم . من لا شيء ." — كون الجسم من جديد — عبارة النص ليست بهذا الضبط .

§ ١٨ — ينقسم بالفعل — أضفت هذه الكلمة الاخيرة لبيان المعنى تماما . — أصغر فأصغر دائمـا — على حسب المـادة التى هى موضوع القسمة والآلات التى تستخدم لذلك . — تتباعد — هذه عبارة النص وربمـا كانت غير مناسبة . — وتنعزل — بعد عملية القسمة . — التجزئة — أو التصغير أى تصيير الشيء إلى أجزاء دقيقة ثم إلى أدق منها وهكذا . — إلا الى حد معين — فى الخارج مع أنها فى الذهن ممكنة الى ما لا نهاية . § ١٩ — يلزم اذًا — حينما لا يؤخذ إلا بالظواهر المحسوسة القابلة للشاهدة يكون مذهب الذرات مذهبا حقا جدا . لأن التجزئة فى الواقع يجب أن تقف عاجلا ثم تصادف على ما يظهر عقبة كؤودا فى الجزئيات التى لا تستطيع أن تنالها التجزئة — بالتفرق — لعناصر لا تقبل النقص ولا الزوال . بالاجتماع — بين هـذه العناصر بعينها . — الذرات — أضفت هذه الكلمة لأن الذرات غير قابلة للقسمة كما يدل عليـه اسمها وفوق ذلك فانها غير قابلة للقسمة بالنسبة لنا بسبب دقتها . — ونحن نتكفل — عبارة

§ ٢٠ — كما أن النقطة لا تتصل بالنقطة فقابلية القسمة المطلقة تكون من جهة متعلقة بالأعظام ومن جهة أخرى غير متعلقة بها . ومن يسلّم بهذه النظرية يظهر أنه يسلّم أيضا بأنه لا يوجد بعدُ إلا النقطة التى هى فى كل مكان وفى كل اتجاه . وبنتيجة ضرورية فان العظم بالتجزئة يصير لا شىء لأن النقطة ما دامت فى كل مكان فالجسم لا يمكن أن يتركب إلا من التماسّات أو من النقط . § ٢١ — وحينئذ فمعنى هذا هو الرجوع الى القول بأن الجسم قابل للقسمة مطلقا ما دام يوجد فى كل محل نقطة ما وأن كل النقط مجتمعة هى ككل واحدة منها على حدة وأنه فى الواقع لا يوجد أكثر من واحدة لأن النقط ليست متتابعة بعضها لبعض . والنتيجة أيضا ان الجسم ليس قابلا للقسمة مطلقا . لأنه اذا كان الجسم قابلا للقسمة فى وسطه فانه يكون قابلا لها فى النقطة التى تتصل بهذا الوسط . ولكن الآن غير متصل بالآن كما أن النقطة لا تتصل بالنقطة . على أنه فى هذا تنحصر قسمة الأجسام وتركيبها بحيث إنه يوجد أيضا اجتماع وافتراق للأجزاء. ولكن الجسم مع ذلك لا يتحوّل الى ذرات وأنه لا يأتى من ذرّات . تلك النظرية التى تشمل

النص أقل ضبطا من هذا ولكنى أردت بهذا التعبير تأدية معنى الحدة التى استعملها المؤلف فى عبارته . — سنكشفه عنها — إن البيان الآتى قد يبين عليه عدم مطابقته تمام المطابقة لهذا الوعد .

§ ٢٠ — لا تتصل بالنقطة — ما دامت النقط معتبرا أن ليس لها أقل امتداد . — ومن يسلّم بهذه النظرية — التى هى أن الجسم قابل للقسمة مطلقا . — بالتجزئة — فى النقط التى يقال إنه مركب منها . — إلا من التماسّات أو النقط — ر ما سبق ف ١٦ § ٢١ — بأن الجسم قابل للقسمة مطلقا — هذا هو المعنى الذى اتخذه فيلوپون وهو مع ذلك يجد أن المعنى ليس واضحا على قدر الكفاية . وإن هذه المناقشة كلها هى فى غاية الاضطراب ومن الصعب الوقوف فيها على الفكرة الحقيقية للمؤلف . — يوجد فى كل محل نقطة ما — يعنى أن التجزئة يمكن أن تحصل فى أى نقطة كيفما اتفق . — لا يوجد أكثر من واحدة — فى الواقع أنه يوجد من النقطة بقدر ما يراد ولكنها كلها متشابهة فلا يمكن أبدا أن يؤخذ منها فى الدفعة الواحدة إلا نقطة واحدة . — والنتيجة أيضا — النص ليس كذلك من حيث ضبط العبارة ولكنى اضطررت الى زيادة الضبط لأوفق بينه وبين الترديد المذكور فى الفقرة السابقة . — الآن ... ... النقطة — الكلمتان المقابلتان لهما فى النص اليونانى أكثر تقاربا بينهما من الكلمتين اللتين اضطررت لاستعمالهما فى الترجمة . —

صعوبات عديدة لا يمكن حلها . كذلك لا يمكن أن يتركب الجسم بطريقة بها تكون التجزئة ممكنة لا الى حد ما . فاذا كانت النقطة تتبع فى الواقع النقطة كان الأمر كذلك ولكن الجسم يتحلّ الى أجزاء متدرجة فى الصغر وأن الاتحاد حصل بين أصغر الأجزاء .

§ ٢٢ — الكون المطلق الكامل للأشياء لا يقصر كما زعموا على اجتماع العناصر وتفرقها كما أن الاستحالة ليست مجرد تغير فى الكمّية . بل ذلك خطأ تام يقع فيه كل الناس . ونكرر مرة أخرى أنه لا يوجد كون وفساد مطلقان للأشياء باجتماع العناصر وافتراقها . انما يوجدان فقط متى يتغير شىء بكله عند ما يأتى من شىء آخر بعينه .

§ ٢٣ — وقد يظن أيضا أن الاستحالة هى تغير ما من هذا القبيل ولكن هاهنا فرقا عظيما . فان فى الموضوع جزءا يرجع إلى الكنه وجزءا يرجع إلى المادة فمتى فقط حصل التغير فى هذين الأمرين فهنالك حقا كون وفساد . ولا يكون إلا مجردُ استحالة متى حصل التغير فى الخواص والكيوف العارضة للشىء . § ٢٤ — فما هو إلا بافتراق الأشياء وباجتماعها أنها تصير قابلة للفساد بسهولة مثال ذلك متى تجزأ الماء الى تقيطات

— للأجزاء — أضفتها من عندى . — صعوبات عديدة لا يمكن حلها — عرض بعضها فى الكلام السابق . — ممكنة لا الى حد ما — وذلك يهدم مذهب الذرات . على هذا يكون أرسطو يرفض الكل و يقبل هذا المذهب لأنه يجد من كل ناحية صعوبات لا يمكن التغلب عليها . — فاذا كانت النقطة تتبع فى الواقع النقطة — هذا يظهر عليه أنه تذييل دسّه فى النص بعض المفسرين .

§ ٢٢ — الكون — كل آخر هذا الباب هو استطراد يبعد المؤلف به شيئا فشيئا عن الفكرة التى كان يظهر عليه أول الأمر متابعة القول فيها . — اجتماع العناصر وتفرقها — لأن العناصر حينئذ هى أسبق من المركب الذى يتركب منها . — عند ما يأتى من شىء آخر بعينه — عبارة النص ليست محكمة فان هناك أيضا لا يوجد كون بالمعنى الخاص . § ٢٣ — الاستحالة — الاستطراد مستمر . — عظيما — أضفت هذه الكلمة . — فى الموضوع أو فى الشىء . — الى الكنه — الحد والماهية . — هذين الشيئين — أضفت علامة التثنية وصيغة النص صيغه جمع . — حقا — أضفت هذه الكلمة . § ٢٤ — فما هو إلا بافتراق الأشياء وباجتماعها . ر ماسبق فى آخر الفقرة ٢٢ — متى تجزأ الماء — المشاهدة صحيحة وقد حصلت من زمان بعيد

صغيرات تتحوّل بأسرع ما يكون الى هواء ، فى حين أنها اذا بقيت كتلة تصير هواء بأبطأ من ذلك .

§ ٢٥ — على أن هـذا سيتضح فيما يلى . ولكن هاهنا أردنا فقط إثبات أن من المحال أن يكون كون الأشياء مجرد تأليف كما زعم بعض الفلاسفة .

لأن هذه الظاهرة تقع تحت النظر فى غالب الأحيان (— الميتيرولوجيا ك ٢ ب ٢ ف ١٨ من ترجمتى) . — تتحوّل بأسرع ما يكون الى هواء — أو بعبارة أخرى تتبخر .

§ ٢٥ — على أن هـذا سيتضح مما يلى — ذلك بأن المؤلف نفسه أحس أنه لم يكن دائما مبينا بقدر ما يطلب منه . — مجرد تأليف — سواء أكان اجتماعا أم افتراقا . راجع ما سبق ف ١٩

الباب الثالث

في الكون المطلق وفي فساد الأشياء — صعوبة هذه المسئلة — الكون والفساد الإضافيان — النمط الذي يتخذ في هذا البحث — شواهد من كتاب الحركة — أبدية الكائنات وتعاقبها المستمر — تبادل الكون والفساد — تمييز لفظيّ مهم — استشهاد برمنيد — الفرق بين الكون المطلق والكون الإضافي — فروق الفساد باعتبار هذين الوصفين — الرأي العامي في هذا الموضوع — في أن شهادة الحواس تعطي أكثر مما تستحق — توضيحات مختلفة — طريقة فهم أبدية الظواهر .

§ ١ — متى تقرر هذا يلزم البحث أولا فيما إذا كان يوجد في الواقع شيء يولد ويموت بطريقة مطلقة أو ما إذا كان لا يوجد شئ يولد ويموت بالمعنى الخاص . وفي هذه الحالة يلزم فحص ما إذا كان أي شيء ما لا يأتي دائما من شيء آخر هو يخرج منه : مثال ذلك من المريض يأتي الصحيح ومن الصحيح يأتي المريض أو كالصغير يأتي من الكبير والكبير يأتي من الصغير وكل الأشياء بلا استثناء "تكون" بهذه الطريقة عينها . اذا سلم بكون مطلق يلزم حينئذ أن الموجود يأتي مطلقا من اللاموجود أي من العدم بحيث يحق التأكيد بأن العدم يتعلق ببعض الموجودات . والكون الإضافي يمكن أن يأتي من لا موجود إضافي . ومثال ذلك

§ ١ — بطريقة مطلقة — أعني من غير أن يوجد شيء يسبقه ومنه يمكن أن يخرج . — بالمعنى الخاص — يعني بالمعنى المطلق للكلمة . — وفي هذه الحالة — يعني في حالة افتراض أن لا يوجد كون مطلق . وأن الموجود الكائن يخرج دائما من موجود سابق عليه . وقد قطعت الجملة لانها في النص قد طالت أكثر مما يلزم . — من المريض يأتي الصحيح — يعني أن الموجود المريض يرجع صحيحا . أو بالعكس يصير الصحيح مريضا . فالموجود إذًا لا يكون بالمعنى الخاص . بل هو فقط يتغير حاله و يمر بكيفيات مختلفة . ولكنه كائن أوّلا ومن قبل أن يلحقه التغير . — بكون مطلق — يعني أن الشيء الذي لم يكن من قبل قد وجد وهو يخرج من العدم حيث كان فيه قبل الوجود . — من اللاموجود من العدم — ليس في النص إلا كلمة واحدة وعلى هذا المعنى يقال عن شيء ما إنه مغمور في العدم و إن «العدم يتعلق ببعض الموجودات» كما هي عبارة النص . ولقد يظهر على العبارة صورة التناقض على أنها صادقة . — الأبيض يمكن أن يأتي من اللا أبيض — أعني أن شيئا لم يكن أبيض يمكن أن يصير أبيض . وليس ذلك هو الكون بالمعنى

الأبيض يمكن أن يأتى من اللا أبيض أو الجميل يأتى من اللا جميل . لكن الكون المطلق يجب أن يأتى من اللا وجود المطلق .

§ ٢ — حينئذ المطلق هاهنا يدل إما على الأولىّ فى كل مقولة للوجود وأما على الكلى أعنى الذى يشـمل ويحوى كل شيء . فاذا كان الأولىّ هو مدلول المطلق فهناك كون للجوهر آت ممـا هو ليس بجوهر . ولكن ما ليس له جوهرية وما ليس البتة شيئا معينا بذاته لا يمكنه بالبداهة أن يكون لأى واحدة أخرى من المقولات كالكيف والكم والأين ... الخ لأنه حينئذ يكون معناه التسليم بأن كيوف الجواهر يمكن أن تنفصل عنها . فاذا كان اللاموجود هو بصورة عامة مدلول المطلق فذلك هو النفى الكلىّ لجميع الأشـياء وعلى ذلك فمـا يولد وما يكون يلزم ضرورة أن يولد من لا شيء .

الخاص بل هو مجرد تغير أو مجرد استحالة . — الكون المطلق يأتى من اللا وجود المطلق — يعنى أن شيئا يكون بعد أن لم يكن ، خارجا من العدم الذى كان فيه .

§ ٢ — حينئذ المطلق هاهنا يدل اما على الأولىّ — المطلق يظهر أنه لا يمكن استعماله فى هذا المعنى الضيق ولكن هذا هنا هو مجرد تمييز لفظى كله تحكم . — فى كل مقولة للوجود — يعنى فى جميع المقولات إلا فى مقولة الجوهر فان الأولىّ هو الحـد الأعلى وعلى ذلك ففى مقولة الكيف ليس المقصود واحدة من الكيوف الخاصة بل هو الكيف نفسه . — وإما على الكلىّ — يعنى الجوهر والى هذا المعنى ينصرف عادة لفظ المطلق . — يشمل ويحوى كل شيء — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . ومعنى ذلك أنه يلزم أولا أن يوجد الشيء حتى يمكن بعـد أن يوصف بأى كيف اتفق . — فاذا كان الأولىّ هو مدلول المطلق — أضفت الكلمات الثلاثة الأخيرة لجعل الفكرة أكثر ضبطا وجلاء . — فهناك كون للجوهر — التعبير لا يظهر أنه على ما ينبغى . فان المقصود ليس هو الجوهر بالضبط بل هو مجرد وجود مكيَّف تبعا لكل مقولة فان شيئا يصير أبيض بعد أن لم يكن أبيض من قبل . — الخ — وضعت هذه الكلمة للدلالة على أن جميع المقولات ليست مذكورة هنا . — كيوف — عبارة النص أعراض . — مدلول المطلق — رأيت من الواجب تكرير هذه العبارة لتكميل النص . — النفى الكلىّ لجميع الأشياء — ولعل أحسن من ذلك أن يقال : "النفى الكلىّ لجميع المقولات" بما فيها مقولة الجوهر . — ما يولد وما يكون — ليس فى النص إلا أحد الفعلين .

§ ٣ — على أننا قد تكلمنا على هـذا الموضوع فى موضع آخر وبحثناه بأطول من ذلك ولكننا نلخص هاهنا فكرتنا ونقول فى قليل من الكلمات إن من وجهٍ يمكن أن يوجد كون مطلق لشىء آت من العـدم من اللاوجود . ومن وجه آخر لا شىء يمكن أبدا أن يأتى إلا ممـا هو موجود . ذلك فى الحق أن ما هـو بمجرد القـوة وليس بالفعل يجب أن "يكون" أولا وبالضرورة على الوجهين اللذين بيناهما آنفا ولكنـه لا بد مع ذلك من العنـاية الكبرى فى فحص هـذه المسئلة التى يمكن أن صعوبتها تدهشنا حتى بعد الإيضاحات التى أسلفناها . وتلك المسئلة هى كيف أن الكون المطلق يحصل سـواء أكان يأتى مما هو بالقوة أم يأتى بأى وجه آخر . § ٤ — يمكن البحث فى الحق فيما اذا كان يوجد فقط كون للجوهر ولشىء معـين بالفعل أو ما اذا كان لا يوجد أيضـا كون للكيف وللكم وللأين ... الخ . وهـذه الأسئلة عينهـا توجه على السـواء بالنسبة الى الفساد . وإنه اذا كان بالفعل شىء يكون أو يولد فمن الواضح أنه يجب وجود جوهر ما بالقـوة على الأقل إن لم يكن بالفعل وبالكمال منه يخرج كون الشىء وفيه يتغير بالضرورة متى فسد . § ٥ — هل من الممكن أن واحدة من المقولات الأخرى التى هى بالفعل وبالكمال المحض تتعلق بهذا

§ ٣ — فى موضع آخر — يعنى فى الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ف ١ وما يليها ص ٤٧٣ من ترجمتنا كما نبه اليه فيلوبون . — آت من العدم من اللاوجود — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — لا شىء يمكن أبدا أن يأتى — ليست عبارة النص بهذا القدر من البيان . — ماهو بمجرد القوة — الممكن ليس موجودا على التحقيق ولكنـه يكفى إمكان وجوده لأجل أن يكون له وجود بنوع ما . — على الوجهين الذين بيناهما — زدت هاتين الكلمتين الأخيرتين ، وبعبارة أخرى الممكن كائن وغير كائن معا .
§ ٤ — اذا كان يوجد فقط — أضفت الكلمة الأخيرة . — كون للجوهر — ويمكن ترجمتها بهذه العبارة «اذا كان الكون يتعلق بالجوهر» . — بالنسبة الى الفساد — الذى هو ضد الكون . أفلا يوجد كون وفساد الا فى مقولة الجوهر؟ ألا يوجدان أيضا فى المقولات الأخرى . — بالفعل — زدت هذه الكلمة . — جوهر ما — كلمة جوهر بعينها موجودة فى النص ولكن يظهر أن الجوهر يجب دائما أن يكون بالفعل لا أن يكون ممكنا مجرد إمكان . — بالفعل وبالكمال — ليس فى النص الا كلمة واحدة . § ٥ — واحدة من المقولات الأخرى — يعنى إحدى المقولات الأخرى غير مقولة الجوهر . — بهذا الموجود بالقوة — النص ليس

الموجود بالقوة ؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن تطبيق معـانى الكيف والكم والأين على هذا الذى ليس شيئا إلا بالقوة و بالقوة فقط بدون أن يكون شيئا بذاته بطريقة مطلقة حتى ولا أن يكون مطلقا أبدا؟ لأنه اذا كان هـذا الموجود ليس أى شىء بالفعل ولكنه كل الأشـياء بالقوة فان اللاموجود المفهوم على هـذا النحو يمكن أن يكون ذا وجود منفصـل وحينئذ يوصل الى هـذه النتيجة التى هابهـا الفلاسفة الأولون أكثر من كل شىء وهى إيجاد الأشياء من العدم المحض . ولكنه اذا لم يسلم أن هذا يكون موجودا حقيقيا أو جوهرا وأنه شىء آخر من المقولات المذكورة فحينئـذ يفرض كما قلنـا آنفا أن الكيفيات والأعراض يمكن أن تكون منفصلة عن الجواهر .

§ ٦ — تلك هى النظريات التى يلزم مناقشتها هنا بالقدر المناسب كما أنه يلزمنا البحث عما هى العلة التى تجعل كون الموجودات أبديا سواء الكون المطلق أو الكون البعضى . ما دام لايوجد على رأينا إلا علة واحدة أوحد منها ينبعث مبـدأ الحركة وما دام لا يوجد أيضـا إلا مادة واحدة أوحد يلزم إيضاح ما هى هـذه العلة .

بهذا الوضوح . — والأين — أو أى مقولة أخرى . — ذا وجود منفصل — وهـذا تناقض . — التى هابها الفلاسـفة أكثر من كل شىء — الفلاسفة الذين لم يستطيعوا أبدا أن يقبلوا بأية صورة معنى العدم . — من العـدم المحض — عبارة النص بالضبط هى « من العـدم السابق الوجود » . — كائن حقيق — يمكن أن يضاف "متميز" فاذا كان الممكن ليس جوهرا أفيقال إنه واحدة أخرى من المقولات . — المذكورة — آنفا . — كما قلنا آنفا — ر ف ٢

§ ٦ — بالقدر المناسب — لهذا الموضوع الخاص الذى تدرسه فى هذا الكتاب . — العلة التى تجعل كون الموجودات أبديا — ليس هذا شيئا آخر إلا الإسناد الى الله الذى هو خالق الأشياء وحافظها كما هو مبين بعد . — سواء الكون المطلق — يعنى الذى يخرج الأشياء من العدم . — أو الكون البعضى — يعنى كون الكيفيات المتعاقبـة على الأشياء . — علة واحدة أوحد — هى المحرك الذى لا يتحرك . — مادة واحدة أوحد — فيها يفعل المحرك الأول . — ما هى هذه العلة — هاهنا عبارة النص ينقصها قليل من الجلاء، لأن السياق يقتضى علتين لا علة واحدة وهما علة فاعلة وعلة مادية .

§ ٧ — ولكنا سبق بنا أن تكلمنا عليها فى كتابنا "الحركة" إذ قررنا فيه أنه يوجد من جهة شىء غير متحرك طول الأبد كله ومن جهة أخرى شىء على ضدّ ذلك واقع فى حركة أبدية . فدراسة المبدأ غير المتحرّك للأشياء تتعلق بفلسفة أخرى عليا . وأما المحرّك الذى يحرّك كل البقية، لأنه هو نفسه قد حُرّك بحركة مستمرّة، فاننا سنتكلم عليه فيما بعد عند ما نوضح ما هى علة كل واحدة من الظواهر الخاصة . وهنا نقتصر على علاج هـذه العلة التى تظهر بصورة مادة والتى تجعل أن كون الأشياء وفسادها لا يتخلفان فى الطبيعة . ولكن هـذه المناقشة قد تجلو أيضا الشك الذى أثرناه آنفا وسيرى كيف ينبغى أن يعنى أيضا بالفساد المطلق و بمطلق كون الأشياء .

§ ٨ — ومع ذلك فانها مسئلة محيرة أن يعرف ماذا عسى أن تكون العلة التى تدبر وتسلسل تناسل الأشياء اذا فرضنا أن ما يفسد يرجع الى العدم وأن اللاوجود ليس شيئا ، لأن ما ليس موجودًا ليس جوهرا ولا كيفا ولا كمًّا ولا أينا الخ لأنه حينئذ ما دام فى كل آن واحدٌ من الكائنات يبيد وينعدم كيف يتأتى أن العالم بتمامه لم يكن قد فنى منذ زمان طويل ألف مرة اذا كان المنبع الذى يأتى منه كل واحد من

§ ٧ — فى كتابنا "الحركة" — هذا العنوان يدل على كتاب الطبيعة . — إذ قررنا فيه — ر . الطبيعة ك ٨ ب ٣ ف ٢ من ترجمتنا . ر . أيضا أوائل كتاب الطبيعة والتحقيق الخاص للعنوانات المختلفة لهـذا الكتاب . — بفلسفة أخرى عليا — يعنى ما بعـد الطبيعة . ر . الكتاب السابع من ترجمـة كوزان . — سنتكلم عليه فيما بعد — ر . الباب العاشر من الكتاب الثانى من هذا المؤلف . — الظواهر — أو الكائنات . — العلة التى تظهر بصـورة مادة — يعنى العلة المـادية . — لا يتخلفان — هـذا هو التعاقب الأبدى للكائنات . ولكن فى مذهب أرسطو لما أن العالم ليس له أول ولا ينبغى أن يكون له آخر فتعاقب الكائنات يجب أن يستمر كما نرى . وهذه المسئلة قد بحثت أيضا فى الكتاب الثامن من الطبيعة ب ٧ ف ٤ وفى الكتاب الثالث ب ٥ ف ٤ — بالفساد المطلق و بمطلق كون الأشـياء . — يعنى إمكان أن شيئا يجىء من العدم و يرجع اليه .

§ ٨ — التى تدبر وتسلسل — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — يرجع الى العدم — أو «يذهب الى العدم» . — ليس جوهرا ولا كيفا — أعنى فى أى مقول من المقولات . — ولا أينا — ليس هنا الأربعة مقولات معدودة عوضا عن عشرة . لذلك وضعت لفظ ... الخ . — العالم بتمـامه — عبارة النص

هذه الكائنات محدودا ومتناهيا؟ فى الحق اذا كان هذا التوارث الأبدى لا ينقطع البتة فليس ذلك بأن الينبوع الذى تصدر منه الكائنات يكون غير متناه لأن ذلك محال تماما ما دام أنه فى الواقع لا شىء غير متناه . وأنه إنما يكون فقط بالقوة أن شيئا يمكن أن يكون غير متناه فى القسمة . وقد وضحنا أن القسمة هى وحدها محل عدم الانقطاع وعدم الفوات لأنه يمكن دائما الحصول على كمية أضعف فأضعف . ولكنا ها هنا لا نرى وجها للشابهة . أفلا تصير أبدية التعاقب ضرورية بهذا السبب وحده أن فساد شىء هو كون لشىء آخر وأن العكس بالعكس كون هذا موت ذلك أو فساده ؟ .

§ ٩ — وبهذا تلفى علة يمكنها أن تكفى لتوضيح كل شىء بالنسبة لكون الأشياء وفسادها ، هاهنا فى عمومها وهناك فى كل فرد من الكائنات بخصوصه . على أنه مع هذا يلزم البحث فى أنه لماذا عند الكلام على بعض الأشياء يقال بطريقة مطلقة إنها تكون وتهلك فى حين أنه عند الكلام على بعض أشياء أخرى لا يقال ذلك على إطلاقه ، اذا كان حقا أن كون موجود بعينه هو عين فساد آخر واذا كان العكس بالعكس فساد هذا هو كون لذاك . § ١٠ — هذا التباين فى التعبير يقتضى أيضا أن يفسر ما دام أننا نقول عن كائن فى حالة بعينها إنه فسد مطلقا لا أنه فسد من وجه بعينه فقط وما دمنا نصرف الكون الى معنى مطلق كما نصرف الفساد سواء بسواء .

بالضبط «الكل» . — محدودا ومتناهيا — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — هذا التوارث الأبدى — عبارة النص ليست بهذا الوضوح . — وقد وضحنا — ر . الطبيعة نظرية اللانهاية ك ٣ ب ٥ ف ٤ . و ب ٢ ف ٥ . — أضعف فأضعف — ذلك فى الحق هو نظرية أرسطو فى الطبيعة . ولكن يظهر أنه يمكن أن يكون نمو الأشياء غير متناه وكذلك قسمتها ما دام الموضوع من كل وجه كميات تخيلية محضة . — بهذا السبب وحده أن فساد شىء — هذا الفرض عينه موجود فى كتاب الطبيعة ك ٣ ب ١٢ ف ٢ من ترجمتنا .

§ ٩ — هاهنا فى عمومها — النص ليس بهذه الصراحة . — بطريقة مطلقة — من غير تحديد ولا تقييد من أى نوع .

§ ١٠ — هذا التباين فى التعبير — عبارة النص هى : «هذا» فقط . — إنه فسد مطلقا — يعنى أنه يمر من الوجود الى اللاوجود بوجه تام و ينقطع عن الوجود بعد أن بقى فيه زمنا ما . — من وجه

على ذلك فشيء بعينه يصير شيئا آخر بعينه ولكنه لا يصير على الاطلاق . انظر مثلا كيف نقول عن شخص يتعلم إنه يصير عالما ولكننا لا نقول من أجل ذلك إنه يصير ويكون على الاطلاق . وباذكار ما قلناه غالبا من أن بعض الأسماء تدل على جوهر حقيق والبعض الآخر لا يدل عليه يمكن معرفة من أين تأتى المسئلة المطروحة ها هنا . لأنه يهم كثيرا أن يعين فيم يتغير الشيء الذى يتغير، مثال ذلك تحول الشيء الذى يصير نارا يمكن أن يسمى كونا مطلقا ولكن أيضا فسادا لشيء للأرض مثلا . وكذلك كون الأرض هو بلا شك أيضا كون، ولكنه ليس كونا مطلقا مع أنه فساد مطلق ومثلا فساد النار .

§ ١١ — بهذا المعنى كان پرمينيد لا يعترف إلا بشيئين فى الدنيا الموجود واللا موجود وهما عنده النار والأرض . على أنه ليس من المهم افتراض هذه العناصر أو عناصر أخرى مشابهة لها لأننا لا نبحث إلا فى الطريقة التى بها تحصل

بعينه فقط — يعنى مثلا أن شيئا يصير أبيض بعد أن كان أسود فإنه لا ينقطع بذلك عن أنه كائن مطلقا . وفقط أنه انقطع عن كونه أبيض . وأنه فسد من حيث إنه أبيض دون أن يفسد حقيقة . — عن شخص يتعلم — وأنه على ذلك لم يكن بعد عالما ثم يصير إذًا عالما . ولكن لا يمكن أن يقال بوجه مطلق إنه يصير كما لو أنه ولد مثلا . — إنه يصير و يكون — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — ما قلناه غالبا — يمكن أن يراجع كتاب المقولات ب ٤ ف ١ . — بعض الأسماء — عبارة النص غير محدودة . — جوهر حقيق — عبارة النص بالضبط "شيء معين" . — فسادا لشيء للأرض مثلا — يعنى أن الأرض يجب أن تفسد لتصير نارا مع التسليم بأن هذا التحول ممكن كما يفترضه پرمينيد . — فساد النار — الملاحظة بعينها .

§ ١١ — الموجود واللا موجود — فى كتاب الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ هو البارد والحار لا الموجود واللا موجود اللذان اعتبرهما پرمينيد العنصرين الأولين . ومع ذلك فان البارد والحار هما مراد فان أيضا فى ذلك الكتاب للأرض والنار . — على أنه ليس من المهم — يحس أرسطو هاهنا أن تحول الأرض الى نار أو النار الى أرض فرض غريب فى بابه . — لا فى موضوعها — يعنى الموضوع الذى فيه تحقق الظواهر والذى يمكن أن يكون على السواء الارض أو النار أو أى جسم آخر كيفما اتفق . فان الجوهر يمكن أن يتغير ولكن الظاهرة هى دائما هى بعينها . ومع ذلك فان أرسطو قد بين عبارته بيانا وضعيا فيما يلى .

الظواهر لا فى موضوعها . إذًا التغيير الذى يوصل الأشياء إلى اللا وجود المطلق إنما هو فساد مطلق و بالعكس ما يوصلها مطلقا إلى الوجود هو كون مطلق. ولكن مهما كانت الجواهر التى يعتبر فيها الكون والفساد سواء النار أو الأرض أو أى عنصر آخر مشابه فان الكون والفساد لا يزالان أحدهما للوجود والآخر للاوجود .

§ ١٢ — هذا إذًا هو فرق أوّل فى التعبير يمكن تقريره بين الكون والفساد المطلقين و بين الكون والفساد اللذين ليسا مطلقين . وفرق آخر يمكن أن يميزهما وهو المادة التى يحصلان فيها أيا كانت هذه المادة فالتى تدل فصولها دلالة أكثر على هذه الحقيقة بعينها أو تلك هى أيضا أدخل فى الجوهرية والتى تدل فصولها دلالة أكثر على العدم هى أدخل فى اللا موجود . وعلى ذلك فالحرارة مقولة ما ونوع حقيق وعلى الضد البرودة فانها ليست إلا عدما . وبهذه الفصول بعينها تميز الأرض والنار .

§ ١٣ — عند العامىّ ، إنما يقرّر الفرق على الأخص بين الكون و بين الفساد هو أن الواحد مدرك بالحواس وأن الآخر ليس كذلك . فمتى وجد تغير فى مادة محسوسة قال العامى إن الشىء يولد و يكون كما يقول إنه يموت و يفسد حينما يتغير

— التغير الذى يوصل — ليس النص بهذه الصراحة . — سواء النار أو الأرض — كما يريد برمينيد . — أحدهما للوجود — وهو الكون أو التولد . — والآخر للاوجود — وهو الفساد أو التلف .

§ ١٢ — فرق أول فى التعبير — ليست عبارة النص على هذا الضبط . — التى يحصلان فيها — أضفت هذه الكلمات لإيضاح الفكرة . — هذه الحقيقة بعينها أو تلك — عبارة النص هى بالبساطة «شىء بعينه» . — وعلى ذلك فالحرارة مقولة — قد لا يكون هذا المثل مختارا اختيارا حسنا . فاذا كان البرد هو عدم الحرارة فقد يمكن القول أيضا بأن الحرارة عدم البرودة . فان الحرارة والبرودة هما على السواء كيفان أحدهما ضد للآخر . — تميز الأرض والنار — ر . الفقرة السابقة . وعلى حسب تفسير فيلوپون أن النار أدخل فى الجوهرية من الأرض . فانها الإيجاب أو الملكة فى حين أن الأرض ليست إلا العدم . ر . آخر الفقرة الآتية .

§ ١٣ — الفرق بين الكون و بين الفساد — الترجمة أضبط من النص . — فمتى وجد تغير — الترجمة أضبط من النص . — يولد و يكون ... يموت و يفسد — ليس فى النص فى كلا الطرفين إلا كلمة

الى مادة غير مرئية . ذلك بأن الناس يعترفون على العموم الوجود واللاوجود تبعا لما إذا كانوا يحسّون الشيء أو لا يحسّونه . كما أنهم يعتبرون الموجود ما يعرفونه واللاموجود ما يجهلونه . فحينئذ الحس هو الذى يؤدى وظيفة العلم . وكما أن الناس لا يدركون حقيقة حياتهم وكونهم إلا لأنهم يحسّون أو يمكنهم أن يحسّوا ، كذلك أيضا إدراكهم لوجود الأشياء إذ يبحثون عن حقيقتها وما هم بواجديها فيما يقولون . § ١٤ — ذلك أن الكون والفساد المطلقين هما متغايران تماما تبعا لاعتبارهما على حسب الرأى العامىّ أو لاعتبارهما فى حقيقتهما الواقعية . اذًا الهواء والريح أقل من سواهما فى مراتب الوجود من حيث كونهما جسمين إذا كان المرجع فى ذلك الى مجرّد شهادة الحواس . ومن أجل ذلك يظن أن الأشياء التى فسدت مطلقا تفسد بالتحول الى هذين العنصرين فى حين أنه يعتقد أن الأشياء تولد وتكون متى تحولت الى بعض عناصر يمكن لمسها أى الى أرض مثلا . ولكن فى الحق ذانكم العنصران هما جوهر ونوع أكثر من الأرض نفسها .

§ ١٥ — اذًا قد وضح ما يدل على أنه يوجد الكون المطلق من حيث كونه فسادا لشيء والفساد المطلق من حيث كونه كونا لشيء أيضا . وهذا يتعلق ،

واحدة . — إدراكهم لوجود الأشياء — يعنى على حسب أن الأشياء محسوسة أو غير محسوسة أو لا يمكن أن تحس .

§ ١٤ — على حسب الرأى العامى — يمكن ترجمتها أيضا هكذا : «أخذا بمجرّد الظاهر» . — أقل من سواهما فى مراتب الوجود من حيث كونهما جسمين — عبارة النص هى بالضبط «أقل» فقط — الى مجرّد شهادة الحواس — ما دام أن الهواء والريح يحسّان أقل من العناصر الكثيفة مثل الأرض والماء . — الى هذين العنصرين — الهواء والريح . — مثلا — زدت هذا اللفظ لتمام الفكرة . — ونوع — أو صورة . وليس لفظ النص بأكثر ضبطا من اللفظ الذى التزمت استعماله . — أكثر من الأرض نفسها — ربما كان اللازم بيان علة هذه النظرية التى يظهر لأول وهلة أنها مشكلة . أما فيلوپون فيزعم أن الهواء على الحقيقة أكثر جوهرية من الأرض لأنه يحيط بها وأن له فوق ذلك خاصة الحرارة التى تزيد فى تمدده .

§ ١٥ — إذاً قد وضح — ليس هذا الإيضاح جليا كالمرغوب . وربما كان هذا الملخص الذى أثبت هنا سابقا لوقته . — أنه يوجد — يظهر أن الأحسن هو أن يقال : «إنه يظن أن يوجد» .

فى الواقع ، بأن المادة مختلفة إما لأن الواحدة جوهر فى حين أن الأخرى ليست جوهرا وإما لأن الواحدة هى أكثر وأن الأخرى أقل وإما لأن المادة التى يأتى منها الشىء والتى يذهب اليها هى أقل أو أكثر حسية . ويقال على الأشياء تارة إنها تولد وتصير بالاطلاق وتارة يقال بالتعين إنها تصير هذا الشىء بعينه أو ذاك من غير أن يأتى واحد من الآخر بالتكافؤ على النحو الذى نعنيه هاهنا . ونحن نقتصر فى الواقع الآن على إيضاح لماذا — ما دام أن كل كون هو فساد لشىء آخر وأن كل فساد هو كون لشىء آخر أيضا — نحن لا نسند على هذا الوجه عينه الكون والفساد الى الأشياء التى تتغير بعضها فى البعض الآخر .

§ ١٦ — على أن هذا لا يحل المسئلة التى كنا وضعناها لأنفسنا حلا نهائيا . بل هو يوضح لماذا يقال عن واحد يتعلم إنه يصير عالما لا أنه يصير مطلقا فى حين أنه بالنسبة لشىء ينشأ طبيعة يقال بطريقة عامة إنه يولد ويصير . تلك هى التعاين أى المقولات المختلفة التى بعضها يدل على الموجود الحقيق والجزئى والآخر يدل على الكيف والآخر على الكم . وبالتالى لا يقال البتة على كل الأشياء التى لا تدل على جوهر .

ولكنى لم أجرؤ على المخاطرة بهذا التغيير . — المادة — عبارة النص هى غير معينة أيضا كاللفظ الذى استعملته فى الترجمة فانه يمكن أن يتساءل : مادة أى شىء هى ؟ . — الواحدة — يعنى من هذين الشيئين . — جوهر — يعنى شيئا شخصيا وخاصا . — هى أكثر — أو بعبارة أخرى «الواحدة لها وجود أكثر بروزا وللاخرى وجود أقل حسية» . — تولد وتصير — لا يوجد إلا كلمة واحدة فى النص الإغريقى . — بالتعيين — أو فقط . — الذى نعنيه هاهنا — إذ نقول إن التولد المطلق هو فساد شىء آخر وإن الفساد المطلق هو أيضا تولد . — نحن لا نسند على هذا الوجه عينه — كل هذه القيود دقيقة وغامضة . — الى الاشياء التى تتغير بعضها فى البعض الآخر — تلك هى الأحوال المختلفة التى بها يمر جسم بعينه كما يفهم من سياق الكلام الآتى . وليس هذا بالمعنى الخاص فسادا لكيف أو كونا له بل هو مجرد تعاقب .

§ ١٦ — التى كنا وضعناها لأنفسنا حلا نهائيا — على الروابط الحقيقية بين الكون المطلق وبين الفساد المطلق . — إنه يصير عالما — إذ أن جهله ينقلب علما كما أن علمه يمكن أن ينقلب جهلا اذا نسى ما حفظه . — ينشأ طبيعة — كلمة النص يظهر لى أن لها ما لهذا اللفظ الذى استخدمته فى الترجمة من القوة . — إنه يولد ويصير — لا يوجد فى النص إلا كلمة واحدة . — بعضها ... الموجود الحقيق والجزئى —

إنها تصير بطريقة مطلقة بل إنها تصير كذا أو كذا من الأشياء . ومع ذلك فان الكون في كل الأحوال على السواء لا ينطبق انطباقا صريحا إلا على الأشياء الداخلة في إحدى المجموعتين . مثلا في مقولة الجوهر يقال إن الشيء يصير اذا تكون نار . ولا يقال ذلك اذا كان الذي يكون هو أرضا . وفي مقولة الكيف يقال عن الشيء إنه يصير إذا صار الكائن عالما لا إذا صار جاهلا .

§ ١٧ — إذًا فانظر كيف نوضح لماذا بعض الأشياء يكون بطريقة مطلقة وكيف أن البعض الآخر لا يكون لا بطريقة مطلقة ولا أصلا حتى في الجواهر أعيانها . وقد قلنا أيضا لماذا الموضوع من حيث هو مادة هو علة الكون المستمر الأبدي للأشياء نظرا الى أنه يمكن على السواء أن يتغير في الأضداد وأنه بالنسبة للجواهر كونُ ظاهرةٍ هو دائما فساد لأخرى و بالتكافؤ أن فساد هذه كون لتلك .

وهو مقوله الجوهر . والنص أقل ضبطا من ذلك . — والآخر على الكم — لا يوجد ها هنا إلا ثلاث مقولات على التعداد مع أن المقولات عشرة . ر . كتاب المقولات ب ٤ ص ٥٨ من ترجمتنا . — إنها تصير كذا أو كذا من الأشياء — يعني أنها تتغير بالكيف أو بالوضع ما دام المفروض ضرورة أن الجوهر هو ثابت تحت جميع المقولات . — في إحدى المجموعتين — اللتين إحداهما موجبة والأخرى سالبة . ومع ذلك فان ما يلي كفيل بإيضاح هذه الفكرة و إن كانت الحدود التي اتخذت أمثلة ربما لا يكون قد توافر فيها حسن الاختيار . — اذا تكون نار — لأن النار معتبرة حدا إيجابيا في حين أن الأرض معتبرة حدا سلبيا . — اذا كان الذي يكون هو أرضا — ر . ما سبق ف ١٤ — اذا صار الكائن عالما — هذا هو الحد الإيجابي في حين أن الجاهل حدّ سلبي ولكن في الحالة الأولى والأخرى يقال أيضا إنه يصير عالما أو يصير جاهلا . وكل هذا هو غاية في الدقة .

§ ١٧ — حتى في الجواهر أعيانها — يعني في حالة ما اذا كان شيء مع كونه موجودا أقل في مرتبة الوجود من آخر لأنه تابع له . ر . ما سبق ف ١٥ . — الموضوع من حيث هو مادة — الموضوع يبقى لأنه ماديا محل الأضداد التي تحل فيه وتتعاقب عليه . فالموضوع يبقى مع تغيره . — المستمر الأبدي — لا يوجد في النص إلا كلمة واحدة . — كونُ ظاهرةٍ — أو بعبارة أخرى تغير الكيفيات . فان كون الأسود هو فساد للأبيض وكون الأبيض هو فساد للأسود . والموضوع الذي يصير على التناوب أسود وأبيض لا يزال باقيا .

§ ١٨ — على أنه لم يبق محل لأن يتساءل لماذا أن هذا الفساد الدائم للموجودات هو الذى يجعل أن شيئا يمكن أن يكون. لأنه كما يقال إن شيئا هو فاسد مطلقا حينما يمر الى اللامحسوس و إلى اللاموجود كذلك يمكن أن يقال إنه يكون و يأتى من اللاموجود متى أتى من اللامحسوس. والنتيجة أنه سواء أكان هناك موضوع أوّلا أم لم يكن فإن الشىء يأتى دائما من العدم بحيث إن الشىء فى آن واحد حين يكون يأتى من اللاوجود وحين يفسد يعود الى اللاوجود أيضا . وهذا هو الفاعل فى أنه ليس يوجد انقطاع ولا خلق . لأن الكون هو فساد اللاوجود والفساد هو كون العدم . § ١٩ — ولكن قد يتساءل عما اذا كان هذا اللاموجود المطلق هو ثانى الضدّين . ومثلا لما أن الأرض وكل ما هو ثقيل هو اللاموجود إذا كانت النار وكل ما هو خفيف هى أو ليست هى الموجود . ولكن يمكن أن يقال أيضا إن الأرض هى الموجود و إن اللاموجود هو مادة الأرض كما أنه هو مادة النار على السواء. ولكن هل مادة أحد هذين العنصرين ومادة الآخر هى إذًا مختلفة؟ وهل من المحال

---

§ ١٨ — أن هذا الفساد الدائم للوجودات — ليس النص على هذا القدر من الصراحة فى كل هذا الموطن. — حينما يمرّ الى اللامحسوس — ر. ما سبق ف ١٣. — فان الشىء يأتى دائما من العدم — قد اتخذت عبارة كعبارة النص فى أنها عامة غامضة. و بعبارة أخرى: سواء كان هناك مجرّد تغير فى الكيف فالظاهرة تأتى دائما مما لم يكن. — انقطاع ولا خلق — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . ومع ذلك فمن فرط التعمق أو بالحرى من الإسراف اللغوى أنه يمكن التكلم عن كون العدم أو فساده.

§ ١٩ — هو ثانى الضدّين — الذى ليس كائنا بالفعل ولكنه يمكن أن يكون بأن يشغل محل الضد الذى هو كائن. — لما أن الأرض وكل ما هو ثقيل هو اللاموجود — ضدّ الرأى العامى الذى يسند إلى الأرض وجودا أكثر من وجود الهواء والنار بحجة أن الحواس تدركها أكثر. ر. ما سبق ف ١٣ . — أن الأرض هى الموجود — يظهر فى الحق أنه من الصعب إنكار ذلك . — و إن اللاموجود هو مادة الأرض — لا يظهر أن اللاموجود يمكن أن يكون مادة لأى شىء ما إلا أن يصرف ذلك إلى المعنى المجرّد المحض حيث كان القول فيامر. — وهل من المحال أن يأتى أحدهما من الآخر — هذا ما يشبه أن لا يعتمد إلا على شهادة الحواس. — لها أضداد — قد يكون أضبط من ذلك بيانا أن يقال إنها بعضها لبعض ضدّ .

أن يأتى أحدهما من الآخر كما هو الحال فى الأضـداد . لأن النار والأرض والمـاء والهواء لها أضداد أو هل أن مادتها هى واحدة من وجه وهل ليست مختلفة إلا من وجه آخر؟ لأن ما هو موضوع من وجه ومن آخر هو واحد ولكن شـكل الوجود هو وحده الذى ليس واحدا . على أننا نقف عند ما قلناه فى هذا الموضوع .

— ما هو موضوع — يعنى المـادة مأخوذة على معناها المجرّد لا على المعنى الحقيق بالفعل . — شكل الوجود هو وحده — هذا تمييز من لازمات أرسطو وهو فى الغالب غاية فى الصحة والضبط . — نقف — لا يظهر مع ذلك أن الموضوع قد انتهى ولا أنه على الخصوص قد وضح بقدر الكفاية من الإيضاحات التى سبقت .

الباب الرابع

فصول الكون والاستحالة — تمييز الموضوع ومحمول الموضوع — حد الاستحالة — أمثلة مختلفة — حد الكون المطلق وأمثلة متنوعة — آخر المقارنة بين الكون والاستحالة .

---

§ ١ — يجب الآن توضيح بماذا يختلف الكون والاستحالة لأننا نرى أن هذين التغييرين للأشياء هما متميّزان تماما أحدهما من الآخر نظرا إلى أن الموضوع الذى هو كائن حقيق والتكييف الذى هو طبعا محمول على الموضوع هما فى غاية الاختلاف وأنه يجوز أن يقع التغير بأحدهما وبالآخر. § ٢ — توجد استحالة متى كان الموضوع ، وهو باق بعينه وهو دائما محسوس ، يلحقه تغيّر فى خواصه المخصوصة التى يمكن أن تكون مع ذلك أضدادا أو أوساطا . على ذلك مثلا الجسم هو صحيح ثم هو مريض مع بقائه هو بذاته . وكذلك أيضا النحاس هو تارة مستدير وتارة ذو زوايا مع بقائه جوهريا هو بعينه . § ٣ — ولكن حينما الموجود يلحقه التغير بكليته دون أن يبقى منه شىء محسوس من جهة أنه موضوع واحد وبحدّه وأن الدم مثلا يتكوّن بأن يأتى من كل النطفة وأن الهواء يأتى من كل الماء

---

§ ب ٤ ف ١ — الكون والاستحالة — الكون أو التولد هو الحركة فى الجوهر يعنى الحركة التى تسير مما ليس موجودا الى ما هو موجود أى من اللاوجود الى الوجود . وأما الاستحالة فهى الحركة التى تغير فى الموضوع كيفياته وتعقبها أضدادها . ر . الطبيعة ك ٣ ب ٣ ف ٨ وك ٧ ب ٤ ف ٣ من ترجمتنا . — التغير بأحدهما وبالآخر — لفظ تغير مصروف هنا الى معنى الحركة .

§ ٢ — توجد استحالة — حد الاستحالة هذا لا يبعد فى شىء عن الحد الذى أُعطى فى كتاب الطبيعة . — وهو دائما محسوس — أو بعبارة أخرى : حقيقة متميزة وشخصية يمكن أن تدركها حواسنا . — أضدادا أو أوساطا — مثلا الجسم وهو يمر من الأسود الى الأبيض أو وهو يمر بجميع الألوان المتوسطة التى بين ذينك اللونين . — مع بقائه هو بذاته — من حيث الجوهر . وهذا هو الشرط الأساسى وبدونه لا يمكن أن تقع الاستحالة . — جوهريا — أضفت هذه الكلمة لزيادة بيان المعنى .

§ ٣ — ولكن حينما الموجود يلحقه التغير — حدّ الكون أو لصيرورة الأشياء . — بكليته — هذا هو الشرط الأساسى للتولد وإلا فلا يكون التغير الا استحالة . — الدم يتكون بأن يأتى من كل النطفة —

أو بالعكس المـاء من كل الهواء . حينئذ يوجد فى هذه الحالة كون للواحد وفساد للآخر . وهذا حق على الخصوص متى كان التغير يمر من اللامحسوس الى المحسوس سواء بالنسبة لحاسة اللمس أو بالنسبة لجميع الحواس الأخرى مثلا حينما يوجد كون المـاء أوحينما يوجد تحلل المـاء الى هواء لأن الهواء هو بالمقارنة غير محسوس تقريبا .

§ ٤ — ولكن فى هذه الأشياء إذا بقى لحدّى التقابل كيف ما متماثل فى الموجود الذى يتولد وفى الذى يفسد وإذا كان مثلا حينما يتكوّن المـاء بأن يأتى من الهواء وهـذان العنصران هما على السواء شفافان وباردان فاذاً لا يلزم بعدُ أن أحد هذين الكيفين فقط يتعلق بالجسم الذى فيـه يحدث التغـير . ومتى لم يكن الأمر كذلك فلا يكون إلا مجرد استـحالة . مثلا فى حالة ما الرجل الموسـيقى ينعدم والرجل غير الموسيقى يكون ويظهر، ولكن الرجل لا يزال دائمـا هو بعينه . وحينئذ اذا لم تكن أصلا خاصة هـذا الموجود أو كيفه إلا المهارة فى فن الموسـيقى أو الجهل به فاذاً

الأمر على العكس النطفة هى التى تأتى من الدم الا اذا كان لفظ "النطفة" هاهنا له معنى خاص .

— كون للواحد وفساد للآخر — اتخذت تعابير مبهمة كتعابير النص . — بالمقارنة — زدت هذه الكلمة .

§ ٤ — ولكن فى هذه الأشياء إذا — يرى مفسر وجامعة "كو يبر" بحق أن المعنى فى هذه الفقرة مغلق وتوضيحات فيلوبون لا تجلو غموضه . ويظهر أن أرسطو يقصد الرد على اعتراض لم يبينه بالضبط . « فى الكون يتولد الكائن بكليته والتغير يلحقه بكليته . أما فى الاستحالة فالكيفيات وحدها هى التى تكون محـلا للتغير وإذاً متى وقع كون عنصر جديد يمكن أن يتساءل إذا كانت كيفيات الأول يجب أن تزول هى أيضا جميعها معــه » . يجيب أرسطو بالسلب متى كان الكيف مشتركا بين الكائن الذى يزول وبين الكائن الذى يتولد بالتغير . وعلى ذلك فالمـاء مع أنه يأتى من الهواء الذى انعدم له خواص الهواء من جهة أنه مثله شفاف بارد . هـذا هو تفسير المفسرين نقلته هنا . وقد كان من المرغوب فيه أن يكون النص أكثر توسعا . — فقط — زدت هـذه الكلمة . — ومتى لم يكن الأمر كذلك — يعنى متى لم يكن للشيء الكائن الكيفيات عينها التى للشيء الفاسد . — فلا يكون إلا مجرد استحالة — عبارة النص أقل ضبطا . الاستحالة مجرد تغير فى الكيف وليس تغيرا جوهريا . — فى حالة ما الرجل الموسيقى ينعدم — حفظت أسـلوب عبارة النص مع أنه فى اللغة اليونانيـة شاذ كما تراه فى الفرنساوية . — ولكن الرجل — يعنى الموجود الجوهرى الذى هو تارة موسيقى وأخرى غير موسيقى . — خاصة ...أو كيفه — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — إلا المهارة فى فن الموسيقى أو الجهل به — النص فى غاية من الإيجاز لم تبلغه عبارتى فى الترجمة .

يوجد كون لإحدى الظاهرتين وفساد للأخرى . من ذلك يرى لماذا أن تلك ليست إلا كيفيات للرجل فى حين أن هذا هو كون وفساد للرجل الذى هو موسيق وللرجل الذى لا يعرف الموسيقى فليس هناك إلا تكيف للوضوع الذى هو ثابت وهذا هو بالضبط ما يسمى استحالة . § ٥ — وإذًا حينما يكون تغير حد ضد لآخر حادثا فى الكم فتلك زيادة ونقص . ومتى كان ذلك فى الأين فتلك هى نقلة . ومتى كان فى الملكية الخاصة والكيف فتلك استحالة بالمعنى الخاص . ولكن متى لم يبق شىء مطلقا من الموضوع الذى أحد أضداده هو تغير أو عرضٌ فذلك أنه يوجد كون من وجه وفساد من وجه آخر . § ٦ — وحينئذ فالمادة التى هى على جهة الأولوية والأفضلية الموضوع القابل للكون وللفساد . وبوجه ماهى أيضا التى تعانى أنواع التغيرات الأخرى لأن كل الموضوعات مهما كانت فهى قابلة لتقابلات ما بالأضداد .

على أنا نقف هنا فيما كنا نريد أن نقول على الكون والفساد وعلى الاستحالة أيضا لنوضح ما اذا هى تكون أو لا تكون وكيف تكون .

— كون... وفساد — كما فى الجواهر . — كيفيات — أو تغيرات . — للرجل — الذى يبق كما هو مع هذه التغايير المختلفة . — للرجل الذى هو موسيق — والذى ليس بعدُ مجرد رجل على المعنى المطلق والجوهرى . § ٥ — حدّ ضد لآخر — عبارة النص "الضدية" ر . المقولات ب ١٠ ، ١١ ص ١١٩ من ترجمتنا لتعرف الفرق بين المتقابلات والأضداد . — فتلك زيادة ونقص — فان الموجود يتغير اذًا فى الكم . فتلك هى نقلة — فان الموجود إذا يتغير فقط فى المكان . — فى الملكية الخاصة — أو فى الانفعال . — بالمعنى الخاص — أضفت هاتين الكلمتين لضبط المعنى . § ٦ — المادة — مأخوذة على وجه غير معين البتة كما هو فى الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ص ٤٧٣ من ترجمتى . — على جهة الأولوية — أو "على الخصوص" . — للكون وللفساد — تبعا لأنها تكون أو لا تكون . — وبوجه ما — بطريقة ثانوية لا بالطريقة الخاصة . — أنواع التغيرات الأخرى — الزيادة والنقص والنقلة والاستحالة ، وقد لاحظ بحق فيلوپون أن أرسطو لم يكن بيانه فى أى موضع آخر أجلى منه فى هذا الموضع فيما يتعلق بحد المادة الذى هو دائما من الصعوبة بمكان .

الباب الخامس

نظرية النمو — الفروق بينه وبين الكون والاستحالة سواء فى موضوع النمو أو فى الكيفية التى يحصل بها النمو — نقلة الشيء النامى غير المحسوسة — صعوبة إدراك من أين يأتى النمو فى الجسم — كل أجزاء الجسم تنمو دفعة واحدة — الشروط الأصلية للنمو هى ثلاثة — المقارنة بين النمو والاستحالة — نظرية جديدة للنمو — تمييز ما بالفعل من ما بالقوة — يلزم أن ما بالقوة يتحقق حتى يوجد النمو — علاقة العنصر الجديد الذى يحدث نمو الجسم بالجسم النامى ٠

---

§ ١ — علينا أيضا أن نتكلم على النمو وأن نقول فيماذا يختلف النمو عن الكون وعن الاستحالة وكيف يمكن الأشياء التى تنمو أن تنمو والتى تنقص أن تنقص ٠

§ ٢ — يلزم إذًا أولا أن نفحص ما اذا كان الفرق بين هذه الظواهر بعضها والبعض الآخر ينحصر فقط فى الموضوع الذى تتعلق به ٠ إن تغيرا يقع من موجود الى موجود آخر، مثلا من الجوهر بمجرّد القوّة الى الجوهر بالفعل و بالكمال هل هو كون وتولد؟ والتغير الذى يقعَ فى العظم هل هو نموّ ونقص ؟ أو ذلك الذى يحصل فى الكيف هل هو استحالة ؟ ولكن الظاهرتين الأخيرتين اللتين ذكرناهما أليستا دائما تغاير أشياء تمر من القوة الى الفعل والكمال؟ أو أيضا أليست طريقة التغير

---

§ ب ٥ ف ١ — النمو — على تقدير « وعلى النقص » الذى هو ضد النمو كما أنه تكلم على الفساد بعد الكون ٠ وليس هناك حد يقابل الاستحالة لأنها يمكن أن تقع على الوجهين ٠ وآخر هذه الفقرة يثبت مع ذلك أن أرسطو يتصدى الكلام على النقص كما يتصدى الكلام على النمو ٠

§ ٢ — فى الموضوع الذى تتعلق به — هذه العبارة غامضة قليلا كعبارة النص، ويمكن ترجمة عبارة النص أيضا هكذا : «فى الموضوع الذى تحصل فيه» ٠ — من الجوهر بمجرد القوة — من الجوهر الذى ليس موجودا الى جوهر حقيق موجود بالفعل كما يخرج حيوان من حيوان يلده ٠ — هل هو كون وتولد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة ٠ — الذى يقع فى العظم — على وجه أو على وجه آخر ٠ — الظاهرتين الأخيرتين — زدت لفظ « الأخيرتين » زيادة فى البيان ٠ — الى الفعل والكمال — ليس فى النص إلا كلمة واحدة ٠ وإن الكلمتين اللتين ذكرتهما ليست إحداهما إلا ترجمة للأخرى ٠

هى التى تختلف ؟ وحينئـذ الشىء الذى يستحيل بمنزلة الشىء الذى يتولد ويصير لا يظهر أنه يجب لها التغير بالمكان لزوما . ولكن الذى ينمو والذى يذبل يجب أن يتغير بالحيز تغـيرا مخالفا لتغير الشىء الذى يتحرك فى الأين . § ٣ — لأن الشىء المتحرك فى الأين يغير مكانه بكليته فى حين أن الذى ينمو لا يتغير إلا كشىء يتزلق ويمتـد . والموضوع وهو باق فى مكانه أجزاؤه وحدها تغير مكانها . ولكن هـذا ليس كحال أجزاء الكرة الدائرة على نفسها لأن هذه الأجزاء تغير محل جسم الكرة كله مع بقائه فى الحيز بعينه . وعلى الضد من ذلك أجزاء الجسم النامى تشغل حيزا أكثر فأكثر كما أن أجزاء الجسم الذابل تشغل حيزا أقل فأقل .

§ ٤ — يرى حينئذ أن التغير فى شىء يتولد وفى الذى يستحيل وفى الذى ينمو هو يختلف لا بالشىء الذى يقبل التغير فحسب بل أيضا بالطريقة التى يحصل بها التغير. ولكن أما من حيث الشىء ذاته الذى يلحقه تغير النمو وتغير الذبول — من جهة أن النمو والذبول يظهر أنهما لا ينطبقان إلا على عظم — كيف ينبغى إدراك أنه ينمو؟ هل يجب أن يفهم أنه يتكون فى هذه الحالة جسم وعظم فعلىّ مما ليس هو جسما ولا عظما إلا بمجرد القوة والذى هو بالفعل وبالكمال ليس له جسم ولا عظم حقيقى؟

— التى تختلف — من الكون ومن الاستحالة الى النمو والى النقص — يتولد ويصير — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — يجب لها التغير بالمكان — بأن يأخذ أكثر أو أقل من الحيز تبعا لحالى النمو والنقص . — الذى يتحرك فى الأين — أو «الذى تلحقه نقلة» .

§ ٣ — مكانه بكليته — يميز المفسرون هاهنا حالين . إما أن الجسم ينتقل بكليته مارا من مكان الى آخر وإما أن أجزاءه هى التى تغير مكانها كحال أجزاء كرة تدور على نفسها دون أن تغير مكانها كما هو مذكور بعد . — يتزلق ويمتد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة ليست على هذا القدر من الضبط . — أجزاؤه وحدها — أضفت الكلمة الأخيرة . — الدائرة على نفسها — ر . الطبيعة ك ٨ ب ١٤ ف ١ ص ٥٥٤ من ترجمتنا . — الكرة — زدت هذا اللفظ . — حيزا أكثر فأكثر — دون أن تغير مكانها .

§ ٤ — فى شىء يتولد ... والذى يستحيل ... والذى ينمو — تلك هى الأنواع الثلاثة الممكنة للتغير . — بالطريقة التى يحصل بها التغير — كما بين هـذا فى الفقرة السابقة . — أما من حيث الشىء ذاته — أضفت هـذه الكلمة الأخيرة . — أنه ينمو — أضفت هذه العبارة لأنه ظهر لى أنها ضرورية لتكميل الفكرة . وربما يلزم أن يزاد أيضا "ويذبل" كما فعل ذلك عدة من المفسرين . — بالفعل وبالكمال —

غير أن هذا الإيضاح نفسه يمكن أن يحمل على معنى مزدوج ويمكن أيضا أن يتساءل على أى الوجهين يجب أن يحصل النمو . هل هو يأتى من المـادة التى تكون منعزلة ومنفصلة فى ذاتها؟ أم هل يأتى من المـادة التى تكون فى جسم آخر؟ ولكن هذين الوجهين لفهم النمو أليسا همـا مستحيلين على السواء ؟ فإنه إذا كانت فى الواقع مادة النمو منعـزلة فإما ألّا تشـغل أى جزء فى الأين وإما أن تكون كنقطة أو ألّا تكون إلا من الخلو وتكون جسما لا تدركه حواسـنا . ففى أحد هذين الفرضين لا يمكن أن تكون موجودة . وفى الثـانى يجب أن توجد ضرورة فى أين لأن ما يأتى منها يجب أن يكون فى أين ما بحيث إن هذا الجسم يكون فيه أيضا إما بنفسه أو بالواسطة .

§ ٥ — ولكن اذا فرض أن المـادة هى فى جسم وأنها انفصلت عنـه بحيث إنها لا تؤلف البتة جزءا من هـذا الجسم لا بذاتها ولا بالعرض فيلتج من هـذا الفرض طائفة من المستحيلات البينة . وتوضيحه : مثلا اذا تكوّن هواء آتٍ من المـاء فذلك ليس لأن المـاء يتغير بل لأن مادة الهواء تكون محوية فى المـاء الذى يكوّنه كما لو كانت فى آنية ما لأنه لا شىء يمنع من أن تكون المواد غير متناهية فى العدد بحيث

ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — يحمل على معنى مزدوج — هذا التحليل ربمـا كان مجاوزا إلى حد أبعد ممـا يلزم ويظهر عليه أنه دقيق بعض الشىء . — منعزلة ومنفصلة — ليس فى النص إلا كلمة واحدة ومع ذلك لا يرى كيف أن المـادة يمكن أن تنعزل وتنفصـل دون أن تؤلف جسما . — لفهم النمو — أضفت هذا لتكميل الفكرة . — أى جزء فى الأين — أو "أى حيز" . — لا يمكن أن تكون موجودة — ليس النص على هذه الصراحة . — فى أين ما — ليس النص على هذه الصراحة . — ما يأتى منها — التعبير مبهم ولكن النص ليس أقل إبهاما . — بحيث إن هذا الجسم — أو بالأولى : «هذه المـادة» المنعزلة التى منها يجب أن يخرج الجسم الحقيق . — أو بالواسطة — عبارة النص بالضبط «أو بالعرض» ويلزم دائمـا أن يذكر أن المقصود هاهنا هو مادة النمو لا المـادة على العموم .

§ ٥ — فى جسم — عبارة النص غير معينة وهى «فى شىء ما» ومع ذلك فانه يجب تقدير أن المـادة هى فى جسم ينمو كما يدل عليه المثل الآتى الذى فيه الهواء يتكوّن بخروجه من المـاء . — لأن المـاء يتغير — وهذا هو التفسير العامى والطبيعى . — كما لو كانت فى آنية ما — ليس عليها إلا أن تخرج منها جاهزة دون أن تعانى تأثيرا جديدا . — المواد — التى يمكنها أن تفعل النمو . — غير متناهية فى العدد — أو فقط «غير

يمكنها أيضا أن تكون بالفعل و بالحقيقة . يلزم أن يضاف زيادة على هذا أنه ليس كذلك أن الهواء يظهر أنه يأتى من المـاء كما لو أنه كان يخرج من جسم يبقى دائمـا على ما كان عليه .

يحسن حينئـذ افتراض أن المـادة هى غير قابلة للانفصال فى جميع الأجسام وهى واحدة ومتماثلة عدديا ولو أنها ليست واحدة ولا متماثلة فى نظر العقل .

§ ٦ — و بالأسـباب عينها لا ينبغى افتراض أن مادة الجسم ليست الا نقطـا أو خطوطا لأن المـادة هى بالضبط ما تكون النقط والخطوط نهايات لها . فهى لا يمكنها أبدا أن تقوم بدون خاصية ما ولا بدون صورة . وعلى ذلك حينئذ فإن شيئا يأتى دائما من شىء آخر مطلقا كما سبق بيانه فى غير هذا الموضع . وهو يأتى من شىء موجود بالفعل و بالكمال إما من جنسه أو من صورته . مثال ذلك النار هى تكون بالنار والرجل هو يكون بالرجل أعنى بحقيقة، بكمال، لأن الصلب لا يمكن أن يأتى من مجرّد كيف الصلب . والمـادة هى المادة لجوهر جسمانى أعنى مادة جسم خاص معين ما دام الجسم لا يمكن أبدا أن يكون شيئا مشتركا . وهى هى ذاتهـا سواء فى العظم

متناهية» كعبارة النص . — بالفعل و بالحقيقة — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — أن الهواء يظهر أنه يأتى من المـاء — يعنى أنه يوجد تغير فعلى يصير المـاء هواء وأن الهواء لا يخرج تمـاما من المـاء . — أن المـادة — أى مادة النمو . — فى جميع الاجسام — ربمـا يكون الأحسن قصر الفكرة والقول «فى الجسمين المذكورين» . — عدديا ...... فى نظر العقل — هذه من التمايز التى اعتادها أرسطو .

§ ٦ — ليست الا نقطا أو خطوطا — وهذا ما يؤول به الى ألّا يكون له حقيقة فعلية أكثر من حقيقة الموجودات الرياضية . — نهايات — لأن النقط نهايات للخط والخطوط نهايات للسطوح . — بدون خاصية ما — تصيره مدركا بحواسنا وتجعل منه جسما حقيقيا . — ولا بدون صورة — أسهل للإدراك من مجرد خاصية . — شيئا — أو « كائنا » . — كما سبق بيانه فى غير هذا الموضع — يحيل فيلو پون على الكتاب الأوّل من الطبيعة حيث درس هذا الموضوع كما يقول . وفى الحق أنه يوجد فى الطبيعة ك ١ ب ٨ ف ٩ ص ٤٧٨ من ترجمتنا مناقشة مشابهة لهذه . — بالفعل و بالكمال — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — من صورته — أو "من نوعه" . — من مجرّد كيف الصلب — ليس النص هكذا صريحا . فان الصلابة تختص بجسم حقيق ولا يمكنها بذاتها أن تنتج شيئا . — مشـتركا — كالمثل التى قال بها أفلاطون فانها مشتركة

أو فى كيف العظم قابلة للانفصال فى نظر العقل ولكن غير قابلة للانفصال فى الأين إلا أن يفترض أن الخواص يمكنها أن تنفصل عن الأجسام الحائزة لها .

§ ٧ – بيّن حينئذ على حسب هذه المناقشة أن النمو فى الأشياء ليس تغيرا يأتى من عظم بالقوة المحضة دون أن يكون له امتداد ما بالفعل وبالكمال لأن الكيف المشترك حينئذ يكون قابلا للانفصال . وقد سبق فيما تقدّم فى غير هذا الموضع أن هذا كان شيئا محالا . وفوق ذلك فان تغيرا من هذا القبيل ينطبق على الخصوص لا على النمو بل على الكون . لأن النمو ليس إلا ازديادا فى عظم موجود من قبل كما أن الذبول ليس إلا انتقاصا له . فانظر لماذا يلزم أن يكون أوّلا للجسم الذى ينمو عظم ما . وبالنتيجة لا يمكن أن النمو الذى يمرّ الى واقعية العِظَم يأتى من مادة مجرّدة من كل عظم لأن هذا أولى به أن يكون كونا لا أن يكون نموّا حقا .

§ ٨ — فالأفضل حينئذ أن نأخذ بهذا البحث من جديد كما لو كنا فى البداية تماما وأن نبحث ثانيا عما يمكن أن تكون هى أسباب نمو الأشياء ونقصها بعد

بين جميع الكائنات التى تشترك فيها . — إلا أن يفترض — كما يزعم أرسطو أن أفلاطون افترضه فى نظريته فى المثل . — الخواص — أو الكيوف .

§ ٧ – من عظم بالقوة المحضة — ر . ما سبق فى آخر الفقرة الثانية . – الكيف المشترك — لاحظ فيلوپون أنه يوجد هاهنا رواية أخرى وأن فى بعض النسخ الخطية تحريفا فى حرف واحد به يكون اللفظ دالا على " الخلو" بدل " الكيف المشترك " . وقد حاول فيلوپون أن يبرر استقامة التعبيرين جميعا . ولكن التعبير الذى اتخذته يظهر لى أنه الأفضل . و "الكيف المشترك" هاهنا يجب أن يصرف الى المثل . والتعبير الثانى يمكن أن يستند الى آخر الفقرة الآتية . — فى غير هذا الموضع — على رأى فيلوپون فى الكتاب الرابع من الطبيعة . ولكن لم أجد فى ذلك الكتاب الرابع هذا المعنى . بل يوجد فى الكتاب الأوّل منها شىء من هذا القبيل ر . ب ٥ ف ١٢ ص ٤٦٠ من ترجمتنا . — تغيرا من هذا القبيل — يعنى يمرّ من القوّة الى الفعل ، من الامكان المحض الى الوجود الحقيق . وفى الحق أن هذا يكون كونا لا نموّا . فإن الشىء يولد لا أنه ينمو . — أوّلا — أضفت هذه الكلمة لتكميل الفكرة . — واقعية العظم — يعنى الذى يدفع عظم الشىء الى أبعد ما يمكن أن يبلغه فى النظام الطبيعى للأشياء . — أولى به أن يكون كونا — تكرير لما قيل آنفا .

§ ٨ — فالأفضل حينئذ — يظهر أن المناقشة كانت إلى الآن من الجد بحيث لا محل لإعادتها بل يكفى الاستمرار فيها . — بعد أن أثبتنا ماذا يعنى — النص ليس على هذا القدر من الصراحة ولكن الترجمة

أن اثبتنا ماذا يعنى بنما أو نقص . فى شيء ينمو يظهر إذاً أن جميع الأجزاء بلا استثناء تنمو. كما أنه فى النقص جميع أجزاء الشيء يظهر أنها تصير أكثر فأكثر صغيرة . وفوق ذلك فان النمو يظهر أنه يحصل بأن شيئا ينضم الى الجسم والاضمحلال بأن شيئا يخرج منه . ولكن النمو لا يمكن أن يحصل بالضرورة إلا بشيء ما لا جسمانى أو جسمانى فاذا كان باللاجسمانى فالجزء المشترك يكون قابلا للانفصال ومن المحال أن توجد مادة منفصلة عن كل عظم كما قيل آنفا . واذا كان بشيء ما جسمانى حصل النمو فينتج عنه أن هناك جسمين فى حيز واحد بعينه أى حيز الذى ينمو وحيز الذى يفعل النمو وذلك هو أيضا محال . § ٩ — بل لا يمكن أن يقال إن نمو الأشياء ونقصها يمكن حصولها بالطريقة عينها التى بها يأتى الهواء من الماء مثلا ما دامت حينئذ كتلة الهواء قد صارت أعظم مقدارا . إذاً ليس فى هذا مجرد نمو للماء بل هذا هو كون لجسم جديد فيه تغير الجسم الأوّل وهذا هو فساد لضدّه . وليس ذلك نموا لا لأحدهما ولا للاخر . ولكن إما أن ليس هذا نموا لشيء و إما أنه نمو لهذا

التى أعطيها تستند الى شرح فيلو پون . — يظهر إذاً — سبك العبارة يؤيد تفسير المفسر الاغريقى للفقرة السابقة . — الجزء المشترك — ر . ما سبق فى الفقرة السابعة وما سيلى فى الفقرة التاسعة . فان الجزء المشترك لا يمكن هاهنا أن يدل إلا على الهيولى مجرّدة عن كل صورة ومشتركة بالنتيجة لجميع الأجسام . وهذا تجريد محض . وفى هذا الموضع أيضا يوجد فى بعض النسخ الخطية تحريف فى حرف واحد فيقرأ "الخلو" بدلا من "الجزء المشترك" وقد عولت على هذه العبارة الأخيرة كما سبق . ويحاول فيلو پون أن يؤول العبارتين كلتيهما مع أن الأصل الذى تحت نظره يظهر أنه يوجد فيها لفظ "الخلو" لا "الجزء المشترك" . — كما قيل آنفا — فى الفقرة السابقة . وهذا التفصيل يظهر أنه يؤيد التعبير الذى اخترته . — جسمين فى حيز واحد بعينه — مبدأ قرره أرسطو مرارا فى الطبيعة . وقد احتفظ به علم الطبيعة الجديد فى نظرية عدم قبول الأجسام للداخلة .

§ ٩ — التى بها يأتى الهواء من الماء — يعنى متى أخذ الماء لأى سبب ما أن يتبخر ويتغير الى هواء . ر . الميتورولوجيا ك ١ ب ٩ ف ٢ ص ٥٥ من ترجمتنا . — كتلة الهواء — المشاهدة مضبوطة ولكن لا يظهر لى أن القدماء كان عندهم طريقة ما لتحقيقها . — لجسم جديد — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — لضده — لأن الماء مفروض ضدا للهواء . — لهذا الذى هو مشترك — هذا يؤيد

الذى هو مشترك بين الشيئين الذى كان والذى فسد على السواء . وهذا الجزء المشترك هو جسم أيضا . فلا الماء ولا الهواء نما وفقط أحدهما باد وانعدم فى حين أن الآخر كان و يلزم أن يكون هناك جسم ما دام أنه وجد نمو .

§ ١٠ — ولكن هناك أيضا محال جديد لأنه يلزم عقلا حفظ الشروط الضرورية التى بدونها لا يمكن ادراك الجسم الذى ينمو أو الذى ينقص وهى ثلاثة أحدها هو أن كل جزء ما يصير أكبر فى عظم ينمو، مثلا اذا كان من اللحم فان جزءا ما من اللحم ينمو. والشرط الثانى هو أن النمو يحصل بانضمام ما إلى الجسم . وثالثا وأخيرا يلزم أن الشىء ينمو وأن يبقى معا . وفى الواقع حينما شىء يكون أو يبيد مطلقا فهو لا يبقى البتة . ولكن حين يعانى استحالة أو نموا أو نقصا فان هذا الشىء مع أنه ينمو أو يستحيل يمكث ويبقى هو بعينه . فهاهنا إنما هو كيف الشىء وحده هو الذى لا يبقى بعدُ هو هو . وهناك انما هو العِظم نفسه الذى لا يبقى هو بعينه . وحينئذ اذا كان النمو هو بحق ما قد زُعم فان الشىء النامى يمكن إذًا أن ينمو بدون أن شيئا يأتى وينضم اليه وبدون أن هذا الشىء يبقى كما أنه قد يمكن أن يفنى بدون أن شيئا يخرج منه وبدون أن الشىء النامى يبقى . ولكن يلزم مطلقا حفظ هذه الشروط ما دام أنه افترض أن النمو هو فى الواقع كما قد ذكر .

ترجمتنا لجزء المشترك فى الفقرتين ٧ و ٨ . — هذا الجزء المشترك — زدت قليلا على عبارة النص إيضاحا لها . — فلا الماء ... ... نما — لأنه فى الواقع قد باد لينقلب الى هواء .

— يلزم أن يكون هناك جسم — وهو إذا "الجزء المشترك" أى الهيولى التى ليست مع ذلك جسما فعليا .

§ ١٠ — محال جديد — أضفت هذه الكلمة الأخيرة ما دام أنه قد نُبّه آنفا إلى محالات أخرى .

— عقلا — عبارة النص بالضبط هى : "بالعقل فى نظر العقل" . — الشروط الضرورية — عبارة النص ليست بهذا الضبط تماما . — الجسم الذى ينمو — عبارة النص أدخل فى باب عدم التعيين لأنه يقول : "هذا الذى ينمو" . — وهى ثلاثة — وهذه الثلاثة الشروط هى حقيقية جدا ولا يكاد يمكن اليوم أن يقال أحسن من هذا . — وأن يبقى — يعنى أن يبقى هو ما هو كما كان من قبل إلا من حيث امتداداته فانها تكبر أو تصغر . — يكون أو يبيد — تلك هى حركة الكون والفساد أعنى المرور من اللاوجود إلى الوجود أو من الوجود الى اللاوجود . — يمكث و يبقى — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — حفظ هذه الشروط — التكرير ليس فى النص على هذا القدر من التمام .

§ ١١ — وقد يمكن أيضا أن يسأل ما هو بالضبط هـذا الذى ينمو ؟ هل هو الجسم الذى إليه يأتى وينضم شىء ؟ مثلا متى فعل سبب بعينه نمو الفخذ فى جسم إنسان فهل الفخذ نفسـه هو الذى يصير أسمن ؟ ولمـاذا هذا الذى يسمن الفخذ أعنى الغذاء لا ينموهو أيضا؟ وفى الواقع لمـاذا أن الاثنين لا ينموان معا؟ لأن هذا الذى ينمو وهـذا الذى ينمى يكونان أعظم كما هى الحال عند مزج المـاء والنبيذ فان كمية كليهما تصير أعظم على السواء . أليس يمكن أن يقال إن هذا يرجع إلى أن الجوهر فى حالة يمكث ويبقى فى حين أنه فى الحالة الأخرى الجوهر، وهو هاهنا، جوهر الغذاء يبيد ؟ وهاهنا أيضا إنما العنصر الغالب هو الذى يعطى اسمه للمزيج كما هى الحال حين يقال على المزيج إنه من النبيذ لأن المزيج كله يفعل فعل النبيذ لا فعل المـاء .

§ ١٢ — والأمر كذلك أيضا بالنسبة للاستحالة فاذا، مثلا، بقى اللحم ومكث دائما ما هو وإذا طرأ على اللحم كيف أصلى لم يكن من قبل فاللحم حينئذ بالبساطة قد استحال ولكن أحيانا هـذا الذى يحيل الشىء إما أنه لا يعانى شيئا هو نفسـه فى جوهره

---

§ ١١ — ما هو بالضبط هذا الذى ينمو — يظهر هاهنا أنه لا محل للشك وأنه هو الجسم عينه الذى ينمو بتمثله هذا الذى يأتى وينضم اليه . — فى جسم انسان — أضفت هذه الكلمات . — لا ينمو هو أيضا — قد يمكن ألا يعطى هذا الجزء من القضية صورة الاستفهام فيقال : "فى حين أن هذا الذى يسمن الفخذ لا ينمو" . — يكونان أعظم — العبارة مبهمة لأن المزيج بن الاثنين هو فى الحق أكبر من كليهما على حدة . ولكن كليهما على حدة لم يكبر الا أن يكون المقصود هو ذلك المعنى الملتوى فى المثال الآتى . — كمية كليهما — هذا ليس صحيحا فان كمية النبيذ وكمية المـاء تبقيان كما كانتا . ولكن مزيجهما وحده هو الأعظم فاذا قيل إنه يوجد من المـاء أكثر أو من النبيذ أكثر فليس ذلك الا تجاوزا فى اللفظ . — العنصر الغالب هو الذى يعطى اسمه للمزيج — وهذا أيضا ليس من الصحة بمكان اذ لا يقال للمزيج إنه من المـاء أو من النبيذ بل يقال إنه ماء مخمر .

§ ١٢ — والأمر كذلك أيضا بالنسبة للاستحالة — يعنى أن فى ظاهرة الاستحالة توجد أيضا الشروط بعينها كما فى ظاهرة النمو . — بالبساطة قد استحال — هذا هو المعنى الحق للاستحالة . فان الكيف وحده قد تغير ولكن الجسم بقى هو بعينه . — فى جوهره الخاص الذى لم يستحل — هذه الجملة لا توجد فى بعض النسخ الخطية . وليست أيضا فى شرح فيلوبون . ولكن يظهر لى أنه يمكن قبول المعنى الذى أعطيه فى ترجمتى

الخاص الذى لم يستحل وإما أحيانا أنه يستحيل هو أيضا . ولكن هذا الذى يحيل شأنه كشأن مبدأ الحركة هو فى الشىء النامى وفى الشىء المستحيل لأنه فيهما يوجد المبدأ المحرك . وقد يمكن أيضا أن هذا الذى يدخل فى الجسم يصير فيه أعظم كالجسم الذى يقبله ويستفيد منه سواء بسواء مثلا إذا كان العنصر الذى يدخل يصير فيه هواءً . ولكنه وهو يعانى هذا التغير يفسد والمبدأ المحرك لا يكون فيه بعدُ .

§ ١٣ — بعد أن بلغنا الكفاية من بسط هذه الصعوبات يلزم محاولة استكشاف حل هذه النظرية مع التسليم بالشروط الآتية دائما :

أن النمو ليس ممكنا إلا بأن يمكث الجسم النامى ويبقى وأنه لا شىء يمكنه أن ينمو بدون أن شيئا ينضم اليه ولا أن ينقص بدون أن شيئا يخرج منه . وأنه فوق ذلك كل نقطة محسوسة حيثما اتفق من الجسم النامى أو الناقص تصير أكبر

هذه . — هذا الذى يحيل — أو بعبارة أخرى أكثر ضبطا "علة الاستحالة" . — شأنه كشأن مبدأ الحركة — الذى يفعل أن الشىء ينمو ويذبل . — فى الشىء النامى وفى الشىء المستحيل — هذا تطابق أيضا بين النمو وبين الاستحالة . — المبدأ المحرك — هنا للحركة وهناك للاستحالة . ولم يقبل الشراح الإغريق هذه النظرية بتمامها فعلى رأى فيلوبون أن الإسكندر الأفروديزى كان ينازع فى أن مبدأ الاستحالة والنمو موجود دائما فى الجسم الذى يستحيل أو الذى ينمو . وهذا المبدأ هو غالبا فى الجسم الغريب الذى يجلب للآخر النمو أو الاستحالة . — يصير فيه هواء — هذا موجز أكثر مما يلزم ولا يزال غامضا . وكان يلزم أن يزاد عليه أن الماء بصيرورته هواء مثلا يتمدد وما دام أنه صار أعظم فقد انقطع عما كان هو ما هو من قبل . — وهو يعانى هذا التغير — ليكون المعنى أبين من ذلك كان يلزم ايراد مثال خاص ما كان ليترك أقل شك . — والمبدأ المحرك لا يكون فيه بعد — فانه فى ذلك الجسم الذى يسبب التغير الذى يعانيه .

§ ١٣ — بعد أن بلغنا الكفاية من بسط هذه الصعوبات — يرى فيلوبون أن أرسطو لم يبسط إلى الآن إلا الآراء العامية فى علل النمو والذبول وأنه يشرع منذ الآن فى بسط مذهبه الخاص . — استكشاف حل هذه النظرية — على ما يفهمها أرسطو . — بالشروط الآتية — ليست عبارة النص على هذا المقدار من الصراحة . ومع ذلك فان هذه الشروط قد سبق عدها آنفا ف ١٠ . — محسوسة — يعنى مادية . وقد ألح فيلوبون فى أهمية هذه الكلمة التى بدونها على رأيه لا يستقيم المعنى . — أن الجسم ليس خلوا — لا يظهر أن ههنا روايات أخرى كما كان فيما سبق فى الفقرة السابعة . — أن جسمين لا يمكن البتة أن يشغلا

أو أصغر . وأن الجسم ليس خلوا وأن جسمين لا يمكن البتة أن يشغلا حيزا واحدا بعينه . وأخيرا أن الجسم الذى يحصل فيه النمو لا يمكنه أن ينمو باللاجسمانى .

§ ١٤ — وسنصل الى الحل المطلوب بقبولنا بادئ بدء أن الأجسام ذوات الأجزاء غير المتشابهة يمكن أن تنمو لأنه إنما هى الأجسام ذوات الأجزاء المتشابهة هى التى تنمو لأن الأولى ليست إلا مركبة من الثانية . ويلزم بعد هذا التنبيه إلى أنه متى ذكر اللحم والعظم وأى جزء آخر مشابه لها من الأجسام فذلك يمكن أن يؤخذ بمعنى مزدوج كما هى الحال بالنسبة لجميع الأشياء الأخرى التى لها نوعها ولها صورتها فى المادة، لأن المادة والصورة هما مسميان على السواء لحما وعظما . فالقول بأن كل جزء كيفما اتفق من جسم ينمو وبأن عنصرا جديدا يأتى وينضم إليه فذلك بيان ممكن باعتبار الصورة ولكنه ليس كذلك باعتبار المادة . ويجب أن يرى أن الحال هاهنا كالحال حينما يقاس الماء بمقياس يبقى هو بعينه

حيزا واحدا بعينه — ذلك ما نسميه الآن عدم مداخلة الأجسام . — باللاجسمانى — قد حافظت على عموم اللفظ الاغريق وهو مفهوم .

§ ١٤ — الأجسام ذوات الأجزاء غير المتشابهة — يمثل لها الشراح الاغريق بالوجه واليد... الخ. التى تنمو بنمو اللحم والدم والعظم التى هى أجسام متشابهة الأجزاء لا أنها تنمو بأن وجها أو يدا تأتى فتنضم إليها ر. ما يلى ف ١٥ . — لأن الأولى ليست إلا مركبة من الثانية — معلوم أن هذا هو مذهب أنكساغوراس فى "متشابهات الأجزاء" ويمكن الاطلاع أيضا على أول "تاريخ الحيوانات" . فان الأجسام المتجانسة الأجزاء هى التى فيها الأجزاء دائما هى بعينها والتى هى مشابهة للكل . على ذلك جزيئة من الدم هى دائما دم . وجزء من العظم هو عظم دائما . ولكن جزء اليد ليس يدا وجزء الوجه ليس وجها . لذلك ترى لماذا أن هذه الأجسام مكونة من اجزاء غير متجانسة . — بمعنى مزدوج — سيوضح فيما بعد فانه يمكن أن يعنى بها على السواء أن المادة هى التى تنمو أو أنها الصورة فقط . — نوعها وصورتها — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — المادة والصورة هما مسميان على السواء — يظهر أن المادة أولى بهذه التسمية من الصورة . — باعتبار الصورة — فى الحق أن الصورة النوعية تبقى ولكن يلزم أيضا أن المادة تنمو . — باعتبار المادة — هذا يظهر عليه أثر الدقة اكثر من أثر الصحة . — بمقياس يبقى هو بعينه — فان الماء الذى يمر على التعاقب من هذا المقياس يمكن أن يختلف ولكن صورة

فان المـاء الذى يجىء بعدُ هو آخر ودائمـا آخر . كذلك بهذه المثابة تنمو مادّة اللحم ولا يوجد ضم الى كل جزء كيفما اتفق . ولكن الجزء الفلانى يسـيل والجزء الفلانى ينضم . فليس يوجد ضم ولا يحصــل الضم إلا إلى كل جزء كيفما اتفق من الشكل ومن النوع .

§ ١٥ — ولكن بالنسبة للأجسام المركبة من أجزاء غير متشابهة مثلا بالنسبة لليد فمن الأشدّ وضوحا أن كلها ينمو بحالة متناسبة لأنه فى هذه الحالة مادامت مادّة النوع مختلفـة فهى أسهل تميزا عما يكون بالنسـبة للحم و بالنسبة للأجسام ذوات الأجزاء المتشابهة . من أجل ذلك حتى على ميت يظهر أنه لا يزال يعرف اللحم والعظم بأكثر سهولة من أن يمـيز فيه اليد والذراع وحينئذ فمن وجه يمكن أن يقـال إن كل جزء كيفما اتفق من اللحم ينمو ومن وجه آخر لا يمكن أن يقال إن كل جزء ينمو . فبحسب الصورة قد انضم شىء ما لكل جزء كيفما اتفق ولكن لا بحسب المـادة . ومع ذلك

المقياس لا تختلف وهذا حق ولكن المثل لم يجود حسن اختياره لأن المقياس لا يمكن أن ينمو والقول وارد بصدد إيضاح النمو . — المـاء الذى يجىء — عبـارة النص « الذى يجىء » فقط . فأردت تحرير الفكرة برفع بعض الشىء من عموم العبارة . — تنمو مادّة اللحم — يظهر أن هـــذا ناقض ما أثبت سابقا وهو أن النمو لا يقع الا باعتبار الصورة لا باعتبار المـادة . — لا يوجد ضم الى كل جزء كيفما اتفق — على رغم ما يعتقد العامة . — الجزء الفلانى يسيل — والواقع أن الأجسام الحية هى فى سيلان دائم لجزئيات التى تفقد منها وللعناصر الجديدة التى تقبلها بلا انقطاع . — الا الى كل جزء كيفما اتفق من الشكل — وضعت لفظ «شكل» لا لفظ «صورة» لأن تعبير النص مختلف أيضا .

§ ١٥ — المركبة من أجزاء غير متشابهة — المثل المعطى فى النص كاف فى البيان . فان اليد لا تتركب من أيد كما يتركب الدم من الجزيئات الدموية . — بحالة متناسبة — هذا ليس من الضبط على الغاية . — مادّة النوع — أو مادّة « الصورة » . مادّة اليـد متضاعفة التركيب . جلد وأوتار ودم وعظم وأربطة وعضلات الخ . — فهى أسهل تميزا — ليس النص على هـــذا القدر من الصراحة . — اليد والذراع — (ر . عبارة مشابهة لهـذه فى كتاب النفس ك ٢ ب ١ ف ٩ ص ١٧٦ من ترجمتنا) لأن اليد والذراع همـا عضوا فعل فتى تعطلا عن العمـــل فكأنهما غير موجودين . — ولكن لا بحسب المـادة — بنفس السبب الذى ذكر فيما سبق فى آخر الفقرة ١٤ . — الكل — مركب معا من صـورة ومادة . — الضد — هــذا التعبير ليس واضحا جدا . والأولى أن تنمو الأجسام

فان الكل صار أعظم لأن شيئا جاء وانضم اليه . وهذا الشئ يسمى الغذاء ويسمى أيضا الضد . ولكن هذا الشيء لا يزيد على أن يتغير فى النوع بعينه كمثل ما يأتى الرطب ينضم إلى اليابس و بانضمامه إليه يتغير بأن يصير هو نفسه يابسا . وفى الواقع يمكن معا أن الشبيه يمو بالشبيه وبجهة أخرى أن يكون ذلك باللاشبيه .

§ ١٦ — وقد يمكن أيضا أن يتساءل عما هو بالضبط ذلك الشيء الذى يحدث النمو . واضح أن هذا العنصر الجديد يجب أن يكون الجسم بالقوة . مثلا إذا كان اللحم هو الذى يُنمى يجب أن يكون لحما بالقوة مع أنه بالفعل و بالكمال شيء آخر . وهذا الشيء الآخر وجب أن يفسد ليصير لحما . على ذلك حينئذ ليس هو فى ذاته ما يصير إليه . لأنه إذًا يحصل كون لا مجرد نمو . ولكن الشيء الذى ينمو هو بالضبط فى ذلك الشيء فماذا لقى الجسم بهذا العنصر الجديد حتى إنه نما هكذا ؟ أَأَتى اختلاطا كما يصب الماء فى النبيذ بحيث إن المزيج كله يمكن أن يبقى نبيذا؟ أَم

بالمشابه كما سيجيء . — يأتى الرطب ينضم الى اليابس — مثال ذلك أن يسقط الماء على سطح جاف ويتبخر عليه . — أن الشبيه ينمو بالشبيه — تكاد هذه أن تكون قاعدة فى الفلسفة القديمة . ولكن هذا العموم مبهم قليلا . ومع أن الأجسام فى الحق تنمو بتمثل العناصر الجديدة فان هذا الإيضاح ليس كافيا لتصير ظاهرة النمو المعقدة .

§ ١٦ — الشيء — تعبير النص هو أيضا أقل تعيينا من ذلك . وان ماينمى الجسم يجب أن يكون له صفة خاصة بها يمكن أن يتمثل فى الجسم وينقلب الى جوهره . — هذا العنصر الجديد — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — الجسم بالقوة — يعنى بعبارة أخرى أنه يمكن أن يصير الجسم بتمثله فيه . — اذا كان اللحم هو الذى ينمى — كالأغذية التى نأخذها فتتحول الى دم ولحم لتقويم حياتنا وإنماء جسمنا . — بالفعل وبالكمال — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — أن يفسد — أو « يفنى » . كذلك الخبز الذى نطعمه هو بالقوة دم ولحم . ولكنه فى حقيقته الخاصة لم يكن بعد احدهما ولا الآخر . — يحصل كون — أو « تولد » . — فى ذلك الشيء — هذه هى عبارة الأصل بنصها ويظهر أن فيها مبالغة لأنه لايمكن أن يقال إن اللحم هو فى الخبز ولو أن الخبز بعملية الهضم يتغير جوهريا و يصير دما . ومع ذلك زدت كلمة « بالضبط » . — بهذا العنصر الجديد — عبارة النص ليست على هذا القدر من الصراحة . — أأتى اختلاطا — اضطررت هنا إلى أن أزيد النص بيانا . — يمكن أن يبقى نبيذا — ذلك ممكن فى الواقع

كما أن النار تحرق متى تلامس شيئا قابلا للاحتراق ، كذلك الأمر فى الجسم الذى ينمو والذى هو لحم بالفعل و بالكمال ، الجوهر الباطن الذى له قوة الإنماء هل يفعل لحما حقيقيا بالفعل و بالكمال من اللحم بالقوة الذى اقترب منه ؟ يلزم إذا أن يكون هـذا العنصر الجديد مع الآخر ومقترنا به فى الوجود لأنه لو كان منعزلا لحصل كون حقيقى . وعلى هـذا النحو يمكن إيجاد نار من النار الموجودة من قبل بإلقاء الخشب فوقها . وهذا بهذه الطريقة ليس إلا نموا فى حين أنه متى كان الخشب نفسه يحترق فهاهنا كون حقيقى .

§ ١٧ — لكن الكم مأخوذا على معناه الكلى لا يكون هاهنا إلا كما قـد يمكن أن يكون الحيوان الذى لاهو إنسان ولا أى حيوان خاص . و بالفعل الحال هاهنا

اذا كانت كمية الماء المصبوب قليـلة بحيث لا تغير طبيعة المزيج تغيرا محسوسا . — أم — كلمة النص « و » . — كما أن النـار تحرق — المقارنة غاية فى الصحة على أكثر ممـا كان يعتقده أرسـطو . إن الفسيولوجيا فى أيامنا هذه قد وجدت فى تمثيل الأغذية نوعا من الاحتراق فان القوى الحيوية هى نوع من النار يحيل الأغذية التى تدخل فى أجسامنا . — بالفعل و بالكمال — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — الجوهر الباطن الذى له قوة الإنمـاء — عبارة النص مبهمة جدا وقد اضـطررت الى زيادة ضبطها فى الترجمة . — بالفعل و بالكمال — هنا أيضا ليس فى النص الا كلمة واحدة . — هذا العنصر الجديد — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — مع الآخر ومقترنا به — قد زدت على الأصل بل فصلت الجملة لأن النص هنا غاية فى الايجاز . ولكنى لا أرى المعنى جليا تماما . فان « المع والاقتران » قد يفهم بحسب المكان بل و بحسب الجوهر وعلى هذا المعنى الأخير يكون مجرّد تمثل — كون حقيق — أضفت هـذه الكلمة الأخيرة . — من النار الموجودة من قبل . — ليس النص على هذا القدر من التوسع . — متى كان الخشب نفسه يحترق — ليس التعبير واضحا قدر الكفاية لأن الخشب لا يحترق بنفسه بل يلزم دائما تقريبه من النـار . — فهاهنا كون حقيق — زدت أيضا هذه الكلمة الأخيرة . فان هذا الكون انما هو كون ظاهرة جديدة .

§ ١٧ — مأخوذا على معناه الكلى — عبارة النص أقل تعيينا . ومن الصعب جدا تحصيل ذلك الفرق الدقيق و يمكن ترجمته أيضا هكذا : "ولكن ليس الكلى هو الذى يصـير هنا كمية ما" . — الحيوان — على طريق العموم لا الخصوص . فان الحيوان بوصف أنه مفهوم كلى لا يوجد ولكن

بالنسبة إلى الكم كالحال هنالك بالنسبة إلى الكلى . فحينئذ اللحم والعظم أو اليد أو الأعصاب والأجزاء المتشابهة من هذه الأعضاء تنمو لأن كمية ما من مادة تأتى فتنضم إليها بلا شك ولكن بدون أن تكون هذه المادة كمية مقدرة من لحم . فمن جهة أن العنصر الجديد هو الواحد والآخر بالقوة ومثلا كمية معينة من لحم بهذا المعنى فهذا العنصر على هذا الوجه ينمى الجسم لأنه يلزم أن يصير من اللحم ، ومن اللحم بكمية معينة . ولكن فقط من جهة أن العنصر المضاف هو من اللحم أنه يمكنه تغذية الجسم . وبذلك كان الغذاء والنمو يختلفان أحدهما عن الآخر عقلا . من أجل ذلك أيضا الجسم هو مغذى كل الزمن الذى يعيشه و يمكثه بل الزمنَ الذى يفناه ولكنه لا ينمو بلا انقطاع . فى الحق أن التغذية هى مماثلة للنمو وتشتبه به ولكن كونهما مختلف . على ذلك حينئذ بما أن العنصر الذى يأتى فينضم هو بالقوة فكمية ما من اللحم يمكنها أن تنمى اللحم . ولكن فقط من جهة أنه لحم بالقوة يمكنه أن يكون غذاء. § ١٨ — وهذه

الذى يوجد هو هذا الحيوان الفلانى الخاص أو ذاك الذى فيه يتحقق المعنى الكلى للحيوان. — إلى الكم — بالمعنى الكلى . — إلى الكلى — يعنى "المثال". فان الكم مفهوما على المعنى الكلى لا يوجد الا كما يوجد الحيوان بالمعنى المجرد . — الأجزاء المتشابهة — أى الأجزاء العنصرية التى لا تفترق بعضها عن بعض والتى هى جميعا متشابهة . — كمية ما من مادة — كل هذه التمايز يمكن أن تظهر دقيقة بل غاية فى الدقة ولكنها صحيحة والظواهر نفسها من الدقة بحيث يلزم ألا يدهش من صعوبة وصفها وتقريرها . — كمية مقدرة — أضفت هذه الكلمة الأخيرة لبيان الفكرة . و بتطبيق هذا على الأغذية التى نغتذى بها نجد فى الحق أن الخبز هو كمية تأتى فتضاف الى لحمنا . ولكن فى الحق أيضا أنه لم يكن بعد من اللحم تماما . — العنصر الجديد — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — الواحد والآخر بالقوة — يعنى ، أخذا بشرح فيلوبون ، من اللحم بالقوة بطريقة عامة وأيضا كمية ما من اللحم بالقوة أيضا . أو بعبارة أخرى يلزم أن العنصر الجديد يمكن أن يصير معا لحما وكمية ما من اللحم بانضمامها الى الجسم يمكنها أن تعطيه النمو الذى يأخذه . — العنصر المضاف — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — يمكنه تغذية الجسم — عبارة النص هى "أنه يغذى" . — عقلا — أو ربما "بحديهما" . — الذى يفناه — ويمكن ترجمته أيضا هكذا : "بل إلى أن يفسد". — فى الحق — أضفت هاتين الكلمتين . — ولكن كونهما مختلف — تمييز معروف وغالب الاستعمال فى مذهب أرسطو . — على ذلك حينئذ — تلخيص للنظرية السابقة التى يظهر أنها دقيقة جدا وصحيحة جدا معا .

الصورة أو هذا النوع بلا مادة هو فى المـادة كقوّة لا مادية . ولكن إذا تجىء فتنضم الى الجسم مادة ما هى لامادية بالقوّة مع أن لها أيضا بالقوّة الكم ... ، فهذه الأجسام اللامادية ستكون إذا أعظم . ولكن إذا كانت هذه المـادة المضافة تصل إلى حد ألا تستطيع أن تكوّن شيئا وإذا كان المـاء كذلك بامتزاجه أكثر فأكثر بالنبيذ يصـل إلى أن يصيّره أكثر فأكثر مائيا وإلى أن يحيله أخيرا تماما إلى ماء فحينئذ يمكنه أن يجر الى فساد الكمية ولكن الصورة والنوع يبقيان كما كانا .

---

§ ١٨ — هذه الفقرة كلها غامضة جد الغموض . ومن المحتمل أن النص فيها محرف فيما يظهر . على أنه وارد فى النسخة التى شرحها فيلوپون فيما يظهر على ما هى عندنا اليوم وأنه لم يجد فيها صعوبة ما غير أن شرحه لم يأتنا ببيان خاص يجلو غوامضها . — بلا مادة ... فى المـادة ... لا مادية — كل هذه التكارير موجودة فى الأصل . — الكم ... — هذه النقط التى وضعتها هنا تقليدا لبعض الناشرين من شأنها أن تدل على احتمال وجود بياض فى الأصل ولكن الواقع أنه ليس لدينا الا مجرد ظن لم يقم عليه دليل ما . — فهذه الأجسام اللامادية — فى النص اسم اشارة لجمع مذكر يظهر أنه لا يتعلق بشىء مذكور ويثير فى النفس الظن بوجود النقص الذى اشرت اليـه . وقد افترض مفسرو جامعة كويمبر وجود رواية أخرى تنحصر فى علامة على حرف متحرك . ولكن هـذه الرواية الأخرى لا تكاد تجلو غموض النص . فعلى رأيهم أن القصد هنـا هو التمثيل بالمزمار حيث يمكن تمييز الصـورة زيادة على المـادة كما فى كل آلة أخرى . وهـذا الفرض لا يمزق حجاب الظلام عن هذه الجملة ويجب تركها كما هى مع الاعتراف بأنه لا يمكن تصحيحها . — هـذه المـادة المضافة — عبـارة النص غاية فى عدم التعيين وقد ظننت أن من الواجب أن أكون أكثر تعيينا وضبطا فى الترجمة . — تكوّن شيئا — هاهنا حافظت على عبارة النص فى كل عمومها لأنى خفت أن أحرفها اذا حاولت أن أجعلها أقل عموما . فإن «لا تكوّن شيئا» تفيد من غير شك ان المـادة المضافة لن يمكنهـا أن تمثل فى جوهر الجسم الذى تضاف اليه . — فساد الكمية — يظهر أن الأولى أن يقال «فساد الكيفية» ولكن ليس هنـا رواية اخرى . — الصورة والنوع — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — يبقيان كما كانا — يظهر على ضد ذلك تبعا لنفس المثل الذى أورده المصنف أن الصورة والنوع يفنيان مادام النبيذ ينقلب نهائيا الى ماء باضافة السائل الذى صب فيه .

البـاب السادس

الفعل المتكافئ للعناصر بعضها فى بعض — فى اختلاطها — رأى ديوجين الأپلونى — لأجل إدراك أن العناصر تفعل أو تنفعل بعضها ببعض يلزم توضيح ما يعنى بتماسها — المعانى المختلفة لهذه الكلمة — الفرق بين الحركة والفعل — المحرك غير المتحرك لا حاجة به ضرورة الى مس الشىء الذى يحركه — الشىء المحرَّك يمكن ألا يمس شيئا هو أيضا فى نوبته — آخر نظرية التماس .

---

§ ١ — لما أنه يلزم عند دراسة المادة وبالنتيجة العناصر أن يقال بادئ بدء ما إذا هى تكون أو لا تكون وإذا كان كل واحد منها أزليا أو إذا كانت مخلوقة بأى وجه ما . ومع أنها مخلوقة إذا كان يمكنها كلها أن تتكاون بطريقة واحدة، أو إذا كان أحدها هو أسبق من الآخر فينتج من ذلك أن من الضرورى أن تعين جيدا بادئ الأمر الأشياء التى لم يتكلم عنها حتى هذه الساعة إلا بطريقة جدّ مبهمة وغير كافية جدا .

§ ٢ — وفى الحق كل أولئك الذين يقبلون الخلق للعناصر أنفسها كما يقبلونه بالنسبة للمركبات التى تنتج عنها يقتصرون فى إيضاح كل شىء على الاجتماع والافتراق وعلى الانفعالية وعلى الفعل . ولكن الاجتماع ليس إلا اختلاطا ولم يُحَدّ لنا جليا ما يجب علينا أن نعنى باختلاط الأجسام . ومن جهة أخرى ليس من الممكن كذلك أن تحصل استحالة ولا افتراق أو اجتماع بدون موضوع يفعل وينفعل . لأن أولئك

---

§ ١ — لما أنه يلزم — قد حافظت على أسلوب الجملة فى النص الإغريقى كما هى مع أنها طويلة فى الترجمة فيما يظهر . — اذا كانت مخلوقة — أو "تكون" . — التى لم يتكلم عنها — يحتمل أن يكون المقصود بهذه العبارة فلاسفة من أسلافه وأن أرسطو لم يقصد الكلام عن نظرياته الخاصة . — جد مبهمة وغير كافية جدا — ليس فى النص الا كلمة واحدة .

§ ٢ — يقبلون الخلق — عبارة النص هى "الذين يخلقــون" الذين يولدون، الذين يكونون . — يقتصرون فى ايضاح كل شىء — ليس النص صريحا بهذا القدر . — على الانفعالية — لكيلا أقول "الانفعال" . — ليس الا اختلاطا — ربما لا يكون المعنى محكما . — لم يحدّ لنا جليا — عبارة النص أشد إبهاما قليلا . — بدون موضوع يفعل وينفعل — هذا الموضوع هو ذلك الذى من غير أن ينقطع كونه يمكنه على التعاقب أن يقبل الأضداد كما سيجىء بيانه فى الفقرة الثالثة . -

الذين يقبلون تعدّد العناصر يجعلونها تولد من الفعل والانفعال المتكافئين بين العناصر بعضها والبعض الآخر . § ٣ — ومع ذلك يلزم دائما الوصول الى القول بأن كل فعل يأتى من مبدإ واحد أحد . فانظر كيف أن ديوچين كان عنده الحق إذ يقرّر أنه اذا كانت كل العناصر لم تكن تأتى من واحد فلا يمكنها أن يكون بينها لافعل ولا قابلية للفعل على طريق التكافؤ وأن الحار مثلا قد لا يمكن أن يبرد ولا البارد أن يسخن من جديد . وكان يقول ليست الحرارة ولا البرودة هى التى تتغير إحداها فى الأخرى بل من البيّن بذاته أن الموضوع هو الذى يعانى التغيير . وبالنتيجة كان يستنتج ديوچين أن فى الأجسام التى فيها يمكن وجود فعل وانفعال يلزم بالضرورة أن يكون لها طبيعة واحدة هى موضوع لهاتين الظاهرتين . ولا شك فى أن تقرير أن جميع الأشياء هى فى هذه الحالة قد لايكون تقريرا صحيحا فان هذا لا يلاحظ فى الواقع إلا فى الأجسام التابعة بعضها لبعض .

§ ٤ — لكن إذا أريد استيضاح الفعل والانفعال والاختلاط بجلاء لزم بالضرورة أيضا دراسة ما هو التماسّ بين الأشياء . إن الأشياء لا يمكنها حقيقة

---

§ ٣ — كل فعل — عبارة النص غير محدّدة ولكنى اضطررت كما فعل المصنف الى أن أكرر الكلمة عينها التى استعملت آنفا . — ديوچين — على تقدير "الأپلونى" . — كل العناصر لم تكن تأتى من واحد — عبارة النص تستخدم بالبساطة ضمير جمع فالتزمت زيادة البيان فى الترجمة . — لا فعل ولا قابلية للفعل — يعنى فعل بعضها فى بعض بالتكافؤ هذه تحتمل الفعل التى تفعله تلك . — وكان يقول — أضفت هذه الكلمات لأن أسلوب النص يسمح باضافتها . — الموضوع — يعنى الجسم بعينه الذى يكون بالتناوب باردا أو حارا والذى مع بقائه يمكن أن تتغير حاله وكيفية وجوده . — كان يستنتج ديوچين — أضفت هذه الكلمات للسبب السابق . — موضوع لهاتين الظاهرتين — ليس النص على هذا التوسع . — التابعة بعضها لبعض — بمعنى أنها يمكنها أن يفعل بعضها فى بعض . وربما أمكن ترجمة العبارة هكذا : "فى الأشياء التى يوجد فيها تكافؤ بين بعضها والبعض الآخر" .

§ ٤ — بجلاء — أضفت الكلمة المفهومة بالسهولة من السياق والتى تتم الفكرة . — بين الأشياء — أضفت هاتين الكلمتين .

الفعل والانفعال أحدها بالآخر حين لا يمكنها التماس على التبادل . وإذا لم تكن قد تلامست سابقا بأى وجه ما فلا يمكنهـا أبدا أن تختلط أحدها بالآخر . فيلزم إذاً أولا حدّ هذه الظواهر الثلاث التماسّ والاختلاط والفعل . § ٥ — فلنصدر عن هذا المبدأ : وهو أنه بالنسبة لجميع الأشياء التى فيها الاختلاط يلزم مطلقا أنها يمكنها أن تتلامس بينهـا . وإذا كان الواحد يفعـل والآخر ينفعل بالمعنى الخاص فيلزم أيضا أن يكون هذا التماس ممكنا . هذا هو سببنا فى الكلام بادئ بدء على التماس .

§ ٦ — لكن كما أن أكثر الكلمـات الأخرى هى مأخوذة على عدّة معان تارة بطريق التواطؤ وتارة بالاشتقاق من كلمـات أخرى سابقة عليها كذلك يقع هذا التنوّع فى الاطلاق اللفظى بالنسبة للفظ التمـاس . ومع ذلك فان التمـاس بالمعنى الخاص لا يمكن أن ينطبق إلا على الأشـياء التى لهـا وضع ولا وضع إلا للأشـياء التى لهـا مكان لأنه يلزم أن يعنى بالتمـاس وبالمكان كما يعنى الرياضيون سواء أكانا أى المكان والتمـاس منفصلين عن الأشياء أم كانا يوجدان بأى وجه ما .

— هذه الظواهر الثلاث — قد يمكن ترجمتها هكذا : ”هذه الكلمات الثلاث“ . فان عبارة النص غير محددة تمـاما .

§ ٥ — بالمعنى الخاص — معنى هذا فى شرح فيلوپون أن المقصود هنا هو التمـاس المـادى المحض وقد يقال إن نميمة تمس الذى وجهت اليه ولكن هذا المساس هو معنوى محض . وليس هذا هو المعنى الذى يقصده أرسطو من المساس أو التمـاس اذ يطبقه على الأشياء . ر . ما سيجىء ف ١٠ . — أن يكون هذا التمـاس ممكنا — عبارة النص بالبساطة هى : ” وبالنسبة لهذه الأشياء يلزم أن يكون الأمر كذلك “ . فآثرت زيادة البيان .

§ ٦ — تارة بطريق التواطؤ — ر . أول المقولات ب ١ ف ١ ص ٥٣ من ترجمتى . — بالاشتقاق — هذا هو ما يسمى بالمشتقة أسمـاؤها . ر . المقولات ب ١ ف ١ ص ٥٤ . — سابقة عليها — يعنى أبسط وأعم . وقد يمكن حمل هذا المعنى على مجرد التقدّم بالزمان . فان أصل الكلمة متقدّم على المشتق الذى يخرج منه . — هذا التنوّع فى الاطلاق اللفظى — ليس الأصل صريحا هكذا . — كما يعنى الرياضيون — كان حق هذا أن يوضح وكان يلزم أن يقال بالضبط كيف يفهم الرياضيون التماس والمكان . — المكان والتمـاس — أضفت هاتين الكلمتـين ليكون البيان أجلى . — أكانا منفصلين عن الأشـياء — يرى فيلوپون أن هذا كان مذهب فيثاغورث الذى اتخذه أفلاطون مذهبا له اذا صدقت الانتقادات التى وجهها

وحينئذ اذا كان كما بيّن سابقا أن تماس هو أن تجتمع النهايات فيمكن أن يقال إن هذه الأشياء تتلامس على التى، وهى ذات أعظام وأوضاع معينة، نهاياتها مجتمعة معـا .

§ ٧ — ولكن لما كان الوضع خاصا بالأشياء التى لهـا أيضا أين وكان الفصل الأوّل للأين هو الفوق والتحت مع المقابلات الأخرى من هذا القبيل، ينتج منه أن جميع الأشياء التى تتلامس يجب أن يكون لها ثقل أو خفة أو هاتان الخاصتان معا أو على الأقل إحدى الاثنتين . وهذه الأشياء من هذا النوع إنمـا هى القابلة للفعل وللانفعال فبيّن إذًا بذاته أنه يجب استنتاج أن تلك الأشياء تتلامس بالطبع وأنهـا بما هى أعظام متفصلة ومتمايزة فنهاياتها واقعة طرفا لطرف و يمكنها أحدها أن يحرِّك والآخر أن يتحرّك على التكافؤ أحدهما بالآخر . ولكن لمـا أن المحرِّك لا يحرِّك بالطريقـة عينها التى بها الشيء المحرَّك يحرِّك فى دوره وأن هـذا الأخير لا يمكن أن يحرِّك إلا بما هو واقع فى الحركة هو نفسه فى حين أن الآخر يمكنه أن يحرِّك مع بقائه

أرسطو الى نظرية المثل . — أم كانا يوجدان بأى وجه ما — مثلا فى الأشياء التى لا تكون منفصلة عنها جوهريا . — كما بين سابقا — ر . الطبيعة ك ٥ ب ٥ ف ٤ و ١٤ ص ٣٠٠ و ٣٠٤ من ترجمتنا . — أن تجتمع النهايات — عبارة النص هى : " معا " وهذه الكلمة تطلق على الاجتماع فى المكان كما تطلق عليه فى الزمان . — نهاياتها مجتمعة معا — الشأن فى هذه الجملة كما هو فى التنبيه السابق .

§ ٧ — الفصل الأوّل — يعنى الفصـل الأظهر والذى يقرع الحواس بادئ الأمر . ر . الطبيعة ك ٣ ب ٧ ف ٢٨ ص ١١٤ من ترجمتنا . — مع المقابلات الأخرى من هذا القبيل — يعنى اليمين واليسار والأمام والخلف الخ . — ينتج منه — هـذه النتيجة ليست حتمية فيما يظهر ولكن فى نظريات أرسطو لمـا أن الحركة الى الفوق تسـتدعى الخفة والحركة الى التحت تسـتدعى الثقل فالجسم لا يمكن أن يكون له مكان الا اذا كان ثقيلا أو خفيفا . — أو هاتان الخاصتان معا — هذا غير مفهوم الا على طريق المقارنة، فان جسما هو ثقيـل بالنسبة لجسم معين وخفيف بالنسبة لآخر . — احدى الاثنتين — على هذا فى نظريات أرسطو أن الأرض ليس لها الا الثقل والنار ليس لهـا الا الخفة . وأما الهواء والماء فلهما فى آن واحد الخفة والثقل تبعا لمقارنتهما بهذين العنصرين الآخرين اللذين هما طرفان . — طرفا لطرف — عبارة النص هى "معا" كما سبق . — أحدها أن يحرك والآخر أن يتحرك — عبارة

هو نفسه غير متحرك فمن البين أنه يمكننا تطبيق هذه التمايز عينها على الجسم الذى يفعل لأنه حتى فى اللغة العامية يقال أيضا على السواء إن الذى يحرك يفعل وإن الذى يفعل يحرك .

§ ٨ — ومع ذلك يوجد هنا فصل ما . فينبغى التميز : ذلك أن كل ما يحرك لا يمكنه دائما أن يفعل كما سنرى بالمقابلة بين ما يفعل وبين ما ينفعل فان جسما لا ينفعل إلا فى الأحوال التى فيها تكون الحركة تأثرا أو شهوة . ولا توجد شهوة إلا فى حالة ما يكون بالجسم مجرد استحالة ، مثلا فى حالة ما يصير حارا أو يصير أبيض . ولكن معنى التحريك له من السعة أكثر مما لمعنى الفعل . وحينئذ من البيّن أن المحرّكات أحيانا يجب أن تلامس الأشياء التى تحرّكها وأحيانا لا تلامسها .

النص على هذا الايجاز وليست أكثر وضوحا . — مع بقائه هو نفسه غير متحرك — . ر . كل نظرية المحرك الأول غير المتحرك فى الطبيعة ك ٨ ب ٧ و ٨ ص ٥٠٧ وما بعدها من ترجمتنا . ر . أيضا مابعد الطبيعة ك ٧ ب ٨ ص ٢٠٣ ترجمة كوزان . — هذه التمايز عينها على الجسم الذى يفعل — ليس النص صريحا بهذا القدر . — وإن الذى يفعل يحرك — هذا الخلط بين الفعل وبين الحركة لا يفهم جد الفهم الا اذا اذكرت أنواع الحركة الثلاثة التى قررها أرسطو وهى النقلة والاستحالة والنمو . وبيّن أنه يوجد فعل فى الثلاثة جميعا . ومع ذلك فان أرسطو فى الفقرة التالية قد عين فرقا بين فعل وبين حرّك .

§ ٨ — التميز — أو أيضا «أن يكون الحد مع التميز» هذا هو معنى التعبير الاغريقى فى قوته . — بالمقابلة — المعنى هاهنا ليس واضحا جدا . وها كه أكثر تفصيلا وبيانا : الفعل والتحريك ليسا حدّين متساويين ومتكافئين فيلزم تمييزهما . ولأجل أن يفهم جيدا الفصل الذى يفصلهما يلزم مقارنة حدّين آخرين : الفعل والانفعال . — كما سنرى ... فان جسما لا ينفعل — عبارة النص غير محدّدة فلزم أن تكون الترجمة أكثر ضبطا . — تأثرا أو شهوة — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — مجرد استحالة — يعنى بدون أن يكون هناك نقلة ولا تغير فى العظم بالزيادة أو بالنقص . — فى حالة ما يصير حارا — النص أقل صراحة . فان الجسم يكون فى مجرد استحالة متى صار حارا بعد أن كان باردا أو أبيض بعد أن كان أسود . — له من السعة أكثر — فان الحركة يمكن أن تكون بالنقلة أو الاستحالة أو النمو وأما الفعل فلا ينطبق الا على الاستحالة وحدها . — وحينئذ من البيّن — هذه النتيجة ليست من البيان على ما يظن المؤلف فيما يظهر ولا تنتج بوضوح مما تقدّم .

§ ٩ — حد التماس مأخوذا على أعم معناه ينطبق على الأجسام التى لها وضع بما أن أحد الجسمين فى التماس يمكن أن يحرّك و بما أن الآخر يمكن أن يتحرّك و بما أن المحرك والمتحرك ليس بينهما نسبة إلا نسبة الفعل والانفعال. § ١٠ — فى الأحوال الاكثر عاديةً الشيء الذى لُمس يلمس الشيء الذى لمسه لأن كل الأشياء تقريبا التى يمكننا مشاهدتها هى واقعة فى الحركة قبل أن تحرِّك أيضا فى دورها . وفى كل الأحوال يظهر أن هناك ضرورة الى أن الشيء الذى لُمس يلمس الشيء الذى يلمسه . ولكنا نقول إنه قد يجوز أحيانا أيضا أن المحرك وحده يلمس الشيء الذى يعطيه الحركة، وأن الشيء الملموس لا يلمس الآخر الذى يلمسه . ولما أن الأجسام المتجانسة لا تحرّك إلا متى حرِّكت هى أنفسها فيلزم فيما يظهر أن جسما ملموسا يلمس هو أيضا . و بالنتيجة إذا كان محرك ما، مع كونه هو نفسه غير متحرّك، يؤتى

---

§ ٩ — مأخوذا على أعم معناه — وفى الوقت عينه على معناه الأخص. — ينطبق على الأجسام التى لها وضع — ر. ما سبق ف ٦ — أحد الجسمين فى التماس — النص ليس صريحا هكذا. — الا نسبة الفعل والانفعال — عبارة النص هى "فى الأشياء التى بينها فعل وانفعال" .

§ ١٠ — فى الأحوال الأكثر عادية — يظهر أن كل هذه الفقرة استطراد لا يتصل لزوما بما تقدم. — التى يمكننا مشاهدتها — أو "التى هى أمامنا". — قبل أن تحرك أيضا فى دورها — ليس النص صريحا هكذا ولكن المعنى لا ريب فيه . — لا يلمس الآخر — هذا ممكن معنويا كما يثبته المثل الوارد فى آخر الفقرة ولكن من الجهة المادية يتلامس الشيئان بالتبادل . ومن المحال أن شيئا يلمس آخر من غير أن يلمسه هذا الآخر . وان الفعل قد يأتى من جهة واحدة دون أن يقابل بمثله ولكن التماس كما يدل عليه لفظه هو دائما متكافئ . وان مثل المحرك غير المتحرك ليس قاطعا لأن إيصال الحركة يمكن أن يقع على مسافة ومن غير تماس حقيق. — الأجسام المتجانسة — هذا التعبير مبهم قليلا . وقد فسره فيلو پون بأن فهم أن المقصود هو الأجسام المركبة من مادة واحدة بعينها لأنها بذلك تستطيع أن ترد الفعل الذى تقبله ر . ما سيأتى فى الباب السابع ف ٥ . — فيما يظهر — ر بما كان الواجب أن يكون التعبير أكثر تأكيدا . — فيلزم أن يمس — إن نظرية المحرك غير المتحرك قد بسطت بإسهاب فى الطبيعة ك ٨ وفى ما بعد الطبيعة ك ١٢ ب ٨ . فان المحرك غير المتحرك يعنى الله ينقل الحركة التى يخلقها بطريقة مغايرة لما تنقل به الحركة للأشياء التى تدركها مشاهدتنا فى هذه الدنيا وليس من المحتمل بهذا المعنى أن الله

الحركة، فيلزم أن يمس الشيء الذى يحركه دون أن يمسه هو نفسه شيء . وعلى ذلك فى الواقع نقول أحيانا على الشخص الذى يؤذينا إنه يمسنا من غير أن نمسه نحن أنفسنا .

§ ١١ — ذلك ما كنا نبغى أن نقول على التماس معتبرا فى الأشياء الطبيعية .

يمس الكائنات كما تماس الكائنات بعضها بعضا . — يمسنا — هذا التعبير الذى اضطررت إلى أن أستعمله لا يظهر أنه مناسب تماما فى لغتنا وان كان أكثر مناسبة فى اللغة الاغريقية . ولكنه ليس الا على طريق المجاز فان هذا المس المعنوى لا دخل له فى التماس المادى الذى هو موضوع البحث فى هذا الباب كله .

§ ١١ — ذلك ما كنا نبغى أن نقول — يمكن تقريب هذه النظرية كلها بالنظريات التى ذكرت ولكن باختصار فى الطبيعة ك ٥ ب ٥ ف ١٣ وك ٦ ب ١ ف ٢ فان المذهب فى الموضعين واحد . — فى الأشياء الطبيعية — لا فى الأشياء المجردة والرياضية .

الباب السابع

نظرية الفعل والانفعال — آراء الفلاسفة — ديمقريطس هو الذى أجاد فهم هذا الموضوع — سبب خطأ الفلاسفة — الشبيه لا يمكن أن يقبل أى فعل من الشبيه — العلاقة الضرورية بين الفاعل والمنفعل — الشبه والفرق بينهما — توفيق رأيين متعارضين فى تمييز لفظى — المشابهة بين الحركة وبين ظاهرتى الفعل والانفعال — المحرك الأول يمكن أن يكون غير متحرك — الفاعل الأول يمكن أن يكون كذلك لا منفعلا — ختام نظرية الفعل والانفعال .

§ ١ — تعقيبا لما تقدم نوضح ماذا ينبغى أن يُعنى بِفعَل وانفعل . ولقد تلقينا من الفلاسفة السابقين لنا نظريات متخالفات بينها فى هذا الموضوع . ومع ذلك فانهم متفقون بإجماع على أن الشبيه لا يمكن أن يقبل شيئا من الشبيه لأن الواحد منهما ليس أشدّ فاعلية ولا انفعالية من الآخر. وأن الأشباه لها كيفياتها متماثلة مطلقا . ثم يزاد أن الأجسام غير المتشابهة والأجسام المختلفة إنما هى التى لها فعل وانفعال على طريق التكافؤ بعضها فى بعض. مثال ذلك حينما تطفأ نار بنار أكبر منها يزعم فلاسفتنا أن النار التى هى أقل انفعلت فى الواقع بمقتضى مقابلة الأضداد بما أن كثيرا هو ضدّ لقليل .

---

§ ١ — يفعل وانفعل — لم يمكنى أن أجد فى لغتنا عبارات تجعل كلمات النص أكثر وضوحا . وقد يمكن أن يترجم أيضا هكذا : "أن يكون فاعلا وقابلا" . يفعل وينفعل هما المقولتان الأخيرتان للقولات العشر . ر . المقولات ب ٤ ف ١ و ٢ من ترجمتنا . — تلقينا من الفلاسفة السابقين لنا — يلاحظ فيلوبون أن أرسطو يبق على عهد طريقته العادية من بسط النظريات السابقة قبل بسط نظريته الخاصة. — أن الشبيه لايمكن أن يقبل شيئا من الشبيه — ذلك هو أحد المبادئ التى قد يوجد منها عدد عظيم فى الفلسفة القديمة لا تستند الى مشاهدات وافية وليست إلا نتائج سابقة لأوانها ومنطقية محضة . — غير المتشابهة والأجسام المختلفة — هذا التكرير هو فى النص . — فعل وانفعال . أو إنما هى الفاعلة والقابلة . — بنار أكبر — يظهر أنه ليس هنا اختلاف حقيق . فان النار الأقل هى تماما مشابهة للنار الأقوى من جهة كونها نيرانا وفقط إحداهما التهمت الأخرى . ولكنه لا ينبغى التشدّد فى طلب الضبط الى علم ذلك الزمان . — بما أن كثيرا هو ضدّ لقليل — هذا حق ولكنه لا ينتج منه أن نارا صغيرة تكون ضدّا لنار كبيرة . ومع ذلك هذا ما كان يجب أن يكون ليصير المثل صحيحا وحقيقا بالانطباق .

§ ٢ — ديمقريطس هو الوحيد، خلافا لجميع الآخرين، الذى قدّم فى هذا رأيا خاصا . فهو يقرّر أن هـذا الذى يفعل وهـذا الذى يقبل هو فى الحقيقة مماثل ومشابه لأنه لا يوافق على أن أشياء مختلفة ومتغايرة تمـاما يمكنها أن تقبـل أيًّاما بعضها من بعض . واذا كان بعض الأشياء، مع كونها متغايرة بينها ، لها بعضها على بعض فعـلما متكافئ فهذه الظاهرة ، على رأيه ، تقع فيها لا بمـا هى متخالفة بل بمـا هى على الضدّ من ذلك لهـا نقطة ما من المشابهة والمماثلة .

§ ٣ — تلك هى إذًا الآراء التى قُرّرت قبلنا . ولكن الفلاسفة الذين قرروها قد يظهر أنهم تناقضوا فيما بينهم . والسبب فى اختلافهم فى هذا الصدد هو أنه فى مسألة يلزم فيها اعتبار مجموع الموضوع لم يعتبروا فيه هؤلاء وهؤلاء إلا جزءا واحدا .

§ ٤ — وفى الحق أن ما هو شبيه تمـاما ولا يغاير مطلقاً بأى وجه ما لا يمكنه مطلقا أن يحتمل شيئا ولا أن يقبل شيئا من قبل شبيهه . لمـاذا ، فى الحق ، أن أحد الشيئين يفعل دون الآخر ! فاذا كان ممكنًا أن الشيء يقبـل بأى طريقة من شبيهه

---

§ ٢ — ديمقريطس هو الوحيد — يظهر أن أرسطو فى جميـع مؤلفاته يحفل كثيرا بديمقريطس وبنظرياته وهنـا يعطيه الحق على الأقل بالجزء ضد جميع الفلاسفة السابقين . — رأيا خاصا — كلمة النص ليس لها معنى محدود بهذا المقـدار . وربمـا أفادت أن ديمقريطس قرر رأيا صوابا من بعض الوجوه ومعارضا للنظريات السابقة . — من المشابهة والمماثلة — ليس فى النص إلا كلمة واحدة .

§ ٣ — تلك هى إذًا الآراء — قد يرى أن بسـط الآراء السابقة موجز بعض الشيء ولكن يجب علينا فى هـذا الصدد أن نثق بصدق أرسطو الذى ما سعى البتة فى الحط من أقدار أسـلافه على رغم التهمة التى اتهمه بها باكون . — مجموع الموضوع — ليس النص على هذا القدر من الضبط . ومع ذلك فان الفـكرة التى يعبر عنها أرسطو هى عريقة فى الصحة . وذلك يرجع الى القول بأن هـذه المذاهب على العموم أولى بها أن تكون غير تامة من أن تكون باطلة .

§ ٤ — أن يحتمل شيئا ولا أن يقبل شيئا — ليس فى النص الا كلمة واحدة، ولكن لمـا أنه يوجد فيه أداتا نفى أردت أن أوفيه القوة بالفعلين ولو أن المعنى واحد تقريبا . — من قبل شبيهه — يعنى ممـا هو على جهة الاطلاق والتماثل مشابه له . — أحد الشيئين — زدت هاتين الكلمتين . — يفعل — أو ينفعل . — يمكنه أن يقبل أيضا من ذاته — يعنى يحتمل فعلا يحدثه هو نفسه فى نفسه، وهذه النظرية دقيقة فيما يظهر . — مع التسليم بهذا — أو بعبارة أخرى اذا افترض أن

إذًا يمكنه أن يقبل أيضا من ذاته . وحينئذ مع التسليم بهذا فينتج منـه أن لا شيء في الدنيـا يكون غير قابل للفناء ولا غير متحرك إذا فرض أن الشبيه بمـا هو شبيه يمكنه أن يفعـل ما دام حينئذ كل موجود أيًّا كان يمكنه أن يعطى الحركة لنفسه ويعطيها أيضا على السـواء للوجود المغـاير تمـاما والذى ليس له به تمـاثل ما . وفى الواقع أن البياض لا يمكنه أن يقبـل أى فعـل من قِبل خط ولا أن خطا ينفعل بشىء من قبل البيـاض إلا ما ربمـا يكون بالعرض والواسطة : مثلا فى حالة ما إذا كان الخط بالمصادفة أبيض أو أسـود . لأن الأشياء لا يمكنها أن تغير طبعها عفوا من تلقاء أنفسها متى لم تكن أضـدادا بعضها لبعض أو غير آتيـة من أضداد .

§ ٥ — ولكن لمـا أن فعل وانفعل ليسا بالطبع خاصية أى جسم اتفق وأخذ بالمصادفة وأنهما لا يكونان إلا فى الأشـياء الأضداد بعضها لبعض أو التى بينهـا تضاد ما فينتج من ذلك ضرورة أن الفاعل والقابل يجب أن يكونا شبيهين ومتحدين بجنسهما بالأقل وأن يكونا غير متشابهين ومتضادين بنوعهما . على هذا تريد الطبيعة أن الجسم يقبل فعل الجسم والطعم يقبل فعل الطعم واللون فعل اللون، وعلى جملة من

الشبيه يفعل فى الشبيه وأن شيئا يفعل مباشرة فى نفسه . — غير قابل للفناء ولا غير متحرك — قد قرر أرسطو دائمـا أنه يوجد فى الدنيا أشـياء غير قابلة للفناء وأنه بالأقل المحـرك الأول هو غير متحرك . — يمكنـه أن يعطى الحركة لنفسه — ليس النص على هـذا الضبط ويمكن ترجمته أيضا هكذا : « لنفسه وإن ما هو مغاير له تمـاما وليس له معه أدنى تمـاثل يمكنه أن يعطيها لنفسه على السواء» . وقد ظهر لى أن المعنى الآخر أفضل من جهة النحو . — وفى الواقع — لا يظهر أن ارتباط المعانى هنا واضح . — البياض — الأمثلة لا يظهر أنهـا قد أحسن اختيارها . — من قبـل خط — أو بالأولى سـطح كما يفسره فيلوپون . — بالعرض والواسـطة — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — الخط — أو السطح . — عفوا من تلقاء أنفسها — ربمـا صحت ترجمتها أيضا «بالتبادل» .

§ ٥ — أى جسم اتفق وأخذ بالمصادفة — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — تضاد ما — ليس النص على هـذه الصراحة . — بجنسهما ... بنوعهما — هذا التميز سيصلح فيما بعد للتوفيق بين

القول أن شيئا مجانسا يمكن أن يقبل فعلا من قبل الشيء المجانس. والسبب فيه أن جميع الأضداد هي في جنس واحد، وأن الأضداد تفعل بعضها في بعض وتقبل بعضها من قبل البعض الآخر. إذًا يلزم ضرورة أن، من وجهٍ، الفاعل والقابل يكونان متشابهين وفي الحين عينه يلزم أيضا أن يكونا غير متشابهين ومتغايرين بينهما.

§ ٦ — ما دام إذًا يلزم أن يكون الفاعل والقابل هما متحدين ومتشابهين في الجنس ولا متشابهين في النوع وأن هذه هي نسب الأضداد فينتج من هذا جليا أن الأضداد والأوساط تفعل وتقبل على طريق التكافؤ بعضها إزاء البعض الآخر. فان فيها مطلقا يحصل فساد الأشياء وكونها. لذلك فبسيط جدا أن النار تُسخن وأن البرد يبرد وعلى جملة من القول أنّ الشيء الذي يفعل يحيل الى ذاته الشيء الذي يقبل فعله. ما دام أن هذا الذي يفعل وهذا الذي يقبل هما ضدان، وأن الكون هو على التحقيق تحوّل الشيء إلى ضدّه. ينتج منه أن بالضرورة الذي ينفعل يتغير بهذا الذي يفعل. وعلى هذا النحو فقط يحصل كون مفضٍ إلى الضد.

الآراء المتعارضة للفلاسفة السابقين. — يقبل فعل — أو بعبارة أخرى مماثلة لعبارة النص: "يقبل من الجسم" وهذا التعبير مع ذلك مبهم وكان الأولى إيضاحه. — مجانسا — أو من الجنس بعينه. ر. ما سبق ب ٦ ف ١٠. — اذا يلزم ضرورة — تكرير لما سبق آنفا بالحرف تقريبا.

§ ٦ — ما دام اذا ... الفاعل والقابل — تكرير آخر مساعد مع ذلك على ايضاح الفكرة أكثر منه على اطالتها. — نسب الاضداد — ر. المقولات ب ١١ ف ٦ ص ١٢٢ من ترجمتنا. — مطلقا — أو على العموم. — أن النار تسخن — ربما كان التعبير عاما جدا وربما كان يلزم ذكر مفعول كأن يقال مثلا: "تسخن الجسم الذي تفعل فيه". — وأن البرد يبرد — هذا التكرير غير المفيد موجود كذلك بالنص. — يحيل الى ذاته — هاهنا أيضا العبارة قليلة الضبط ولو أن المعنى صحيح جدا. — تحوّل الشيء الى ضدّه — النص غاية في الإيجاز فاضطررت الى بسطه. — الذي ينفعل يتغير بهذا الذي يفعل — قد يكون في العبارة بعض التجاوز لأن الشيء الذي يسخن لا ينقلب نارا. — مفض الى الضد — النص يستخدم تعبيرا يشعر بنوع من الحركة. وهذا الذي حاولت تحصيله في ترجمتي.

§ ٧ — هذا هو الذى يوضح جيدا كيف أن فلاسفتنا من غير أن يكرروا صراحة الأقوال أعيانها يمكنهم مع ذلك على الوجهين أن يصلوا إلى استكشاف الطبع والحق . وعلى هذا نقول تارة إنه الموضوع نفسه هو الذى ينفعل متى قلنا إن فلانا يبرأ و إنه يدفأ و إنه يبرد و إنه يعانى انفعالات من هذا القبيل . وتارة أيضا نقول مثلا إن البرودة هى التى تصير ساخنة أو إن المرض هو الذى يصير الصحة وعلى الوجهين العبارة صادقة . § ٨ — والأمر كذلك أيضا فيما يخص الفاعل فإننا نقول أحيانا إنه هو فلان الذى يسخن الشىء الفلانى ومرة أيضا إن الحرارة هى التى تسخن . لأنه تارة هى المادة التى تقبل الفعل وتارة أيضا الضد هو الذى يقبل . على ذلك فانه بنظر الأشياء من هذه الجهة زعم بعضهم أن الموجود الذى يفعل والذى ينفعل يجب أن يكون بينهما شىء من التماثل . وأن الآخرين بنظرهم الأشياء من جهة مخالفة زعموا أن الأمر على الضد من ذلك تماما .

---

§ ٧ — فلاسفتنا — عبارة النص أقل ضبطا . — الطبع والحق — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — إنه الموضوع — يعنى الموجود الذى له الكيف المعدّ لأن يتغير بكيف مضاد . — البرودة — يعنى الكيف ذاته . وقد لا يكون التمايز بينا فى النص ولأنه على هذا التمايز يعتمد فى التدليل فكان الألزم أن يكون التعبير أظهر من هذا . وقد أجاد فيلو پون ايضاح هذه الفقرة كلها ولو أنه أطال فى الايضاح . — هى التى تصير ساخنة — فى هذا التعبير شىء من الغرابة فى النص وفى ترجمتى أيضا . — وعلى الوجهين العبارة صادقة — يعنى سواء قصد الى الموضوع أو قصد الى الكيفية نفسها التى تتغير .

§ ٨ — والأمر كذلك — يعنى أنه يمكن أن يجرى هذا التمايز بالنسبة للفاعل والقابل اللذين هما متحدان بالجنس ومختلفان بالنوع . — فلان الذى يسخن الشىء الفلانى — ليس النص على هذا القدر من البيان . — ان الحرارة هى التى تسخن — من جهة أنه هو الموضوع ومن جهة أخرى أنها هى الكيفية أو كما سيجىء بعد فى النص من جهة المادة ومن جهة أخرى الضد . — من هذه الجهة — يعنى بالنظر الى المادة التى هى مقولة بالاشتراك على الفاعل والقابل معا . — من جهة مخالفة — يعنى بالنظر الى الكيفيات المتضادة التى احداها تتغير الى الأخرى . — أن الأمر على الضد من ذلك تماما — ر . ما سبق بيانه فى آخر الفقرة الثالثة حيث يعيب أرسطو على كلتا النظريتين أنها لم تعتبر إلا جزءا من الموضوع الذى كان يجب فحصه فى مجموعه .

§ ٩ — ولكن التدليل الذى يمكن عمله لإيضاح ما هو يفعل وينفعل هو نفسه الذى به يوضح ما هـو يحرك ويتحـرك . وعلى ذلك لفظ المحرك يحمـل أيضا على معنيين . فأولا الشىء الذى فيـه يوجد مبدأ الحركة يشبه أن يكون المحرك مادام المبدأ هو أوّل العلل وثانيا إنما هو الحد الأخير بالاضافة الى الشىء الذى هو محرَّك والى كون الشىء . § ١٠ — وتنطبق الملاحظة نفسها على الفاعل، وعلى هذا النحو نقول على السـواء إن الطبيب هو الذى يبرئ أو هو النبيذ الذى أُمر به للريض . وحينئذ لا شىء يمنع من أن المحرك الأوّل فى الحركة التى يعطيها يبقى هو نفسـه غير متحرك . بل أحيانا قد تكون هناك ضرورة الى أن يكونه ولكن الحد الأخير يجب دائما لأجل أن يحرِّك أن يكون أوّلا قد حُرِّك هو نفسه . — § ١١ — وفى الفعل

§ ٩ — التدليل الذى يمكن عمله — الجملة قلقـة بعض الشىء فى الترجمة كما هى كذلك فى النص . ولكن المعنى بين . فان يفعـل و ينفعل يستوضح معناهما كما يسـتوضح معنى يحرك ويتحرك . — لفظ المحرك يحمل أيضا على معنيين — تبعا لما اذا كان القصد المحرك الأوّل والمحرّك الابتدائى أو المحرك التابع الذى يمكن أن يكون الأخير والأقرب بالنسبة للتحرك أى الشىء المحرَّك . — الشىء — اخترت التعبير بهذا اللفظ المبهم مجاراة للنص . — يشبه أن يكون المحرك — أو "يشبه أن يحرك". — المبدأ هو أوّل العلل — بتعريف كلمتى المبدأ والعلة يبتدئ الكتاب الخامس من كتاب ما بعد الطبيعة . — الحدّ الأخير — يعنى المحرك الثانوى الذى هو الأقرب الى المتحرك . — الشىء — زدت هذا المضاف اليه و يمكن أن توضع بدله "الظاهرة" .

§ ١٠ — الملاحظة نفسها — النص أشد إبهاما . وبعبارة أخرى "أن لفظ الفاعل يمكن أن يحمل على معنى مزدوج مثل لفظ المحرك" . — الذى أمر به للريض — زدت هـذه الكلمات التى ظهر لى أنها ضرورية لتمام الفكرة . فان الطبيب هو المحرك الأول والعلة الأولى للشفاء والنبيذ الذى أمر به للريض هو المحرك الثـانوى والعـلة التبعية للصحة المسـتردّة . — فى الحركة التى يعطيها — هنا رواية أخرى عديمة الأهمية استحبها بعض الناشرين ولكنها لا تساوى الرواية التى أثبتناها فى القيمة . — تكون هناك ضرورة — راجع نظرية المحرك الأول غير المتحرك فى كتاب الطبيعـة ك ٨ ب ٦ و ٧ و ١٥ من ترجمتنا . الحد الأخير — "المحرك الأخير" .

أيضا الحدّ الأوّل ليس متأثرا ولا قابلا ولكن يلزم أن الحدّ الأخير، ليمكنه أن يفعل، ينفعل أيضا هو ذاته بفعل ما بادئ بدء . كل الأشـياء التى ليست من مادة واحدة بعينها تفعل دون أن تقبل هى أعيانها وأن تظل غير قابلة . مثال ذلك صناعة الطب فانها مع فعلها الصحة لا تقبل أى فعل من قبل الجسم الذى تشفيه . ولكن الغذاء مع فعله الصحة يقبل و يلق هو نفسه أيضا تأثرا ما لأنه إمّا أن يسخن أو يبرد أو يعانى انفعالا آخر كيفما اتفق فى حين أنه يفعل . ذلك لأنه من جهة الطب هو ها هنا، بنحو ما، كالمبدأ فى حين أن الغذاء، بنحو آخر، هو الحدّ الأخير الذى يمس العضو الذى يفعل فيه . على ذلك حينئذ كل الأشياء الفاعلة التى ليس لها صورتها فى المـادة تبقى غير قابلة، وكل التى لهـا صورتها فى المـادة يمكن أن تقبل فعلاما، ونقول أيضا إن المـادة هى واحدة على السواء بعينها بالنسبة لأى واحد ما من الحدّين المتقابلين ونعتبرها أنهـا بالنسبة لها جنسهما المشترك . ولكن ما يمكنـه أن يصير ساخنا يجب ضرورة أن يسخن حينما الشىء الذى يُسخن يكون حاضرا وقريبا منه .

§ ١٠١ — وفى الفعل أيضا — كما فى الحركة . — الحد الأول — عبارة النص غير محدودة أصلا . ويمكن ترجمتها أيضا ”العلة الأولى“ . — ليس متأثرا ولا قابلا — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — ليمكنه أن يفعل — زدت هذه الكلمات . — بادئ بدء — زدتهما أيضا . — التى ليست من مادة واحدة بعينها — هى والأشياء التى تفعل فيها . — لا تقبل أى فعل — عبارة النص ”لا تقبل شيئا“ . — يقبل و يلق — ليس فى النص الا كلمـة واحدة . — تأثرا ما — عبارة النص غير محدودة . — يسخن ... يبرد — فى ظاهرة الهضم التى بها الجهاز الهضمى يتمثله . — كالمبدأ — أو بوجه ما المحرك الأول والمبدى . — هو الحد الأخير — هنا أيضا ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — التى ليس لهـا صورتها فى المـادة — يعنى التى هى والقابل التى تفعل فيه ليست من مادة واحدة . هذا الأسلوب كثير التكرار عند أرسطو ولكنه هنا غير محل للشك بحسب شرح فيلوبون . فان القرينة تسوغ تفسير الشـارح . — يمكن أن تقبـل فعلاما — فى حين أنها تحدث فعلا فى الشئ الواقع تحت تأثيرها . — من الحدين المتقابلين — أو بعبارة أخرى ”بالنسبة للفاعل وبالنسبة للقابل“ . — جنسهما المشترك — زدت الكلمة الأخيرة . ر . ما سبق فى الفقرة الخامسة . — الشئ الذى يسخن — عبارة النص غير محددة . — كما قلت آنفا — فى أول الفقرة السابقة . — المحرك الأولى — يعنى العلة أيا كانت التى هى أول ما يعين الحركة . وأظن

فانظر لماذا أن بين الأشياء التى تفعل بعضها ، كما قلت آنفا ، هو غير قابل والآخر على ضد ذلك يمكن أن يقبل وكيف أن الأمر واحد بعينه بالنسبة للفواعل كما هو بالنسبة للحركة ، فان هناك فى الواقع المحرك الأولى هو غير متحرك وهنا بين الفواعل إنما الفاعل الأوّل هو غير القابل و بمعزل عن كل انفعال. § ١٢ — ولكن اذا كان الفاعل علة كما هى حال المحرك سواء بسواء فمن أين يجىء أن مبدأ الحركة، أى الغاية التى من أجلها يحدث كل الباقى، لا يُحدث هو نفسه فعلا؟ مثال ذلك الصحة ليست فاعلا ولا يمكن تسميتها كذلك إلا بالمجاز المحض . ومذ يوجد الفاعل ينتج منه أن القابل الذى يقبل الفعل يصير شيئا ما، ولكن متى تكون الكيفيات حاصلة تماما وحاضرة فليس للفاعل أن يصير فانه قد كان كل ما يجب أن يكونه . إن صور الأشياء وغاياتها يمكن أن يقال إنها كيفيات وعادات فى حين أن المادة إنما هى التى بما هى مادة قابلة تماما . على هذا حينئذ النار لها حرارتها فى المادة واذا

أنه يلزم أن يخص اسم المحرك الأول بمبدأ الحركة الكلية . فانه لا يراد هنا الا حركة جزئية تقوم بها محركات عديدة بعضها توابع بعض . — هنا — زدت هذه الكلمة لتكون المقابلة أظهر . — غير القابل و بمعزل عن كل انفعال — ليس فى النص إلا كلمة واحدة .

§١٢ — الغاية التى من أجلها يحدث كل الباقى — أو : «اللم» كما هى عبارة النص. — الصحة ليست فاعلا — لأنها الغاية التى ينشدها الطبيب والمريض . فالطبيب هو المحرك الأوّل . والأدوية التى يأمر بها تفعل تحت أوامره لبلوغ الغاية التى هى الشفاء والصحة . — القابل الذى يقبل الفعل — ليس النص على هذه الصراحة . — يصير شيئا ما — يعنى يكسب كيفا جديدا يعطيه إياه الفعل الواقع عليه. — حاصلة تماما وحاضرة — ليس فى النص إلا كلمة واحدة. — كل ما يجب أن يكونه — أضفت هذه الكلمات إتماما للمعنى. — صور — أو «أنواع» . فان صور الأشياء هى طبعها الخاص والنهائى. — كيفيات وعادات — فى النص كلمة واحدة . لان الكيفيات والعادات لما أنها أشياء مكتسبة ودائمة فليست محلا للتغير . فان الشىء هو ما هو . فليس يصير شيئا آخر بأن يكسب كيفية جديدة مخالفة. — قابلة تماما — من حيث إنها هى المادة التى تقبل على التعاقب الأضداد التى تتناوب عليها بالدور . — لها حرارتها فى المادة — التعبير مغلق قليلا على رغم الايضاحات التى تقدّمت. — عن مادة النار — أضفت هذه الكلمات تكميلا للمعنى . — أن تقبل شيئا ولا أن تتأثر — ليس فى النص الا كلمة واحدة. — عن النار

كانت الحرارة شيئا ما قابلا للانفصال عن مادة النار فلا يمكنها أن تقبل شيئا ولا أن تتأثر . ولكنه محال من غير شك أن الحرارة تكون منفصلة عن النار التى تسخن واذا كان ثم أشياء منفصلة بهذه المثابة فان ما قلناه آنفا لا يكون صادقا إلا بالنسبة لتلك .

§ ١٣ — وعلى الجملة نقف عند حد الاعتبارات المتقدّمة فى إيضاح ماهية فَعَل وانفعل لنبين بأى الأشياء يتعلق أحدهما والآخر و بأى طريقة يكون الفعل والانفعال وكيف يكونان .

التى تسخن — أضفت هذه الكلمات . — ما قلناه آنفا — أو بعبارة أخرى « هذه الأشياء تكون غير قابلة البتة ولا يمكنها أن تخضع لفعل أى كان ». ر . هذه النظرية نظرية الجوهر والصورة فى الطبيعة ك ١ ب ٨ ص ٤٧٣ وما بعدها من ترجمتنا .

§ ١٣ — وعلى الجملة — النص ليس صريحا هكذا . ولكن هذه الفقرة هى فى الواقع محصل كل ما سبق . — و بأى طريقة... وكيف — هذا الجزء الخاص من المسئلة سيعالج أيضا فى الباب الذى يلى بطريقة أخص وأوسع مما هاهنا .

الباب الثامن

نقض النظرية التى تفرض أن الفعل والانفعال يحدثان فى الجواهر المادية بالمسام — رأى الفلاسفة القدماء — استشهاد من أمبيدقل – لوكيبس وديمقريطس هما أقرب الى الحق – وحدة الموجود محال وكذلك ثباته – غرائب ضلالات الفلاسفة القدماء – عرض نظرية لوكيبس – عرض نظرية أمبيدقل – مواطن الاتفاق والاختلاف بينها وبين نظرية لوكيبس — استشهاد من طيماوس أفلاطون — مقارنة بين افلاطون ولوكيبس — اعتراضات على نظرية أفلاطون وعلى نظرية الوحدة ونظرية الذرات — استحالة قبول وجود الذرات وفهم من أين جاءتها الحركة — الرؤية من خلال الأوساط تصير غير قابلة للإيضاح — خاتمة نقض النظرية التى تفسر بواسطة المسام الفعل والانفعال فى الأشياء .

§ ١ — لنعرض مرة أخرى كيف أن ظاهرتى الفعل والانفعال ممكنتان . من الفلاسفة من يرى أنه حينما يعانى شىء أثرا ما على جهة الانفعال، فذلك أن الفاعل الذى يفعل الأثر نهائيا وبطريق الأصلية ينفذ فى ذلك الشىء بواسطة مسام أو قنوات . يقولون إننا كذلك نرى وإننا نسمع وإننا ندرك جميع الادراكات الأخرى للحواس . وفوق ذلك اذا أمكن أن ترى الأشياء من خلال الهواء والماء والأجسام الشفافة فذلك بأن هذه الأجسام لها مسام غير مدركة بالبصر لسبب صغرها ولكنها مع ذلك شديدة الانضمام مرصوفة بنظام وترتيب، وكلما تكون الأجسام أكثر شفافية كان لها من هذه المسام عدد أكثر . § ٢ — وعلى هذا النحو استبان بعض الفلاسفة الأشياء كما فعل أمبيدقل مثلا . ولكن لم تُقصر هذه النظرية على

§ ب ٨ ف ١ — مرة أخرى — ويمكن أيضا ترجمتها : "من جهة نظر أخرى". — ظاهرتى الفعل والانفعال — ليس النص واضحا هكذا وقد أردت أن أجعله أبين خصوصا فى ابتداء باب . — من الفلاسفة من — يقصد الى أمبيدقل كما تدل عليه الفقرة التالية. — يعانى شىء أثرا ما على جهة الانفعال — النص أكثر إيجازا . — نهائيا – راجع ما سبق ب ٧ ف ١٠ و ١١ . — وبطريق الأصلية — لأنه يفعل بتماس مباشر وبلا واسطة . — مسام أو قنوات — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — ندرك ... الإدراكات — تكرار الكلمات هذا فى النص . — هذه الأجسام — أو هذه العناصر لأن عبارة النص غير مانعة . — نظام وترتيب — ليس فى النص إلا كلمة واحدة .

§ ٢ — كما فعل أمبيدقل مثلا — وهو الذى يلزم أن ينسب اليه الرأى المعروض فى الفقرة السابقة دون أن يذكر صاحبه . — على الفعل وعلى الانفعال — عبارة النص بالضبط هى "الفاعلات

الفعل وعلى الانفعال بل زُعم أن الأجسام لا تختلط إلا متى كانت مسامها متناسبة المقياس على طريق التكافؤ . وقد اختطّ لوكيبس وديمقريطس بأحسن من غيرهما الطريق الحق وأوضحا كلا بكلمة واحدة بأن صدرا عن نقطة الابتداء الحقيقية التى يعينها الطبع . وفى الواقع أن بعض القدماء قد ظن أن الموجود هو بالضرورة واحد وغير متحرك فعلى رأيهم الخلو لا يوجد . وأنه لا يمكن أن توجد حركة فى العالم مادام أنه لا يوجد خلو منفصل عن الأشياء . وكانوا يزيدون على ذلك أنه لا يمكن أيضا أن يوجد تعدد مادام أنه لا يوجد خلو يقسم الأشياء ويعزلها . على أن دعوى أن العالم ليس متصلا لكن الموجودات التى تؤلفه متماسة مهما كانت منفصلة فذلك يرجع الى القول بأن الموجود متعدد وليس هو واحدا وأن الخلو موجود . وأنه إذا كان الموجود هو مطلقا قابلا للقسمة فى جميع الاتجاهات فمن ثم لا توجد بعد وحدة

والمنفعلات " أى الأشياء التى تفعل والتى تقبل الفعل . — متناسبة المقياس على طريق التكافؤ — يعنى أن الجسمين يمكن أن يدخل أحدهما فى الآخر بحيث يحصل منهما مزيج حقيق . وقد مثل فيلوپون بالنبيذ والماء فان مسامهما متناسبة القياس فى رأيه مادام أن هذين السائلين يمتزجان . وعلى ضد ذلك مسام النار ومسام الخشب فانها لما كانت غير متناسبة القياس كانت النار تفسد الخشب ولا تختلط به . — بأحسن من غيرهما — أستخلص هذا المعنى من شرح فيلوپون . — نقطة الابتداء الحقيقية التى يعينها الطبع — ليس النص على هذا الضبط تماما . — بعض القدماء . — يقصد پرمنيد ومدرسة إيليا كما يقول فيلوپون . — فعلى رأيهم — أضفت هذه العبارة التى مضمونها متمش مع سياق النص وكل ما هو وارد الى آخر هذه الفقرة خاص برأى پرمنيد ومدرسة ايليا ذلك الرأى الذى هو مبسوط بطريقة قلقة وغامضة . راجع مناقشة مشابهة لهذه وإبطالا لمذهب پرمنيد وميليسوس فى الطبيعة ك ١ ب ٢ وما بعده ص ٤٣٣ من ترجمتنا . — وأنه لا يمكن أن توجد حركة — هذه النظرية على علاقات الخلو والحركة هى منسوبة بالصراحة الى ميليسوس فى كتاب الطبيعة ك ٤ ب ٨ ف ٥ ص ١٨٩ من ترجمتنا . — منفصل عن الأشياء — أضفت الكلمتين الأخيرتين . — وكانوا يزيدون على ذلك — هذه الكلمات ليست صراحة فى النص ولكن هذا المعنى يفهم من سياق الجملة . — أنه لا يوجد خلو — ليس النص على هذه الصراحة . — يقسم ... ويعزلها — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — ليس متصلا — وواحدا كما كانت تزعمه مدرسة ايليا . — مهما كانت منفصلة — ليس النص على هذا الوضوح . — اذا

لأىٍّ ما كان بحيث إنه لا يوجد أيضا تعدد . وأن الكل هو خلو كله، يقولون، إنه إذا فرض أن العالم شطوه على نحو وشطره على آخر فذلك إيضاح أشبه ما يكون بفرض مجازَف فيه لأنه حينئذ الى أى نقطة ولماذا الجزء الفلانى من العالم يكون كذلك ومليئا فى حين أن الجزء الفلانى الآخر مقسوم؟ وبهذه الطريقة يوصل أيضا على رأيهم إلى تأييد أنه بالضرورة لا يوجد حركة فى العالم .

§ ٣ — بالصدور عن هذه النظريات و بمعاندة شهادة الحواس والاستهانة بها بحجة أنه ينبغى اتباع العقل فقط انتهى بعض الفلاسفة إلى التصديق بأن العالم واحد غير متحرك وغير متناه لأنه إن لم يكن كذلك فان الحد بحسبهم لا يمكن إلا أن يحادّ الخلو .

§ ٤ — تلك هى إذًا نظريات هؤلاء الفلاسفة وتلك هى الأسباب التى دفعتهم إلى فهم الحق على هذا النحو، ولا شك فى أنه اذا استمسك بالتداليل العقلية المحضة فذلك يشبه أن يكون مقبولا ولكن إذا أريد اعتبار الحوادث الواقعية

كان الموجود هو مطلقا قابلا للقسمة — وإذًا يؤول أمره الى لاشىء بالقسمة نفسها التى ذُهب بها الى اللانهاية . — فن ثم لا توجد بعد وحدة لأى ما كان — أو بعبارة أخرى وحدة الأشخاص تنعدم مع الأشخاص أعيانها ولما أنه لا يوجد بعد من ثم تعدد ممكن فالكل يكون خلوا . — شطره على نحو — يعنى أن الاتصال يكون فى شطر العالم والخلو فى الشطر الآخر . — يقولون — أضفت هذه الكلمة للدلالة على أن ذلك بقية معارضات برمنيد وأصحابه . — على رأيهم — أضفتها للغرض المتقدم . — لا يوجد حركة فى العالم — وهذا هو المبدأ الأساسى لمدرسة إيليا وهو أن الموجود واحد وغير متحرك . راجع نقض هذه النظرية فى الطبيعة ك ا ب ٢ وما يليه ص ٤٣٣ من ترجمتنا .

§ ٣ — بمعاندة شهادة الحواس والاستهانة بها — يلزم الانتباه الى هذه العبارات الشديدة التى توصى بقوة باتخاذ نهج المشاهدة دون النظريات المنطقية المحضة . راجع أيضا الفقرة السابقة . — بعض الفلاسفة — برمنيد وعلى العموم مدرسة إيليا . — ان لم يكن كذلك...بحسبهم — أضفت هذه الكلمات التى ظهر لى أنها ضرورية لبيان الفكرة . ومع ذلك فان الفقرة لا تزال غامضة ولم أرفيلوپون يفسرها فى شرحه لأنه بلا شك لم يكن ليجد فيها أدنى صعوبة .

§ ٤ — الحق — ربما كان أحسن أن يقال "الحقيقة". — التداليل العقلية المحضة — ليس النص على هذا القدر من التأكيد. — فذلك يشبه أن يكون مقبولا — أو أيضا : "أن الأشياء تشبه أن تمضى على هذا الوجه" . — إذا أريد اعتبار الحوادث الواقعية — راجع مقدمتى لكتاب الميتورولوجيا على نمط

فيوشك أن يكون من الجنون تأييد آراء كهذه . لأنه لا يوجد مجنون ذهب إلى هذه النقطة من الضلال أن يجد أن النار والثلج هما شيء واحد بعينه . ولكن خلط الأشياء الجميلة لذاتها بالتي لا تظهر لنا كذلك إلا بالاستعمال من غير أن يرى فيها مع ذلك أي فرق ما بينها، ذلك لا يمكن أن يكون إلا نتيجة لتيه حقيقي للعقل .

§ ٥ — فأما لوكيبس فانه كان يظنه محيطا علما بالنظريات التي ، مع كونها متفقة مع الحوادث الواقعية المدركة بالحواس، لم تكن ، بحسب مذهبه ، لتتعرض للكون ولا للفساد ولا للحركة ولا للتعدد في الموجودات. ولكن بعد هذا التسامح الذي أسداه الى حقيقة الظواهر قد أسدى غيره الى أولئك الذين يقبلون وحدة الموجود بحجة أنه لا يوجد حركة ممكنة بدون الخلو. ويقبل القول بأن الخلو هو اللاموجود وأن اللا موجود ليس هو شيئا مما هو موجود . وإذًا، على رأيه، الموجود بالمعنى الخاص هو متعدد للغاية . والموجود على هذا المعنى لا يمكن أن يكون

المشاهدة عند القدماء وعلى الأخص عند أرسطو ص ٤٦ وما بعدها . — يوشك أن يكون من الجنون — من الصعب أن تعاب نظريات مدرسة إيليا العقلية المحضة بأكثر من هذه الشدة . — الأشياء الجميلة لذاتها — هذه النقطة لم يشرحها أيضا فيلوپون وفيها خفاء . فان كلمة النص التي ترجمتها "الجميلة لذاتها" فيها إبهام وهي تدل على الأشياء الطيبة كما تدل على الجميلة . وقد يكون المعنى أن أرسطو يعيب على مدرسة إيليا أنها تفسد قاعدة الأخلاق بخلطها بين الخير والشر . وهذا المعنى هو الذي ارتآه بعض الشراح المتأخرين .

§ ٥ — فأما لوكيبس — راجع عن آراء لوكيبس وديمقريطس في الخلو كتاب الطبيعة ك ٤ ب ٨ ف ٣ وما بعدها ص ١٨٧ من ترجمتنا . ومع ذلك فان أرسطو يبين عليه هنا شدة الاهتمام بلوكيبس أكثر منه في كتاب الطبيعة حيث يقول عنه وعن أستاذه "إنهما لم يطأا عتبة المسئلة". — بحسب مذهبه — زدت هذه العبارة لإتمام الفكرة . — ولا للحركة ولا للتعدد — وبالجملة كل ما تشهد لنا الحواس بأنها حقائق بينة . — الذي أسداه إلى حقيقة الظواهر — ليس النص على هذه الصراحة. — اللاموجود ليس هو شيئا مما هو موجود — يظهر أن هذا هو تكرير محض ولكنه وارد في النص . — على رأيه — أضفت هاتين الكلمتين . — متعدد للغاية — أظن أن هذا هو الرواية الحقة وهي متفقة مع سبك النص وفي بعض

واحدا . وعلى العكس أن هـذه العناصر تكون غير متناهية فى العـدد وتكون فقط غير مرئية بسبب لطافة حجمها للغاية . ويزيد على ذلك لوكيبس أن هذه الجزيئات تتحرك فى الخلو، لأنه يقبل الخلو، وأنها باجتماعها تسبب كون الأشياء وبانحلالها تسبب فسادها، وأن الأشياء تفعل أو تنفعل تبعا لمـا أنها تماس على طريق التكافؤ وأنها على ذلك ليست هى شيئا واحدا بعينه ، وأنها بتركبها واشتباكها بعضها ببعض تكوّن العالم كله . ويستنتج لوكيبس من هذا أن التعدد لم يكن ليخرج البتة من الوحدة الحقة كما أن الوحدة لا يمكن أن تأتى أيضا من التعدد الحق وأن كل هذا هو محال على الاطلاق من جهة ومن أخرى . وأخيرا كما أن أمبيدقل وبعض الفلاسفة الآخرين يزعمون أن فى الأشياء الفعل الذى تقبـله وتعانيه هو يحصل فيهـا بواسطة المسام فكذلك يرى لوكيبس أيضا أن كل استحالة للأشياء وكل انفعال لها انما يحصل على هذا النحو نفسه وأن الانحلال والفساد يكونان بواسطة الخلو، والنمو حاصل كذلك بواسطة الجزيئات الجامدة التى تدخل فى الأشياء .

§ ٦ — وأما أمبيدقل فينبغى ضرورة أن يقول قول لوكيبس تقريبا لأنه يقول بأنه يجب أن يوجد جزيئات جامدة وغير قابلة للتجزئة اذا كانت المسام ليست متصلة مطلقا . ولمـا أن هـذا الاتصال للمسام محال لأنه حينئـذ لا يمكن وجود شىء

النسخ "ملىء للغاية . ملىء بالتمام" وليس بين الروايتين إلا تغيير حرف واحد . — هذه العناصر — التزمت هنا أن أوضح التعبير الذى جعله النص غير محدّد . — لطافة حجمها للغاية — تلك هى الذرات المقبولة أيضا عند ديمقريطس استاذ لوكيبس . — ويزيد على ذلك لوكيبس — ليس النص على هذا الضبط . ولكن المعنى الذى أعطيه يستفاد من أسلوب الجملة الإغريقية نفسها . — شيئا واحدا بعينه — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — العالم كله — أضفت هذه العبارة لكيلا أكرر ما قيل آنفا . — ويستنتج لوكيبس من هذا — ليس النص على هذه الصراحة . — الذى تقبله وتعانيه — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — بواسطة المسام — ر . ماسبق ف ١ . — بواسطة الخلو — تكرير لمـا قيل آنفا فى هذه الفقرة نفسها . — التى تدخل — أو التى "تتولج" .

§ ٦ — وأما أمبيدقل — ر . ماسبق ف ٢ حيث يظهر أن أمبيدقل أُنزل من أجل هذه النظرية فى منزلة أدنى من ديمقريطس ولوكيبس . — جزيئات جامدة وغير قابلة للتجزئة — وفى هذا المعنى يقرب أمبيدقل من مذهب الذرات . — ليست متصلة مطلقا — يعنى تلامس مباشرة بعضها بعضا . ولكن فكرة المسام عينها تستلزم ضرورة

جامد، إلا أن يكون هو المسام، والكل بلا استثناء لا يكون بعدُ إلا خلوا، فحينئذ يلزم على رأى أمبيدقل أن الجزيئات التى تماس تكون غير قابلة للتجزئة وأن المسافات وحدها التى تفصلها تكون خلوات، وهذا هو ما يسميه المسام . وهذه الآراء هى أيضا آراء لوكيبس فى الفعل والانفعال فى الاشياء .

§ ٧ — تلك هى الايضاحات التى أعطوها عن الوجه الذى تكون به الأشياء تارة فاعلة وتارة منفعلة . وحينئذ يرى مبلغ ما عليه فى الحقيقة هؤلاء الفلاسفة وكيف يعبرون آراءهم فى هذا الصدد مؤيدين مذاهب تكاد تكون مطابقة للحوادث .

§ ٨ — ولكن فى نظريات فلاسفة آخرين كأمبيدقل يُلمح، بجلاء أقل، كيف يُدرك كون الأشياء وفسادها واستحالتها والطريقة التى بها تقع هذه الظواهر . فعلى رأى البعض أن العناصر الأولية للأجسام هى غير قابلة للتجزئة ولا تختلف بينها إلا بالصور، ومن هذه العناصر تتركب الأجسام فى البداية وإليها تنحل فى النهاية . ولكن من جهة أمبيدقل فقد يُرى على كفاية الوضوح أنه يبلغ بكون الأشياء وفسادها إلى العناصر أنفسها . على أنه كيف يمكن أن يكون وأن يفسد العظم الملتئ لهذه العناصر؟ هذا هو ما ليس بيّنا البتة فى مذهبه . بل

حواجز جامدة تفصلها وتعزلها بعضها عن بعض . — هذا الاتصال المسام — النص ليس على هذا القدر من الصراحة وعبارته غير محددة . ولكن المعنى مع ذلك لا يمكن أن يكون محلا للشك . — إلا أن يكون هو المسام — وربما كان أحسن «بجانب المسام» . — على رأى أمبيدقل — زدت هذه الكلمات . — التى تماس — وتكون بنوع ما حواجز للمسام . — وحدها — هذه الكلمة ليست فى النص ولكن ظهرت لى مفيدة فى اتمام الفكرة . — هى أيضا آراء لوكيبس — نتيجة وتكرير لما قيل فى أول هذه الفقرة .

§ ٧ — تارة فاعلة وتارة منفعلة — أو أيضا «تفعل وتنفعل» . — هؤلاء الفلاسفة — هذا ينطبق بالأخص على لوكيبس وديمقريطس . — تكاد تكون مطابقة للحوادث — ر . ما سبق ف ٤ .

§ ٨ — كأمبيدقل — هذا يشبه أنه مناقض لما قيل فى ف ٦ حيث آراء أمبيدقل معتبرة لصيقة بآراء لوكيبس التى ووفق عليها . — فعلى رأى البعض — يعنى الفلاسفة الآخرين ما عدا أمبيدقل . — غير قابلة للتجزئة — هى الجواهر الفردة . — تتركب الأجسام فى البداية — تكرير لما سبق . — العظم — مهما كان . يعنى غير متناه فى الصغر ما دام الأمر خاصا بالذرات . — أن النار ذاتها

زيادة على ذلك أن هـذا ما لا يستطيع تبيانه ما دام أنه ينكر أن النـار ذاتها عنصر كما ينكر أيضـا على السواء وجود جميع العناصر الأخرى . وقد أيد أفلاطون النظرية عينها فى طيماوس لأنه فضـلا على أن أفلاطون يعـبر فى هذه النقطة مثل لوكيبس فان أحدهما يقبـل أن التى لا تتجزأ هى جوامد والآخر أنهـا ليست إلا سطوحا، وأن أحدهما يقرر أن جميع الجوامد التى لا تتجزأ هى محدودة بأشكال عددها غير متناه والآخر أن لهـا أشكالا متناهية ومضبوطة . والنقطة الواحدة التى فيها يتفق الاثنان جميعا أنهما يقبلان وجود التى لا تتجزأ وتحديدها بأشكال .

§ ٩ — اذا كان حقا أن من ذلك فى الواقع تأتى أكوان الأشياء وفساداتها فمن ثم يوجد عند لوكيبس لادراكها طريقتان الخلوّ والتمـاسّ . وعلى هذا النحو، على رأيه، أن كل شيء قد يكون متميزا ومنقسما . ولكن عند أفلاطون الأمر على الضدّ ليس إلا التماس وحده مادام أنه يرفض وجود الخلو . وقد تكلمنا فى بحوثنا السابقة على مذهب السطوح التى لا تتجزأ، وأما الجوامد التى لا تتجزأ فليس ها هنا محـل لفحص أطول من ذلك عن نتائج هـذه النظرية التى ندعها الآن الى جانب .

عنصر — ر . فيما سيأتى ك ٢ ب ٣ ف ٦ رأى أمبيدقل فى النار التى هى على رأيه خليط و بالنتيجة ليست عنصرا حقيقيا . — وقد أيد أفلاطون النظرية عينها — النص أقل صراحة . — فى طيماوس — ر . ترجمة كوزان ص ١٦١ و ١٦٧ وما بعدها . — إلا سطوحا — ربمـا لم يقل أفلاطون ذلك صراحة . ولكن هذا هو النتيجة الضرورية لنظرياته . — متناهية ومضبوطة — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — والنقطة الواحدة التى فيها يتفق الاثنـان — ليس النص على هذه الصراحة. — وجود التى لا تتجزأ — لا يظهر أن أفلاطون يقبل مذهب الجواهر الفردة تماما على النحو الذى يظهر أن أرسطو يقوله هنا .

§ ٩ — فساداتها — أو "انفصالاتها" وكلمة النص ليست أكثر من ذلك ضبطا . — على رأيه — زدت هذه العبارة . — قد يكون متميزا ومنقسما — وضعت هاتين الكلمتين لأوفى قوة كلمة النص الواحدة . — الا التمـاس وحده — يعنى أن السطوح بتلامسها تنتهى بأن تركب الأجسام . ولا أدرى هل هذا هو فى الحق معنى نظرية أفلاطون . — فى بحوثنا السابقة — ر . كتاب السماء ك ٣ ب ١ ف ١٤ وخصوصا ب ٧ و ٨ حيث نظرية أفلاطون منقوضـة بالتطويل . — السطوح التى لا تتجزأ — هذا هو مذهب أفلاطون . — أما الجوامد التى لا تتجزأ — هذا هو مذهب الجواهر الفردة الذى هو مذهب لوكيبس وديمقريطس . — نتائج هذه النظرية — ليس النص بينا هكذا .

§ ١٠ — ولكن إذا نحن استطردنا بعض الشيء نقول إنه ضرورة فى هـذه المذاهب كل ما لا يتجـزأ فهو يجب أن يكون غير منفعـل لأنه لايمكن أن يكون منفعلا وقابلا أى فعل ما إلا بالخلو الذى هو غير مقبول عندهم، وهو كذلك لا يمكنه أن يحدث أى فعل ما فى أى شيء اتفق ما دام أنه لا يمكن أن يكون لا صلبا ولا باردا مثلا . وفى الحق أنه من السخف الاقتصار على تخصيص الحرارة بالشكل الكرى وحده فقط لأنه من ثم يكون بالضرورة الكيف المضـاد، أعنى البرودة، يتعلق بشكل آخر غير الكرة . ولكن إذا كان هذان الكيفان يوجدان فى الأشياء، أعنى الحرارة والبرودة، فيكون من السخف الاعتقاد بأن الخفـة والثقل والصلابة والرخاوة لا يمكن أن تكون فيها أيضا . وإنى أعترف بأن ديمقريطس يزعم أن كل ما لا يتجزأ يمكن أن يكون أكثر ثقـلا إذا كان أكبر حجما بحيث إنه، بالبين بذاته أيضا، يمكن أن يكون أكثر حرارة .

§ ١١ — ولكنه من المحـال، متى كان الأمر على ما يقال، أن تلك التى لا تتجزأ لا تقبل تأثيرا ما بعضها من قبل البعض الآخر، وأن ماهو متوسط الحرارة مثلا لا يقبل تأثيرا من قبل ما له حرارة أكثر منـه للغاية . ولكن إذا كان الصلب

---

§ ١٠ — فى هذه المذاهب — . أضفت هذه الكلمات التى ظهرت لى ضرورية لاتمام الفكرة والتى يجيزها تفسير فيلوبون . — الذى هو غير مقبول عندهم — أضفتها للسبب المتقدّم . — من السخف — هذا التعبير القاسى قد كرر عدّة مرات فى هذه الفقرة ولكنه وارد فى النص كما هو فى الترجمة . — الشكل الكرى وحده فقط . — ر . طيماوس أفلاطون ترجمة كوزان ص ١٥٣ و ١٦٧ وما بعدها . وربما لا تكون عبارة طيماوس من التأكيد على ما يزعم أرسطو . — اذا كان أكبر حجما — النص هنـا بين الدقة لمـا به من الايجاز . ويظهر مع ذلك أن كل الذرات قد يجب أن تكون متساوية بينها وأن إحداها لا ينبغى أن تكون أكثر ثقلا من الأخرى .

§ ١١ — على ما يقال — النص أقل بيانا . — لا تقبل تأثيرا — أولا تنفعل . — ما هو متوسط الحرارة — هـذا هو الواقع المعلوم الذى هو توازن الحرارة . فان شيئين غير متساويى الحرارة يصيران متساويين بأن يفعـل أحدهما فى الآخر . — ولكن اذا كان الصلب يقبل — ليس النص على

يقبل تأثيرا فالرخو أيضا يجب أن يقبل تأثيرا لأنه لا يقال على شيء إنه رخو إلا مع الاستحضار الذهنى لفعل يمكنه احتماله ما دام الجسم الرخو هو بالضبط هـذا الذى يطاوع الضغط بسهولة .

§ ١٢ — ومع ذلك ليس أقل سخفا ألّا يقبل فى الأشـياء مطلقـا شيء إلا الصورة وإذا تقبل الصورة فمن السخف ألّا يفترض فيها إلا واحدة إما مثلا البرودة وإما الحرارة لأنه لا يمكن أن يوجد طبع واحد بعينه لهاتين الظاهرتين المتقابلتين .

§ ١٣ — وفى الحق أن من المحـال أيضا على سواء أن يفترض أن الموجود مع بقائه واحدا يمكن أن تكون له عدّة صور لأنه بمـا هو لا يتجزأ قد يعانى تغاييره المختلفة فى النقطة عينها . وبالنتيجة فعبثا ينفعل ، فيبرد مثلا ، وبهـذا عينه يحدث أيضا فعلا آخر أو بل يقبل أى تأثير آخر اتفق .

§ ١٤ — يمكن استخدام هذه التنبيهات أنفسها بالنسبة لجميع التغايير الأخرى لأنه سواء قبل القول بجوامد لاتتجزأ أو قبل القول بسطوح لاتتجـزأ فالنتائج تكون

هذه السعة . — يطاوع الضغط بسهوله — ر . الميتورولوجيا ك ٤ ب ٤ ف ٦ وما بعدها ص ٢٩٨ من ترجمتى .

§ ١٢ — ومع ذلك ليس أقل سخفا — هـذا الانتقاد موجه على الأخص بغـير شـك الى أفلاطون . — الصورة — هذا التعبير محمول هنا على معنى مهم ما دامت القرينة تبين أن معنى الصورة أيضا الخاصية . وفى الواقع أن الحار والبارد خاصيتان وليستا صورتين بالمعنى الخاص . — لهاتين الظاهرتين المتقابلتين — أضفت الكلمة الأخيرة .

§ ١٣ — مع بقائه واحدا — ليس النص على هذه الصراحة . — تغاييره المختلفة — زدت الكلمة الأخيرة . — فى النقطة عينها — الكلمة التى استعملت فى النص غير محددة فاضطررت الى زيادة الضبط . — يحدث أيضا فعلا آخر — المعنى ليس جليا وكان يقتضى توسعا فى التعبير . — أى تأثير آخر اتفق — هنا أيضا ترجمتى أكثر ضبطا من النص .

§ ١٤ — بجوامد لا تتجزأ — هذا هو مذهب لوكيبس وديمقريطس . — بسطوح لاتتجزأ — هذا هو مذهب أفلاطون . ر . ما سبق ف ٩ . — أن اللا متجزئة — عبارة النص ليست محدودة تماما . — فى اللا متجزئة — هذه هي عبارة النص بعينها .

هى أنفسها ما دام ليس ممكنًا أن اللا متجزئة تكون تارة أكثر تخلخلا وتارة أكثر كثافة اذا لم يوجد خلو فى اللا متجزئة .

§ ١٥ — وكذلك من السخف على السواء تماما افتراض أن أجساما صغارا هى غير قابلة للتجزئة وأن أجساما كبارا لا تكونه . ففى الحالة الحاضرة للأشياء يفهم العقل فى الواقع أن الأجسام الكبرى يمكن أن تتفتت بأسهل جدا من الصغرى مادام أنها تتحلل بدون عناء لأنها كبيرة وأنها تتلامس وتتصادم فى كثير من النقط . ولكن لماذا ذا اللا متجزئة قد توجد مطلقا فى صغار الأجسام بالأولى من أن توجد فى الكبار؟ .

§ ١٦ — وفوق ذلك كل هذه الجوامد هل هى من طبع واحد بعينه أم هل هى تختلف بعضها عن بعض بما أن بعضها من النار والآخر من الأرض بحسب كتلتها؟ فإذا لم يكن إلا طبع واحد بعينه لجميعها فماذا عسى أن تكون العلة التى قسمتها؟ بل لماذا بتماسّها لا تجتمع كلها بالتماس فى كتلة واحدة بعينها كالماء حينما يلامس الماء؟ فان الماء الأخير المضاف لا يختلف فى شىء عن الماء الذى كان يتقدّمه .

---

§ ١٥ — أجساما صغارا — الجواهر الفردة مفروض أنها على نهاية ما يمكن من الدقة بحيث تعزب عن مشاهداتنا . وقد استُنتج أنها غير قابلة للقسمة لأنها أصغر من أن تقسم .

— ففى الحالة الحاضرة للأشياء — عبارة النص هى : «الآن» . — تتحلل — قد يكون أولى «تتجزأ» . — وأنها تتلامس وتتصادم فى كثير من النقط — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — مطلقا — ليس فى النص الإغريقى الا هذه الكلمة وحدها والتعبير أوجز مما ينبغى وكان يلزم التوسع فيه لجعل المعنى أبين من ذلك . فاذا كانت الجواهر الفردة غير قابلة للتجزئة بطبعها فصغرها وكبرها لا دخل له فسواء كانت كبيرة أم صغيرة فانها تظل غير قابلة للتجزئة وعلى ما جبلها الطبع .

§١٦ — وفوق ذلك — رد آخر بعد الردود السابقة . — كل هذه الجوامد — المعتبرة أنها جواهر فردة أو ذرات غير قابلة للقسمة . — بما أن بعضها من النار — على حسب ما يظهر أنه ينتج على الخصوص من النظريات المقررة فى طياوس . — التى قسمتها — أو «فصلت بعضها عن بعض» . وهنا القسمة أو الفصل يشبه أنها ترجع أيضا الى مجرد عدم المشابهة . — بتماسها — أو «بعد أن تلامست على طريق التبادل» . — فى كتلة واحدة بعينها — عبارة النص غير محددة . — كالماء — المثل على الأقل واضح جدا لأن الماء ينضم

ولكن إذا كانت هـذه التى لا تتجزأ يختلف بعضها عن بعض فحينئـذ ماذا تكون؟ بيّن بذاته أنه يلزم التسـليم أن هذه هى مبادئ الظواهر وعللها أولى من أن تكون مجرد أشكال لهـا . ومن جهة أخرى إذا قيـل إنها مختلفـة الطبع فحينئذ يمكنهـا بتلامسها المتبادل أن تفعل أو تنفعل بعضها بالآخر.

§ ١٧ — أكثر من ذلك، ما ذا سيكون المحرك الذى يوقعها فى الحركة؟ إذا كان هذا المحرك مخالفا لهـا فحينئذ يكون ما لا يتجزأ قابلا . وإذا كان كل ما لا يتجزأ يحرك نفسـه فاما أن يصير قابلا للتجزئة بمـا هو محرِّك فى جزء ومحرَّك فى جزء آخر واما أن يجتمع النقيضان فى الشىء بعينه معا، وحينئذ تكون المـادة واحدة لا بالعدد فقط بل بالقوة أيضا .

الى المـاء بلا أدنى عناء . وإن الذرات يجب أن تجتمع بعضها مع بعض على هـذا النحو بسبب تمـاثلها الطبيعى . — المـاء الأخير — هذه هى عبارة النص بعينها . — المضاف — هذه الكلمة ليست فى النص . — فحينئذ ما ذا تكون ؟ — هذا سؤال موجه الى مذهب أفلاطون ومذهب لوكيبس الذى يريد أرسطو بلا شك أن يعيب عليه أنه لم يلح فى هذه النقطة قدر الكفاية . — مجرد أشكال لها — المسلم بها فى نظريات أفلاطون ونظريات لوكيبس . — اذا قيل — ليس النص على هذه الصراحة . — تفعل أو تنفعل — فى حين أنه فى المذاهب التى يطعن فيهـا أرسطو تُعتـبر الجواهر الفردة غير قابلة للانفعال . ر . ما سبق ف ١٠

§ ١٧ — ماذا سيكون المحرك الذى يوقعها فى الحركة ؟ — ليس النص على هذه السعة . — مخالفا لها — يعنى أجنبيا منها وخارجا عنها . — ما لا يتجزأ قابلا — وهو فى النص أيضا بصيغة المفرد ولكن الجمع ربما كان أولى ما دام المقصود هو الجواهر الفردة . فان ما لا يتجزأ يصـير قابلا بمـا هو يقبل ويعانى الحركة التى يوصلها اليه المحرك . — اذا كان كل ما لا يتجزأ يحرك نفسه — من غير أن يتلقى الحركة من الخارج . — محرك فى جزء ومحرك فى جزء آخر — قد وُضّح فى "الطبيعة" أن المحرك الذى يعطى الحركة الذاتية لنفسه يجب أن يفهم على أن له جزأين أحدهما يتلقى الحركة التى يعطيها له الآخر، مع أنه يبقى بكله غير متحرك. ر. الطبيعة ك ٨ ب ٦ ف ٥ ص ١٠٦ من ترجمتنا . — فى الشىء بعينه — وهو محال لأن الضدين لا يجتمعان فى آن واحد فى شىء واحد بل يجب أن يتعاقبا عليه . — بالعدد — أو بالشخص . — بل بالقوة أيضا — يعنى أنها يمكن أن تنفعل بالضدين معا . وكلمة بالقوة هنا ليس لها معناها العادى .

§ ١٨ — وحينئذ هؤلاء الذين يزعمون أن التغاير التى تقبلها الأجسام تكون بحركة المسام يجب عليهم أن ينتبهوا ، لأنهم اذا سلموا بأن الظاهرة تقع حتى لو كانت المسام مليئة لاستعاروا حينئذ للمسام وظيفة غير مفيدة قطعا مادام أنه اذا انفعل الجسم فى هـذه الحالة بالطريقة عينها يمكن افتراض أنه ، بدون أن يكون له مسام و بمـا هو نفسه متصل ، قد يمكنه أيضا أن يقبل بالتمـام كل ما يقبل .

§ ١٩ — ولكن كيف يمكن أن يحصل النظر بالطريقة التى يفسر بها فى هذا المذهب؟ ليس أكثر إمكانا فى الواقع أن يمر بالتماسات من خلال الأشياء الشفافة منه فى خلال المسام إذا كانت المسام كلها مليئة . فأين يكون الفرق إذًا بين أن يكون لهـا مسام و بين ألّا يكون لهـا البتة ما دام أن الكل سيكون مليئا على السـواء ؟ بل إذا كانت هـذه المسام ذواتها مفترضة خالية وإذا كان فيها أجسام فحينئذ تعود الصعوبات أنفسها . ولكن إذا افترض أن المسام ذوات امتدادات صغيرة بحيث لا تستطيع بعدُ أن تقبـل أى جسم اتفق فان من سفه الرأى أن يتصوّر أن الصغير

---

§ ١٨ — يجب عليهم أن ينتبهوا — ليس النص على هذا القدر من الضبط فظننت واجبا علىّ أن أقسم الجملة والفكرة لأجعلهما أكثر بيانا . — حتى لو كانت المسام مليئة — أو "مملوءة" بالمواد التى يمكن أن تجتازها لتفعل فى الأجسام وتغيرها بأية طريقة كانت . — انفعل... بالطريقة عينها — و يعانى الفعل الذى قد يعانيه بدون أن يكون له مسام أو اذا كانت المسام خالية . — كل ما يقبل — أضفنا هذه الكلمات .

§ ١٩ — النظر — من خلال الأوساط وكما قيل آنفا "من خلال الأجسام الشفافة" التى هى مفترضة ذوات مسام يمر منها الضوء . — بالتماسات — حفظت عبارة النص على حالها مع كونها غامضة . ولم يك شرح فيلو پون ليزيل هذا الغموض . وقد ينبغى أن يفهم أن الضوء انمـا يلامس سطوح الأجسام الشفافة و ينفذ فيها هكذا . — اذا كانت المسام كلها مليئة — بجسم يكون الضوء مضطرا لطرده أمامه ليأخذ مكانه و يجتاز الجسم الشفاف . — بين أن يكون لها مسامّ و بين ألا يكون لها البتة — ليس فى النص هذا الترديد الذى ظهر لى ضرور يا لتبيين الفكرة . — ما دام أن الكل سيكون مليئا على السواء؟ — إما باتصال الجسم نفسه وإما بامتلاء المسام . — هذه المسام — النص غير محدود تماما . — الصعوبات أنفسها — التى جىء على بيانها . ويقال فى الجزيئات الموجودة فى المسام ما كان يقال أولا فى المسام أنفسها . — أن الصغير خال — حفظت بناء جملة النص على ما هو عليه . والمراد بالصغير هاهنا الجسم القليل الامتداد . — أن الخلو

خال وأن الكبير ليس كذلك مهما كانت سعته وأن يُمْشى بالاعتقاد إلى أن الخلو هو شىء آخر غير مكان الجسم بحيث إنه ، كما هو بيّن بذاته ، يلزم أن يكون الخلو دائما على مقدار مساو للجسم نفسه .

§ ٢٠ — وعلى جملة من القول فانه غير مفيد افتراض مسام . فاذا كان جسم لا يفعل فى آخر بمسّه فلن يفعل أيضا بأن يخترق مسامّ . وإذا كان إنما يفعل بالمس فحينئذ ، حتى بدون مسام ، تفعل الأجسام أو تقبل الفعل كلما وضعها الطبع أحدها تلقاء الآخر فى علاقة من هذا القبيل .

§ ٢١ — والحاصل أنه يرى من كل ما تقدّم أن تصوّر مسام على الوجه الذى فهمها به بعض الفلاسفة إنما هو خطأ كامل أو فرض باطل . فإن الأجسام بما هى قابلة للتجزئة مطلقا فى كل جهة فمن السخرية افتراض مسام ما دام أن الأجسام بما هى قابلة للتجزئة يمكنها دائما أن تنفصل .

هو شىء آخر غير مكان الجسم — الفكرة غامضة قليلا ولم أجد فى شرح فيلوپون شيئا يوضحها على قدر الكفاية .

§ ٢٠ — وعلى جملة من القول — هذا هو محصل المناقشة السابقة . وقد استنتج أرسطو أن نظرية الفعل والانفعال لا حاجة بها الى فرض المسام الذى تخيله بعض الفلاسفة . — فى آخر — أضفت هاتين الكلمتين . — و إذا كان إنما يفعل بالمس — يعنى بأن يلمس مباشرة الشىء الذى يقع عليه فعله . — كلما وضعها الطبع — ليس النص على هذا القدر من الضبط .

§ ٢١ — إنما هو خطأ — ملخص كل هذه المناقشة . — قابلة للتجزئة مطلقا فى كل جهة — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — أن تنفصل — وتعمل لأنفسها مسامّ كما فسره فيلوپون .

الباب التاسع

تفاصيل جديدة على نظرية كون الأشياء وعلى خواصها الفاعلة والقابلة — الأفعال التى تحصل عند التماس وعلى بعد — توضيح ديمقريطس غير الكافى — تحول أشكال الأجسام اذ تتغير بالحال دون أن تتغير بالمكان — خاتمة نظرية الفعل والانفعال .

§ ١ — أما نحن فاننا صاعدين الى المبدأ الذى طالما قررناه نعيد إيضاح الطريقة التى بها الكون والفعل والانفعال تقع فى الأجسام. فى الواقع إذا كان شىء له الخاصة الفلانية تارة بالقوة المحضة وتارة بالفعل و بالكمال و إذا كان يمكنه بالطبع أن ينفعل فى واحد معين من أجزائه ولا ينفعل فى الآخر ولكن فى مجموعه ينفعل بنسبة ما له من هذه الخاصة، فمن البين أنه سينفعل أكثر أو أقل تبعا لما أن هذه الخاصة فيه أكثر شدّة أو أقل . على هذا الوجه على الأخص قد يمكن بأكثر سهولة التسليم بوجود المسام ، وتكون حالها على ذلك فى الأجسام كما هو الحال فى المعادن تمتد أحيانا عروق متصلة من المادة القابلة لانفعال ما .

§ ٢ — على ذلك كلما كان الشىء متجانسا وكان واحدا كان غير قابل . ويُجرى هذا المجرى أيضا متى كانت الأشياء لا تتلامس بينها أو لا تلامس أغيارا يمكنها

---

§ ب ٩ ف ١ — المبدأ الذى طالما قررناه — وهو التميز بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل كما سيرد فى السطور الآتية . — بالقوة المحضة — أضفت كلمة «المحضة» . — بالفعل و بالكمال — ليس فى النص الا كلمة واحدة . فان التمييز بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل هو أحد المبادئ الأساسية لمذهب المشائين . ولكن قد يرى أن تطبيقه هنا ليس واضحا جدا بل ولا نافعا جدا لايضاح نظرية المسام . — واذا كان يمكنه بالطبع ... — قد تركت الجملة اليونانية طولها كله لكيلا أغير تأليفها فى النص . — قد يمكن بأكثر سهولة التسليم — عبارة النص ليست على هذا القدر من البيان ولو أن عبارتى فى الترجمة ليست على ما كنت أريد أن تكون من الجلاء . — وتكون حالها على ذلك فى الأجسام — فى الحق أنها لا تكون بعد مسام بل تكون فقط بعض أجزاء من مادة الجسم أكثر قابلية من غيرها لقبول الأثر الفلانى أو الفلانى . — كما هو الحال فى المعادن — المشاهدة مع ذلك حقة . وليس ولا واحد الا شاهدها . — القابلة لانفعال ما — ليس النص على هذا القدر من البيان .

§ ٢ كلما كان الشىء متجانسا وكان واحدا — أو بعبارة أخرى ألا يكون مستجمعا الشرائط المطلوبة لينفعل أو ليحدث فعلا مادام أن الشىء لا يمكن أن يفعل فى نفسه وكان الشبيه لا يفعل فى الشبيه ولا يقبل

بطبعها أن تفعل أو تنفعل أعنى مثـلا أنه ليس فقط النار تسخن بالتماسّ ولكنها تسخن أيضا على مسافة لأن النـار تسخن الهواء والهواء يسخن الجسم لأن الهواء بطبعه يمكنه أن يفعل وينفعل معا .

§ ٣ — ولكن متى يقال إن شيئا يمكن أن ينفعل فى واحد من أجزائه ويمكنه ألا ينفعل فى آخر فينبغى إيضاح ما ذا يُعنى بذلك بعد الحدّ المعطى فى المبدأ، فاذا كان فى الواقع العظم ليس هو مطلقا قابلا للتجزئة فى جميـع الجهات لكن فيه شيئا ما جسما كان أو سـطحا يكون غير قابل للتجزئة فيه فقـد ينتج من ذلك أنه لا يوجد بعـد من عظم يمكن أن يكون بكله قابلا، بل قد لا يكون بعـد من شىء أمكن أن يكون متصلا . وحينئذ اذا كان ذلك خطأ وكان كل جسم قابلا للتجزئة دائما فلايهم بعد أن يكون الجسم مقسوما فعلا وبهذه الصفة قابلا للتماسّات أو يكون

منـه . — كان غير قابل — بمعزل عن كل فعل وكل انفعال آت من ذاته . — لا تلامس بينها — بلا واسطة . — أولا تلامس أغيارا — تصلح اذًا كوسطاء للوصول الى الشىء الذى عليه يقع الفعل . — أن يفعل — بأن ينقل الى الجسم الحرارة التى تلقّاها . — وينفعل — بأن يقبل مباشرة حرارة النار التى يجب أن ينقلها .

§ ٣ — متى يقال — يمكن ترجمتها أيضا "متى أقول" فان الفرق بينهما غير بين فى النص . — بعد الحدّ المعطى فى المبدأ — قربت الترجمة من النص بقدر ما استطعت ولكن الفكرة لا تزال غامضة ولم يغن شرح فيلوبون فى جلائها شيئا . — فقد ينتج من ذلك — عبارة النص ليست مضبوطة ولكن هذا المعنى يظهر أنه ينتج لزوما مما يلى . — يمكن أن يكون بكله قابلا — ر . الفقرة السابقة . — أمكن أن يكون متصلا — لأن الذرات منعزلة بعضها عن بعض وما دامت منفصـلة هكذا لا يمكن أن يكون لهـا الاتصال الذى هو ضرورى لتأليف جسم . — وكان كل جسم قابلا للتجزئة — هـذه هى نظرية أرسطو المبسوطة مرارا فى "الطبيعة" . — مقسوما ... قابلا للتجزئة — هـذا هو ما بالفعل وما بالقوة . — فى نقط التماس — عبارة النص هى : "بحسب التمـاسات" . — لاشىء ممـا هو محال يكون أبدا — هـذا المبدأ بديهى للغاية ولكن لا يرى وجه اتصاله بما سبق . وقد أفرغت جهدى فى استجلاء هـذه الفقرة فلم أنجح ولم أجد الشراح بمـا فيهم سان توماس قد نجحوا فى ذلك أيضا . وهاك تفسيرا يساعد بالأقل على تسلسل المعانى : " لكى تفسر ماهية الفعل والانفعال فى الأشياء يلزم التسليم بأنه من المحال أن شيئا يقبل فعلا ما" "فى واحد من أجزائه ولا يقبله فى الجزء الآخر . فالشىء إما أن يكون بكله قابلا وإما أن يكون بكله فاعلا ."

بالبساطة قابلا للتجزئة لأنه مادام يمكن أن يكون مقسوما فى نقط التماس، كما هو المدعى، يمكن اعتباره كأنه مقسوم حتى قبل أن يكونه ويكون قابلا للقسمة مادام أنه لا شيء مما هو محال يكون أبدا .

§ ٤ — وإن ما يجعل سخيفا تماما تقريرَ أن الفعل والانفعال يحصلان على هذا النحو بشقّ الأجسام هو أن هذه النظرية تمحو الاستحالة وتفسدها . وعلى هذا نحن نرى أن جسما بعينه دون أن ينقطع عن أن يكون متصلا هو تارة سائل وتارة متجمد دون أن يقبل هـذا التحوّل لا بقسمة أجزائه ولا باتحادها ولا بنقلتها ولا بتماسّها كما يزعم ديمقريطس . لأن الجسم ما كان ليغير وضعه ولا ليغير مكانه ولا ليغير طبعه ليصير متجمدا بعد أن كان سائلا . وليس يرى أيضا أن الأشياء المتصلبة والمتجمدة تكون حالا غير قابلة للقسمة فى كتلتها بل الجسم بكله يكون على السواء سائلا وأحيانا يصير بكله صلبا ويتجمد .

"فاذا سلم بالذرات فحينئذ يمكن ألا يكون الشيء بعد قابلا بكليته ولكن بذلك أيضا ينقطع عن أن يكون"
"متصلا . وإذًا فمذهب الذرات باطل . وكل عظم هو دائما وعلى الاطلاق قابل القسمة دون أن يمكن"
"الوصول الى جزيئات لا تتجزأ . ويكاد لا يهم ما اذا كانت القسمة واقعة ماديا أو ممكنة امكانا مجردا"
"على وجه ذهنى صرف . ويكفى إمكان حصولها ليكون الجسم الخارج منها له دائما وحدته وأن يكون"
"بالنتيجة فى مجموعه إما فاعلا وإما قابلا" .

§ ٤ — الفعل والانفعال — النص غير محدّد تماما ولكنى أحدّد المعنى اعتمادا على تفسير فيلوپون . — على هذا النحو — يعنى بواسطة المسام التى افترضها بعض الفلاسفة . — بشق الأجسام — حفظت عبارة النص بعينها ، فان الأجسام هى بنحو ما مشققة بالمسام التى تخللها . — تمحو ... وتفسدها — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — الاستحالة — يعنى أن فى هذا المذهب لا يمكن إدراك ظاهرة الاستحالة . — دون أن ينقطع عن أن يكون متصلا — ليس النص على هـذا القدر من الصراحة . — تارة متجمد — يضرب فيلوپون مثلا لذلك اللبن الذى هو تارة سائل وتارة متجمد . وقـد يمكن الظن كبعض الشراح أن المقصود أيضا هو الماء فانه تارة سائل وتارة جليد . — بتماسها — على تقدير بأجسام أخرى . — كما يزعم ديمقريطس — وفى الحق هـذه هى كل ما ينسبه ديمقريطس الى الذرات من الخواص . — متجمدا — أو جليدا . — حالا — أى فى النظام الحالى للطبع . — غير قابلة للقسمة فى كتلتها — يفهم سانت توماس من هذا أنه لا حاجة بأن تتجمد الأشياء أو تتجلد الى أن تدخلها ذرات غير قابلة للقسمة بل هى تكابد هذا التغير فى جوهرها الذاتى . — على السواء — أى فى جميع أجزائه بدون أن بعضها يعانى التغير الذى تقاومه الأخرى .

§ ٥ — وأخيرا ، فى هـذا المذهب قد لا يمكن بعدُ وجود نمو الأشياء ولا اضمحلالها لأنه لا جسم يمكن أن يصير أكبر إذا لم يكن هناك إلا مجرد إضافة وإذا لم يتغير بكله على أثر اختلاط بشيء أجنبي أو على أثر تغير ما يحصل فيه .

§ ٦ — ونحن نقتصر على ما أتينا به من القول فيما يتعلق بكون الأشياء وفعلها وتناسلها وتحولاتها المتكافئة . وهـذا يكفى على سواء ليفهم على أى النواحى هـذه النظريات تكون ممكنة وكيف لا تكونه بحسب الايضاحات التى أعطيت عنها أحيانا .

---

§ ٥ — فى هذا المذهب — أضفت هذه الكلمات لتبين الفكرة . — قد لا يمكن بعد وجود — يعنى أنه لا يمكن توضيح ماهو نمو الأشياء أو اضمحلالها . — إلا مجرد اضافة — بأن تأتى الذرات فتنضم الى الجسم لتنميه وتزيد حجمه أو أنها تنسحب منه لتنقصه أو لتهلكه . — بشيء أجنبي — أضفت الكلمة الأخيرة . — يحصل فيه — النص ليس على هذا القدر من الضبط .

§ ٦ — نقتصر — هذا ملخص مضبوط لكل هذا الباب والأبواب السابقة من أول الباب السابع . وإن أرسطو بعد أن فسح مكانا لتوضيح المذاهب الأخرى لم يكد يفسح لمذهبه الخاص من الإيضاح ما كان يستدعيه من البيان والإطناب .

الباب العاشر

نظرية الاختلاط — من الفلاسفة من أنكر أن الأشياء أمكنها أن تختلط فيما بينها — إبطال هذه النظرية — المعنى العام لشروط الاختلاط — الطبع المختلف للأجسام المخالطة — الفرق بين الاجتماع وبين الاختلاط الحق — لكي يوجد اختلاط بين الأشياء يلزم أن يوجد بينها تجانس بل شيء من التناسب — النقطة من النبيذ في كمية من الماء — سهولة الاختلاط أو صعوبته تبعا للتخالف في طبع الأشياء وصورتها — خاتمة نظرية الاختلاط .

---

§ ١ — بقي علينا أن ندرس ما هو اختلاط الأشياء . وسنتبع هاهنا النمط عينه كما فيما سبق لأن هذا هو ثالث الموضوعات التي تصدّينا لفحصها في بداية هذه البحوث . يلزم إذًا أن ننظر ما هو الاختلاط وما هو الشيء القابل لأن يُخلط وما هي الأشياء التي يمكن أن يقع الاختلاط بينها وكيف تتحقق هذه الظاهرة .

§ ٢ — ومن جهة أخرى يمكن أيضا أن يتساءل عما اذا كان يوجد حقيقة بالفعل اختلاط للأشياء أو أن هذا ليس إلا ضلالا . لأنه يمكن أن يظن أن شيئا لا ينبغي البتة أن يختلط بآخر كما يزعم بعض الفلاسفة . يقولون إنه في الواقع حينما الأشياء التي اختلطت تبقى بعدُ أيضا ولم تكن لتستحيل لا يمكن أن يقال إنها الآن أكثر اختلاطا مما كانته من قبل ، ولكنها دائما في الحال بعينها . فاذا أخذ أحد الشيئين أن يبيد في الاختلاط لا يمكن بعد أن يقال إنهما اختلطا ولكن فقط إن أحدهما

---

§ ب ١٠ ف ١ — ثالث الموضوعات — أي مع الكون والفساد ومع الفعل والانفعال . — في بداية هذه البحوث — فيما سبق ب ١ ف ١ لم يتكلم أرسطو إلا على الكون والنمو والاستحالة . وكان يظهر أن هذه هي الثلاثة الموضوعات التي عوّل على الاشتغال بها . ولست أرى أنه نبه في أي موطن آخر على نظرية الاختلاط . — ما هو الاختلاط — الأسئلة الموضوعة هنا على الاختلاط هي مماثلة للأسئلة التي وضعت فيما سبق على الكون ب ١ وعلى الفعل ب ٧ . ومن هذه الجهة فان المؤلف مصيب في قوله إنه يتبع النمط الذي اتبعه من قبل .

§ ٢ — ومن جهة أخرى — من المذاهب ما ينكر أن اختلاط الأشياء ممكن البتة . وتلك المذاهب هي على ما يظهر تلك النظريات التي يلزم مناقشتها بادئ بدء لأنها تذهب الى حد إنكار المسألة والقضاء

يوجد وإن الآخر لا يوجد بعدُ، فى حين أن الاختلاط لا يمكن فى الحق أن يقع إلا بين شيئين يوجدان على السواء . ويزيدون، أخيرا، على ذلك أنه لا يوجد بعدُ اختلاط، بهذا السبب عينه، إذا كان الشيئان اللذان يجتمعان يفسدان كلاهما بالاختلاط لأنه من المحال قطعا أن أشياء لم تكن بعدُ البتة يمكنها أن تختلط .

§ ٣ — هذه النظرية، كما يرى، الغرض منها أن يتعين فيماذا يختلف اختلاط الأشياء عن كونها وعن فسادها . وأيضا فى أى شىء يختلف الشىء المختلط عن الشىء الكائن وعن الشىء الفاسد، لأنه من البيّن أنه ينبغى أن يكون الاختلاط مغايرا بافتراض أنه واقع بالفعل . ومتى وضحت هذه المسائل تحلّ المسائل التى وضعناها لأنفسنا من قبل .

§ ٤ — ذلك هو السبب فى أنه لا يمكن أن يقال إن المادة اختلطت بالنار التى أحرقتها حتى ولا إنها تختلط بها وقت ما تحرقها، كما أنه قد لا يمكن أن يقال إنها تختلط بنفسها فى أجزاء النار كما لا تختلط بالنار نفسها . بل يقال ببساطة إن النار تكوّنت وإن المادة القابلة للاحتراق قد فسدت . كما أنه لا يمكن أيضا أن يقال

عليها . — بعض الفلاسفة — لا شىء يعين فى هذا الباب من هم هؤلاء الفلاسفة بالضبط . — يقولون — أضفت هذه الكلمة التى تفهم من السياق مادام أن الذى سيمدّد فيما يلى انما هى الأدلة على نفى إمكان الاختلاط . — يزيدون ... على ذلك — أضفت هذه الكلمات للسبب المتقدّم .

§ ٣ — عن كونها وعن فسادها — ر . ما سبق ب ١ وما يليه . — ومتى وضحت هذه المسائل — تلك هى أدلة الفلاسفة الذين ينكرون الاختلاط . — تحل المسائل التى وضعناها لأنفسنا من قبل — فى بداية هذا الباب عينه .

§ ٤ — ذلك هو السبب — . هذا فرق بين الاختلاط وبين الكون أو الفساد . — المادة — حصلت كلمة النص بعينها ، ولكن المادة هنا معناها الجسم القابل للاحتراق : الخشب أو أية مادة أخرى تغذى النار . — إنها تختلط بنفسها — يعنى أن الخشب يختلط بالخشب . — فى أجزاء النار — أضفت الكلمة الأخيرة . — كما لا تختلط بالنار نفسها — قد اتقيت بقدر ما استطعت التكرير الموجود فى النص واعتمدت فى إيضاح هذه الفقرة كلها على تفسير فيلوبون . — تكوّنت ... فسدت — حصل فيه كون لأحدهما وفساد للآخر ولكنه لم يحصل فيه اختلاط . — كما أنه لا يمكن أيضا أن يقال — هذا فرق بين الاختلاط وبين الزيادة .

لا عن الغذاء ولا عن صورة الخاتم إن الأولى باختلاطها بالجسم والثانية باختلاطها بالشمع قد أعطتنا شكلا مّا للكتلة بتمامها . ينبغى الاعتراف أيضا بأنه لا الجسم ولا البياض ولا ، بالاختصار ، كيفيات الأجسام وتغايرها يمكنها أن تختلط بالأشياء ما دام أنه يرى على الضدّ من ذلك أن الاثنين يبقيان . كذلك أيضا البياض والعلم فى الواقع لا يمكنهما أن يركبا خليطا ولا أيضا أىّ واحد من الكيفيات أو الخواص التى ليست قابلة للانفصال .

§ ٥ — وأيضا يخدع نفسه من يقرر أن الأشياء جميعها كانت سابقا مندمجة وأن الكل قد وجد مختلطا لأن كلا لا يمكن البتة أن يختلط بكل على السواء . يلزم دائما أن كلا الشيئين اللذين يختلطان يمكن أن يبقى على حدة . وحينئذ فإن كيفيات الأشياء لا يمكنها أن تكون منفصلة عنها أبدا . ولكن لما أن من بين الأشياء بعضها تكون بالقوة المحضة والآخر بالفعل المحض فينتج من ذلك أن الأشياء التى تختلط يمكنها من جهة أن تبقى بعدُ ومن جهة أخرى ألّا تبقى . فاذا كان فى الواقع الخليط الحاصل من الاختلاط هو شيئا مخالفا فانه يكون كذلك دائما بالقوة للشيئين اللذين كانا

— صورة الخاتم — أضفت الكلمة الأخيرة التى يدل عليها السياق فيما يلى . وربما كان اختيار المثلين غير حسن لأن الغذاء يمكن أن يعتبر كأنه مختلط بالجسم الذى ينميه . ولكن بالبديهية طابع الخاتم لا يختلط به . — لا الجسم ولا البياض — حفظت عبارة النص على إيجازها ، فان البياض والجسم الذى هو أبيض لا يختلطان ولكن البياض هو فى الجسم . — كيفيات الأجسام وتغايرها — التى هى فى الأشياء ولكن بدون أن تختلط بها . — أن الاثنين يبقيان — عبارة النص أكثر إبهاما ، ويجب أن يعنى بالاثنين الجسم والكيفيات التى تكيفه . — البياض والعلم — يعنى كيفين عوضا عن جسم وكيف . — الكيفيات أو الخواص — النص غير محدد البتة ، — التى ليست قابلة للانفصال — على تقدير « عن الموضوعات التى هى فيها » وكل هذه الفقرة مغلقة جدا بل ربما كانت دقيقة فيما يظهر .

§ ٥ — وأيضا يخدع نفسه — هذا نقد موجه الى أنكساغوراس الذى كان يرى أن جميع الأشياء فى الأصل كانت مختلطة فى العماء قبل أن يأتى العقل ويرتب العالم . ر . الطبيعية ك ١ ب ٥ ف ٤ حيث تنقض نظرية أنكساغوراس ص ٤٥٥ من ترجمتنا . — كيفيات الأشياء — ر . الفقرة السابقة . — بالقوة المحضة ... بالفعل المحض — أضفت الصفتين . — شيئا مخالفا — للشيئين اللذين يكونان

يوجدان قبل أن يختلطا وقبل أن ينعدما فى الخليط . وهذا إنما هو على التحقيق الجواب على المسئلة التى أثارتها النظرية التى تكلمنا عليها آنفا . ويظهر أن الأخلاط تتألف من أشياء كانت من قبل منفصلة ويمكن أن تكونه أيضا من جديد . وعلى ذلك الأشياء المختلطة لا تبقى بالفعل كما يمكث ويبقى الجسم والبياض الذى يشخصه . وليست هى كذلك تكون فاسدة ، سيان أحد الاثنين على حياله والاثنان جميعا معا ما دامت قوتهما محفوظة دائما .

§ ٦ — ولكن لندع هذا الى ناحية ولننتقل الى المسألة الآتية التى تنحصر فى معرفة ما إذا كان الاختلاط هو شيئا يمكن حواسنا أن تدركه . مثال ذلك حينما الأشياء المختلطة تكون مقسومة الى أجزاء من الصغر بمكان وتكون موضوعة على قرب بعضها عند بعض حتى لا يعود أحدها متميزا من الآخر بوجه محسوس فهل يوجد فيها حينئذ اختلاط أو لا يوجد؟ ولكن أليس ممكنا أيضا أن فى الخلط الأشياء كيفما اتفقت تكون موضوعة أجزاء أجزاء بعضها بجانب الأخرى ؟ لأن هذا يسمى أيضا اختلاطا وعلى هذا النحو يقال إن التبن مختلط بالحب حينما يكون موضوعا بجانب كل حبة تبنة .

الخليط . — فى الخليط — أضفت هاتين الكلمتين . — الجواب على المسئلة — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — التى تكلمنا عليها آنفا — فى أوّل هذا الباب . — أيضا من جديد — بعد أن حصل الخلط . — الذى يشخصه — أضفت هاتين الكلمتين . — قوتهما — يعنى إمكان رجوعهما الى ما كانا عليه قبل الاختلاط .

§ ٦ — المسألة الآتية — يعنى التى ترتبط بالمسائل التى تقدمتها والتى هى بقية لها . — يمكن حواسنا أن تدركه — ربما كانت المسئلة على هذا الوجه غير موضوعة وضعا حسنا فان الاختلاط هو دائما قابل لأن تدركه حواسنا ولكن حواسنا تارة تميز العناصر التى تركب منها الخليط وتارة لا تميزها . — مثال ذلك — ليس النص واضحا هكذا . — بوجه محسوس — أو "بحواسنا" . — هل يوجد فيها حينئذ اختلاط أو لا يوجد؟ — هذا هو أول أنواع الاختلاط فان الحواس لا يمكنها بعدُ أن تميز العناصر التى ركبته . — ولكن أليس ممكنا أيضا — أحببت أن أصوغ هذه الجملة فى صيغة الاستفهام حتى تكون مقابلة للجملة التى سبقتها . وهذا هو التعبير الثانى للاختلاط فان الشيئين يبقيان باعتبار أن أجزاءهما إنما اجتمعت بعضها الى بعض . — التبن مختلط بالحب — المثل فى غاية الوضوح وهذا المثل ليس البتة كمزج الماء والنبيذ إذ أن فيه أحد السائلين لا يمكن مطلقا تمييزه عن الآخر كما كان ذلك مفروضا فى الإيضاح الأول .

§ ٧ — اذا كان جسم هو قابلا للتجزئة واذا كان جسم متى كان مختلطا بجسم آخر يجب أن يكون مجانسا له فقد يلزم أن كل جزء اتفق من الخليط ينضم الى جزء آخر اتفق . ولكن بما أن الجسم لا يمكن البتة أن يكون مقسوما الى أجزائه الصغرى وبما أن الانضمام ليس هو البتة الاختلاط بل هو شيء آخر تماماً فبالبيّن لا يمكن أن يقال بعدُ إن الأشياء اختلطت متى حفظت ذواتها على ما كانت فى جزيئات صغيرة . حينئذ يكون الضم ولكن لا يكون لا خلط ولا مزج، وحدّ جزء من الخليط لا يمكن بعدُ أن يكون هو الحدّ الذى قد يعطى للخليط بتمامه . أما نحن فنقول إنه لكى يوجد اختلاط حقيقى يلزم أن الشيء الخليط يكون مركبا من أجزاء متجانسة، وكما أن جزءا من الماء هو ماء كذلك أيضا يجب أن يكون أىّ جزء اتفق من الخليط . ولكن اذا لم يكن الاختلاط إلا انضمام جزيئات الى جزيئات فليس يوجد ولا واحد من الأحداث التى أتينا على تحليلها . وانما يكون فقط فى نظر الأعين أن الشيئين يظهر أنهما مختلطان. وكذلك الشيء عينه يظهر مخلوطا للرائى فلان الذى ليس له نظر نفّاذ فى حين أن "لينسيه" يجد أن ليس هناك اختلاط .

§ ٧ — اذا كان جسم هو قابلا للتجزئة — يظهر أن هذا هو رد من أرسطو على النظريتين السابقتين. وعلى هذا الوجه فهم فيلوپون وسان توماس هذه الفقرة . ولكن المعارضة ليست بينة فى النص الذى بقى غامضا على رغم بجهدى فى استجلائه ولم أستطع أن أجعل الترجمة أجلى منه بكثير. — الى أجزائه الصغرى — يعنى أن القسمة لا يمكن أن تصل الى جواهر فردة وأنها (أى القسمة) ممكنة دائما كما يقرره أرسطو بالأقل فى الذهن ان لم تكنها فى الخارج. — الانضمام — يمكن ترجمتها أيضا التأليف. — فى جزيئات صغيرة — كالحب والتبن اللذين سبق الكلام عليهما . — لا خلط ولا مزج — كلمتا النص هما من حيث الاشتقاق أكثر اتصالا من الكلمتين اللتين استعملتهما فى الترجمة . — اختلاط حقيق — أضفت كلمة حقيق زيادة فى بيان الفكرة . — الشيء الخليط — يعنى الناتج المتحصل من الاختلاط. — جزيئات الى جزيئات — ليس النص على هذه الصراحة . — ولا واحد من الأحداث التى أتينا على تحليلها — ليس النص على هذه الصراحة . — فى نظر الأعين — لا فى الواقع .

§ ٨ — إن التجزئة لا تفسر الاختلاط كما لا يفسره اجتماع جزء اتفق بجزء آخر ما دامت التجزئة لا يستطاع حصولها بهذه الطريقة .

وحينئذ إما ألا يكون اختلاط ممكنا و إما أنه يلزم اتخاذ نحو آخر من النظر لكى يُبسط كيف يمكن أن تقع هذه الظاهرة . ولنذكر بدياً أن من بين الأشياء ، كما قلنا ، بعضها فاعلة والأخرى قابلة لفعل تلك ، بعضها له تأثير مكافئ وهى تلك التى مادتها واحدة بما هى مستطيعة أن تفعل بعضها فى الأخرى أو تنفعل بعضها بالأخرى على السواء . وأخرى تفعل مع بقائها غير قابلة للانفعال وتلك هى التى مادتها ليست واحدة ، وهذه ليس فيها اختلاط ممكن . من هذا يرى كيف أن الطب لا يختلط بالأجسام ليفعل الصحة ولماذا الصحة لا تختلط به أيضا . § ٩ — بل من بين الأشياء التى يمكنها أن تفعل وتنفعل على طريق التكافؤ كل تلك التى تكون سهلة التجزئة ، حينما يختلط منها عدد عظيم بعدد قليل من أشياء أخر وكمية عظيمة بكمية أقل عظما لا تنتج على التحقيق اختلاطا بل نموا للعنصر الغالب . وحينئذ أحد الشيئين المختلطين يتغير فى الذى هو غالب . على ذلك نقطة من النبيذ لا تمتزج بكمية من الماء تكون عشرة آلاف ضعف . لأنه فى هذه الحالة النوع يتحلل ويتغير بتلاشيه فى كتلة الماء كلها . ولكن متى كانت الكميتان متساويتين تقريبا فحينئذ

---

§ ٨ — إن التجزئة لا تفسر الاختلاط — النص غير محدّد ، وقد اخترت المعنى الذى عينه فيلوپون . — كما لا يفسره اجتماع — الشأن هنا كما فى الملاحظة السابقة . — مادامت التجزئة لا يستطاع حصولها — يعنى أنها تقف عند حدّ الذرات أو الأجزاء التى لا تتجزأ التى لم يقبلها أرسطو البتة . — اتخاذ نحو آخر من النظر — ليس فى النص الا كلمة واحدة مبهمة وقد ظننت أنه يجب علىّ تحديد المعنى . — ولنذكر بديا — أضفت هذه الكلمات التى تدل القرينة على مفهومها . — كما قلنا — ر . ماسبق فى الباب السابع . — الطب — يظهر لى أن فى اختيار المثل شيئا من الغرابة وقد نبه فيلوپون مثل هذا التنبيه . § ٩ — التى تكون سهلة التجزئة — كنقطة من الماء فى كمية من النبيذ . — نموا — مهما كان ضعيفا مع ذلك بنسبة الأشياء المختلطة . — للعنصر الغالب — فى المزيج النهائى .

كل عنصر يفقد من طبعه ليأخذ من طبع العنصر الذى هو أغلب. فالمزيج لا يصير واحدا منهما مطلقا بل يصير شيئا وسطا ومشتركا .

§ ١٠ — فبيّن إذًا أنه لا يكون اختلاط إلا حينما تكون الأشياء التى تفعل لها مقابلةٌ مّا بينها لأنها إذاً يمكن أن تقبل تأثيرا مّا بعضها من بعض . ومن الأشياء الصغيرة ما يزيد اختلاطها بالأشياء الصغيرة باقترابها منها لأنها حينئذ تتدخل بأسرع وبأسهل بعضها فى بعض . ولكن كمية كبيرة تحت فعل كمية كبيرة أيضا لا تنتج هذه النتيجة إلا مع الطولى .

§ ١١ — على ذلك بين الأشياء القابلة للتجزئة والمنفعلة الأشياء التى تُحدّد بسهولة يمكنها أن تختلط . لأن هذه الأشياء تنقسم بلا عناء إلى أجزاء صغيرة . وهذا إنما هو بالتحقيق ما يُعنى بقولنا تُحدد بسهولة . مثال ذلك السوائل من بين جميع الأجسام هى الأكثر قابليــة للمزج لأن السائل من بين الأشياء القابلة للتجزئة هو الذى يتعين ويتحــدّد بأسهل ما يكون بشرط ألّا يكون دبقا . فان الأجسام الدبقة لا تزيد على أن تصــيّر جملة الحجم أضخم وأعظم ولكن حينما يكون أحد الشيئين المختلطين هو وحده المنفعل أو أنه يكونه كثيرا وأن الآخر يكونه قليلا جدا فالخليط

— فالمزيج لا يصير — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — مطلقا — أضفت هذه الكلمة .

§١٠ — مقابلة مّا — عبارة النص هى : "تضاد" . — يمكن أن تقبل تأثيرا مّا — فى حين أنها تحدث فعلا ما . — يزيد — أعنى بأكثر سهولة وبأسرع ما يكون كما يدل عليه الكلام الآتى . — لا تنتج هذه النتيجة — أو "الاختلاط" .

§ ١١ — القابلة للتجزئة والمنفعلة — يعنى التى يمكن بسهولة أن تنقسم وأن تقبل فعلا ما بعضها من قبل البعض الآخر . وربما كان يلزم أن يقال "فاعلة" بدل "قابلة للقسمة" . ولكن ليس ولا نسخة واحدة تعطى هذا التصحيح . — التى تحدّد بسهولة — مثل السائل الذى ضرب فيما يلى يوضح تماما ماذا يعنى بهذا . — يتعين ويتحدّد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — الأجسام الدبقة — عبارة النص غير محددة ولكن المعنى الذى اتخذته هو الذى اتخذه فيلوپون . وبدلا من الأجسام الدبقة قد يمكن أن يفهم أن المقصود هو السوائل على العموم التى بامتزاجها تصير الكمية الكليــة أكثر عظما . — ولكن حينما يكون أحد الشيئين المختلطين — ليس النص على هذا القدر من البيان . — هو وحده المنفعل — على تقدير" فى المزيج" . ولكن العبارة غير جلية ويجب أن يفهم أن أحد الجسمين الممزوجين يفعل بشدّة

الناتج من الاثنين إما ألّا يكون أعظم البتة أو ألّا يكاد يكونه . وهذا هو ما يقع بالنسبة للقصدير مختلطا بالنحاس لأنه يوجد بعض أجسام حائرة بعضها بالنسبة للبعض الآخر وهى تكون من طبع مشكل . فيمكن أن يلاحظ أن تلك الأجسام لا تختلط إلا اختلاطا ناقصا وإلى حدّ معين . فقد يقال إن أحدهما هو مجرّد مأوى فى حين أن الآخر هو الصورة . وهذا على التحقيق هو ما يحصل بالنسبة لهذين الجسمين اللذين سميا آنفا . لأن القصدير الذى هو كمجرّد تغير للنحاس بدون مادّة يكاد يتلاشى بالتمام وينعدم بالخليط الذى لا يعطيه إلا لونا ما . وتحصل الظاهرة عينها أيضا بالنسبة لأجسام أخرى .

§ ١٢ — فيُرى إذًا بحسب جميع التفاصيل المتقدّمة أن الاختلاط ممكن وأنه هو ما هو ويرى كيف يكون وما هى الأشياء التى بينها يمكن أن يحصل وهى تلك التى يمكنها أن تقبل فعلا بعضها من قبل البعض الآخر والتى هى قابلة للتحديد بسهولة وقابلة للتجزئة بسهولة . وإن الجواهر من هذا القبيل ليست تفسد ضرورة فى الاختلاط ولكنها لا تبقى فيه بعدُ مطلقا بأعيانها، فان اختلاطها ليس مجرّد ضم

فى الآخر ويتلفه بحيث يلاشيه . — ألّا يكون أعظم البتة — لأن أحدهما يتلاشى بالتمام بوجه التقريب فى المزج . — حائرة — النص هنا يتخذ عبارة مجازية محضة فانه يقول : "رُتّى" ولم أجد ما يقابلها فى لغتنا . وذلك مجاز جرىء ويظهر أن فيلوپون دهش له أيضا، على أن المثل المضروب لذلك يفهم معنى هذه النقطة . — الا اختلاطا ناقصا — وحينئذ لا يكون هذا اختلاطا حقيقيا ما دام أن أحد الجسمين يتلاشى بالكلية تقريبا . — هو الصورة — أو النوع . — اللذين سميا — زدت هاتين الكلمتين لاتمام المعنى . — كمجرّد تغير ... بدون مادة — يعنى الصورة أو النوع التى تكيف الخليط من غير أن تغير مادته مطلقا . وهذا يظهر أنه غاية فى الدقة والخفاء . — لونا ما — الذى ليس هو لون القصدير والذى لا يحيل لون النحاس الا بعض الشىء .

§ ١٢ — فيرى اذا — محصل مضبوط لكل نظرية الاختلاط . — أن الاختلاط ممكن — ر. ما سبق ف ٢ . — هو ما هو — بحسب النظريات الخصوصية لأرسطو، هذا هو موضوع كل هذا الباب . — قابلة للتحديد بسهولة وقابلة للتجزئة بسهولة — كالسوائل . — ليست تفسد ضرورة — لأنها تبقى فيه بالقوّة .

وإن الجسمين لا يكونان بعدُ مدركين بالحواس . ولكن يقال على شيء إنه مختلط متى كان وهو مستطيع أن يتحدد بسهولة يمكنه أن يفعل وينفعل معا وأنه يختلط بشيء له أيضا هذه الخواص أعيانها لأن الشيء المختلط لا يكونه البتة إلا بالاضافة الى شيء يكون وإياه من المتفقة أسماؤها (هومونيم) . والحاصل أن الاختلاط هو اجتماع الأشياء المختلطة مع استحالة لها .

— وإن الجسمين لا يكونان بعد مدركين بالحواس — ليس النص على هذا القدر من الضبط . ولكن المعنى الذى اتخذته ينتج مما قيل سابقا فى الفقرة السابعة . فان التبن والحب ليسا مختلطين بالمعنى الخاص ولكنهما منضمان . — يقال على شئ إنه مختلط — هاك التعريف الحقيق للاختلاط على رأى أرسطو . — يكون وإياه من المتفقة اسماؤها (هومونيم) — وبعض ناشرى الكتاب يقول " مجانسا له " (هوموجين) وهذه ربما كانت أحسن ويظهر أن سان توماس اختارها . — والحاصل — النص ليس على هذا القدر من الصراحة .

الكتاب الثانى

الباب الأوّل

نظرية عناصر الأجسام — عددها — شاهد من أمبيدقل — المادة ليست منفصلة عن الأجسام كما هو فى طيماوس أفلاطون فيما يظهر — نقض هذه النظرية — إنها حقة بجزئها باطلة بالجزء الآخر — شاهد من المؤلفات المختلفة السابقة — نظرية جديدة على المبادئ العنصرية للأجسام — طبعها وعددها .

§ ف ١ — سبق الكلام على الاختلاط وعلى التماسّ وعلى الفعل وعلى الانفعال ووُضّح كيف أن هذه الظواهر تقع فى الأشياء التى تكابد تغيرات طبيعية . وقد عولج زيادة على ذلك كون الأشياء وفسادها المطلقان وبُيّن بأى طريقة وفى أى الأحوال ولماذا هما يحدثان . وقد دُرست على السواء الاستحالة وحالة الموجود المستحيل . وفى النهاية قد بُيّنت فصول كل واحدة من هذه الظواهر . والآن يبقى علينا أن ندرس ما يسمى عناصر الأجسام لأن الكون والفساد فى كل الجواهر التى تركبها الطبيعة لا يمكن أن يظهرا بدون الأجسام التى تدركها حواسنا .

---

§ ك ٢ ب ١ ف ١ — سبق الكلام على الاختلاط — تلخيص لكل ما سبق فى الكتاب الأوّل فان نظرية الاختلاط قد عرضت فى الباب العاشر منه . — وعلى التماس — لم يكن ذكر التماس إلا عرضا لأنه لم يفرد للتماس نظرية خاصة . ر . ك ١ ب ٦ . — وعلى الفعل وعلى الانفعال — ر . ك ١ ب ٦ و ٧ وما يليهما — التى تكابد تغيرات طبيعية — بصرف النظر عن التغيرات التى تحدثها الصناعة أو إرادة الإنسان ر . ما سبق ك ١ ب ١ ف ١ . — كون الأشياء وفسادها المطلقان — ر . ك ١ ب ١ و ٣ وما بعدهما . — الاستحالة وحالة الموجود المستحيل — ر . ك ١ ب ٤ . — فصول كل واحدة من هذه الظواهر — فى أثناء بيان كل واحدة من تلك النظريات الخاصة قد بينت الفصول التى تفصل كل واحدة من الظواهر التى كانت على التعاقب موضع الدرس .

§ ٢ — من الفلاسفة من يزعمون أن جميع العناصر مكونة من مادة واحدة بالحقيقة والعدد ويفترضون أنها هى الهواء أو النار أو جسم ما وسط بينهما جاعلين هذه المادة جسما جوهريا متميزا تماما ومنفصلا . وآخرون يرون أنه يوجد أكثر من عنصر واحد ويقبلون حينئذ على السواء : هؤلاء النار والأرض، وأولئك الهواء ثالثا مع العنصرين المتقدمين . وآخرون مثل أمبيدقل يزيدون الماء كعنصر رابع . وفى هذه المذاهب المختلفة إنما هو باجتماع هذه العناصر وافتراقها أو استحالتها يعلل كون الأشياء وفسادها .

§ ٣ — فلنسلم بلا أدنى صعوبة أن هذه الأوليات للأشياء يمكن بغاية الموافقة أن تسمى مبادئ وعناصر وأنه إنما بتغيرها بتجزئة أو تركيب متكافئ أو أى نوع آخر من التغيير الذى تعانيه يأتى كون الأشياء وفسادها . ولكن يخدع المرء نفسه بالتسليم بأنه يوجد مادة واحدة بعينها خارج جميع العناصر وجعلها منفصلة وجسمانية . لأن من المحال أن هذا الجسم إذا كان مدركا بحواسنا يمكن أن يوجد من غير أن يَعْرِض أضدادا ما . ويلزم ضرورة أن هذا اللامتناهى الذى اتخذه بعض الفلاسفة مبدأ لهم يكون خفيفا أو ثقيلا باردا أو حارا .

---

§ ٢ — هى الهواء — كما كان يعتقده ديوجين الأبلونى وأنكسيمين . — أو النار — كما كان يعتقده هيرقليطس الإيفيزوسى وهيباس كما روى فيلوبون . — جسم ما وسط — كان هذا مذهب أنكسيمندروس الذى كان يفترض عنصرا خامسا آخذا من طبع الأربعة الأخرى وهو مع ذلك متميز عنها . — جاعلين هذه المادة — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — هؤلاء النار والأرض — كما هو مذهب برمينيد . — وأولئك الهواء ثالثا مع العنصرين — ذلك كان مذهب يون الشيوزى اذا صدق تفسير فيلوبون . — مثل أمبيدقل — إنما هو دائما أمبيدقل الذى ينسب اليه أرسطو نظرية العناصر الأربعة . ر . أيضا الطبيعة ك ٣ ب ٧ ف ٩ وما بعدها من ترجمتنا .

§ ٣ — هذه الأوليات للأشياء — حفظت عبارة النص بذاتها . — أى نوع آخر من التغيير — مثلا لا يمكن إلا الاستحالة عند المذاهب التى لا تقبل الا عنصرا واحدا لأنه بتغير هذا العنصر الوحيد الى ما لا نهاية له تتكون جميع الظواهر الأخرى . — وجسمانية — هذه هى ترجمة الكلمة الواردة فى النص بالضبط . — اذا كان مدركا بحواسنا — ويجب أن يكونه ما دام أنه جوهرى ومنفصل عن جميع الأخر . — من غير أن يعرض أضدادا ما — عبارة النص هى "بلا تضاد" . — هذا اللامتناهى — أو "هذا غير المحدود" .

§ ٤ — ولكن الطريقة التى شُرح بها هذا المبدأ فى "طيماوس" ليس فيها شيء من الضبط لأنه لم يُقل على وجه جليّ ما إذا كان هـذا الأصل لجميع الأشياء متميزا ومنفصلا عن العنـاصر . والمحقق هو أن طيماوس لم يرجع فى واحد منها إلى هذا المبدأ ولو أنه قال مع ذلك إنه الموضوع السابق لكل ما يسمى بالعناصر كما أن الذهب هو على الأسبقية موضوع المصنوعات الذهبية . ومع ذلك فإن هذا الإيضاح ليس حسنا على الصورة التى أُلقى بهـا إلينا . فإنه يجوز تمـاما انطباقه على الحالات التى يوجد فيها استحالة بسيطة ، ولكن بالنسبة للحالات التى فيها كون وفساد يكون محالا أن تسمى الأشياء بالتى منهـا تأتى . صدق طيماوس إذ يقـول إنه لأدخلُ فى باب الحق أن يقرِّر أن كل مصنوع من الذهب هو ذهب لكن مع أن عناصر الأشـياء تكون جامدة فانه يجـاوز بتحليلها إلى حدّ السطوح . ومحال أن سطوحا تَكُون المـادة الأوّلية التى يكلموننا عنها § ٥ — نحن أيضا نعـترف أنه يوجد مادة ما للأجسام التى تدركها حواسنا ولكن هذه المـادة التى منهـا يأتى ما يسمى

---

§ ٤ — هذا الأصـل لجميع الأشياء — ر . ترجمة طيماوس أفلاطون لكوزان ص ١٥٢ . — متميزا ومنفصلا عن العناصر — النقد حق إن لم يكن مهما جدا . — على الأسبقية — أضفت هاتين الكلمتين . — موضوع المصنوعات الذهبية — ر . طيماوس ص ١٥٤ من ترجمة كوزان . — على الصورة التى ألقى بهـا إلينا — وفى الواقع أن طيماوس لا يتكلم الا على التصاوير المتعاقبة لسبيكة الذهب ولا يتكلم البتة على كونها الأصلى . — أن تسمى الأشياء — التعبير ليس واضح البيان ، وهو بعينه الذى استخدمه طيماوس فى هـذا الموضع . فانه يمكن أن يقال على الشيء المصنوع من سبيكة الذهب إنه ذهب ولكن بالنسبة للشيء الذى يتكوّن والذى يتولد من لا شيء لا يمكن أن يعطى اسم الشيء الذى خرج منه ما دام أنه لم يأت من شيء آخر . — التى منهـا تأتى — اذا كان الأمر بصـدد الكون "والتى إليهـا تنعدم" اذا كان الأمر بصدد الفساد . — صدق طيماوس — ليس النص على هذه الصراحة . — لأدخل فى باب الحق أن يقرر — ر . طيماوس لأفلاطون ص ١٥٤ ترجمة كوزان . — الى حدّ السطوح — ر . كتاب السماء ك ٣ ب ٧ وما بعده . فإن أفلاطون لمـا حلل الأجسام الى سطوح قد نزع منها كل حقيقة . وإن التحليل البالغ الى هذا الحدّ البعيد قد أفسدها — يكلموننا عنها — أضفت هذه الكلمات .

§ ٥ — نحن أيضا نعترف — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — منها يأتى ما يسمى بالعناصر — هذه الفكرة لا يظهر أنها عريقة فى الصحة . وإن المراد بالمـادة هنا انما هو حال منطقية للأجسام أكثر

بالعناصر ليست منعزلة البتة بل هي توجد دائما مع أضداد . على أن هذا الموضوع قد دُرس في موطن آخر بأوسع من ذلك وأضبط § ٦ — على أنه لما أن الأجسام الأُوَل يمكن أيضا بهذه الطريقة أن تأتى من المادة فيلزم التكلم على هذه الأجسام مع التسليم بأن المادة هي المبدأ والمبدأ الأول للأشياء ولكنها غير منفصلة عنها وأنها موضوع الأضداد . فان الحار مثلا ليس هو مادة البارد كما أن البارد ليس مادة الحار . ولكن المادة هي موضوع الاثنين .

§٧ — حينئذ بادئ بدء الجسم الذى هو مدرك بالقوة بإحساسنا هذا هو المبدأ ثم بعد ذلك تأتى الأضداد كالحار والبارد مثلا . وفي المقام الثالث النار والماء والعناصر الأخرى المشابهة . هذه الأجسام كلها تتغير تغيرا بعضها الى بعض ولكن لا بالطريقة التى يقول بها أمبيدقل وفلاسفة آخرون، لأنه بحسب نظرياتهم

منه حالا حقيقية . فقد يمكن حينئذ أن هذه الجملة لم تكن الا تذييلا أضافه الى النص بعض المفسرين . ومع ذلك فان هذه الجملة موجودة في نص فيلوپون . — ليست منعزلة البتة — وباقية على طريق الاستقلال عن الأجسام كالمادة التى أخطأ أفلاطون، على رأى أرسطو، في قبولها . — مع أضداد — فان المادة لها دائما كيف يميزها لا انفكاك لها عنه — في موطن آخر — في الطبيعة ك ١ ب ٨ خصوصا ف ٢٠ ص ٤٨٤ من ترجمتنا . وفي كتاب السماء ك ٣ . — بأوسع من ذلك وأضبط — ليس في النص الا كلمة واحدة .

§ ٦ — الأجسام الأول — حفظت للنص عبارته بتمامها، ولكن المراد هنا هو العناصر . — موضوع الأضداد — ر . الطبيعة ك ١ ب ٨ ص ٤٧٣ من ترجمتنا . — مثلا — أضفت هذه الكلمة . — ليس هو مادة — بل هو الضد وتحت الضدين الموضوع الذى يكيفانه على طريق التناوب .

§٧ — الجسم الذى هو مدرك — هو المادة المفهومة على المعنى المنطق أى المحسوسة بالقوة ولكنها ليست مدركة الا على شكل واحد من الضدين . — النار والماء — يعنى الأربعة العناصر مع جميع الأجسام الخاصة التى تركبها على حسب نظريات أرسطو التى هي أيضا نظريات الأقدمين . — الطريقة التى يقول بها أمبيدقل وفلاسفة آخرون — المعنى ليس بيّنا وقد يجعله الإيجاز في التعبير غامضا . فان أمبيدقل

قد لايكون بعدُ حتى ولا الاستحالة . وإنما هى المقابلات بالأضداد هى التى لا تتغير بعضها الى بعض . على أنه لما كانت تلك هى مبادئ الأجسام فلا بد مع ذلك من دراسة كيفياتها وعددها لأن الفلاسفة الآخرين استخدموا ذلك فى مذاهبهم بعد أن قبلوها على طريق الفرض ولكنهم لا يقولون لماذا هذه الأضداد لها الطبع الفلانى وأنها فى العدد الذى نراها عليه .

وفلاسفة آخرين يرون العناصر غير قابلة للتغير مطلقا ومن ثم لايمكن أن يفهم مع عدم قابلية التغير نظرية الاستحالة مهما كانت مسلما بها . — وانما هى المقابلات — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

— فى مذاهبهم — . أضفت هاتين الكلمتين .

البـاب الثـانى

حد الجسم كما تعرفه لنا حاسة اللمس — تحديد الأضداد الأصلية التى يعرضها الجسم المحسوس باللمس — فصول هذه الأضداد — الفعل المتباين للبارد والحار والجاف والسائل — علاقة جميع الفصول الأخرى بهذه الفصول الأربعة الأصلية .

§ ١ — ما دمنا نبحث فيما هى مبادئ الجسم المدرك بحواسنا أعنى الجسم الذى يستطيع اللمس أن يدركه وما دام أن جسما يعرفنا إياه اللمس هو الذى يكون حسه الخاص هو اللمس فينتج بالبداهة أن جميع المقابلات بالأضداد التى يمكن مشاهدتها فى الجسم لا تؤلف أنواعه ومبادئه ولكنها إنما هى فقط أنواع ومبادئ الأضداد التى تخص حاسة اللمس . إن الأجسام تمتاز بأضدادها ، ولكن بأضدادها التى يمكن للّمس أن يبينها لنا . لذلك نرى لماذا أنه لا البياض ولا السواد ولا الحلاوة ولا المرارة ولا أى واحد من الأضداد المحسوسة ليس عنصرا للأجسام .

§ ٢ — وهذا لا يمنع أن يكون النظر حاسة أسمى من اللمس و بالنتيجة أن موضوع النظر هو أسمى أيضا . ولكن النظر ليس عرضا للجسم الملموس بما

---

§ ب ٢ ف ١ — الجسم المدرك بحواسنا — الجسم المادى والمحسوس . — أعنى الجسم الذى يستطيع اللمس أن يدركه — يلاحظ فيلو پون بحق أن أرسطو يشتغل أولا بحاسة اللمس لأن هذه الحاسة أكثر الحواس إدرا كا ممكنا . فان من الأجسام التى تخفى على نظرنا ما ندركه بحواسنا . وذلك كالهواء إذ بينا لا يمكننا أن نراه يؤثر فى إحساسنا بأن يلامسنا . — يعرفنا إياه اللمس — عبارة النص هى : "جسم قابل للمس" . — التى يمكن مشاهدتها فى الجسم — أضفت هذه العبارة لبيان الفكرة تماما . — لا تؤلف أنواعه ومبادئه — هذا التفوق الذى لحاسة اللمس يتقدم تميز الكيفيات الأول والثوانى للأجسام ويذكر به . تلك هى النظرية التى قبلتها بعد ذلك المدرسة الإيقوسية . — ليس عنصرا للاجسام — عبارة النص : "لا تكون عناصر".

§ ٢ — أن يكون النظر حاسة أسمى — ر . كتاب النفس ك ٢ ب ٧ ص ٢٠٨ من ترجمتنا فى نظرية الرؤية . — من اللمس — ر . كتاب النفس ب ١١ ص ٢٣٧ . — أن موضوع النظر هو أسمى أيضا — ر . أوّل ما بعد الطبيعة : ك ١ ب ١ ص ١٢١ من ترجمة كوزان الطبعة الثانية . فان أرسطو يجعل فيها النظر أعلى مرتبة من جميع الحواس كما فعل هنا . — ليس عرضا — أو "كيفا" .

هو ملموس بل هو يرجع الى شيء مغاير تماما يمكن مع ذلك أن يكون متقدّما عليه بطبعه — ٣ — حينئذ بالنسبة للملموسات أنفسها يلزم الفحص والتميز بين الفصول الأولى لها ومقابلاتها الأولى بالأضداد . المقابلات والمضادات التى يبينها لنا اللمس هى الآتية : البارد والحار ، اليابس والرطب ، الثقيل والخفيف ، الصلب واللين ، الدبق والفريك ، الأملس والخشن ، الكثيف والمتخلخل . من بين هذه الأضداد الثقيل والخفيف ليسا لا فاعلين ولا منفعلين لأنه ليس لأنهما يفعلان أحدهما فى الآخر أو لأنهما ينفعلان أحدهما من الآخر أُعطيا الاسم الذى يحملانه . ومع ذلك يلزم أن العناصر يمكن أن تفعل وتنفعل بعضها من بعض على طريق التكافؤ ما دام أنها تختلط وتتغير على طريق التكافؤ بعضها الى بعض. § ٤ — ولكن الحار والبارد واليابس والرطب هى مسماة كذلك أولاها لأنها تفعل والأخرى لأنها تنفعل . فإن الحار هو الذى يجمع ما بين الجواهر المتجانسة لأن التفريق الذى يقال عن النار إنها تفعله إنما هو فى حقيقة الأمر

— الى شيء مغاير تماما — حفظت عبارة النص على عدم تحدّدها . — متقدّما عليه بطبعه — أى للشيء الخاص بحاسة اللمس .

§ ٣ — بالنسبة للملموسات أنفسها — حفظت كلمة النص بعينها التى لا اخفاء فى معناها بعد الايضاحات السابقة . فان الملموسات هى الأجسام التى تعرفها لنا حاسة اللمس فقط . — الفحص والتميز — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — ومقابلاتها الأولى بالأضداد — عبارة النص : "التضاد" . — لأنهما يفعلان أحدهما فى الآخر — عبارة النص ليست على هذا الوضوح . — أعطيا الاسم الذى يحملانه — عبارة النص أكثر إيجازا .

§ ٤ — أولاها لأنها تفعل — يظهر أن فعل البارد وفعل الحار متكافئان تماما وأنهما يفعلان ويقبلان على السواء . ويعنى بأولاها الحار والبارد وبأخراها اليابس والرطب . وقد عنى فيلوپون بأن يوضح فى إطناب لماذا يجعل أرسطو من البارد والحار عنصرين فاعلين ومن اليابس والرطب عنصرين منفعلين . ر . عن هذه النظرية كلها الكتاب الرابع من الميتيورلوجيا ب ١ وما بعده . ص ٢٧٣ من ترجمتنا — هو الذى يجمع — وبهذا المعنى أن الحار يفعل . — الجواهر المتجانسة — هذا يقال خصوصا على الجواهر التى تسيح وتذوب تحت فعل النار فيكون قوامها اذا كالسوائل . — فى حقيقة الأمر — زدت هذه الكلمات

تركيب الأشياء التى من نوع واحد ما دام أن الذى يحصل إذًا هو أن النار تخرج الجواهر الغريبة وتنفيها . والبرد على ضد ذلك يجمع ويركب على السواء الأشياء التى من نوع واحد والتى ليست من نوع واحد . ويسمى سائلا ما ليس محدودا فى صورته الخاصة ولكنه يمكن مع ذلك أن يقبل بسهولة صورة . واليابس على ضد ذلك هو ما كان بماله من صورة محدّدة تماما فى حدودها الخاصة لا يقبل صورة جديدة إلا بعناء . § ٥ — من هذه الفصول الأوَل إنما يأتى المتخلخل والكثيف والدبق والفريك والصلب واللّين والفصول الأخرى المشابهة . إذًا فان جسما له خاصة إمكان أن يملأ الأين بسهولة يتصل بالسائل لأنه غير محدد هو نفسه وأنه يخضع من غير أدنى عناء إلى فعل الشئ الذى يلمسه تاركا ذاته تأخذ صورة ذلك الشىء . كذلك المتخلخل يمكنه أن يملأ الأين على سواء لأنه لما لم يكن له إلا أجزاء خفيفة وصغيرة كان يجيد الملء ويلامس تماما وهذه خاصة تميز على الخصوص الجسم المتخلخل . حينئذ بالبديهية المتخلخل يقارب السائل فى حين أن الكثيف يقارب اليابس . ومن جهة أخرى الدبق يتعلق أيضا بالسائل لأن الدبق ليس إلا نوعا من السائل مع

— تخرج ... وتنفى — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — البرد على ضد ذلك يجمع — وعلى هذا المعنى فالبرد هو فاعل كالحرارة . — والتى ليست من نوع واحد — فان الثلج يجلد ويجمع غالبا الجواهر الأكثر تغايرا . — ما ليس محدودا فى صورته الخاصة — فان السائل لم يكن له البتة الا صورة الحاوى له . أما هو نفسه فليس له صورة فى كلّيته . — فى حدودها الخاصة — أو "فى سطحه الظاهر الخاص" . — صورة ... حدود — النص يستخدم لفظا واحدا للدلالة على صورة أو حدود .

§ ٥ — من هذه الفصول الاول — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — والفصول الأخرى المشابهة — التى قد لا تكون الا ثانوية بالنسبة للفصول الأول للبارد والحار واليابس والرطب . — له خاصة إمكان أن يملا الأين — ليس فى النص الا كلمة واحدة . و يمكن أيضا أن يفهم من الأين « الأمكنة الفارغة أو التجاويف » كما فهم فيلوبون . — يتصل بالسائل — عبارة النص بالضبط : «هو من السائل » أى جزء منه . — خفيفة وصغيرة — هذا غير صحيح تماما وإن المسطح مهما يكن متخلخلا فانه لا يحسن أن يملأ الأين بحسب الوضع الذى يعطى اياه . — يتعلق أيضا بالسائل — أو "من السائل" كما ذكر فى المتخلخل .

بعض كيفيات كالزيت . ولكن الفريك يتعلق باليابس لأن الفريك إنما هو التام اليبس . ويمكن القول بأنه لم يتجمد إلا لخلوه من كل سائل . ويمكن أن يقال أيضا إن اللين جزء من السائل لأن اللين هو ما يطاوع عند التوائه على نفسه ودون أن ينتقل كما أن السائل يفعل هذا الفعل بالضبط أيضا . تلك هي العلة في أن السائل لم يسم لينا في حين أن اللين يتعلق بصنف السائل وأخيرا فالصلب يتعلق باليابس لأن الصلب هو شيء من المتجمد والمتجمد يابس .

§ ٦ — على أن يابسا وسائلا لفظان يحملان على معان شتى، فان السائل والمبتل يمكن أن يعتبرا كمقابلين لليابس كما أن اليابس والمتجمد هما مقابلان للسائل. وكل هذه الخواص المختلفة تتعلق بالسائل واليابس محمولين على المعنى الأولى لهاتين الكلمتين، لأنه من حيث إن اليابس هو مقابل للمبتل وإن المبتل هو ما كان به على سطحه سائل غريب في حين أن المنتقع هو ما به السائل الى باطنه . ولما أن اليابس هو على ضد ذلك ما كان خلوا من كل سائل غريب فبين بذاته أن المبتل يتصل بالسائل في حين أن اليابس المقابل له يتصل باليابس الأولى .

— كالزيت — كان يمكن إيجاد مثل أكثر انطباقا . — من كل سائل — أو "من كل رطوبة" . — ودون أن ينتقل — كحال الماء الذى تنفصل جزيئاته في حين أن الجسم اللين تبقى جزيئاته متصلة مع مطاوعتها الضغط الواقع عليها . — يتعلق بصنف السائل — "أو هو من السائل". — من المتجمد — هذا هو لفظ النص بعينه تركته على عمومه .

§ ٦ — يابسا وسائلا — أو " يابسا ورطبا " وقد آثرت كلمة سائل حتى تكون مقابلته أظهر بالمبتل الذى سيأتى ذكره . — اليابس والمتجمد — ربما يمكن أن يقال أيضا "اليابس والمتجلد" . — هذه الخواص المختلفة — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — على المعنى الأولى لهاتين الكلمتين — ر . الملاحظة في ف ٣ . — المنتقع — أو "المغمور". — يتصل بالسائل — ر . ملاحظتنا على هذا التعبير في الفقرة السالفة .

§٧ — ويُجرى هـذا المجرى أيضا فى السائل والمتجمد فان السائل لما كان ما به رطوبة خاصـة والمتجمد ما هو خلو منها يجب أن يستنتج منـه أن هذين الكيفين أحدهما يتعلق بصنف السائل والآخر بصنف اليابس .

§٨ — فبيّن حينئذ أن كل الفصول الأخرى يمكن أن يرجع بها الى الأربعة الأولى وأن هـذه لا يمكن أن ينزل عددها الى أقل من ذلك لأن الحـار ليس هو والرطب أواليابس شيئا واحدا كما أن الرطب ليس هـو لا الحار ولا البارد . كذلك البارد واليابس ليسا تابعين أحدهما للآخر كما أنهما ليسا تابعين للحار ولا للرطب . والحاصل أنه لا يوجد ضرورة إلا هذه الأربعة الفصول الأصلية .

---

§٧ — فى السائل ... بصنف السائل — يظهـر أن هنا تكرارا فى الكلمات لا فائدة منـه وقد اضطررت أن أتبع الأصل . ولم يفسر فيلوپون هذا العيب الذى ربما لم يفطن له .

§٨ — كل الفصول الأخرى — التى ذكرت و وضحت بعد الفصول الأربعة الأوّلية والأصلية . — الى الأربعة الأولى — البارد والحار واليابس والرطب . — الى أقل — يعنى الى اثنين بدل أربعة . — والرطب — أو "السائل" . — الأصلية — أضفت هـذا الوصف . ر . الكتاب الرابع من الميتيورولوجيا ب ١

الباب الثالث

تراكيب العناصر بين بعضها والبعض – ليس منها الا أربعة لان الأضداد خارجة عنها – نظريات سابقة على عدد العناصر – برمنيد – أفلاطون – أميدقل – طبع العناصر المختلفة – الأمكنة المختلفة التي تشغلها في الأين .

§ ١ – لما أنه يوجد أربعة عناصر وأن التراكيب الممكنة لحدود أربعة هي ستة ، ولكن أيضا لما أن الأضداد لا يمكن أن تزدوج بينها مادام البارد والحار واليابس والرطب لا يمكن البتة ان تندمج في شيء واحد بعينه ، فبيّن أنه لا يبقى إلا أربعة تراكيب للعناصر . فمن جهة ، حار ويابس ، حار ورطب ، ومن جهة أخرى بارد ويابس ، بارد ورطب . § ٢ – تلك هي نتيجة طبيعية لوجود الأجسام التي تظهر بأنها بسيطة : النار والهواء والماء والأرض ، فالنار حارة ويابسة والهواء حار ورطب مادام أن الهواء نوع من البخار . والماء بارد وسائل وأخيرا الأرض باردة ويابسة . ينتج منه أن توزيع هذه الفصول بين الأجسام الأوّل يفهم جدّ الفهم وأن عدد هؤلاء وهؤلاء هو على تمام التناسب .

§ ٣ – وفي الحق أن كل الفلاسفة باعترافهم للأجسام البسيطة بأنها عناصر قبلوا منها تارة واحدا وتارة اثنين وتارة ثلاثة وتارة أربعة . § ٤ – فأما الذين لم يقبلوا

---

§ ١ – لما أنه يوجد أربعة عناصر – هذه هي عبارة النص ولكن الحار والبارد ، واليابس والرطب أولى بها أن تكون خواص للعناصر من أن تكون عناصر بالمعنى الخاص . – أن تزدوج بينها – لأنها تتفاسد . – أنه لا يبقى الا أربعة تراكيب – ليس النص على هذه الصراحة . – ورطب – أخذت اللفظ الأكثر استعمالا عادة ولكن اللفظ الإغريقي يفيد سائلا كما يفيد رطبا . § ٢ – التي تظهر بأنها بسيطة – أسلوب هذه العبارة لا يدع محلا لأقل شك في بساطة العناصر بالإطلاق على حسب نظريات أرسطو . وقوله تظهر بأنها بسيطة يفيد أن بساطة العناصر يمكن أن تحقق بالمعاينة . – والماء بارد وسائل – اخترت هنا لفظ سائل بدل رطب لأنه أنسب للماء .

§ ٣ – للأجسام البسيطة بأنها عناصر – الظاهر أنه ينتج من هذه الفقرة أنه ولا واحد من الفلاسفة قد قبل أكثر من أربعة عناصر . ومع ذلك فإن أرسطو نفسه في الميتورولوجيا قبل فيما يظهر خامسا وهو الإيثير . ر . الميتورولوجيا ك ١ ب ٣ ف ٤ ص ٩ من ترجمتنا .

منها إلا واحدا فمضطرون الى توليد كل الأخرى من تكثيف هذا العنصر أو تخفيفه. وبالتبع يقبلون مبدأين المتخلخل والكثيف أو الحار والبارد لأنها فى هـذا المذهب هى الفواعل المؤلفة والعنصر الوحيد يكون خاضعا لفعلها بمـا هو مادة § ٥ — وأما الفلاسفة الذين هم كپرمينيد يقبلون عنصرين النـار والأرض، فيعتبرون العناصر الوسـيطة الهواء والمـاء مزيجا من ذينـكم العنصرين. كذلك الحال عنـد الذين يقبلون عنـاصر ثلاثة كما فعل أفلاطون فى تقاسيمه لأن عنده العنصر الوسـط ليس إلا مزيجا. وحينئذ الذين يقبـلون عنصرين والذين يقبلون ثلاثة يوشـك أن يكونوا على اتفاق تام لولا أن بعضهم يقسم العنصر الوسـط الى اثنين وأن الآخرين يتركون له وحدته. § ٦ — ومنهم كأمبيدقل من يعترفون جليا بأربعة عناصر غير أنه هو أيضـا ينزلها الى اثنيـن لأنه يقابل بالنـار كل العناصر الأخرى مجتمعة. فعلى رأى أمبيدقل يكون لا النـار ولا الهواء ولا أى واحد من العناصر الأخرى

§ ٤ — تكثيف... أو تخفيفه — ر. الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ ص ٤٦١ من ترجمتنا. — هذا العنصر — أضفت هاتين الكلمتين لتمام الفكرة. — الفواعل المؤلفة — أو "الصانعة". — خاضعا لفعلها — ليس النص على هـذه الصراحة. — بمـا هو مادة — أهل لأن تقبـل الأضداد على التعاقب.

§ ٥ — كپرمينيد — فى الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ أن المبدأين المنسوبين الى پرمينيد هما المتخلخل والكثيف أو الحار والبارد وليسا هما النار والأرض مع أن النار يمكن أن تشخص بالحار والأرض بالبارد. — فى تقاسيمه — قد يظهر أن هـذا يدل على عنوان خاص لمؤلف لأفلاطون ولكن فيلوپون بناء على قول مفسرين سابقين يؤكد أن المؤلف المنسوب الى أفلاطون تحت هذا الاسم كان منتحلا. ويرى الاسكندر الأفروديزى أن المقصود هنا هو تلك الآراء غير المكتوبة لأفلاطون التى يرويها أرسطو بالصراحة فى الطبيعة ك ٤ ب ٤ ف ٤ ص ١٥٠ من ترجمتنا. وقد ظن شراح آخرون أن المقصود هو التقاسيم المبينة فى محاورة أفلاطون المعنونة "السفسطائى". ويظهر أن تفسير الاسكندر هو الأقرب للاحتمال. — ليس الا مزيجا — كما يرى پرمينيد. — يوشـك أن يكونوا على اتفـاق تام — ما دام أنه مزيج فى عرف الطرفين. — العنصر الوسط الى اثنين — قد لا يكون هذا مطابقا تماما لمـا قيل آنفا فان پرمينيد يظهر أنه يقبل عنصرين وسطين لا واحدا ولا يمكنه أن يدمج الهواء والمـاء. § ٦ — كأمبيدقل — ر. ا سبق ب ١ ف ٢. — كل العناصر الأخرى مجتمعة — ليس النص على هذا الضبط. — فعلى رأى أمبيدقل — أضفت هذه العبارة لأنه يظهر لى أن كل ما سيأتى لا يمكن إسناده الا الى أمبيدقل. وهذا تفسير بان توپاس

بسيطا بل ممزوجا . فان الأجسام البسيطة هى جميعها بسيطة بلا شك، ولكنها ليست مع ذلك متماثلة . مثلا الجسم المشابه للنـار هو من نوع النار ولكنه مع ذلك ليس بالضـبط نارا . والجسم المشابه للهواء هو من نوع الهواء دون أن يكون هواء . وكذلك الحال فى بقية العناصر . ولكن النار هى إفراط فى الحرارة كما أن الثلج إفراط فى البرودة لأن التجلد والغليان همـا إفراطان من جنس ما أحدهما للبارد والثـانى للحار . فاذا كان اذًا الثلج هو تجـلد السائل والبارد ، فالنار تكون أيضا غليان الحار واليابس . فانظر لمـاذا لا يمكن أن يتولد شىء لا من الثلج ولا من النار .

§ ٧ — الأجسام البسيطة بمـا هى فى عدد الأربعة تتعلق اثنـين اثنين بكل واحد من مكانى الأين . فالهواء والنار هما من المكان المـائل نحو الحدّ الأقصى . والأرض والمـاء بالمكان الذى هو نحو المركز . وإن العناصر الطرفية والخالصة أكثر

وجامعة كويمبرا . ويظهر أن فيلوپون يظن أن هذه هى فكرة أرسطو الخاصة . — بل ممزوجا — من الصورة والهيولى كما يقول فيلوپون . — الأجسام البسـيطة — عبارة النص غير محدّدة وهى "البسائط" . ومن الجائز أن يكون المراد هنا الأربعة العناصر الخاصة الحار والبارد واليابس والرطب، وعلى الرغم من الجهد الذى بذلتـه لا تزال هذه الفقرة قلقـة غامضة . — الجسم المشابه للنار — هو المركب من الحار واليابس . ر . ما سبق ف ٢ . — ولكنه مع ذلك — ليس النص على هذه الصراحة . — الجسم المشابه للهواء — وهو المركب من الحار والرطب . ر . ما سبق ف ٢ . — التجلد والغليان — من الغريب أن ترى هاتان الظاهرتان متقابلتين فى نظريات القدماء . وقد لزم أن تمر قرون عديدة حتى ينتج هذا التقابل نتائجه العملية فيؤسس عليه ميزان الحرارة (الترمومتر) هـذه الآلة العجيبة التى تصلح لتعيين درجة حرارة الأجسام . — فانظر لمـا ذا لا يمكن أن يتولد شىء — لا يظهر أن المعانى مرتبطة جدّ الارتباط بعضها ببعض وقد يمكن أن تكون هذه الجملة ليست الا تذييلا .

§ ٧ — الأجسام البسيطة — هذه هى عبارة النص بعينها ويظهر أن أرسطو هنا يرجع الى الكلام على مذهبه الخاص وأن ليس المراد هنا الكلام على المذاهب الخاصة لأمبيدقل . — بكل واحد من مكانى — الفوق والتحت . — الأين — أضفت هذه الكلمة . — من المكان المـائل نحو الحدّ الأقصى — عبارة النص غير محددة قليلا ومع أنى حدّدتها نوعا ما فلم أبلغ بجعلها أجلى بيانا . — الذى هو نحو المركز — تلاحظ هنا الملاحظة السابقـة . — العناصر الطرفيـة — يعنى التى هى فى النقط الأكثر مقابلة من الأين للمركز وللمحيط الأقصى . — والخالصة أكثر من غيرها — هذا يجب أن يعنى به حركة هذه العناصر أولى من أن

من غيرها هي النار والأرض . والعناصر الوسطى والأكثر ممازجة هي الماء والهواء. وفي كل طائفة أحد الاثنين هو ضد للآخر لأن الماء ضد النار والأرض ضد الهواء ما دام أن لها في تركيبها كيفيات متضادة § ٨ — ومع ذلك فعلى القول بالاطلاق الأربعة الأجسام البسيطة لا يتعلق كل واحد منها إلا بكيف واحد . على ذلك الأرض هي من اليابس أكثر من أن تكون من البارد والماء هو من البارد أكثر من أن يكون من السائل . والهواء هو من السائل أكثر من أن يكون من الحار والنار هي من الحار أكثر من أن تكون من اليابس .

يعنى به تركيبها . وقد يمكن أن يقال « الأظهر » في اتجاهها . — والأكثر ممازجة — هذه هي عبارة النص بعينها ولكنه يلزم أن يفهم أن هذا ينطبق خصوصا على الحركة . — هو ضدّ للآخر — في الطائفة الأخرى . — الأرض ضدّ الهواء — التقابل ليس بين الظهور . — كيفيات متضادّة — انظر ما يلي .

§ ٨ — فعلى القول بالاطلاق — زدت لفظ "القول" . — الا بكيف واحد — عبارة النص غير محدودة . — أكثر من أن تكون — هذا يناقض قليلا مفهوم قوله «على الاطلاق» في أوّل الجملة . — من البارد أكثر من أن يكون من السائل — يظهر أن الأمر على ضدّ ذلك أن الماء سائل أكثر منه باردا . فهو سائل قبل كل شيء . ولكن المذهب الذي وضح هنا يقتضي هذا التناظر في الوضع . فقد تركت السيولة للهواء . وربما قد يمكن أن يقال أيضا بدل السيولة السائلية .

الباب الرابع

نظرية تبدل العناصر بعضها ببعض — فصول العناصر فيما بينها يمكن أن تكون أكثر أو أقل عددا — سهولة التبدل وصعوبته — أمثلة مختلفة بحسب تجاور العناصر أو البعد بينها فى النظام الذى هى مرتبة به وبحسب تماثل كيفيات العناصر أو تقابلها — خاتمة الجزء الأوّل لنظرية التبدل المتكافئ بين العناصر .

---

§ ١ — بعـد أن بينّا فيما سبق أن الأجسام البسيطة يكوّن بعضها بعضا على طريق التكافؤ وأن المعاينة الحسـية تدلنا على أنها تتكوّن بهذه الطريقة لأنه إن لم يكن كذلك فقد لا توجد استحالة ، ما دامت الاستحالة لا تنطبق إلا على كيفيات الأشياء التى يمكن لمسها، فيلزمنا أن نقول بأى طريقة يحصل تغير العناصر بعضها الى بعض وما إذا كان ممكنا أن كل عنصر يتولد من كل عنصر أو اذا كان هـذا ممكنا فقط بالنسبة للبعض ومحالا بالنسبة للبعض الآخر .

§ ٢ — فاذا كان ثَمّ أمر بديهى فذلك هو أن كلها يمكن بالطبع أن تتغير بعضها الى بعض لأن كون الأشياء يروح الى الأضداد ويجىء من الأضداد . وكل العناصر لهـا تقابل بعضها بالنسبة الى البعض الآخر لأن فصولهـا أضداد وحينئذ فى بعض

---

§ ١ — بعد أن بينا فيما سـبق — ر . كتاب السماء ك ٣ ب ٧ ف ١ ص ٢٦٥ من ترجمتنا . ويظهر بناء على هـذه الفقرة أن كتاب السماء كان فى فكرة المؤلف مرتبطا بهذا الكتاب كما يعتقد المفسرون إذ وضعوا الكتابين أحدهما تلو الآخر . — المعاينة الحسية — عبارة النص «الحس» . — لأنه ان لم يكن كذلك فقد لا توجد استحالة — الدليل ليس جيد البيان إذ أن الاستحالة مختلفة عن الكون وأنها تقتضيه . فانه يلزم أن يوجد الشىء قبل أن يستحيل ولكن وجود العنصر لشىء لا ينتج منه أن هـذا العنصر يأتى من عنصر آخر . — التى يمكن لمسها — ر . ما سبق ب ٢ ف ١ . — تغير العناصر بعضها الى بعض — يمكن مراجعة كتاب السماء وكتاب الميتورولوجيا أيضا ك ١ ب ٢ و ٣ من ترجمتنا .

§ ٢ — أمر بديهى — بالتدليل أكثر منه بالمشاهدة . — يروح الى الأضداد — حفظت عبارة النص على فرط إيجازها . ومع ذلك فهى مفهومة بسهولة بعد التفاصيل التى تقدّمت . فان الشىء بتكوّنه يذهب من اللاوجود الى الوجود وعلى ضدّ ذلك بفساده يذهب من الوجود الى اللاوجود فهو يجاوز ضدّا ليذهب الى الضدّ الآخر . — لها تقابل — اتخذت لفظا أعم من لفظ النص الذى هو "تضاد" . — فصولها أضداد — ر . ما سبق ب ٢ ف ٢ .

العناصر الفصلان هما ضدّان ومثال ذلك فى المـاء والنار فان أحدهما يابس وحار فى حين أن الآخر سـائل وبارد . وبعض العناصر الأخرى ليس لهـا إلا واحد من الفصلين كالهواء والمـاء فان أحدهما هو سائل وحار والثانى بارد وسائل .

§ ٣ — وحينئذ فمن البيّن أنه على العموم كل عنصر يمكن بالطبع أن يأتى من كل عنصر . وليس من الصعب الاقتناع بهذا بأن يشاهد كيف تحصل الظاهرة بالنسبة لكل عنصر على حدته . لأنه سيرى أن كلها تأتى من كلها . والفرق الوحيد إنمـا هو أن التغير يتكوّن بكثير أو قليل من السرعة وبكثير أو قليل من السهولة . وكلما كان بين العناصر نقط ارتباط تحوّلت بعضها الى بعض سراعا جدا . وما ليس بينها نقط ارتباط تتغير ببطء . وعلة ذلك أن شـيئا واحدا بمفرده يتغير بأسرع من عدّة . وعلى ذلك فالهواء يأتى من النار بتغير أحد الكيفين ليس الا، ما دام أن أحدهما يابس وحار والثـانى حار وسائل . وينتج منه أنه اذا كان اليابس مغلوبا بالسائل فيتكوّن الهواء ثم إنه من الهواء يتكوّن المـاء اذا كان الحار هو المغلوب بالبارد لأن أحدهما كان سائلا وحارا والثـانى كان باردا وسائلا فيكفى اذًا أن الحرارة وحدها تتغير لأجل أن يتكوّن المـاء .

§ ٤ — وبهذه الطريقة عينها أيضا أن الأرض تأتى من المـاء وأن النار تأتى من الأرض لأن هذين العنصرين أيضا لهما أحدهما قبـل الآخر نقطة جمع ووصل

— فان أحدهما هو سائل — قد اضـطررت للاحتفاظ بلفظ "سائل" المطبق على الهواء كما هو أيضا فى النص .

§ ٣ — بأن يشاهد — وصية جديدة بنمط المشاهدة . — نقط ارتباط — ربما كان أضبط أن يقال « تركيب » ممكن . فان الحد المستعمل فى النص فيـه تفاوت لم أسـتطع تحصيله مباشرة . ر . الفقرة الآتية . — تحوّلت — أو « مرت من واحد الى الآخر » . — أحد الكيفين — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — كان — قد حافظت على أسلوب النص وهذا يتعلق بالنظريات التى بسطت آنفا . — يابس وحار ... حار وسائل — أى أن كيفى الحار يجتمعان ماداما متمـاثلين . فلا يبـقى للتغير الا اليابس والسائل . — كان سائلا — حفظت صيغة المـاضى الناقص كما هى فى الأصل .

§ ٤ — نقطة جمع ووصل — ترجمت هنا بوضوح معنى الكلمة الإغريقية التى هى خاصة بالأشياء التى يمكن جمع أجزائها لتؤلف كلا بعد أن فصلت .

فان المـاء سائل و بارد والأرض هى باردة و يابسـة بحيث إنه اذا كان السـائل هو المغلوب تتكوّن الأرض . ومن جهة أخرى بمـا أن النار يابسة وحارة والأرض يابسة و باردة فاذا فسـد البارد فمن الأرض تتكوّن النار . فيُرى حينئـذ أن كون الأجسام البسيطة يحصل بالدور وطريقة التغير هذه هى أسهل الطرق لأن العناصر التى تتعاقب لها دائما بينها نقط جمع و وصل .

§ ٥ — والمـاء يمكن أيضا أن يأتى من النـار والأرض من الهواء و بالعكس يمكن أن يأتى أيضا الهواء والنار من المـاء ومن الأرض . ولكن هذا التحول هو أصعب لأن موضوع التغير أشـياء أكثر عددا . وفى الواقـع لأجل أن تأتى النار من المـاء يلزم أن يفسد أولا البارد والسائل . وكذلك لأجل أن يأتى الهواء من الأرض يلزم أن البارد واليابس يفسدان . وهذا اللزوم واجب أيضا لأجل أن الماء والأرض يأتيان من النـار ومن الهواء لأنه يلزم حينئذ أن يكابد الكيفان التغير .

§ ٦ — وأيضا الكون الذى يحصل بهذه الطريقة هو أبطأ . ولكن اذا فسد أحد كيفى كل واحد من الاثنين فيكون التحوّل أسهل غير أن هذا التحول لا يحصل بعدُ حينئذ

— هو المغلوب — بالكيف الآخر الذى هو أقوى منـه . فان السائل المغلوب يتلاشى ولا يبقى من الكيفين الا البرودة التى هى الكيف المشخص للأرض . — فمن الأرض تتكون النار — كل هذه النظريات تظهر لنا غريبة فى هـذه الأيام ولكن يجب الرجوع الى زمن أرسطو . وقد كانت هذه النظريات مقبولة بلا نزاع الى القرن السادس عشر . — العناصر التى تتعاقب — ليس فى النص الا كلمـة واحدة غاية فى عدم التحديد ، فان العناصر المتعاقبـة هى التى لها كيفيات مشتركة . — جمع ووصل — ر . ما سبق فى أوّل هذه الفقرة .

§٥ — والمـاء يمكن أيضا أن يأتى من النار — ليس بين المـاء والنار نقطة مشتركة ما فلاجل أن يتغير أحدهما الى الآخر لابد من الوسطاء . وهاهنا الهواء هو الذى له نقط مشتركة بينه وبين المـاء من جهة و بينه وبين النار من جهة أخرى . — هذا التحول — عبارة النص أشدّ إبهاما . — البارد والسائل — اللذان هما كيفا المـاء . — البارد واليابس — كيفا الأرض الخاصان . — الكيفان — لفظ النص غير محدد .

§٦ — الكون — كون العنصر الجديد الناتج من تحول العناصر الأخرى . — لا يحصل بعد حينئذ من الواحد الى الآخر — وحينئذ يوجد جسم ثالث مكوّن من الكيوف الباقية . ينازع فيلو پون فى صحة هذه النظرية التى هى مع ذلك كما يقول هو كانت مقبولة عند الإسكندر الأفروديزى .

من الواحد الى الآخر على طريق التكافؤ . غير أنه من النار ومن الماء تأتى الأرض والهواء، ومن الهواء ومن الأرض تأتى النار والماء . وفى الواقع اذا فسد بارد الماء ويابس النار يتكون الهواء لأنه لا يبقى بعدُ إلا حار أحدهما وسائل الآخر. ولكن إذا فسد حار النار وسائل الماء تتكون الأرض لأنه لا يبقى حينئذ إلا يابس أحدهما و بارد الآخر .

§ ٧ — وكما هو الأمر فى الهواء والأرض يكون فى تكوّن النار والماء لأنه إذا فسد حار الهواء مع يابس الأرض يتكوّن الماء ما دام أنه سيبقى سائل أحدهما وبارد الآخر. ولكن حينما يكون المنعدم هو سائل الماء و بارد الأرض تتكوّن النار لأنه يبقى حار أحدهما و يابس الآخر وهما الكيفان الخاصان بالنار .

§ ٨ — وهذا الإيضاح لكون النار يتفق جدا مع الحوادث التى يشهد بها الحس لأنه إنما هو اللهب الذى هو على الأخص نار واللهب ليس إلا الدخان المحترق والدخان يتركب من هواء وأرض .

§ ٩ — فى العناصر التى تتوالى وتتعاقب ليس ممكنا متى كان أحد الكيفين قد فسد فى واحد أو فى الآخر أن يحصل مرور وتحول للعناصر إلى أى جسم آخر

– غير أنه من النار ومن الماء — لا يظهر أن المعانى متعاقبة تماما . – يتكون الهواء — عنصر مخالف للنار والماء اللذين أنتجاه . – تتكون الأرض — الملاحظة عينها . – يابس... و بارد — اللذان هما كيفا الأرض.

§ ٧ — سائل أحدهما — السائل يظهر أن استعماله خاص بالماء دون سواه . ولكن فى هذه النظريات يلزم قبوله أيضا بالنسبة للهواء لأن لفظ رطب يظهر أنه أحسن استعمالا فى بعض الأحوال . ويمكن أيضا أن تستعمل كلمة "لطيف" للهواء ولكن هذه الكلمة لا توافق تماما كلمة النص . — وهما الكيفان الخاصان بالنار — ر . ماسبق ب ٣ ف ٢ .

§ ٨ — وهذا الإيضاح لكون النار — ليس النص على هذه الصراحة . — يتفق جدا مع الحوادث — لا يظهر أن هذا الاتفاق تام كما يظن المؤلف ولكن هذا لا يمنع من أن النمط الذى يوصى باتباعه طيب وحق ولو أنه لم يحسن تطبيقه . — الدخان يتركب من هواء وأرض — لأن الدخان على رأى أرسطو هو تبخر الخشب . ر . الميتورولوجيا ك ٤ ب ٩ ف ٤٢ ص ٣٣٩ من ترجمتنا .

§ ٩ — التى تتوالى وتتعاقب — مثال ذلك الهواء بعد النار والماء بعد الهواء والأرض بعد الماء ما دامت العناصر الأربعة مرتبة على هذا النظم . — مرور وتحول — ليس فى النص الا كلمة واحدة .

لأن البواقى التى تبـقى فى الاثنين هى إما متماثلة أو متضادة . وحينئذ لا من بعضها ولا من الآخر يمكن أن يتحصـل جسم . مثـال ذلك إذا فسد يابس النـار و إذا فســد أيضا سائل الهواء لا توجد نتيجة ممكنة مادامت الحرارة هى التى تبـقى من طرف ومن آخر . وكذلك الحال فيما إذا كانت هى الحرارة التى تنعـدم من الاثنين فإنه لا يبقى بعد إلا ضدان وهما اليابس والسائل ، ويُجرى هــذا المجرى فى جميع الأحوال الأخرى ما دام أنه فى الأحوال التى من هذا القبيل يبقى دائما تارة الكيف المـاثل وتارة الكيف المضاد ، وعلى هذا فمن البيّن حينئذ أنه لأجل تكوين العناصر مارة ومتغيرة من واحد إلى واحد يكفى أن كيفا واحدا يفسد . ولكن بالنسبة للعناصر التى تمر من اثنين إلى واحد فقط . هنالك يحتاج إلى فساد عدة كيفيات .

§ ١٠ — وعلى جملة من القول فإنه قد وضح أن كل عنصر يتولد من كل عنصر وقد بُيّن بأية طريقة يحصل تحول بعضها إلى بعض .

— البواقى التى تبقى فى الاثنين — ليس النص على هــذه الصراحة . — نتيجة ممكنة — يعنى جسما ثالثا مخالفا للجسمين اللذين أنجباه . — الحرارة هى التى تبقى — وفى هذه الحالة هى النار . — ضدان — يترافضان ولا يمكنهما أن يجتمعا ما دام أنهما يتفاسدان على التكافؤ . — مارة ومتغيرة — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — من واحد الى واحد — التعبير ليس بينا جدا ولم أزد على أن حصلته بعينه . — كيفا واحدا — الكيف المضاد . والنص ليس على هذا القدر من الضبط . — عدة كيفيات — كلمة النص فى غاية الإبهام .

§ ١٠ — وعلى جملة من القول — عبارة النص هى بالبساطة : "حينئذ" .

البـاب الخـامس

بقية نظرية تبدل العناصر — من المحال ألّا يوجد إلّا عنصر واحد منه تأتى كل العناصر الأخرى — فى هذا الافتراض قد تحصل استحالة العنصر الوحيد ولكن لا يحصل البتة كون حقيقى للعناصر المختلفة — شاهد من طياوس لأفلاطون — عرض جديد للطريقة التى بها تتغير العناصر بعضها الى بعض — يحصل التبدل بسرعة متناسبة مع وجود كيف مشترك — نسبة العناصر الأطراف بعضها الى بعض ونسبة العناصر الأوساط — الحدود الضرورية لهذا التحول — لا يمكن التمشى الى اللا نهاية فى أى واحدة من الجهتين — البيان الحرفى لهذا المبـــدأ .

---

§ ١ — التفاصيل السابقة لا تمنعنا تقدير هذه المسائل على ضوء آخر . فإذا كانت مادة الأجسام الطبيعية هى ، كما يرى بعض الفلاسفة ، المـاء والهواء أو عناصر من هـذا القبيل فيلزم أن تكون واحدا أو اثنـين أو عدّة من هذه العناصر . وفى الحق لا يمكن ألّا تكون جميع الأشـياء إلا عنصرا واحدا أحدا . مثـلا أن الكل لا يكون إلا هواء أو ماء أو نارا أو أرضا ما دام التغير يحصل فى الأضداد . وفى الواقع لنفرض أن الكل هو من الهواء وأن الهواء يبـقى فى جميع التغيرات فسيحصل من ثم مجرد استحالة ولن يحصل بعدُ كون .

§ ٢ — ولكن فى هذا الافتراض عينه ليس ممكنا، فيما يظهر، أن يكون المـاء فى آن واحد هواء أو أى عنصر آخر مشابه : فسيوجد دائمـا بين الكيفيات تقابل وخلاف

---

§ ١ — التفاصيل السابقة — ليس النص على هذه الصراحة . — على ضوء آخر — عبارة النص بالضبط هى : «هكذا» يعنى «بالطريقة الآتية» . — فإذا كانت مادة الأجسام الطبيعية — يجب أن يعنى ها هنا بالأجسام الطبيعية أوّلا بعض العناصر ثم بعد ذلك جميع الأجسام التى تؤلفها العناصر الأولية بتراكيبها . — كما يرى بعض الفلاسفة — وعلى الأخص فلاسفة مدرسة يونيا . — عنصرا واحدا أحدا — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — ما دام التغير يحصل فى الأضداد — وأن تقبل واقعية التغير المدرك بحواسنا . — فى جميع التغيرات — أضفت هذه الكلمات لبيان الفكرة .

§ ٢ — أن يكون المـاء — بعض الناشرين يثبت النار بدل المـاء ، وأظن أن هذه هى الرواية الحقة لأنها هى وحدها التى تتفق مع كل ما يلى . ويظهر أن فيلوبون أيضا على ذلك . ولكنى لم أجسر على تغيير النص لأن هذا التغيير لا يستند إلى أية نسخة مخطوطة . — بين الكيفيات — أضفت هاتين الكلمتين لتمام المعنى .

حيث لا يكون للنار إلا واحد من الطرفين الحرارة مثلا. ولكن النار لن يمكنها البتة أن تكون بالبساطة هواء حارا لأن هذا إنما هو استحالة . ولا يظهر أن الأمور تقع على هـذا النحو . ومن جهة أخرى إذا فرض على العكس أن الهواء يأتى من النار فهذا التغير لا يمكن حصوله إلا بالتغير من الحرارة إلى ضدّها فهذه الكيفية المضادّة ستكون إذًا فى الهواء. وحينئذ سيكون الهواء شيئا باردا و بالنتيجة من المحال أن تكون النـار هواء حارا لأنه قد ينتج منـه أن العنصر الواحد قد يكون حارا و باردا فى آن واحد . وسيوجد حينئذ خلاف هذين العنصرين شىء مّا آخر سيبقى مماثلا وهو أية مادّة أخرى عامة للاثنين .

§ ٣ — قد يكون التدليل عينه منطبقا فى حق كل عنصر آخر غير الهواء. ولا يمكن أن يوجد منها واحد قد يكون المنبع الوحيد الذى منه تكون قد خرجت الأخرى كلها. وليس يوجد خلاف هذه العناصر عنصر آخر وسيط، كأن يكون مثلا عنصرا وسطا بين الهواء والمـاء أو بين الهواء والنار، أثقل من الهواء والنار وأخف من كل الأخر. لأن هذا الوسيط حينئذ يكون بمقابلة الأضداد هواء ونارا معا . ولكن ثانى الضدين هو العدم و بالتبع لا يمكن أن يثبت هـذا العنصر الوسيط وحده ، كما يقوله بعض

— واحد من الطرفين — هذه هى كلمة النص بعينها أثبتها وربمـا قد لا تكون الكلمة المختارة . — الحرارة — بافتراض أن الهواء حار وسائل كما سبق فى ف ٢ و ٣ . — الأمور تقع على هذا النحو — ليست عبارة النص على هذه الصراحة . — أن الهواء يأتى من النار — كما افترض آنفا من أن النار هى التى كانت تأتى من الهواء فيلزم أن الهواء يمكن أن يأتى من النـار أيضا ما دام أنه لم يفترض إلا عنصر واحد أحد . — من الحرارة — التى هى فى النار بالبداهة . — إلى ضدها — الذى هو البرودة . — هذه الكيفية المضادة — ليس فى النص إلا اسم إشارة غير محدّد . — وسيوجد حينئذ — هذه هى النظرية التى سيقف عندها أرسطو فيما يلى . — أية مادة أخرى عامة للاثنين — هى المـادة بالقوّة المحضة لا بالفعل والتى يمكنها أن تقبل على التناوب صورة كل واحد من الأضداد ونوعه . ر . طيماوس أفلاطون ترجمة كوزان ص ١٢٢

§ ٣ — فى حق كل عنصر آخر غير الهواء — النص مبهم جدا . — قد يكون المنبع الوحيد — النص مبهم جدا أيضا . — عنصر آخر وسيط — كما كان يرى أنكسيمندروس على رواية فيلو بون . — هو العدم — ر . الطبيعـة ك ١ ب ٨ ف ١٠ ص ٤٨٠ من ترجمتنا . فان العـدم هو ثانى الضدين بمعنى أن هذا الضدّ

الفلاسفة ، عن اللامتناهى وعن الحاوى . فيلزم إذاً إما أن كل واحد من العناصر المعروفة يمكن أن يكون على السواء هو ذلك الوسيط و إما ألّا يمكن ولا واحد منها أن يكونه .

§ ٤ — ولكنه إذا لم يكن أجسام محسوسة سابقة على تلك فالعناصر التى نعرفها هى كل هذه الموجودة ، فيلزم حينئذ إما أن تثبت العناصر الى الأبد كما هى دون أن يتغير بعضها الى بعض و إما أن تتغير على الدوام . يمكن أن يسلّم أيضا إمكان تغيرها جميعا أو أن بعضها يمكن أن يتغير وأن الأخرى لا يمكنها ذلك كما قال أفلاطون فى طيماوس . ولقد وُضح فيما سبق أن العناصر تتغير بالضرورة بعضها إلى بعض ولكنه قد بُيّن أيضا أنها لا تتغير بسرعة على السواء تحت هذا التأثير المتبادل وأن التغير يحصل أسرع بالنسبة للتى بينها نقطة صلة أعنى كيفا مشتركا ، وأبطأ بالنسبة لتلك التى ليس لها من ذلك . فاذا لم يكن إذاً إلا مقابلة واحدة بالأضداد على حسبها تتغير الأجسام فيلزم بالضرورة حينئذ أن يوجد جسمان لأن الهيولى إنما هى التى تصلح وسطا للضدين غير مدرك وغير منفصل ولكن لما أنه يوجد بالمعاينة عناصر أكثر فأن أقل ما يمكن أن يوجد من المقابلات إنما هو اثنان ومتى وجد

الثانى لا يوجد الا متى انقطع وجود الآخر . — وعن الحاوى — حفظت لفظ النص على ابهامه . ر . على اللامتناهى الطبيعة ك ٣ ب ٦ ف ٤ ص ٩٧ من ترجمتنا . الفلاسفة الذين يشير اليهم هنا أرسطو بلاشك هم أتباع فيثاغورث . ر . كذلك أيضا الطبيعة ف ١٢ ص ١٠٠ . — يمكن أن يكون على السواء هو ذلك الوسيط — ليس النص على هذا القدر من البيان . ولكن المعنى الذى وفيناه ظاهر من شرح فيلو پون .

§ ٤ — أجسام محسوسة — عبارة النص غير محددة . — فالعناصر التى نعرفها — زدت "التى نعرفها" . — كما هى — زدتها أيضا . — كما قال أفلاطون فى طيماوس — ر . طيماوس ترجمة كوزان ص ١٦٦ وما بعدها . — فيما سبق — ر . ما سبق ب ٣ و ٤ . — أعنى كيفا مشتركا — زدت هذه العبارة على جهة التذييل . — مقابلة واحدة بالأضداد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — للضدين — أضفت هذا الجار والمجرور لاتمام الفكرة . ر . الطبيعة ك ١ ب ٨ من ترجمتنا . — عناصر أكثر — ليس النص على هذه الصراحة .

اثنان فلا يمكن أن يوجد ثلاثة حدود فقط بل يلزم مطلقا أربعة كما قد تدل عليه المشاهدة . وهذا إنما هو عدد التراكيب اثنين اثنين لأنه ولو أنها ستة فى المجموع إلا أن منها اثنين لا يمكن البتة أن يكونا لأنهما ضدان أحدهما للآخر . ومع ذلك فقد عولجت هذه المسائل فيما سبق .

§ ٥ — مع أن العناصر تتغير بعضها إلى بعض فإن من المحال أن يوجد مبدأ التحول لا فى أحد الطرفين ولا فى الوسط . وإليك ما يثبته : فأما الطرفان فإنه ليس ممكنا أن تكون كل الأشياء من النار كما أنها لا تكون كلها من الأرض، لأن هذا يرجع إلى القول بأن الكل يتولد من النار أو أن الكل يتولد من الأرض . ولكن لا يمكن أن يقال أيضا، كما يريد بعض الفلاسفة، إن الوسط هو المبدأ وإن الهواء ينقلب إلى نار وإلى ماء ولا إن الماء ينقلب إلى هواء وإلى أرض . لأنى أكرر أن الأطراف لا يمكن البتة أن يتغير بعضها إلى بعض .

§ ٦ — على ذلك يلزم إيجاد نقطة وقوف ولا يمكن من جهة ولا من أخرى السير إلى اللانهاية على خط مستقيم لأنه يترتب عليه وجود مقابلات وأضداد غير متناهية العدد لعنصر واحد أحد . فلنرمز للارض بحرف ا وللماء بحرف م وللهواء

— فيما سبق — ر . ما سبق ب ٣ ف ١

§ ٥ — مبدأ التحول — عبارة النص هى بالبساطة "مبدأ" . — من النار ... من الأرض — بأن النار والأرض هما العنصران الطرفان . — الهواء ينقلب الى نار — بما أن الهواء عنصر وسيط . — الماء ينقلب الى هواء — الملاحظة عينها . — أكرر — أضفت هذه الكلمة . — أن يتغير بعضها الى بعض — لأن الأطراف هى أضداد تتفاسد ولكنها لا تتبدل على طريق التكافؤ .

§ ٦ — يلزم إيجاد نقطة وقوف — التى هى أحد الطرفين . — الى اللا نهاية على خط مستقيم — يعنى من غير أن يرتد على عقبيه ليذهب من جديد من الطرف الثانى الى الطرف الأوّل كما ذهب أوّلا من الطرف الأوّل الى الطرف الثانى ومع ذلك فان هذه الفكرة ليست بينة بيانا كافيا . — مقابلات وأضداد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — فلنرمز للارض بحرف T — [بالفرنساوية وقد وضع بدلها فى النص العربى

بحرف ﻫ وللنار بحرف ن . فإذا تغير ﻫ إلى ن و إلى م فالتقابل يكون بين ﻫ ، ن . ولنفرض أن هذين الضدين هما البياض والسواد . ومن جهة أخرى إذا تغير ﻫ إلى م فسيكون تقابل آخر لأن م ، ن ليسا متماثلين ولتكن مقابلة السيولة واليبوسة مرموزا لليبوسة بحرف ى وللسيولة بحرف س فاذا كان حينئذ الأبيض هو الذى يمكث ويبقى فيكون الماء سائلا وأبيض، فإذا لم يكن أبيض فيكون أسود ما دام أن التغير لا يحصل إلا إلى الأضداد . فيلزم حينئذ بالضرورة أن يكون الماء إما أبيض و إما أسود و يمكن افتراض أنه فى الحالة الأولى . و بالطريقة عينها أيضا ى اليبوسة يكون لحرف ن وحينئذ ن أعنى النار تتغير كذلك إلى ماء لأنهما الضدان ، والنار كانت سوداء أولا ثم يابسة بعد ذلك كما كان الماء سائلا أولا ثم أبيض .

§ ٧ — فبيّن إذًا أن كل العناصر يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض . والكيوف الباقية ستوجد فى (أ) الأرض كما يوجد فيها نقطتا الاجتماع والارتباط الأسود والسائل ما دام أن هذين الكيفين لم يتركبا معا بعدُ بأية طريقة كانت .

حرف ا] فى النص أخذت حروف الرمز من أوائل أسماء العناصر كما نبه اليه فيلو پون كما فعلت فى الترجمة . ومع ذلك فان هـذا المثل الحرفى لم يأتِ بإيضاح كبير . — البياض والسواد — نبه سان توماس بحق الى أن هذه الأمثلة ليست مختارة وأن هذه ليست هى الكيفيات العادية للعناصر . — م ، ن ليسا متماثلين — بل هما ضدان بالعرف العام ما دام أنهما الماء والنار . — السيولة — يمكن أن تترجم أيضا "الرطوبة" . — أعنى النار تتغير كذلك إلى ماء — كل هذه التغايير هى نظرية محضة ولا تطابق حقيقة الواقع فى شىء . والمؤلف هاهنا ليس متمسكا بنهج المشاهدة الذى طالما أوصى به .

§ ٧ — أن كل العناصر — قد يكون من الممكن تخصيص هذه القضية التى هى أعم مما ينبغى بعض الشىء وقصرها على عنصرى الأرض والنار . — الكيوف الباقية — يعنى التى لم يتألف أحدها مع الآخر بعد . — نقطتا الاجتماع والارتباط — يعنى الكيفيات المشتركة للعنصرين والتى بها يمكن أن يجتمعا ويتركبا بحيث إن أحدهما يتغير إلى الآخر .

§ ٨ — وهاك البرهان على أنه لا يمكن هاهنا أن يتمشى إلى اللانهاية ، مبدأ اعتمدنا عليه من قبل أن نقرر الإيضاح الذى سبق ، وذلك هو أنه إذا فرض أن النار المرموز لها بحرف ن تتغير إلى عنصر آخر ولا ترجع إلى الوراء وأنها مثلا تتغير إلى ر فمن ثم يكون بين النار وبين ر مقابلة بالأضداد مختلفة عن المقابلات المذكورة آنفا ما دام أن ر لا يمكن أن تكون مماثلة لأى واحد من العناصر المرموز لها بالحروف ا ، م ، ه ، ن ولنفرض أن الكيف ك هو كيف ن وأن الكيف ى هو كيف ر فتكون ك حينئذ لكل العناصر ا ، م ، ه ، ن لأن كل هذه العناصر يتغير بعضها إلى بعض. ولكن مع التسليم بأن هذا لم يوضح بعد فان من البين على الأقل أنه إذا تغير ر من جديد إلى عنصر آخر فمن ثم يكون تقابل آخر بالأضداد ويكون بين ر وبين النار ن . وتكون الحال كذلك دائما بالنسبة لحد المزيد وأنه يُوقِع دائما مقابلة مع الحدود السابقة بحيث إنه إذا كانت هذه الحدود غير متناهية بالعدد فتكون كذلك مقابلات غير متناهية بالعدد لعنصر واحد أحد . وإذا كان هذا ممكنا فمن ثم يكون من المحال أن يعطى أى قول شارح وأن يوضح كون أى عنصر مّا ما دام أنه يلزم، إذا كان واحد يأتى من الآخر، أن يجتاز من المقابلات عدد ما ذكرنا بل وأزيد

---

§ ٨ — مبدأ اعتمدنا عليه — ر . ماسبق ف ٦ . — الإيضاح الذى سبق — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — ولا ترجع إلى الوراء — يعنى إذا توالى التغير على خط مستقيم وإذا لم تتغير النار على التعاقب إلى هواء وماء وأرض لتتغير الأرض بعد ذلك إلى ماء وهواء ونار . — المذكورة آنفا — ر . ب ٥ و ٦ . — لا يمكن أن تكون مماثلة — يعنى أن « ر » تكون مفروضة عنصرا خامسا خارجا عن النار والهواء والماء والأرض . — الكيف « ك » — عبارة النص هى فقط « ك » . — فتكون « ك » حينئذ لكل العناصر — ما دام أنه للعنصر «ن» بواسطة «ر» ولسائر الأخرى بواسطة «ن» . — لحد المزيد — كما زيدت « ر » على أربعة العناصر الأخرى . — إذا كانت هذه الحدود غير متناهية بالعدد — يجب أن يعنى بالحدود العناصر الجديدة التى قد تفترض تلو العنصر الخامس كما افترض الخامس تلوا للاربعة الأول . — لعنصر واحد أحد — ما دام أن جميع العناصر يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض على التعاقب . — أى عنصر ما — عبارة النص غير محددة . — ما ذكرنا — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — بل وأزيد منه — هذا غير مفهوم تماما مادام قد افترض أن عدد الأوساط غير متناه .

منـه . و ينتج من ذلك أنه بالنسبة لبعض العناصر لا يكون تغير ممكن البتة ، مثال ذلك إذا كانت الأوساط غير متناهية بالعدد وهذا لا زم إذا كانت العناصر غير متناهية بالعدد هى أنفسها ، وعلى ذلك مثلا لا يكون تغير من هواء الى نار إذا كانت المقابلات التى تُجتاز هى غير متناهيـة بالعدد . ٩§ — وأخيرا كل العناصر أيضا تنتهى الى عنصر واحد لأنه يلزم أن تكون كل هذه المقابلات متعلقة إما بالمقابلات من أعلى بالعناصر التى هى أسفل من ن و إما بالمقابلات من أسفل بهذه العناصر نفسها بحيث إن الكل ينتهى إلى واحد .

— لبعض العناصر — عبارة النص غير محددة ، و يظهر لى أن هذا يرجع بالضرورة الى العناصر . — إذا كانت الأوساط غير متناهية بالعدد — كما افترض سابقا ، فان الهواء والنار هما مع ذلك عنصران متجاوران كلاهما فاذا لم يمكن تغير أحدهما الى الآخر على طريق التكافؤ فمن باب أولى العناصر المتباعدة كالنار والأرض .

§ ٩ — وأخيرا — أضفت هذه الكلمة لبيان أن هذا هو تمام كل ما سبق . ومع ذلك فلا يرى قوة هذا البرهان المبنى على فرض عنصر خامس وسلسلة متناهية من العناصر . حتى لو فرض أنه لا يوجد إلا أربعة عناصر فما دام أنها يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض كما يقرره أرسطو فانه يظهر أيضا أنه يمكن أيضا أن تنتهى الى واحد . ومع ذلك فانى لست واثقا بأن يكون المراد هنا هو العناصر ما دام أن عبارة النص غير معينـة كما فى بعض الفقرات الأخرى . ومن الممكن أن تكون جميع الأوساط هى التى تنتهى الى واحد . — كل العناصر أيضا تنتهى الى عنصر واحد — حفظت عدم التعيين الموجود فى النص . وما زالت هذه الفقرة مغلقة على الرغم من توضيحات فيلو بون الذى يستند مع ذلك الى الإسكندر الأفروديزى . والظاهر أن هذا الأخير كان لديه نص أرسطو كما وصل الينا ، ومن المحتمل أنه لا محل لافتراض أى تحريف هاهنا . و إن الفكرة العامة لهذا التدليل هى مع ذلك جلية وإن كانت التفاصيل ليست دائما كذلك . فعلى رأى أرسطو أن أربعة العناصر يمكن أن يتغير بعضها الى بعض . ولكن هذا التغير لا يصح أن يكون غير متناه و يلزم الاستمساك بالأربعة العناصر التى تدركها حواسنا و بالأربع الكيفيات التى تشخصها وتميزها . وقد فسر سان توماس هذه الفقرة بالاختصار الذى ليس من عادته . ولم يكن هذا الإيجاز ليساعد على جلاء المعنى .

الباب السادس

إبطال نظرية أمبيدقل على مقارنة العناصر بينها سواء بالنسبة إلى الكم أم بالنسبة إلى الأثر والتناسب — فى مذهب أمبيدقل نمو الأشياء يرجع الى مجرد جمع — إنه لا يفسر أيضا كون الأشياء، بل أخضعه لسلطان المصادفة، ولا علة الحركة الأصلية ولا طبع النفس الحقيق — شواهد مختلفة من شعر أمبيدقل .

---

§ ١ — حينما يُرى أن فلاسفة يقبلون تعدد عناصر الأجسام وينكرون فى آن واحد أن العناصر تتغير بعضها إلى بعض، كما يفعل أمبيدقل، قد يمكن أن يُسألوا فى شيء من الدهش كيف يستطيعون إذًا أن يقرروا أن العناصر هى قابلة للمقارنة بعضها ببعض . هذا مع ذلك هو ما يزعمه أمبيدقل إذ يقول :

" لأن العناصر كلها كانت متساوية فيما بينها "

فاذا كانت المساواة فى الكم لزم أن يوجد بين الأشياء المقارنة شيء مشترك يصلح لقياسها، مثال ذلك إذا كان من كوتيل [ربع لتر] واحد من الماء يمكن إيجاد عشرة كوتيلات من الهواء فذلك بأن العنصرين كانا من بعض الوجوه شيئا واحدا ما دام أن قياسهما واحد . § ٢ — فاذا كانت الأشياء ليست قابلة للمقارنة هكذا بالنسبة إلى الكم أى أن الكمية الفلانية مضارعة الكمية الفلانية فيلزم على الأقل أن تكونه

---

§ ب ٦ ف ١ — حينما يرى — ليس النص على هذه الصراحة . — فى آن واحد — أضفت هذه الكلمات حتى تكون المقابلة بين المعانى أظهر . — كما يفعل أمبيدقل — ر. ماسبق ب ٣ ف ٦ . — قابلة للمقارنة — التعبير مبهم ولم أشأ أن أزيد عليه ما يعينه . وإن الأمثلة التى ستذكر فيما بعد ستقلل من إبهامه شيئا . — كانت متساوية — هاهنا أيضا قد حصلت عبارة النص على ما فيها من عدم التعيين . — فاذا كانت المساواة فى الكم — على تقدير المادى ليقابل بكم القوة الذى سيجيء الكلام عليه فيما يلى . — يمكن إيجاد عشرة كوتيلات من الهواء — أو « إذا كان كوتيل من الماء يقابل عشرة كوتيلات من الهواء » وهذا ليس إلا مجرد فرض وليس معناه أن أرسطو يظن أن هذه هى فى الواقع النسبة بين الهواء والماء .

§ ٢ — الأشياء — أو « العناصر » . — مضارعة — أو « آتية من » .

بعلاقة الأثر الذى يمكن أن تحدثه . مثـال ذلك : إذا كان كوتيل من المـاء يمكن أن يحدث من البرودة ما تحـدثه عشرة كوتيلات من الهواء فحينئـذ تكون العناصر قابلة أيضا للمقارنة بينها بعلاقة الكمية لا من حيث هى بالضبط كمية مادّية ولكن من حيث إنه يمكنها أن تحدث فعلا ما .

§ ٣ — قد يمكن أيضا مقارنة القوى أو الطاقات ليس فقط بمقياس الكمية مباشرة بل أيضا بالتنسيب والتشبيه . على ذلك يمكن أن يقال إن الشىء الفلانى حارّ كما أن الشىء الآخر أبيض . فكاف التشبيه تبين علاقة المشابهة إذا كان المعنىٌّ هو الكيف، فان كان المقصود الكم فهى تفيـد المساواة . ولكن من السخف ، فيما يظهر، أن الأجسام التى لا يمكن أن تتبدّل بعضها ببعض لا تكون قابلة للمقارنة فيما بينها بعلاقة المشابهة وأن تكون فقط بمقياس قوتها ولأن الكمية الفلانية من النار مثلا يمكن أن تكون أيضا حارّة وتحدث الحرارة التى تحدثها الكمية الفلانية من الهواء التى هى أعظم منها . وفى الواقع أن جوهرا من هـذا الطبع إذا كانت كميته أعظم يمكنه أن يصير بالتنسيب مكافئا لأنه سيكون والآخر من جنس واحد .

— الأثر الذى يمكن أن تحدثه — ليس النص على هذا الوضوح . — يمكن أن يحدث من البرودة — كان من حق هذه العبارة أن تكون أوسع مما هى . — مادية — أضفت هذا الوصف . — أن تحدث فعلا ما — عبارة النص بالضبط هى : « بما هى مستطيعة شيئا ما » .

§ ٣ — القوى أو الطاقات — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — مباشرة — أضفت هذه الكلمة لبيان الفكرة . — بالتنسيب والتشبيه — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — فكاف التشبيه — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — ولكن من السخف فيما يظهر — الرأى الذى ينقده أرسطو هنا يجب أن يكون مسندا أيضا الى أميدقل على رغم أن هذا التعيين لم يذكر فى النص صراحة . — قابلة للمقارنة فيما بينها — لم يذكر فيما سبق أن هذا الرأى هو رأى أميدقل . — المشابهة — أو «التنسيب» . — مثلا — أضفت هذه الكلمة . — الكمية الفلانية من الهواء التى هى أعظم منها — فى نسبة حرارة الهواء الى حرارة النار . أما القاعدة فهى مع ذلك صحيحة . فإن جسمين مكيفين بكيف واحد يمكن أن يوازن بينهما بالزيادة على أضعف الاثنين .

§ ٤ — أزيد على ذلك أنه على حسب مذهب أمبيدقل لا يوجد نمو ممكن إلا النمو الذى يحصل بالجمع وهكذا هو يفترض أن النار تمو بالنار حين يقول :

" الأرض تنمى الأرض والهواء ذاته ينمى الهواء "

حينئذ ليس هذا إذًا إلا مجرد إضافة ولا يظهر أن الأشياء التى تمو يمكن أن تمو هكذا .

§ ٥ — ولكنه أعسر أيضا على أمبيدقل أن يوضح كون الموجودات فى الطبع لأن كل الموجودات التى تولد وتتكوّن بحسب القوانين الطبيعية أو تولد دائما بطريقة منتظمة أو بالأقل على الغالب بهذه الطريقة ، والموجودات التى تتكون على ضد هذا النظام الثابت أزلا أو بالأقل الأكثر فى العادة هى ثمرة علة اتفاقية وثمرة المصادفة . فما هو الفاعل إذًا فى أن من إنسان يولد إنسان إما دائما وعلى حسب قاعدة أزلية وإما بالأقل بحكم العادة الغالبة ، كما أن من القمح يأتى دائما قمح لا شجرة زيتون؟ أم هل العظام لا تتكوّن أيضا بالطريقة عينها؟ كلا إن الأشياء لا تكون بالمصادفة وبالاتفاق كما يقول أمبيدقل بل هى تتكون بنوع ما من العقل .

---

§ ٤ — أزيد على ذلك ... هو يفترض — ليس النص على هذا القدر من الظهور . — حين يقول — أضفت هاتين الكلمتين . — تنمى الأرض — عبارة النص بالضبط : «تنمى نوعها الخاص» وقد بين أرسطو فيما سبق أن نمو الأشياء لا يمكن أن يحصل بمجرد الاضافة ك ١ ب ٥ ف ٨ . — ولا يظهر — يحال على المرجع السابق .

§ ٥ — على أمبيدقل — أضفت هاتين الكلمتين التين تفهمان من صوغ النص . — فى الطبع — بصرف النظر عن الأشياء التى توجدها صناعة الانسان . — علة اتفاقية وثمـرة المصادفة — إن إبطال نظرية المصادفة هـذا هو مطابق تمام المطابقة ، حتى فى لفظه أحيانا ، للنظرية الواردة فى الطبيعة ك ٢ ب ٤ ف ٦و٨ ص ٣١و٣٢ من ترجمتى وأيضا فى الباب الخامس وما يليه . — أم هـل العظام لا تتكون أيضا — لا يرى جيدا لماذا مثل بالعظام هنا . وإن كان أمبيدقل فى الحق يستعمل هـذا المثل غالبا . — كما يقول أمبيدقل — ر . الطبيعة ك ٢ ب ٨ ف ٣ ص ٥٤ وما بعدها من ترجمتنا . — بنوع ما من العقل — أو « بنوع ما من الفطنة » .

§ ٦ — فما هى إذًا العلة فى كل هذه الظواهر؟ إنها ليست فى الحق لا الأرض ولا النـار ، وليست كذلك العشق والتنـافر لأن أحدهما ليس علة إلا لتأليف الأشياء والآخر لتفريقها . تلك العلة إنمـا هى أصل لكل شىء . وليست فقط كما يقول أمبيدقل :

« اختلاط وتنافر للأشياء المختلطة »

فهى ليست إذًا ما يسـمى بالمصادفة وليست هـذه بعلة . لأنه ممكن تماما أن يوجد أحيانا اختلاط اتفاقى ومشوش . § — ٧ — إذًا ما هو علة لكل واحد من الموجودات الطبيعية إنمـا هو تركيبها ، إنمـا هو الطبع الخاص لكل واحد منها مما لا يقول عنه أمبيدقل كلمة واحدة . بل يمكن التأكيد بأنه لم يدرس الطبع حقيقة ولو أن الطبع هو بالضبط النظام والخير لجميع الأشياء . ولكن أمبيدقل لا يشيد مطلقا إلا بذكر الامتزاج والاختلاط ومع ذلك فليس هو التنافر بل هو العشق الذى فصل العناصر وهما على رأيه متقدمان على الله ذاته لأن عناصر أمبيدقل هى أيضا آلهة .

---

§ ٦ — إنمـا ليست فى الحق لا الأرض ولا النار — هذه الجملة واردة على صيغة تهكمية . — العشق والتنافر — المبدآن العظيمان عند أمبيدقل . ر . الطبيعة ك ٧ ب ١ ف ٤ ص ٤٥٥ من ترجمتنا . — إنما هى أصل لكل شىء — يعنى صورته الجوهرية . وكان يمكن أرسطو أن يترقى أيضا إلى أعلى من ذلك ويتساءل إلام يجب أن يرجع فى أصل كل شىء . — وليست هذه بعلة — أو نوعا من التناسب والنظام . وإن اللفظ المستعمل فى النص هو فى غاية السعة . — لأنه ممكن تماما — يظهر أن فيلوبون لم يفهم هذه الجملة الصغيرة لأنه لم يفسرها . — اتفاق ومشوش — ليس فى النص إلا كلمة واحدة .

§ ٧ — إنمـا هو تركيبها — والترجمة الحرفية هى : « كونها على ماهى عليه » . ومع ذلك فان هذا غير صحيح جدا فانه لا يمكن أن يقال إن تركيب الموجودات هو علتها الحقيقية . — النظام والخير لجميع الأشياء — على هذا المعنى يمكن القول بأن هذا هو علتها الغائية . — الامتزاج والاختلاط — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — العشق الذى فصل — لا يظهر أن هذا مطابق تماما لآراء أمبيدقل . وفى الحق أنه لأجل الجمع يلزم أولا التفريق ولكن أمبيدقل إنمـا يسند التفريق إلى التنافر . — على رأيه — أضفت هاتين الكلمتين لبيان الفكرة . — الله ذاته — إله أمبيدقل هو « السفوروس » الذى يحيط بكل شىء فتارة ينبسط بالتنافر وتارة ينقبض بالعشق . ر . الطبيعة ك ١ ب ٥ ف ٤ فى التعليقات ص ٤٥٥ من ترجمتنا ،

§ ٨ — إنه لا يتكلم كذلك على الحركة إلا بطريقة غاية فى العموم لأنه لا يكفى أن يقال إن التنافر والعشق هما اللذان يعطيان الحركة اذا لم يعيّن أن العشق ينحصر فى أن يسبب النوع الفلانى من الحركة والتنافر فى أن يسبب النوع الفلانى منها . وحينئذ كان يجب على أمبيدقل هاهنا إما أن يحدّ الأشياء بالضبط ، أو أن يتصور فرضا ما ، أو أن يوضح توضيحا قويا أو ضعيفا مع ذلك ، أو أن يخلص منه بأية طريقة أخرى . § ٩ — رد آخر . إن الأجسام هى تارة متحركة بالقسر وضد الطبع وتارة هى ذات حركة طبيعية . مثال ذلك النار تتجه إلى فوق من غير أن يكون ذلك بالقسر ولا تتجه إلى تحت إلا بالقسر فالحركة الطبيعية هى ضد الحركة القسرية فبالنتيجة كما أنه يوجد حركة قسرية يوجد أيضا حركة طبيعية . فهل هو إذًا العشق أو ليس هو العشق الذى يكوّن هذه الحركة الأخيرة؟ متى كان للأرض حركة تحملها إلى تحت فإنما هى حركة مضادة للائتلاف وتشبه الانفصال . إذًا يكون التنافر هو أولى من العشق فى أن يكون علة الحركة الطبيعية وبالنتيجة يكون

---

٨ — غاية فى العموم — ويمكن أن يترجم أيضا : « أبسط مما ينبغى » فان عبارة النص تؤدى المعنيين . — إذا لم يعين — ليس النص على هذه الصراحة . — بالضبط — زدت هذا القيد لتمام المعنى . — يخلص منه بأية طريقة أخرى — عبارة النص فيها من طابع المألوف العرفى نحو ما فى العبارة التى ترجمناها بها .

§ ٩ — رد آخر — ليس النص على هذا القدر من التعيين . — بالقسر وضد الطبع — ر . الطبيعة ك ٨ ب ٤ ف ٢ ص ٤٨١ من ترجمتنا وما بعدها . — كما أنه يوجد حركة قسرية — على تقدير « بحسب نظريات أمبيدقل » . — هذه الحركة الأخيرة — زدت وصف « الأخيرة » لتعيين المعنى . — تحملها إلى تحت — وفى نسخ أخرى ربما كانت هى الأكثر عددا « إلى فوق » بدلا من « إلى تحت » . ولكن هذا لا يتفق مع تقارن النص . فان أرسطو يرد بأنه حتى لو كانت الأرض محمولة إلى تحت بحركتها الطبيعية فان الحركة أشبه بالتفريق منها بالجمع . ما دامت الأرض أو بعض أجزائها على الأقل تتجه الى المركز حيث النار يجب أن تلقاها بحركة قسرية لتنضم إليها . — فإنما هى حركة مضادة — ليس النص مثل الترجمة فى الوضوح . وفى كل هذه الفقرة شىء من الخفاء . — للائتلاف — زدت هذه الكلمة . — الحركة الطبيعية — التى تفرق بين الأشياء بدلا من

العشق أولى من التنافر فى أنه مضاد للطبع . فاذا لم يكن لا التنافر ولا العشق يكونان الحركة فلا يكون للأجسام أعيانها لا حركة ولا سكون . ولكن هذا إنما هو نتيجة باطلة .

§ ١٠ — يعترف أمبيدقل أن الأجسام بالبديهية فى حال حركة لأن التنافر هو الذى فصلها. والإيثير قد ارتفع فى الملأ الأعلى لا بواسطة التنافر ولكن كما يقول أحيانا أمبيدقل بضرب من المصادفة :

"الهواء حينئذ يطير هكذا ولكن فى الغالب على خلاف ذلك"

وأحيانا يقول أمبيدقل أيضا إن النار اضطرت أن تتجه بالطبع إلى فوق وأن الإيثير قد جاء .

« يتكئ بقوة على قواعد الأرض »

وأخيرا يعلمنا أمبيدقل أن العالم هو مسير الآن بالتنافر كما كان سابقا مسيرا بالعشق سواء بسواء .

١١ — فماذا هو إذًا على رأيه المحرك الأول والعلة الأولى للحركة ؟ حقا ليس هو العشق والتنافر ولو أن كليهما مع ذلك يسبب نوعا ما من الحركة . وإذا كانا هما المحرك الأول الذى يوجد فيكونان المبدأ الحقيقى للأشياء .

أن تجمعها والتى توجه النار إلى فوق فى حين أنها توجه الأرض إلى تحت . — لا التنافر ولا العشق — فى مذهب أمبيدقل . — نتيجة باطلة — يقبل أرسطو كقاعدة لا تحتمل الجدل أن الحركة موجودة . ر . الطبيعة ك ١ ب ٢ ف ٦ ص ٤٣٦ من ترجمتنا .

§ ١٠ — يعترف أمبيدقل — النص لا يذكر هنا أمبيدقل وعبارته هى : « الأجسام يظهر أنها فى حركة » . ولكن هذا بالبديهية يرجع إلى مذهب أمبيدقل كما تعينه القرينة . — الهواء حينئذ يطير هكذا — هذا البيت بعينه قد استشهد به فى الطبيعة ك ٢ ب ٤ ف ٦ ص ٣٢ من ترجمتنا . — وأخيرا يعلمنا أمبيدقل — هذا الأسلوب التهكمى موجود فى النص .

§ ١١ — على رأيه — زدت هاتين الكلمتين لأنه يظهر لى أن الكلام لا يزال مسوقا إلى إبطال مذهب أمبيدقل . — نوعا ما من الحركة — فان العشق يجمع العناصر والتنافر يفرقها وفى هذا نوع مزدوج من الحركة . — وإذا كانا هما المحرك الأول — النص ملتبس ويمكن أن يفهم على عدة معان . فأما فيلو پون فلم يوضحه وأما سان توماس فانه أعطى المعنى الذى اخترته تقريبا .

§١٢ — وأخيرا فليس أقل سخفا أن يُفترض أن النفس تأتى من العناصر أو أنها واحد من العناصر لأنه كيف تتكون إذًا الاستحالات الخاصة للنفس ! . مثال ذلك كيف يفهم أن يكون لها أو لا يكون لها صنعة الموسيقى ! كيف يفهم الذكر والنسيان ! من البيِّن أنه إذا كانت النفس من النار يكون لها بما هى نار جميع الكيفيات التى تتعلق بالنار . وإذا كانت النفس مزيجا من العناصر كان لها كيفيات الأجسام وليس ولا واحد من كيفيات النفس بجسمانىّ . على أن هذه المناقشة تتعلق بدراسة غير هذه قطعا .

---

§ ١٢ — وأخيرا — أضفت هذه الكلمة لأبين فى آن واحد أن هذا هو آخر الانتقادات الموجهة إلى نظرية أميدقل ولأبين أن هذا الدليل الأخير مغاير للأدلة السابقة . — الاستحالات — أو «الكيفيات» ولكنى حصلت لفظ النص بذاته . — الخاصة للنفس — يعنى كل التأثرات الأخلاقية أو العقلية . — من النار ... بما هى نار ... بالنار — هذا التكرير هو فى النص . فالفرض الأوّل إنما هو أن النفس هى عنصر النار مثلا . والفرض الثانى إنما هو أنها مزيج من العناصر . — بدراسة غير هذه قطعا — وفى الحق أن هذه المناقشة موجودة فى كتاب النفس ك١ ب ٢ ف ٦ ص ١١٢ من ترجمتنا . حيث يعيب أرسطو كما يعيب هنا نظرية أميدقل التى استشهد لها بعدّة أبيات من الشعر تشتمل عليها .

الباب السابع

بقية إبطال مذهب أمبيدقل — متى أنكر أن العناصر يمكن أن تتغير بعضها الى بعض فلا يمكن توضيح تكوّن الجواهر العضوية المختلفة — شاهد من أمبيدقل — صعوبة توضيح تكوّن الجواهر المختلفة ليست أقل عظما متى سلم بأحدية المادة — تعيين نظرية جديدة فيها تكون الأضداد هي التي بفعلها المتكافئ تكوّن جميع جواهر الطبيعة .

---

§ ١ — نأتى الى ما يختص بالعناصر التى منها الأجسام مركبة . جميع الفلاسفة الذين يقبلون عنصرا مشتركا أو الذين يقبلون أن العناصر تتغير بعضها الى بعض يجب عليهم بالضرورة أن يعترفوا أيضا بأنه اذا تحقق أحد هذين الفرضين تحقق الثانى على السواء . ولكن هؤلاء الذين لا يريدون أن العناصر يمكن أن يتوالد بعضها من بعض ولا أن يأتى كل واحد من كل واحد إلا أن يكون كما يجىء اللبن من حائط ، هؤلاء إنما يقرّرون نظرية باطلة لأنه حينئذ كيف يُجعل من هذه العناصر العظام أو اللحوم أو أىّ جوهر آخر مشابه .

§ ٢ — فى الحق أن هذه الصعوبة تبقى . وإلى هؤلاء الذين يقبلون أن العناصر تتوالد يمكن أن تُوجّه اليهم مسئلة كيف تبلغ هذه العناصر أن تكوّن شيئا مغايرا لها

---

§ ب ٧ ف ١ — التى منها الأجسام مركبة — ليس المقصود هنا بعد كون العناصر بعضها من بعض بل تركيبها لتؤلف جميع الأجسام الموجودة فى الطبيعة . — عنصرا مشتركا — يعنى المادة التى بالقوة وهى العنصر المشترك لجميع الأجسام . — أحد هذين الفرضين — يعنى أن العناصر لها مادة مشتركة اذا تغير بعضها الى بعض ، وأنها اذا تغيرت هكذا فذلك أن لها مادة مشتركة . — يجىء اللبن من حائط — فان اللبن يكوّن الحائط بما هى مضاف بعضها الى بعض وليست مركبة ومتحدة بعضها مع بعض . كذلك العناصر تكون مجموعة ولا تتحد لتكون الأجسام التى تدخل هى فى تركيبها . إن المقارنة صحيحة ولكن العبارة ليست من السعة على ما ينبغى . وهذا المثل الخشن المضروب لا يخلو من بعض الشذوذ . — أو أىّ جوهر آخر مشابه — يعنى متجانس تماما . وفى المذهب الذى ينتقده أرسطو لا تكون العناصر الا مجموعة بعضها مع بعض وليست مركبة حقيقة .

§ ٢ — أن العناصر تتوالد — هذه هى النظرية المضادة لنظرية أمبيدقل الذى كان يعتقد أن العناصر غير قابلة للتغير . — شيئا مغايرا لها أنفسها — بافتراض أن أربعة العناصر هى أصل لجميع الأجسام التى

أنفسها؟ . مثال ذلك اذا كان من النار يأتى المـاء واذا كان من المـاء تأتى النـار فذلك لأن بينهما موضوعا مشـتركا . ولكن من العناصر يخرج فى الحق أيضا اللحم والنخاع فكيف تتكوّن هذه الجواهر ؟ .

§ ٣ — بأىّ وجه يمكنها أن تتكوّن على حسب نظـريات هؤلاء الذين يتبعون مذهب أمبيدقل؟ بالضرورة ليس بين هـذه العناصر إلا جمع كما تجمع موادّ حائط يتكوّن من آجرّ وأحجار . فى خليط من هـذا القبيل تبقى العناصر هى ما هى وتوضع أجزاء أجزاء بعضها الى جانب البعض الآخر . وحينئذ على هذا المنوال، بناء على هذه النظريات، إنما يتكوّن اللحم وسائر الأشياء المشابهة له .

§ ٤ — ولكنه ينتج منه أن النار والمـاء لا يخرجان البتـة من جزء كيفما اتفق من أجزاء اللحم، كما فى تصاوير الشمع من هذا الجزء يمكن أن تخرج كرة ومن ذاك يخرج هرم . فكل ما يرى هو أن الواحد والآخر من هذين الشكلين يمكن أن يأتى أيضا على السواء من كل واحد من جزأى الشمع . وعلى هذا النحو حينئذ أن من اللحم

نشاهدها وأن الأجسام هى شـديدة التميز عن العناصر التى تكونها . و إنما المشكلة أن يعـرف كيف يمكنها أن تأتى منها . — اذا كان من النار يأتى المـاء — ر . ما سبق ب ٥ ف ٦ . — من العناصر — عبارة النص غير معينة .

§ ٣ — الذين يتبعون مذهب أمبيدقل — والذين يعتقدون أن العناصر غير قابلة للتغير دون أن يمكن أن تتغير بعضها الى بعض . — كما تجمـع مواد حائط — النص أقل صراحة . — من آجر وأحجار — فان المواد مجموعة بعضها الى بعض مجرد جمع وليست متحدة معا . — بناء على هذه النظريات — زدت هذه الكلمات لإتمام الفكرة . — وسائر الأشياء المشابهة له — يعنى كل الأشياء التى لتجانسها المطلق لا يمكن أن تميز فيها العناصر التى دخلت فى تأليفها . و يمكن أن تصاغ هذه القضية فى صيغة الاستفهام .

§ ٤ — ولكنه ينتج منه — حافظت على لفظ الأصل على تردّده . — لا يخرجان البتة — على تقدير "معا" . يعنى أن النار والمـاء، مجتمعين مجرد اجتماع، ليسا البتة مطلقا متحدين فى التراكيب التى يركبانها . — من جزء كيفما اتفق من أجزاء اللحم — حيث تكون متماثلة تمام التماثل . — فى تصاوير الشمع — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — من كل واحد من جزأى الشمع — . ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

يخرج عنصرا النار والماء وأنه قد يكونان معا من أيّ جزء اتفق ولكن مع مبادئ أمبيدقل لا يكون تعبير هذا ممكنا ويلزم أن كل عنصر يأتى من مكان آخر أو من جزء آخر كما فى الحائط فانه من مكان مختلف تأتى الآجرّة والحجر .

§ ٥ — كذلك الحال أيضا بالنسبة للفلاسفة الذين لا يقبلون إلا مادة وحيدة لجميع العناصر فإن شأنهم لا يخلو من الحيرة فى إيضاح كيف أن جوهرا يمكن أن يتألف من عنصرين مثلا من الحارّ والبارد أو من النار والأرض . فاذا كان اللحم يتكوّن من الاثنين وهو ليس مع ذلك لا أحدهما ولا الآخر ولا مجرّد جمع لهذين العنصرين حافظ لطبعهما الخاص فماذا يبقى إذًا لُيقبل إلا أن يكون المركب الذى تكوّن منهما بهذه الطريقة هو المادة المحضة؟ لأن فساد أحد العنصرين يكوّن إما العنصر الآخر وإما المادة . § ٦ — ولكن من حيث إن الحارّ والبارد يمكن أن يكونا أقوى أو أضعف فيجب أن يقال إنه متى كان أحدهما بالفعل مطلقا وبالكمال فلا يكون الثانى بعدُ إلا بالقوّة . ومتى كان الموضوع ليس له مطلقا أحد الكيفين وكان البارد مثلا هو نصف حار والحار نصف بارد، لأن الإفراطين إلى جهة أو إلى أخرى

— أمبيدقل — زدت هـذا الاسم الذى تعينه القرينة . — تعبير هذا ممكنا — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — من مكان آخر — التعبير بالمكان معناه هنا الجزء ، والمثل الآتى يفهم المعنى تماما ، فان الآجرة موضوعة بجانب الحجر ، وذلك إنما هو فى موضع آخر أى فى محل آخر من الحائط .

§ ٥ — الذين لا يقبلون إلا مادة وحيدة — يظهر أن هذه هى نظرية أرسطو الخاصة ، لأنه يقبل أن جميع العناصر يمكن أن تتغير بعضها الى بعض ولكنه لا يعتقد أن هذه النظرية نفسها بمعزل عن كل انتقاد . — جوهرا — عبارة النص هى "شيئا ما" . — المادة المحضة — أضفت كلمة "المحضة" مع أنها ليست فى النص ولكن القرينة كلها تعين هذا المعنى ، فان المادة المحضة هى هنا الهيولى أى المادة بالقوّة . — أحد العنصرين — النص أقل صراحة . — وإما المادة — على تقدير "بالقوة المحضة" فان العنصرين يتماحيان فى المركب الذى يؤلفانه ولا يبقى الا مادة الاثنين فى حالة اللاوجود .

§ ٦ — فيجب أن يقال — من الممكن أن تكون الجملة استفهامية أو تقريرية على السواء . — بالفعل ... وبالكمال — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — مثلا — زدت هذه الكلمة . — إلى جهة أو إلى أخرى — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

يتماحيان على طريق التكافؤ بالمزج ، فحينئـذ لا يوجد بالضبط لا مادة محضة ولا واحد أو الآخر من هـذين الضدين الموجودين مطلقا بالفعل وبالكمال ولا يوجد إلا وسيط. ولكن على حسب ما أن أحد الاثنين يمكن أن يكون بالقوة حارا أكثر منه باردا أو العكس يكون الجسم فى هذه النسبة عينها بالقوة أكثر حرارة أو برودة مرتين أو ثلاث مرات أو على أية نسبة أخرى .

§ ٧ — على ذلك كل الأشياء الأخرى تأتى من مزج الأضداد أو العناصر . والعناصر أنفسها تأتى من هذه الأضداد التى هى بوجه مّا العناصر بالقوة لا كما تكونه المـادة بل بالطريقة التى ذكرت آنفا . وبهذه الطريقة تكون النتيجة التى تحصـل مزيجا فى حين أنها بالطريقة الأخرى إنمـا هى المـادة المحضة .

§ ٨ — ومع ذلك فالأضـداد أيضا هى قابلة على معنى الحـدّ الذى أُعطى فى بحوثنا الأولى . مثال ذلك الحار بالفعل هو بارد بالقوة والبارد بالفعل هو حار بالقوة

— مادة محضة — زدت الصفة كما فى الفقرة السابقة . — إلا وسيط — ومع ذلك فان تعين هـذا الوسيط صعب لأنه يتعلق بحساسـية كل مشاهد . — أحد الاثنين — ليس النص أكثر تعيينا فى العبارة .

§ ٧ — كل الأشياء الأخرى — يعنى كل الأجسام المركبة والمختلطة كما نشاهدها فى الطبيعة كلها . — بوجه مّا العناصر — زدت كلمة "العناصر" أخذا بشرح فيلوپون . — كما تكونه المـادة — التى هى ليست شـيئا الا بالقوة وليس لها حقيقة فعلية فى حين أن الأضداد لهـا تلك الحقيقة الفعلية . — التى ذكرت آنفا — فى الفقرة السابقة . — مزيجا — من جوهرين بالفعل يؤلفان جوهرا جديدا بامتزاجهما . — المـادة المحضة — . زدت كلمة "المحضة" .

§ ٨ — فى بحوثنا الأولى — ر . ما سبق ف ٦ . و يظن فيلوپون أن المقصود هنا نظرية الفعل والانفعال المبسوطة فى الكتاب الأوّل . ر . ما سـبق ك ١ ب ٧ ف ٥ . — الحار بالفعـل — يمكن ترجمتها أيضا : "الجسم الذى هو حار بالفعل ... الخ" — البارد بالفعل — أو "الجسم الذى هو بالفعل و بالحـال بارد" .

أيضا بحيث إنهما لولا موازنة تامة لتغير أحدهما الى الآخر . ويُجرى هــذا المجرى في جميع الأضداد الأخرى التي يراد ذكرها . وعلى هذا النحو أن العناصر بديًّا تتغير ثم إن منها بعد ذلك تأتي اللحوم والعظام وسائر الجواهر المشابهة فيصير الحارّ باردا والبارد حارًا بمقدار ما تقترب من الحدّ الوسط . فهنالك لا يوجد بعدُ لا أحد الضدّين ولا الآخر . فالوسط متعــدّد وليس قابلا للتجزئة . كذلك الأمر أيضا في السائل واليابس، وإن العناصر الأخرى من هذا القبيل حينما تكون قد وصلت إلى الوسط تكوّن اللحم والعظام والجواهر المشار اليها .

— لولا موازنة تامة — عبارة النص هي "إن لم يكونا متساويين" . — لتغير أحدهما الى الآخر — يعني أن أحدهما يمكن أن يحل محل الآخر على التعاقب بما أن أحد الضدين قد صار كائنا وأحال الآخر إلى ألا يكون إلا بالقوة . — التي يراد ذكرها — زدت هــذه الكلمات . — تتغير — بعضها الى بعض. — تأتي اللحوم والعظام — في هــذه الأيام تعترف الكيمياء العضوية كذلك بأن المركبات تأتي من اتحاد الأجسام البسيطة . غير أن الأجسام البسيطة ليست هي التي كان يقبلها القدماء . والعلم يمكنه أن يبين بالتحاليل المضبوطة كيف تتألف التراكيب . — بمقدار — لفظ النص هو « حينما » الخ . — الضدّين — أضفت هذا اللفظ . — الوســط متعدّد — ر . في هذه النظرية الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٩ ص ٥٣٢ من ترجمتنا وأيضا ك ٥ ب ١ ف ١٢ ص ٢٨٠ . — وليس قابلا للتجزئة — وذلك ما لا يسمح له بأن يتكيف على التعاقب بكيفيات متضادّة . — كذلك الأمر أيضا في السائل واليابس — يظهر أن هذا تكرير لما سبق بيانه آنفا على جميع الأضداد الأخرى .

البـاب الثامن

التركيب العـام للأجسام المختلطة — يوجد فى كلها من الأرض ومن المـاء اللذين همـا عنصران ضرور يان — وفيها أيضا من الهواء ومن النار وهما ضدا العنصرين الأولين — ظاهرة التغذية التى يستشهد بها سندا لهذه النظرية — كيف أن النار هى العنصر الوحيد، من العناصر البسيطة، الذى يغذى نفسه .

---

§ ١ — كل العناصر المختلطة المنتشرة حول المكان المركزى هى مركبة من جميع العناصر البسيطة . وعلى هذا فإن فيها جميعها من الأرض لأن كل واحد من هـذه الأجسام هو الأحسن، وعلى الغالب، فى المكان الخـاص به . ويوجد أيضا من المـاء فى كل المختلطة لأنه يلزم أن تكون المركبة محدّدة وأن المـاء من بين الأجسام البسـيطة هو الوحيد الذى يتحدّد بسهولة . ومن جهة أخرى فإن الأرض لا يمكنها البقاء بدون الرطب الذى يمسكها مجتمعة . وإذا خلت تماما من الرطب سقطت ترابا .

§ ٢ — تلك هى العلل فى وجود المـاء والأرض فى جميع الأجسام المختلطة . ولكنه يوجد فيها أيضا هواء ونار، لأن هـذين العنصرين هما ضدان للأرض وللمـاء فإن الأرض ضد للهـواء والمـاء ضد للنـار بمقدار ما يكون جوهر ضدا لجوهر آخر .

---

§ ب ٨ ف ١ — حول المكان المركزى — يعنى حول الأرض التى هى فى نظريات أرسطو مركز العالم ونحوها تتجه الأجسام ذات الثقل . — فإن فيها جميعها من الأرض — لأن كل الأجسام المختلطة التى تذكر هنا هى ذات ثقل . — هو الأحسن وعلى الغالب — حفظت عبارة النص على ما هى عليه من عدم التعيين ومعنى ذلك أن ذوات الثقل تتجه نحو الأرض وتقف بها فى سقوطها . — الخاص به — هذا يمكن أن يعنى به "الأرض" أو أى واحد من الأجسام المختلطة . كان توماس وأهل جامعة كويمبرا يفهمون أن المقصود هو الأرض . وأما فيلو پون فانه يفهم على الضد أن المقصود هى المختلطة التى يتحد مكانها الخاص بمكان الأرض التى هى المركز على السواء . — محدّدة — أو "أن يكون لها شكل محدود تماما" . — الرطب الذى يمسكها مجتمعة — وهذا إنما هو ما يسميه العلم الآن بقوّة التماسك . — سقطت ترابا — زدت الكلمة الأخيرة لتمام الفكرة .

§ ٢ — المـاء والأرض فى جميع الأجسام المختلطة — ليس النص على هـذه الصراحة تمـاما . — الأرض ضد للهواء — بوزنها وبكيفياتها الخاصة معا . — بمقدار ما يكون جوهر — ر . المقولات ب ٥ ف ١٨ ص ٦٨ من ترجمتنا .

§ ٣ — على هذا حينئــذ ما دامت أكوان الأشياء تأتى من الأضداد فيلزم ضرورة أنه متى وجد طرفا الضدّين فى الأشياء فإن الآخر من الضدّين يوجد فيها على السواء. وبالنتيجة فى كل مركب تُلفى جميع الأجسام البسيطة .

§ ٤ — يظهر أن ظاهرة التغــذية معتبرةً فى كل واحد من الموجودات تشهد بصحة هذه النظرية . فان كل الموجودات تغتذى بعناصر مماثلة للعناصر التى تركبها فكلها تغتــذى من عدّة عناصر بل إن تلك التى يظهر عليها أنهــا تغتذى من عنصر وحيد كالنباتات التى تغتذى بالمــاء هى تغتذى فى الواقع بعناصر عديدة على السواء . ذلك بأن الأرض هى دائمــا ممتزجة بالمــاء فترى كيف أن الزرّاع فى ريهم الزراعى لا يزيدون على أن يمزجوا المــاء بالأرض .

§ ٥ — ولكن من حيث إن التغذية تتعلق بالمــادة ومن حيث إن الموجود المغتذى على هــذا النحو مع أنه مشمول ومظروف فى المــادة هو الصــورة والنوع

---

§ ٣ — أكوان الأشياء تأتى من الأضداد — ر. ماسبق ك ١ ب ٣ وما يليه . — طرفا الضدين — أو بعبارة أظهر "الضدان المتطرفان يعنى الأرض والماء" . — الآخر من الضدين — الهواء بمــا أنه ضد الأرض والنار بمــا أنها ضد المــاء . ومع ذلك فتلك فروض منطقية محضة. ولكن فى الفقرة التالية سيستشهد أرسطو بمــا هو واقع . — وبالنتيجة — لا يبين على النتيجة أنها مضبوطة الى حد التحرج . — جميع الأجسام البسيطة — يعنى العناصر الأربعــة الأرض والمــاء والهواء والنار مع أربعة الكيفيات البارد والرطب واليابس والحار .

§ ٤ — ظاهرة التغــذية — عبارة النص هى بالبساطة : "التغذية" . — تشهد بصحة هــذه النظرية — النص أوجز من ذلك . — تغتــذى بعناصر ممــاثلة — القضية عامة ولكنها مع ذلك غير كاذبة . — تغتذى ... تغتذى ... — كل هــذا التكرار هو فى الأصل . — فى ريهم الزراعى — أضفت هذه الكلمة الأخيرة التى تدل عليها القرينة . — أن يمزجوا المــاء بالأرض — عبارة النص ليست على هذه الصراحة .

§ ٥ — تتعلق بالمــادة — حفظت نظم النص ولكنه كان أوضح أن يقال إن التغذية هى مادة الموجود المغتذى . — الموجود المغتذى ... هو الصــورة والنوع — أو بعبارة أخرى "الذات" فى حين أن الغذاء الذى يقــومه "ليس الا المــادة" . — مشــمول ومظروف — ليس فى النص الا كلمة واحدة .

فطبيعى أن يظن أنه من بين الأجسام البسيطة النار هى وحدها التى تغتذى . أما سائر الأخرى فهى لا تزيد على أن يكوّن بعضها بعضا على طريق التكافؤ كما زعم القدماء وذلك بأن النار وحدها هى على الأخص التى تمثل الصورة ما دام أنها دائما بطبعها الخاص متجهة نحو الحدّ . وكل شىء هو بالطبع مسوق نحو المكان الخاص به . ولكن صورة كل الأشياء ونوعها توجد دائما فى الحدود التى تعينها .

§ ٦ — فيُرى إذًا بما تقدّم أن جميع الأجسام تتركب من جميع العناصر البسيطة.

— فطبيعى — أو " مطابق للعقل " . — من بين الأجسام البسيطة — يعنى العناصر الأربعة . — وحدها التى تغتذى — نبه فيلوپون على أن هذا على الأخص انما هو تعبير شعرى . — لا تزيد على أن — النص ليس على هذا القدر من الصراحة . — القدماء — وهذا هو أيضا رأى أرسطو . — التى تمثل الصورة — أو : "التى تتعلق بالصورة" . — نحو الحد — يعنى نحو طرف الجهة العليا . ومن حيث إن الحد يعين نوع الأشياء وصورتها فعلى ذلك النار، فيما يظهر، تتعلق بالصورة أكثر . ومع ذلك يمكن أن يقال إن كل هذه النظريات على جانب عظيم من الدقة . — التى تعينها — زدت هذه العبارة .

§٦ — فيرى إذا — ملخص الباب . — بما تقدّم — زدت هذه العبارة . — جميع الأجسام — على تقدير "المختلطة" . — من جميع العناصر البسيطة — يعنى الأرض والماء والهواء والنار . ولا حاجة للإلحاح فى بيان الفرق بين هذه النظريات وبين النظريات التى قبلها العلم فى الوقت الحاضر وأقرّها .

الباب التاسع

الهيولى والصورة — المبادئ الأول للأشياء — ضرورة مبدأ ثالث وهو العلة المحركة — إبطال نظرية المثل على نحو ما عرضها أفلاطون فى الفيدون — إن المثل لا يمكن أن تفسر كون الأشياء — إنها لا تكون — يرى أن طائفة من الأشياء تتكون تحت أعيننا بعلل أخرى — إبطال النظرية التى تفسر كون الأشياء بحركة المادة — المادة قابلة لا فاعلة — أمثلة مختلفة مستخرجة من طرائق الفن .

---

§ ١ — لما أنه توجد أشياء كائنة وقابلة للدثور وأن كل ما يتولد ويكون يوجد فى المكان الذى يحيط بالمركز فيلزم بدياً الكلام على كون الأشياء مأخوذا فى كل عمومه وبيان عدد مبادئه ومن أى طبع هى . وبهذه الطريقة ندرس بطريقة أسهل الحوادث الجزئية بعد أن نكون قد حصلنا على معرفة الحوادث العامة . § ٢ — وتلك المبادئ هى هاهنا من حيث العدد والجنس على ما هى عليه المبادئ التى تكتشف فى الموجودات الأزلية والأول . وأحد هذه المبادئ هو كهيولى والآخر هو كصورة ولكنه يلزم منها زيادةً على ذلك ثالث ينضم إلى هذين الاثنين الآخرين . لأن هذين

---

§ ب ٩ ف ١ — كل ما يتولد ويكون — النص يقول بعبارة أكثر عموما أيضا : "التولد" .
— يوجد فى المكان الذى يحيط بالمركز — هذا التعبير على جانب من الغرابة . فانه يدل فقط على أن الأجسام المختلطة التى يمكن مشاهدتها توجد على سطح الأرض المعتبرة مركز العالم . ومع ذلك فإن هذه العبارة لم تظهر لفيلوپون على شىء من الصعوبة فلم يشأ أن يفسرها . — على كون الأشياء — الملاحظات السابقة .
— الحوادث الجزئية ... الحوادث العامة — هذا ليس هو النمط العادى لأرسطو وإنه ليتمشى من الحوادث الجزئية الى الحوادث العامة لا من هذه الى تلك . وليس النص من الضبط بقدر ما عليه ترجمتى إياه .

§ ٢ — فى الموجودات الأزلية والأول — إنما الأجرام السماوية هى المعتبرة أزلية وغير قابلة للتغير وأنها أوائل كل الأجسام . — هو كهيولى — حفظت نظم النص ولكن يمكن ترجمته هكذا : "يقوم مقام الهيولى... مقام الصورة" . — ينضم الى هذين الاثنين — زدت هذه الكلمات لأحصل كل قوة العبارة الإغريقية . وهذا المبدأ الثالث إنما هو العلة المحركة أو بالأولى العلة الفاعلة . ويلزم أن يقارن بهذه النظريات نظريات الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ص ٤٧٣ من ترجمتنا .

الاثنين ليسا أقدر على تكوين شيء هاهنا منهما فى الأوّل . § ٣ — وعلى هذا إذًا إنما هى الهيولى التى فيما يتعلق بالموجودات الكائنة هى العلة فى أنها يمكن أن توجد وألّا توجد . فمن بين الأشياء ما توجد بالواجب ، مثال ذلك الجواهر الأزلية ، ومنها ما يجب ألّا توجد ، فبالنسبة للأولى من المحال ألّا توجد ، و بالنسبة للأخرى من المحال أن توجد . لأنه لا يمكن أن شيئا يكون على خلاف ما يقضى به الواجب . ولكن هناك أشياء أخرى يمكن أن توجد وألّا توجد على السواء . وهذه هى على التحقيق كل ما هو كائن وهالك . لأن هذه الأشياء تارة توجد وتارة لا توجد . فحينئذ الكون والفساد لا يتعلقان إلا بما يمكن أن يوجد وألّا يوجد .

§ ٤ — وذلك بما هو هيولى إنما هو علة الأشياء الكائنة . ولكن بما هو غرض غائى فالعلة إنما هى الصورة والنوع . وهذا هو حدّ الماهية لكل شيء . § ٥ — ولكنه يجب أن يضاف الى هذين المبدأين مبدأ ثالث . هذا المبدأ لا يظهر على الفلاسفة أنهم لحوه إلا كما فى الحلم ولم يتكلم عنه ولا واحد منهم بنوع من الضبط فقد ظن بعضهم كسقراط فى « الفيدون » أن طبع المُثُل

— ليسا أقدر — الهيولى والصورة كلاهما عقيم بدون المبدأ الثالث الذى يجيء فيعطيهما الفعلية بأن يجمعهما . § ٣ — هى العلة فى أنها يمكن أن توجد وألا توجد — وقد يمكن عكس القضية فيقال : " إن إمكان الوجود وعدم الوجود هو من حيث المادة علة الموجودات الكائنة " . — فمن بين الأشياء — أو " من بين الجواهر " أو " من بين الموجودات " . — الجواهر الأزلية — يعنى " الأجرام السماوية " . — يمكن أن توجد وألا توجد على السواء — أو بعبارة أخرى كل الموجودات الممكنات . — كل ما هو كائن — أو " ما هو مخلوق " . — وهالك — كما هو أكثر الموجودات الخاضعة لمشاهدتنا .

§ ٤ — الأشياء الكائنة — والهالكة . — بما هو غرض غائى — عبارة النص هى بالضبط من حيث هو " لماذا " . — إنما هى الصورة والنوع — النوع يتحد مع " المثال " كما سيرى بعد . — حدّ الماهية — أو " علة الماهية " .

§ ٥ — أن يضاف ... مبدأ ثالث — هو العلة الفاعلة . — إلا كما فى الحلم — الانتقاد على جانب من الشدة والاستهانة . ر . الكتاب الأوّل ما بعد الطبيعة ترجمة كوزان . ب ٤ و ٥ — فى " الفيدون " — ر . فيدون أفلاطون ترجمة كوزان ص ٢٨٣ . — طبع المثل — أو " الأنواع " لأن

قد يكفى لتعبير كون الأشـياء . لأن سقراط وهو يعيب على الآخرين أنهم لم يقولوا شيئا فى هـذا الصدد يفترض أن من الأشـياء التى توجد بعضها هى المُثُـل والأخرى تتلقى هـذه المُثُل التى تشاركها ، وأن كون كل شىء هو مسمّى بحسب مثاله ، وأن الأشياء تتكوّن متى تتلقى هذا المثال وأنها تفسد متى تعدمه . وبالنتيجة اذا كان كل هذا حقا فيكون سقراط يرى أن المُثُل هى بالضرورة علة كون الأشـياء وفسادها . وآخرون على الضد قد ظنوا أنهم يرون هذه العلة فى المـادة نفسها لأنه منها على رأيهم تصدر الحركة .

§ ٦ — ولكن ليس الأولون ولا الآخرون على حق، لأنه اذا كانت المُثُل هى فى الحق عللا فلماذا لا تكوّن دائما بطريقة مستمرّة ؟ ولمـاذا هى تكوّن تارة ولا تكوّن تارة أخرى مع أن المُثُل تبقى دائمـا هى والأشياء التى يمكن أن تَشْركها ؟ زد على هـذا أنه يوجد أشياء يُرى جليا أن العلة فيها إنما هى شىء آخر غير المثال. فانمـا الطبيب هو الذى يعمل الصحة ، وإنمـا العالم هو الذى يعمل العـلم مع أن الصحة ذاتهـا والعلم ذاته موجودان هما والكائنات التى يقـومان بهـا . كذلك الحال أيضا فى جميـع الأشـياء المصنوعة بحسب الفن الذى يمكن أن يتمها .

الكلمة هى بعينها . — أنهم لم يقولوا شيئا — هذه العبارة قد تدل على السواء إما على أن الفلاسفة الذين يطعن عليهم سقراط قد لزموا الصمت أو أنهم لم يقولوا شيئا يعتدّ به . — بعضها هى المثل ... الخ — تلخيص صحيح للفيدون . — كون كل شىء — هذا هو نظم النص بعينه . — اذا كان كل هذا حقا — فى هذا القيد نوع من النفى ومن الانتقاد . — وآخرون — لم يقل فيلوپون من هم هؤلاء الفلاسفة الآخرون ولكن من المحتمل أن يكون المقصود ديمقريطس ومدرسته . — على رأيهم — زدت هاتين الكلمتين .

§ ٦ — ليس الأولون ولا الآخرون — يعنى لا أفلاطون ولا الماديين . — عللا — كذلك عبارة النص مبهمة أيضا . — غير المثال — زدت هاتين الكلمتين . — الذى يعمل الصحة . — ربما كان يلزم أن يزاد "فى الجسم" لتوفية قوّة العبارة الإغريقية . — الصحة ذاتها — يعنى مثال الصحة . — العلم ذاته — يعنى مثال العلم . — هما والكائنات التى يقومان بها — على ذلك يلزم خلاف مثال الصحة ومثال المريض وجود الطبيب وخلاف مثال العـلم والتلميذ يلزم المعلم الكفء لتلقين ما يعلم . — بحسب الفن الذى يمكن أن يتمها — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

§ ٧ — ومن جهة أخرى حينما يدّعى أن المـادة هى التى تكوّن الأشـياء بالحركة التى تعطيها إياها فلا شـك فى أن هـذا الرأى هو أكثر موافقـة للطبع من نظرية المُثُـل لأن ما يحيل الأشـياء ويغير أشكالهـا يمكن أن يظهر أكثر من غيره بمظهر العـلة فى كونها . وعلى العموم فى كل كائنات الطبيعة كما فى كل كائنات الفن يُنظر عادة الى كل ما يعطيها الحركة كأنه هو الفاعل لها .

§ ٨ — ومع ذلك فان هؤلاء الفلاسفة الأخيرين ليسوا على حق لأن الانفعال والتحرك إنما هما الخاصتان اللتان تتعلقان بالمـادة فى حينَ التحريكُ والفعل يختصان بقوّة مغايرة تمـام المغايرة . وهذا هو ما يمكن مشاهدته أيضا فى كل ما يعمله الفن كما فى كل ما يعمـله الطبع . اذًا فليس المـاء نفسه هو الذى يوجد الحيوان الذى يخرج من باطنه (بل هو الطبع) . كذلك ليس الخشب هو الذى يصنع السرير بل هى الصناعة . ومن ثم يمكن استنتاج أن هؤلاء الفلاسفة لم يحسنوا هم أيضا التعبير . وخطؤهم آت من أنهم أغفلوا العلة الأَهَم من جميع العلل بحذفهم الماهية والصورة .

§ ٩ — وينتج منه فوق ذلك أنهم ينسبون الى الأجسام قوى يجعلونهـا بها تتوالد بحالة ميكانيكية أكثر ممـا ينبغى بتركهم الى ناحيـةٍ العلةَ التى ترجع الى النوع .

---

§ ٧ — ومن جهة أخرى — الى أنصار المـادة يوجه أرسطو القول هنا بعد أن أجاب على أفلاطون . — من نظرية المثل — ليس النص على هـذا القدر من التعين — ما يحيل الأشياء — ربمـا يلزم أن يحمل هذا التعبير على معنى أوسع قليلا من المعنى الذى يعبر به أرسطو عادة .

§ ٨ — الانفعال — أو " القبول " . — بقوّة مغايرة تمام المغايرة — هذه هى ألفاظ النص بعينها . ويمكن ترجمتها أيضـا " بقدرة مغايرة " . — الذى يخرج من باطنـه — ليس النص على هـذا القدر من الضبط . — (بل هو الطبع) — وضعت هـذه العبارة بين قوسين لأنها لا توجد إلا فى بعض المخطوطات وليست ضرورية . وشرح فيلوپون يدل عليها بالاقتضاء . — المـاهية والصورة — قد يكون لازما أن يقال " المـاهية الدائمة " .

§ ٩ — ميكانيكية أكثر ممـا ينبغى — هذه عبارة الأصل بحروفها وليست غاية فى البيان . ر . الفقرة التاليـة . ويظهر أن هـذا الرد يكاد يدخل بتمامه فى غضون الرد المتقـدم كما نبه اليه أهل جامعة

ولما أنه تبعا لقوانين الطبيعة كما يقولون الحار يفرّق والبارد يجمّد ولما أن كل واحد من العناصر الأخرى يفعل وينفعل على طريقته فان ذلك كاف عندهم فى التقرير بأنه أيضا من هذا أو بهذا يكون سائر الأشياء ويفسد . ويظهر لهم أن النار نفسها تقبل الحركة وتنفعل § ١٠ — يوشك أن يكون هذا الخطأ هو عينه خطأ من يذهب إلى اعتبار المنشار وما أشبهه من الآلات الأخرى العلة الحقة لكل ما تصنع ويرجعه اليها بحجة أنه بمجرد ما ينشر يلزم ضرورة أن يُقطع الخشب وبمجرد ما يُصقل بالفارة فهناك ضرورة أيضا أن ينصقل اللوح وهلم جرًّا . وبالنتيجة مع أن النار هى أفعل العناصر وأنها توصل الحركة الأقوى فانهم لا يرون كيف أنها تفعل وأنها تفعل أردأ من الالات العادية .

§ ١١ — أما نحن فلما أننا تكلمنا فيما سبق على العلل على العموم لم نتصد هاهنا إلا لدرس الهيولى والصورة .

كويمبرا . أما فيليوبون فانه بناء على رأى اسكندر الافروديزى يظن أن هذا الانتقاد موجه على الخصوص الى برمينيد . — الحار يفرّق — مثلا حينما يصهر بعض الجواهر . — والبارد يجمد — هذا حق فى بعض الأحوال ولكنه ليس حقا فى جميعها . — من العناصر الأخرى — ليس النص على هذا القدر من التعيين — النار نفسها — التى تعتبر أفعل العناصر تصير منفعلة فى هذا المذهب . — تقبل الحركة — أو "تتحرك" .

§ ١٠ — يذهب الى اعتبار المنشار — ر . ما سبق فى أول الفقرة التاسعة . فتلك هى المبادئ الميكانيكية التى اليها ينسب الفلاسفة كون الأشياء . — ويرجعه اليها — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — فهناك ضرورة أيضا — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — أردأ — أى بنظام أقل . — العادية — زدت هذه الكلمة . § ١١ — فيما سبق — يظن فيلوبون أن المراد هنا كتاب الطبيعة ولكن الأولى بالمراد هو الكتاب الأول من مابعد الطبيعة الذى فيه أرسطو قد درس العلل . — لم نتصد هاهنا إلا لدرس — ليست عبارة النص على هذا القدر من الصراحة .

الباب العاشر

كون الأشياء وفسادها هما متصلان كالحركة. ويتعلقان بالنقلة الدائرية للعالم — ضرورة حركتين — النقلة الدائرية المائلة تسدّ هذه الضرورة — انتظام الكون والفساد الطبيعيين — المدّة الدورية للكائنات — فعل الله — القوانين الثابتة التى وضعها فى أبدية الأشياء — النظام العجيب للعالم — تغير الأجسام انما هو الذى يحفظ مدّتها — المحرّك الأوّل غير المتحرك هو المبدأ الوحيد لحركة العالمية — اتصال الحركة يتعلق باتصال المتحرك .

---

§ ١ — يلزم أن يزاد على ذلك اعتبار آخر وهو أنه بما أن حركة النقلة أزلية كما سبق بيانه فينتج منه بالضرورة أنه بهذه المثابة يجب أن يكون كون الأشياء متصلا أيضا على السواء . لأن هذه الحركة تسبب إلى ما لا نهاية كون الأشياء بأن تأتى بالعلة التى يمكنها أن تكوّن الأشياء ثم تأتى بها ثانية . وهذا يبرهن لنا فى آن واحد على أن ما قدّمناه صحيح وعلى أنه كان لنا الحق فى أن نجعل النقلة لا الكون هى أوّل التغايير . وفى الحق أنه أدخل فى باب المعقول أن يجعل ما هو موجود علة لتكوين مالم يوجد من أن نجعل ما لم يوجد العلة الفاعلة لتكوين ماهو موجود . وإن ما هو خاضع للنقلة موجود فى حين أن الشىء الذى يكون ويصير هو غير موجود . وذلك ما يجعل أن النقلة متقدّمة على الكون .

---

§ ١ — يلزم أن يزاد على ذلك اعتبار آخر — قد اضطررت الى التوسع فى عبارة النص حتى يبتدأ هذا الباب على وجه أليق . — كما سبق بيانه — فى الكتاب الثامن من الطبيعة ب ١٠ ص ٥١٨ وما يليها من ترجمتى . — كون الأشياء — عبارة النص « التولد » . — هذه الحركة تسبب الى مالا نهاية — تلك هى فكرة عظمى فى ربط كون الأشياء وفسادها بالعلة العامة التى تحرك العالم . — تأتى ... ثم تأتى بها ثانية — هذه المقابلة هى فى النص . — ما قدمناه — ر . الطبيعية ك ٨ ب ١٠ ص ٥١٨ وما بعدها . حيث أرسطو قد فصل الكلام تفصيلا لإثبات أن الحركة الدائرية هى الأولى والأصلية لجميع الحركات . — ما هو موجود ... ما لم يوجد — عبارة النص : «الموجود ... واللاموجود» . — يكون ويصير — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — متقدّمة — أو أعلى .

§ ٢ — بعد أن فرضنا و بيّنا أن فى الأشياء كونا وفسادا متصلين وأن حركة النقلة هى علة تولد الأشياء يجب أن يكون من البيّن لدينا أنه ما دامت حركة النقلة وحيدة فمن المحال أن الكون والفساد يوجدان جميعا فى آن واحد ما دام أنهما ضدّان لأن علة موجودة وباقية هى بعينها وفى الظروف بعينها لا يمكن البتة أن تعمل إلا المعلول بعينه على حسب نظام الطبيعة . و بالنتيجة فإما أن الكون هو الأزلى و إما أن الفساد هو الأزلى § ٣ — وعلى ذلك يلزم أن يوجد عدّة حركات وحركات متضادات إما باتجاهها و إما بتفاوتها لأن علل الأضداد هى أضداد كذلك . وليست النقلة الأولى إذًا على التحقيق هى التى يمكن أن تكون علة كون الأشياء وفسادها ، بل النقلة على حسب الدائرة المائلة . فان فى هذه النقلة حقا يوجد فى آن واحد اتصال لحركة واحدة و إمكان لحركتين ، لأنه يلزم بالضرورة من أجل أن الكون والفساد يمكن أن يكونا متصلين أن تكون الحركة سرمدية حتى لا تتخلف هذه التغايير نفسها أبدا . ومن جهة أخرى يلزم أن يكون عدد الحركات اثنين حتى لا تكون إحدى هاتين الظاهرتين هى التى تبقى وحدها على الدوام .

---

§ ٢ — فرضنا و بينا — واقع الكون والفساد المتصلين للأشياء تشهد لنا به الحواس ، ولا محل لفرضه ولا لتبيانه . ولكن فلاسفة معاصرين لأرسطو كانوا يذهبون الى حدّ إنكار الحركة . ر . الكتاب الأول من الطبيعة ب ٢ وما يليه . — فى آن واحد — أضفت هذا القيد لأحصل كل قوة عبارة النص . — فاما أن الكون هو الأزلى واما أن الفساد هو الأزلى — أو بعبارة أخرى : أحد الاثنين لا الاثنان جميعا .

§ ٣ — حركات متضادات — ر . حدّ الحركة المضادة فى الطبيعة ك ٥ ب ٧ ص ٣٢٠ وما بعدها من ترجمتنا . — على حسب الدائرة المائلة — بناء على ما سيأتى و بناء على شرح فيلو پون يلزم أن يعنى بالدائرة المائلة دائرة فلك البروج أو دائرة سمت الشمس . و بحسب ما تكون الشمس أقرب منا أو أبعد يحصل كون الأشياء أو فسادها . قد لا تكون نظرية أرسطو صحيحة ولكنها فى الحق كيسة للغاية . ان الحركة اللامتغيرة المماثلة منذ الأزل تبقى منطبقة على السماء . ولكن الحركة المتفاوتة الخاضع لها العالم الأرضى هى فى الشمس والسيارات التى تسيرها . — اتصال لحركة واحدة وإمكان لحركتين — من هنا علتا الكون والفساد المتعاقبين الأبديين للأشياء . — إحدى هاتين الظاهرتين — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

§ ٤ — وعلى ذلك إذًا إنما نقلة العالم هى علة الأبدية وأن ميل الدائرة إنما هو الذى ينتج التقريب أو التبعيد لأنه قد يمكن أن تكون العلة تارة بعيدة وتارة قريبة. و بما أن المسافة غير متساوية فالحركة تكون غير متساوية كذلك . وعلى ذلك إذا كانت الحركة بشهادتها وقربها تسبب كون الأشياء فإن هذه الحركة نفسها بغيابها وابتعادها تسبب فساد الأشياء . وفوق ذلك فانها اذا كونت باقترابها عدّة مرات فانها تُفسد بابتعادها عدّة مرات أيضا لأن علل الأضداد هى أضداد بعضها لبعض .

§ ٥ — يلزم أن يزاد على هذا أن الفساد والكون الطبيعيين يتحققان فى زمان متساو . وهذا هو الفاعل فى أن زمن مدّة كل كائن وزمن حياته يمكن أن تعبر بالعدد وتتعين بهذه الطريقة . وفى هذا ترتيب ينتظم جميع الكائنات فان المكث والحياة هما دائما مقيسان بمدّة تا تمضى . غير أن هذه المدة ليست واحدة بالنسبة لجميع على السواء . بل هى أقصر بالنسبة للبعض وأطول بالنسبة للبعض الآخر . وأن المدة التى يقاس بها وجود الكائنات هى بالنسبة لهؤلاء سنة و بالنسبة لهؤلاء هى أكثر فى حين أنه بالنسبة لموجودات أخرى المقدار هو أقل . § ٦ — إن الظواهر المحسوسة

§ ٤ — نقلة العالم — يعنى حركة النقلة الأزلية التى تتسلط على السماء والكواكب الثابتة على مذهب أرسطو . — ميل الدائرة — زدت المضاف اليه . — أن تكون العلة — عبارة النص غير معينة بالمرة فاضطررت الى تعيينها . — بشهادتها وقربها — هذا يمكن أن ينطبق على الشمس التى هى ليست فقط أكثر أو أقل بعدا من الأرض بحسب الفصول بل إن نورها هو تارة شاهد وتارة غائب بحسب النهار والليل . — باقترابها عدّة مرات — حفظت عبارة النص على ما بها من تردد . ومعنى ذلك أنه يلزم أن تقترب الشمس أو تبتعد عدّة مرات متوالية لتحدث بعض الآثار . — علل الأضداد — أو " الأضداد هى علل للأضداد " .

§ ٥ — يتحققان فى زمان متساو — لا يلزم أن يؤخذ هذا بحرج أكثر مما ينبغى . فان أرسطو يريد أن يقول إن الزمان الذى فيه يمكن للشمس أن تفسد هو مساو للزمان الذى فيه يمكنها أن تكوّن . فان دورية الفصول متساوية دائما . — وزمن حياته — لأن مدّة الحياة لكل كائن متغيرة بحسب الأوضاع التى وضعتها فيه الطبيعة كما سيقال بعد . — ترتيب ينتظم جميع الكائنات — معلوم أن أرسطو كان يهدم دائما مذهب المصادفة والاتفاق . ر . ما سبق ب ٦ ف ٥ والطبيعة ك ٢ ب ٤ وما بعده .

§ ٦ — الظواهر المحسوسة — كذلك يوصى أرسطو هنا كما فى كل موطن آخر بحفظ المشاهدة .

لشاهدة بصدق ما نقوله هنا . متى تطلع الشمس يحصل كون . ومتى تغرب يحصل فساد . وهاتان الظاهرتان تتحققان فى أزمان متساوية لأن زمن الفساد الطبيعى هو مساوٍ لزمن الكون . ولكنه يقع غالبا أن الفساد أسرع بعلة تفاعل العناصر بينها . وفى الحق متى كانت المادة غير منتظمة ولا واحدة بعينها فى كل مكان لزم أيضا أن الأكوان التى تخرج منها تكون غير منتظمة مثلها وأن يكون بعضها أسرع والآخر أبطأ . وحينئذ يمكن أن يصير كون البعض فسادا للبعض الآخر .

§ ٧ — على أن الكون والفساد كما قلنا يجب أن يكونا دائما متصلين ولا ينبغى البتة أن يتخلفا للأسباب التى ذكرناها . ومع ذلك فان هذا مفهوم جدًّا لأن الطبيعة كما تقرّر تبحث دائما عن الأحسن فى كل الأشياء . والوجود هو أحسن من العدم، وقد عدّدنا فى موضع آخر المعانى المختلفة للفظ "وجود" . ولكنه لا يمكن أن الوجود يبقى فى كل الأشياء ما دام أن بعضها هى أكثر ابتعادا جدًّا عن المبدأ . وأخذا بالطريق الوحيد الذى بقى نقول إن الله قد كمل الكل

— متى تطلع الشمس — هذا ليس حقا إلا بمقدار ما . وإنها لمبالغة فى فعل الشمس أن يسند اليها كون جميع الأشياء . — فى أزمان متساوية — يعنى أنه فى آخر العام يكون الزمن الذى فيه غابت الشمس مساويا للزمن الذى فيه طلعت . — الفساد الطبيعى — الراجع الى شهادة الشمس أو غيبتها . — الفساد أسرع — العلة عينها يمكن أن تفعل فى الكون أيضا . — العناصر — النص أقل صراحة وقد اضطررت الى جعل الترجمة أضبط .

§ ٧ — كما قلنا — سواء فى هذا الباب ف ٣ أو فى الطبيعة ك ٣ ب ٥ ف ٤ ص ٩٤ من ترجمتى . — كما تقرر — هذا هو أحد المبادئ التى أحسن أرسطو فى تقريرها وحسن استعمالها . ر . الطبيعة ك ٨ ب ٧ ف ٦ ص ٥١٠ من ترجمتى . — فى موضع آخر — خصوصا فى المقولات ب ٢ ف ٢ ص ٥٤ من ترجمتى . وفى الطبيعة ك ١ ب ٣ ف ١ ص ٤٣٨ من ترجمتى . وفيما بعد الطبيعة ك ٤ ب ٧ ص ١٠١٧ طبعة برلين . — الوجود يبقى فى كل الأشياء — على تقدير الوجود «الأزلى» ولكنى اضطررت لاستيفاء التردد الواقع فى النص . — عن المبدأ — الذى كوّنها والذى يحفظها . — أخذا بالطريق الوحيد الذى بقى — ربما كان فى ذلك تضييق لقدرة الله . — الله قد كمل الكل — هذه الفقرة تذكر بعض الشىء بنظريات طيماوس

بأن جعل التولد متصلا وأبديا . فالوجود هو إذا ملتك ومتصل بقدر ما يمكن لأن كونا أبديا وصيرورة مستمرة هما أقرب ما يمكن من الوجود ذاته . وحينئذ فعلة هذا الكون، كما طالما قد قيل، إنما هي النقلة الدائرية لأنها هي وحدها التي تكون متصلة. § ٨ — فانظر كيف أن جميع الأشياء التي تتغير بعضها إلى بعض، بحسب خواصها القابلة والفاعلة، كالأجسام البسيطة مثلا، لا تزيد أيضا على أن تقلد هذه النقلة الدائرية التي هذه الأشياء تكررها . وفي الحق أنه متى كان الهواء يجيء من الماء والنار تجيء من الهواء ثم الماء يجيء في دوره من النار فيمكن القول بأن الكون قد حصل دوريا ما دام أنه رجع على نفسه . وعلى هذا إذا فإن حركة هذه الظواهر بامتدادها على خط مستقيم تقلد الحركة الدائرية وتصير متصلة .

§ ٩ — وهذا يسمح لنا في آن واحد باستجلاء مسئلة يثار ثائرها أحيانا وهي كيف يمكن، مع أن كل جسم متمكن في المحل الخاص به، ألا تكون الأجسام المركبة منفصلة

التي ربما كانت هي التي أوحتها . — متصلا وأبديا — ليس في النص إلا كلمة واحدة . — ملتك ومتصل ... كونا أبديا وصيرورة مستمرة — التنبيه السابق عينه . — من الوجود ذاته — على تقدير «الأزلي» . — كما طالما قد قيل — في هذا الباب ذاته وفي الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٤٦ و ب ١٣ ف ٥ ص ٥٥٠ و ٥٥٢ من ترجمتي .

§ ٨ — كالأجسام البسيطة — يعني العناصر العادية الأرض والماء والهواء والنار. — لا تزيد أيضا على أن تقلد — ليس النص على هذه الصراحة . — هذه الأشياء تكررها — أضفت هذه الكلمات . ومع ذلك يمكن أن يرى أن هذه المشابهة بين التغير المتكافئ للعناصر وبين الحركة الأزلية التي تحرك السماء هي مشابهة قسرية . ولكنه يلزم تذكر ذلك المركز العظيم المسند الى أربعة العناصر في نظريات أرسطو . ر . على الأخص الميتورولوجيا ك ١ ب ٢ و ٣ ص ٤ وما بعدها من ترجمتنا . — وفي الحق أنه متى كان الهواء يجيء من الماء — على رأى أرسطو أن الماء بتبخره يصير هواء . — ثم الماء يجيء في دوره من النار — لان النار تتغير الى هواء والهواء في دوره الى ماء . — تقلد — هذا التكرير موجود في الأصل .

§ ٩ — يثار ثائرها أحيانا — أو «يثيرها بعض الفلاسفة» . — منفصلة ومنحلة — ليس في النص إلا كلمة واحدة ويلزم أن يفهم أن المراد هو تحلل الأجسام المختلطة حيث كل واحد من العناصر التي تؤلفها يتجه الى المكان الخاص به فالارض الى تحت والنار الى فوق والهواء والماء الى الأماكن

ومنحلة أثناء المدة غير المتناهية للأزمان . والسبب فى ذلك بسيط وهو أنها تتغير وتحوّل بعضها إلى بعض . فاذا كان كل واحد منها يبقى فى محله الخاص ولم يعدّله جاره فتكون من زمان طويل قد انفصلت وانعزلت . فهذه الأجسام تتغير إذًا على أثر حركة نقلة مزدوجة ومن أجل أنها تتغير لا يوجد ولا واحد منها يمكن أن يبقى البتة فى مكان ثابت ومعين .

§ ١٠ — فيمكن أن يرى إذًا بناء على ما تقدّم أنه يوجد على الحقيقة كون للأشياء وفساد وما هى العلة فيهما كما أنه يرى ما هو المخلوق والقابل للفساد . ولكن ما دام أنه يوجد حركة فيلزم أن يوجد محرّك كما بين ذلك فى مؤلفات أخرى . وإذا كانت الحركة أزلية يلزم أن يكون موجودا شىء مّا أزلىّ أيضا . ولما أن الحركة متصلة فهذا الشىء الذى هو أحد يجب أن يكون هو عينه أبدًا غير متحرك ولا مخلوق ولا قابل للاستحالة . حتى مع افتراض أن الحركات الدائرية أمكن أن تكون كثيرة بالعدد فقد يمكن أن تكون عديدة ولكنها جميعها ما دامت فانها يجب

المتوسطة . — أثناء المدة غير المتناهية للازمان — لأن هذه التغايير بطيئة الغاية وتستدعى أزمانا طوالا جدا . — وهو أنها تتغير وتحوّل — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — قد انفصلت وانعزلت — التنبيه السابق عينه .

— حركة نقلة مزدوجة — ر . ما سبق ف ٤ . وهذه الحركة المزدوجة هى التى يحدثها ميل الدائرة الذى هو تارة يبعد الشمس عنا وتارة يقربها منا . وبحسب شرح فيلوپون إنما هى الحركة التى تذهب من الشرق إلى الغرب والتى ترجع من الغرب إلى الشرق . — ومن أجل أنها تتغير — وتختلط بعضها ببعض .

§ ١٠ — المخلوق والقابل للفساد — حفظت قصدا عبارة النص على قلة تعيينها . — فى مؤلفات أخرى — هى الطبيعة ك ٨ ب ١٥ ص ٥٥٨ وما بعدها من ترجمتى ، وما بعد الطبيعة ك ٧ ب ٦ وما بعده ص ١٩٢ من ترجمة كوزان الطبعة الثانية . — أن يكون موجودا شىء ما — قد يكون أكثر بيانا أن يقال : محرك ما أزلى . — كثيرة بالعدد ... عديدة — هذا التكرار موجود فى النص .

بالضرورة أن تكون خاضعة لمبدأ واحد أحد. ومن جهة أخرى مادام الزمان متصلا وجب أن تكون الحركة متصلة مثله لأنه من المحال أن يوجد زمان بدون حركة. فان الزمان هو إذًا العدد لشيء مّا متصل أعنى للنقلة الدائرية كما قلنا ذلك بديًا.

§ ١١ — ولكن هل الحركة متصلة لأن المتحرك الذى يقبلها هو متصل أيضا؟ أم هل هى كذلك بعلة اتصال المكان الذى تقع فيه، أريد أن أقول الأَين، أو بعلة اتصال الكيف الذى يكيف الشيء؟ من البين أن الحركة هى متصلة بسبب أن المتحرك متصل لأنه كيف يمكن أن يكون كيف شيء متصلا إلا إذا كان ذلك باتصال الشيء نفسه الذى فيه يظهر هذا الكيف؟ إذا كانت الحركة ليست متصلة إلا بسبب المكان الذى هى فيه فهذا لا يمكن حينئذ إلا بالأين الذى له وحده خاصية الاحاطة بها لأن له عظما مّا. ولا يوجد عظم متصل إلا عظم الدائرة لأن هذا العظم هو دائما متصل بنفسه. وعلى ذلك فالعامل فى اتصال الحركة إنما هو الجسم الذى له النقلة الدائرية وإنما الحركة فى نوبتها هى العاملة فى أن الزمان يكون متصلا.

— مادام الزمان متصلا — ر. على علاقات الزمان بالحركة الكتاب الرابع من الطبيعة ب ١٤ ومابعده ص ٢٢٤ من ترجمتى. — بديا — يرى فيلوبون أن المقصود بهذا كتاب الطبيعة الذى هو يتقدم فى ترتيب الدراسة كتاب السماء وهذا الكتاب ويلزم الرجوع الى الكتاب الرابع والكتاب السابع من الطبيعة.

§ ١١ — ولكن هل الحركة متصلة — هذه المسئلة المهيبة قد طرحت على البحث وحلت فى الكتاب الثامن من الطبيعة ب ١٥ وما يليه، وفى الكتاب الثانى عشر من ما بعد الطبيعة ب ٦ وما يليه على وجه فيه بعض المغايرة لما قرر هنا. — اتصال المكان ... اتصال الكيف — ليس النص على هذا القدر من الصراحة. — الذى يكيف الشيء؟ — زدت هذه الكلمات لتكون الفكرة أكثر بيانا. — المتحرك متصل — هذا غير مفهوم تماما. فان الاتصال يمكن أن يكون إما اتصال الزمان أو اتصال المادة. — إلا بالمكان — عبارة النص أقل ضبطا. — الذى له وحده خاصية الاحاطة بها — وسعت عبارة النص لجعلها أبين. — الا عظم الدائرة — ر. الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٤١ ص ٥٤٧ من ترجمتى و ب ١٤ ف ١ ص ٥٥٣. — دائما متصل بنفسه — لأن المحيط يرجع على ذاته. — الجسم الذى له النقلة الدائرية — والأزلية، يعنى السماء.

الباب الحادى عشر

نظرية تعاقب الأشياء الأبدى المنتظم — على أى مقدار يكون تدخل الوجوب — الأشياء الواجبة والأشياء الممكنة — الوجوب المطلق — الوجوب الاضافى — علاقة الواجب والأزلى — كون الأشياء لايمكن أن يكون أبديا الا اذا كان دائريا — ترتيب الأشياء العجيب — الحركة الدائرية للفلك الأعلى تنظم كل الحركات السفلى، حركة الشمس، وحركة الفصول وكل الحركات الأخرى — أبدية الأنواع — فناء الأشخاص المتعاقب — أزلية بعض الجواهر — خاتمة الكتاب .

§ ١ — لما أننا، فى جميع الأشياء التى تتحرك بحركة متصلة إما لتكون وإما لتستحيل وإما بالاختصار لتتغير، نرى دائما حادثا يوجد بعد آخر وظاهرة تتكون على أثر أخرى بحيث لا يقع لا خلو ولا تخلف فيلزمنا أن نفحص ما إذا كان يوجد شىء ما بالواجب أو أنه ممكن فى حق جميع الأشياء ألا تكون إذا لم يكن شىء موجودا بالواجب . وبديهى أن بعض الأشياء هى واجبة وهذا هو الحامل على أن القول على شىء بالتعيين إنه سيوجد هو مغاير تماما للقول بأنه يجب أن يوجد . لأنه ما دام قد حق القول على شىء بأنه سيوجد فيلزم أيضا أن يحق القول ذات يوم على شىء إنه موجود فى حين أنه متى صدق القول بالبساطة على شىء إنه يجب أن يوجد فلا شىء يمنع من ألّا يوجد : مثال ذلك قد يمكن جدا أن إنسانا كان يجب أن يتنزه ألا يتنزه .

---

§ ١ — لا خلو ولا تخلف — ليس فى النص الا كلمة واحدة . — اذا كان يوجد شىء ما واجب — على نظرية الوجوب . ر . الطبيعة ك ٢ ب ٩ ص ٦١ من ترجمتى .

— بعض الأشياء هى واجبة — تلك هى النتائج الضرورية لفرض ما ولكن الفرض نفسه ليس واجبا . — بالتعيين — زدت هذه الكلمة زيادة فى تحديد الفكرة . — بأنه يجب أن يكون — يوجد فى عبارة النص نحو من الاحتمال ليس موجودا فى التعبير الفرنساوى . — بالبساطة — زدت هذه الكلمة أيضا . وربما كان من الأحسن أن يستعاض فى الترجمة عن عبارة "يجب أن يكون" بعبارة "يمكن أن يكون" فان هذه الصور الدقيقة من الصعب نقلها من لغة الى لغة أخرى .

§ ٢ — ولكن لما أن من بين الأشياء التي هي موجودة ما يمكن أيضا ألا توجد فبديهى أن يكون الأمر كذلك أيضا بالنسبة للأشياء التى تصير وتكون وأنه ليس هناك أيضا وجوب . فهل جميع الأشياء التى تكون هى فى هذه الحالة أم هل هى ليست فيها ؟ أوَ ليس يوجد منها ما يجب بالضرورة أن يكون ؟ أو لا يكون الأمر بالنسبة الى الصيرورة كما هو الحال بالنسبة للوجود ؟ أو ليس يوجد أيضا أشياء لا يمكن ألا تكون فى حين أن أخرى يمكن أن تكون ؟ مثال ذلك وجوب أن توجد المنقلبات الدورية وليس ممكنا أنها لم تكن أصلا .

§ ٣ — والحق هو أنه إنما يلزم بالضرورة أن المتقدّم يكون لأجل أن المتأخر يكون أيضا فى دوره . مثال ذلك لكى يوجد بيت يلزم بدياً أن يوجد أساس . ولأجل أن يوجد أساس البيت يلزم ملاط . ولكن هل لأن الأساس قد عمل يكون واجبا أن البيت يقام أيضا ؟ أم هل ليس هذا واجبا إلا إذا كان البيت نفسه واجبا على الاطلاق؟ وعلى هذا الوجه إذًا من الضرورى فى الواقع أنه مادام الأساس قد عُمل فالبيت يكون أيضا لأن هذا هو فى الحقيقة علاقة المتقدّم بالمتأخر أنه إذا كان المتأخر يجب أن يكون فيلزم وجوبا أيضا أن يكون المتقدّم قد كان من قبله .

— § ٢ — التى تصير وتكون — ليس فى النص إلا كلمة واحدة و يلزم الالتفات الى التمييز بين الوجود و بين الصيرورة . فان أحدهما أزلى أو على الأقل باق فى حين أن الآخر حادث ومؤقت . — بالنسبة الى الصيرورة — جئت بهذا التعبير الذى هو أولى ما يوفى عبارة النص . — لا يمكن ألا تكون — يعنى أنها واجبة . — المنقلبات الدورية — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

— § ٣ — المتقدم... المتأخر — الأمثلة التالية تبين معنى هاتين الكلمتين . — بيت ... أساس — يكاد يكون هذا المثل هو عين المثل الذى ضرب فى الطبيعة ك ٢ ب ٩ ف ٢ ص ٦٢ من ترجمتى لتبيان الفكرة عينها . — ملاط — عبارة النص بالضبط "الحمأ" . — إلا إذا كان البيت نفسه — ليس النص على هذه الصراحة . — فالبيت يكون أيضا — ولكن فقط لأنه هو نفسه واجب وليس البتة لأنه يجب ضرورة أن يكون النتيجة للأساس . — المتأخر — إنما هو هنا البيت . — المتقدّم — إنما هو الأساس الموضوع ليحمل البناء . الأساس ضرورى للبيت ولكن البيت ليس ضروريا للأساس .

§ ٤ — و إذا كان حينئذ المتأخر واجبا لزم أن يكون المتقدّم واجبا كذلك . و إذا كان المتقدّم واجبا وكان المتأخر واجبا مثله فذلك ليس بسببه بأية طريقة ما بل فقط لأنه كان المفترض وجوب المتأخر نفسه . وعلى هذا إذًا فانه حيثما كان المتأخر واجبا كان التكافؤ . ودائما حينئذ متى كان المتقدّم فواجب أن المتأخر يكون فى دوره . § ٥ — إذا سار التعاقب إلى اللانهاية نازلا من درجة إلى درجة فمن ثم لا يكون واجبا أن المتأخر يكون مطلقا . ولكن حتى هـذا لا يكون واجبا بحسب الفرض الموضوع آنفا لأنه سيوجد دائما شى آخر يتقدّم بالضرورة على المتأخر . وهـذا الشيء الآخر يجب أن يكون بالضرورة أيضا . وبالنتيجة كما أنه لا يوجد مبدأ ممكن للانهاية فلن يوجد كذلك حد أوّل عامل على أن الأخير يجب أن يكون بالضرورة . § ٦ — ولكن حتى فى الأشياء التى لها حد منته لا يصدق القول بأنه يوجد وجوب لأن تكون الكائنات على الاطلاق . مثال ذلك أن البيت قد كان

§ ٤ — مثله — زدت هذا اللفظ . — بسببه — فالبيت ليس واجبا أصلا بالنظر إلى الأساس فى حين أن الأساس واجب بالنظر إلى البيت . — كان المفترض — إنما هو بالفرض الصرف أن البيت واجب ولكنه ليس كذلك بالنظر إلى المواد التى تأسس عليها . — كان التكافؤ — يعنى أن الأوّل ضرورى للثانى بقدر ما يكون الثانى للأوّل .

§ ٥ — التعاقب — العبارة الإغريقية غير محدّدة . — إلى اللانهاية — يفترض الشراح أن المقصود التناسل على خط مستقيم متناهيا أو غير متناه عوضا عن تناسل دائرى راجع على نفسه كتولد العناصر . — نازلا من درجة إلى درجة — عبارة النص هى بالبساطة : "نحو التحت" . — بحسب الفرض الموضوع آنفا — ليس النص على هـذا القدر من التحديد . ويمكن ترجمته هكذا : "هذا لا يكون واجبا حتى على طريق الفرض" . — لأنه سيوجد دائما — يعنى قبل الحدّ الأخير المفروض أنه واجب توجد سلسلة حدود متقدّمة وهى لأنها غير متناهية لا يمكنها أن تنفد . ومع ذلك فان كل هـذه الفقرة غامضة قليلا ويظهر أن فيلوبون يشكو من غموضها . — عامل على أن الأخير — النص ليس على هذا القدر من الضبط ، ففى اللانهاية لا يوجد حد أول ولا حد أخير إذ لا أول لها كما لا آخر لها .

§ ٦ — التى لها حد منته — أو "آخر" . — لأن . . . الكائنات — عبارة النص غير محددة .

لأن الأساس قد كان . لأنه إذا البيت كان من غير وجوب وجود دائم بالضرورة فينتج منه أن ما يمكن ألّا يكون دائما يكون دائما . ولكن شيئا لا يمكن أن يكون دائما من حيث كونه إلا إذا كان هذا الكون واجبا لأن الواجب والأزلى يتمشيان معا . فما يكون وجوبا لا يمكن ألّا يكون . وعلى هذا إذا كان وجوبا فهو بذلك نفسه أزلى . وإذا كان أزليا فهو واجب الوجود وكذلك الحال أيضا إذا كان كون الشيء واجبا فهذا الكون هو أزلى أيضا وما دام أزليا فهو واجب الوجود على سواء .

§ ٧ — وإذا كان إذًا الكون المطلق لشيء هو واجبا لزم ضرورة أن يكون هذا الكون دائريا ويرجع على نفسه لأنه يلزم مطلقا إما أن للكون حدا أو أن ليس له حد . فان لم يكن له لزم أن يقع على خط مستقيم أو على دائرة . ولكنه ليكون أزليا محال أن يكون على خط مستقيم لأنه حينئذ لا يكون له ابتداء لا من تحت كما نرى أخذا بالأشياء التى ستكون ولا من فوق إذا أخذنا بالأشياء التى قد كانت . ولكنه يلزم ضرورة ابتداء للكون من غير أن يكون محدودا وأنه يجب أن يكون أزليا .

– لأنه اذا البيت كان — تابعت بالضبط أسلوب النص . ولكن ليس جيد البيان وفيه معان وسطاء محذوفة سببت الغموض . واليك شرحا يجلو غامض هذه الفقرة : "حتى فى الأشياء التى لها آخر معين ليس من الضرورى دائما أن يتبع المتأخر المتقدّم مثال ذلك أساس البيت يمكن أن يعمل دون أن يعمل البيت ضرورة بعده مع أن الأساس ضرورى للبيت . لأنه اذا كوّن البيت من غير أن يكون مع ذلك واجبا فينتج منه أن شيئا ممكنا انقطع عن أن يكون ممكنا ليصير واجبا" . — ما يمكن ألا يكون دائما — يعنى ما هو ممكن . — الواجب والأزلى يتمشيان معا — أو " الواجب هو فى آن واحد أزلى أيضا " .

§ ٧ — دائريا ويرجع على نفسه — هذا أحد المبادئ المهمة المقررة فى كتاب الطبيعة ك ٨ ب ١٣ و ١٤ ص ٥٥١ وما بعدها . فان الحركة الدائرية هى الوحيدة التى يمكن أن تكون أزلية . — للكون — أو التناسل . — لا من تحت ... ولا من فوق . — ر . ما سبق ف ٥ "من تحت" يدل على السلسلة النازلة فانه يسار مما هو كائن لأجل افتراض كل تعاقب الكائنات . "من فوق" يدل على السلسلة الصاعدة ما دام أنه يسار مما هو كائن للصعود الى ما قد كان . فلا يوجد إذا ابتداء لا من إحدى الجهتين ولا من الأخرى والسلسلة غير متناهية فى الجهتين لأن الخط المستقيم يمتد على امتداد غير متناه . – يلزم ضرورة ابتداء — هذا يظهر أنه يناقض آراء أرسطو المعروفة على أزلية العالم وزد على ذلك أنه ليس للدائرة ابتداء بالمعنى الخاص . — الكون ... الكون — النص ليس على هذا القدر من الضبط .

فيوجد إذًا ضرورة لأن يكون الكون دائريا . وعلى هذا النحو أن التكافؤ أو الرجوع يكون واجبا . ومثلا لو أن شيئا كائن بالواجب لكان المتقدم على هذا الشيء هو واجبا أيضا واذا كان هذا المتقـدم واجبا يلزم وجوبا أيضا أن المتأخر يكون . وهاك إذًا اتصالا أزليا حقيقيـا لأنه لا يهم أن يقع الاتصال بين وسيطين أو عدّة وسـطاء . على هذا فالوجوب المطلق لا يوجد إلا فى الحركة و فى الكون الدائرى . ومتى وجدت الدائرة فكل شيء يكون أو كان بالواجب . وكذلك إذا وجد وجـوب فالكون يقع دائريا .

§ ٨ — كل هذا الترتيب هو غاية فى المعقول . ومادام قد بين أيضا فى موطن آخر أن الحركة الدائرية هى أزليـة كما هى الحـال فى حركة السماء فبديهى أن كل ذلك يقع وسيقع بالواجب وأن كل الحركات التى تتصـل بتلك والتى تلك تنتجها هى واجبة مثلها . لأنه إذا كان الجسم الذى يقبل أزليا الحركة الدائرية يوصلها إلى جسم آخر فينتج منـه أن حركة هذه الأجسام الأخر يجب أن تكون دائرية أيضا . ومثلا لمـا أن النقلة تحصـل بطريقة ما فى الأفلاك العليا فيلزم أن الشمس تتحرك بالطريقة عينها . ومتى كان هذا هكذا بالنسبة إلى الشمس فالفصول بهذه العـلة مجرى دائرى وترجع دوريا . ومادامت كل هذه الظواهر العظمى تقع بهذه الطريقة فكل الظواهر السفلى تحصل بالانتظام عينه .

— التكافؤ أو الرجوع — ليس فى الأصل إلا كلمة واحدة . — اتصالا أزليا حقيقيا — ليس فى الأصل إلا وصف واحد . — وسطاء — التعبير الإغريقى غير محدّد بالمرة لذلك لم أكن أكثر منه ضبطا .

§ ٨ — هو غاية فى المعقول — اعترف دائما أرسطو بنظام الطبيعة العجيب من غير أن يجعل مع ذلك لمشيئة الله وعنايته الإلاهية دخلا مباشرا . — قد بين أيضا فى موطن آخر — فى الكتاب الثامن من الطبيعة كما يقول فيلوبون . — الجسم الذى يقبل أزليا الحركة الدائرية — هذا هو المتحرك الأول يعنى السماء أو جزء العالم الأبعد عن الأرض . — بطريقة ما — زدت هذه العبارة لتمام الفكرة . — هذه الظواهر العظمى — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — بالانتظام عينه — ليس النص على هذا القدر من الضبط .

§ ٩ — ولكن حينما توجد أشياء تتحقق بالفعل على هذا النحو ومثلا حينما الماء والهواء يكون لهما هذه الحركة الدائرية ما دام أنه لأجل تكوين السحاب يلزم أن تكون قد أمطرت ولأجل أن تمطر يجب أن يوجد السحاب فكيف يحصل أن الناس والحيوانات لا تعود هي أيضا على نفسها بحيث إن الشخص نفسه يظهر مرة أخرى ؟ لأنه من أن أباك قد كان، لا ينتج ضرورة أنك كان يجب أن تكون . والذى هو ضرورى فقط إنما هو أنه إذا كنت فيلزم أن أباك قد كان . والعلة فى ذلك هى أنه إنما هذا تناسل يقع على خط مستقيم .

§ ١٠ — غير أن مبدأ البحث الذى نتصدى اليه هاهنا سيكون أيضا أن نتساءل عما إذا كانت كل الأشياء تعود أيضا إلى أعيانها أو لا تعود وعما إذا كان حقا ان بعضها يعود بالعدد وبالشخص فى حين أن الأُخَر لا تعود إلا بالنوع . بالنسبة لجميع الأشياء التى يمكث جوهرها غير قابل للفساد فى الحركة التى يلقاها من البين أنها تبقى دائما عدديا متماثلة ما دام أن الحركة تطابق حينئذ المتحرك . ولكن كل الأشياء التى على ضد ذلك جوهرها قابل للفساد فانها يجب ضرورة أن تتم هذه

---

§ ٩ — لهما هذه الحركة الدائرية — والمتكافئة بحيث إن احداهما تولد الأخرى . — لأجل تكوين السحاب يلزم أن تكون قد أمطرت — ر . الميتورولوجيا ك ١ ب ٦ ص ٥٤ وما بعدها من ترجمتى . — والعلة فى ذلك هى — ليس النص على هذا القدر من التحديد . — تناسل — أو كون .

§ ١٠ — مبدأ — يظهر أن هذا أولى به أن يكون الملخص والمتمم ما دام أن هذه المناقشة هى آخر هذا الكتاب . — بالعدد وبالشخص — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — لا تعود إلا بالنوع — يعنى أن الشخص يتغير كمن الأب إلى الابن وأن النوع يبقى هو عينه فى الكائنين اللذين يخلف أحدهما الآخر . — بالنسبة لجميع الأشياء — جواب على السؤال الموضوع آنفا . — عدديا متماثلة — وعلى ذلك فالشمس هى دائما بعينها كما نبه اليه فيلو پون . فان جوهرها غير قابل للفساد ولا تتغير فى الحركات القائمة بها . — الحركة تطابق — عبارة النص بالضبط هى : ” الحركة تتبع المتحرك “ . وهذه العبارة ليست جلية وفيلو پون لم يفسرها . وأظن أنه يريد أن يقول إن الحركة هى أزلية وغير قابلة للفساد كالجسم الذى تحل به .

الرُّجعى لا عدديا بل فقط بالنوع وعلى هـذا النحو أن المـاء يأتى من الهواء وأن الهواء يأتى من المـاء، يأتى هو فى نوعه لكن لا هو ذاته عدديا . غير أنه إذا كان من الأشـياء ما ترجع عدديا أيضا بأعيانها فليست البتة هى التى جوهرها هو بحيث إنه يمكن ألا يكون .

تم كتاب كون الأشـــياء وفسادها

— لا عدديا — يعنى لأن الشخص يبق هو ما هو . — بالنوع — كما يرى هذا من الأب إلى الابن . فان الأب يهلك ولكن النوع يبق منقولا منـه إلى الكائن الذى ولده . — ذاته عدديا — وشخصيا فان الهواء بالنوع مشابه للهواء المتقدم الذى دثر . ولكنه ليس هو هو عينه . — هو بحيث إنه يمكن ألا يكون — يعنى أنه ممكن وليس واجبا . ويلاحظ أن نظرية الأبد الأزلى لبعض الأجسام وللأنواع ارتقاء وعظمة جديرة بالكتاب السابع من ماوراء الطبيعة والكتاب الثامن من الطبيعة . وهذا إنما هو أيضا نقض جديد لمذهب المصادفة والاتفاق الذى طعن فيه أرسطو دائما . ر . مقدمتنا للطبيعة لأرسطو ص ٩٣ و ١٠٣ ومابعدها من المجلد الأول . ومقدمة كتاب السماء ص ٩٤ وما بعدها .

تحقيــــق
على
الكتاب الموسوم
"فى ميليسوس وفى إكسينوفان وفى غرغياس"

لترجمة هذا الكتاب الصغير اعتمدت على طبعة ف . ج . ا . ملاخ المنشورة سـنة ١٨٤٦ والمنقولة فى مجموعة فيرمين ديدو الإغريقية (١) . وهـذه الطبعة جيدة قد أعادت الى سيرته الأولى بطريقة توشـك أن تكون نهائيـة كتابا مهما جدا على ما فيه من نقص . وقد استعان ملاخ لإصلاح النص فوق أعمال من تقدّمه نسخة مخطوطة .ن مكتبة ليبزج العمومية يظهر أنها أضبط النسـخ التى وصلت إلينا . وهـذه المخطوطة كان قد اسـتعانها بعض الشيء أوليار يوس وهو يعمل لمجموعة فبريسيوس الإغريقية (طبعة هارلس ج ٣ ص ٢٨٤) . ولم تبتدئ البحوث الأدخل فى باب الجـد والنفع إلا على يد فلبورن الذى نشر سـنة ١٧٨٩ شرحه المسمى :

"Liber de Xenophane, Zenone et Gorgia, Aristoteli vulgu tributus, passim illustratus".

---

(1) Aristotelis de Melisso, Xenophane et Gorgia disputationes, cum Eleaticorum philosophorum Fragmentis et Ocelli Lucani qui fertur de universi naturâ libello, conjunctim edidit, recensuit, interpretatus est Frid. Guil. Aug. Müllach, Berolini, 1846, XXX – 210. Bibliothèque grecque de Firmu Didot. Fragmenta philosqhrum Graecorum. pages 270 et suir.

وبعـد أربع سـنين حذا ج . ل . إسبلدنج حذو فلبورن فى بحثه مدرسـة ميجار فأبرز الجـزء الأول من الكتاب " فى اكسينوفان وزينون وغرغياس " (١) . وكان بين يدى إسبلدنج مخطوطة ليبزج استخرج منها عدة إصلاحات وبهذه المساعدة تسنى له أن نشر نصا محسنا جدا وقرن به تعليقات ممتعة على الفقرات الأشد غموضا، ولكنه لم يقرن به ترجمة . وإنما كان الجديد فى هذا التحقيق هو أن إسـبلدنج كان يجعل الجزء الأول من الكتاب مخصوصا بمذاهب ميليسوس وكان يثبت ببراهين قاطعة أن اسم ميليسوس كان يجب أن يستبدل باسم زينون. وقد قبل من يومئذ رأى إسبلدنج هذا وإنى لذاكر الآن السبب الذى يوجب قبوله .

ولم يستطع إسبلدنج مع خصه مخطوطة ليبزج مقابلتها بطريقة مضبوطة تماما واعتمد على الأخص على الإصـلاح الخفيف الذى عمله فيهـا أولياريوس . غير أن كر . دان . بك مغـير جامعة ليبزج الشهير الذى كان قد يسّر بحوث إسـبلدنج قد أخذ على عاتقه إتمـام تلك البحوث فنشر فى السنة عينها كل الروايات المختلفة فى تلك المخطوطة الثمينـة على هذا الكتاب وعلى بعض مؤلفات أخرى لأرسطو (٢) . وهذه النسخة المطبوعة التى اعتدّ بها ملالخ فضل اعتداد لم تكن، فيما يظهر، لتقدَر بل لم تكن لتعرف عند علماء اللغة الذين اشتغلوا بعد ذلك إما بأمر مدرسة إيليـا على العموم وإما على الخصـوص بالكتاب الخـاص الذى فيـه فحصت مذاهب

(1) "Commentarius in primam partem libelli de Xenophane, Zenone et Gorgia, praemissis Vindiciis philosophorum Megaricorum, Berolini, 1793, 8°. XIV-83."

وكان اسبلدنج يتبع طبعة اسيلبورج فى أكثر كتابه .

(2) Solemnia Doctorum philosophiae et magistrorum artium a. d. XIV febr. M D CCXCIII antiquo ritu creandorum indicit Chr. Dan. Beckius. Praemissa est varietas lectionis libellorum Aristotelicorum e codice Lip siensi diligenter enotata.

وإن دانيال بك من الرجال الذين قد أعطوا فى الثلث الأول من هـذا القرن (التاسع عشر) فى الدراسات الفلسفية فى ألمانيا نهضتها القوية .

إكسينوفان وميليسوس. فالمجمع العلمي ببرلين مثلا لم ينتفع بها في طبعته حق الانتفاع حتى إن ملاخ قد أظهر الأسف لهـذا الإهمال الذي كان اتقاؤه ميسوراً[1].

في سنة ١٨٤٣ أي بعد اثنتي عشرة سنة قد سدّ تيودور برج بعض هذا النقص فاعتمد على روايات بك ووضع شرحا أمتع من كل ما تقدّمه من الشروح[2]. ومع أن هـذا العمل قد كان موضـع المدح والاستحسان فانه لم يثن ملاخ عن إعادة النظـر من جديد فنشر، بعـد عمل برج بثلاث سـنين، الطبعة والشرح اللذين ذكرتهما آنفا. غير أن ملاخ وإسبلدنج لم يترجما الكتاب مع أن ترجمة كتاب مثل هـذا مخروم أشدّ ضرورة من ترجمة غيره. فظلت خير ترجمة لاتينية هي ترجمة جان برناردان فيليشيانو المعلم في البندقية سنة ١٥٥٢ ولكن مع أن هـذه المخطوطة التي ترجمت قليـلة التحريف فإنه كان من الممكن أيضا بل من النـافع تصحيحها وضبطها وقد نقلت في طبعة المجمع العلمي في برلين.

تلك هي الأعمال التي تناولت الكتاب على ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس حتى الآن. وإنه لينبغي أن يضم اليها تحقيق "م. هنري إدواردفوس" على غرغياس الليونتيومي إذ أنه نشر فيه، من غير ترجمة النص، الجزء الذي يتعلق على الأخص بغرغياس، أي الباب الخامس والسادس من هذا الكتاب الذي ترجمه، وذيله بتفسير[3].

وبعد هذه التفاصيل اللغوية يلزمنا الكلام على الكتاب ذاته: في أية حال وصل الينا؟ ومن هو مؤلفه على المشهور؟ وما هي قيمته الذاتية؟.

---

(١) ظهرت طبعة أرسطو العامة التي أنجزها بكر و برانديس تحت رعاية المجمع العلمي ببرلين سنة ١٨٣١

(2) Regiae universitati litterarum Frederico – Alexandrinae D. XXIII mensis Augusti MDCCCXLIII sacra saeccularia prima agenti gratulatur academia Marburgensis. Praemissa est Theodori Bergkii commentatio de Aristotelis libello Xenophane, Zenone, et Gorgia, Marburgi, 1843.

(3) De Gorgia leontino commentatio, interpositus est Aristotelis de Gorgia liber emendatus editus ab. H. Ed. Foss, Halis Saxonum, 1828, 8º, IV – 186. Le traité sur Gorgias et le commentaire sont pages 110 et suivantes.

فأولا ما هو العنوان الذى يجب أن يعنون به هذا الكتاب الصغير؟ عند القدماء جميعا تقريبا وعند المتأخرين إلى بحوث إسبلدنج كان عنوانه المجمع عليه على العموم هو: " فى إكسينوفان وفى زينون وفى غرغياس " . أو بحسب مخطوطة ليبزج "فى زينون وفى إكسينوفان وفى غرغياس " فإن إسبلدنج بتقريبه شـواهد " سمپليسيوس " العديدة من تحاليل هـذا الكتاب أبان بطريقة لا تحتمل النقض أن المقصود فى الجـزء الأوّل هو ميليسوس لا إكسينوفان فانه فى شرحه الممتع على كتاب الطبيعة لأرسطو قد نقل فقرات تامة من ميليسوس على الموجود أو الطبيعة . وهى مشابهـة حتى فى ألفاظها فى بعض المواطن كل المشابهة للتفاصيل المسـطورة فى هـذا الكتاب الذى نترجمه . فلما وضع إسبلدنج هـذه الموافقات بعضها قبالة البعض الآخر وقارن بينهـا وجها لوجه لم يعد بعد فى الإمكان إنكار أن ميليسوس هو الفيلسوف المتكلّم عنه فى البابين الأوّلين .

الى هذا الدليل الذى يكفى وحده فى إثبات المطلوب ينضم دليل آخر وهو أنه فى فهرس " ديوچين اللايرثى " (ك ٥ و ١ وف ٢٥ طبعة فرمين ديدو ص ١١٦) ذكر صريح لكتاب أرسـطو على مذاهب ميليسوس . وهـذا الذكر ليس مفردا بل يؤكد ديوچين أن أرسطو قد نقد أيضا آراء زينون وكذلك قد بحث بحثا خاصا فى مذاهب أتباع فيثاغورث وأرخيتاس وسپوسيپ وإكزينوقراط ... الخ .

وفهرس ميناش المجهول واضعه يؤيد شهادة ديوچين اللايرثى وإنه ليذكر أيضا بحوث أرسطو فى مذهبى ميليسوس وغرغياس . وما من شىء أقرب الى الاحتمال من أن يكون أرسـطو قد اشتغل بمذاهب ميليسوس إذ أن ما بين أيدينا من كتبه يدلنا على شدّة اضطلاعه بجميع الفلسفات المتقدّمة على فلسفته . وهـو يذكر ميليسوس غالبا . وإننا ذاكرون أكثر من مرة ماذا قاله عنه وعن إكسينوفان سواء فى علم الطبيعة أو فى علم ما بعد الطبيعة أو فى غيرهما .

وعلى هذا فالحق فى جانب " إسبلدنج " فى أن الجزء الأوّل من هـذا الكتاب يتعلق بميليسوس .

ربمـا نتساءل كيف كان لهذا الشك سبيل الى هذه النسبة . إذا كان أرسطو ينقد ميليسوس أو فيلسوفا آخر بعينه فيكون واجبا عليـه فيما يظهر أن يسميه بآسمه إذ لا مسوّغ لهذا الابهـام الذى لا يفسر . ولكنه لسوء الطالع لم يفعل ، بل قنع فى هذه الكتب بأن يقول دائما : "هو" دون أن يعين اسما مرجعا لهذا الضمير . ولا سبيل الى معرفة من هو المعنىّ بالنقـد إلا تعرّف صاحب المذهب المنقود من مذهبه نفسه . وعلى ذلك فإن هذا الكتاب إنمـا كتب بغير عناية فى شكله الظاهر على الأقل وإن مؤلفه أيا كان قد أخطأ فى أنه لم يكن مبينا حتى لقـد احتيج الى فطنة الفلاسفة المتأخرين لسدّ هـذا النقص الذى ربمـا لا يكون منشؤه إلا خطأ ناسخ .

وإن ما أقوله هنا عن ميليسوس يوشك أن يكون منطبقا على إكسينوفان أيضا . فانه ليس مسمى كذلك فى الجزء الثانى من الكتاب ولكنه مع ذلك لا سبيل الى الشك فى أمره لأن مذاهبـه معروفة أكثر من مذاهب ميليسوس . فنسـبة ما يقال هنا اليه لا يتطرّق اليها الخطأ .

إن هـذا اليقين ينسحب من باب أولى على غرغياس الذى هو غير مسـمى أيضا فى أوّل الجزء الثالث (ب ٥ و ٦) الذى يخصه ولكن براهينه قد نقلت الينا على يد سكستوس أمبيريكوس (adversus mathimaticos evlogicos ك ٧ ج ٢ ص ٢٨٥ طبعة سنة ١٨٤٢ ج ١ ص ١٣٤) وإنها تماثل على الإطلاق البراهين التى تراها فى هذا الكتاب .

من هـذا أستنتج أن العنوان النهائىّ الذى يجب أن يحمله هذا الكتاب هو " فى ميليسوس وفى إكسينوفان وفى غرغياس " فان هـذا العنوان يتفق تمـاما ومايحويه الكتاب ،وقد أحسن مللاخ فى اتخاذه . ومنذ الآن لا يمكن إلا اتخاذ هذه الصيغة عنوانا لهذا الكتاب كما فعل مللاخ . أما أنا فانى لم أتردّد لحظة فى اتخاذها . وفى الحق إنه ليبقى أن تعيين "زينون" فى عنوانات النسخ المخطوطة لا مسوّغ له . غير أنى سأحاول فيما يلى مقتفيا أثر مللاخ اكتشاف المصـدر الذى يمكن أن

يكون صــدر عنه هذا التعيين . والآن أسوق القول الى ما كنا بصــدده من حيث العنوان لنفرغ منه .

قد راجع بيكر مخطوطتين معنونتين بعنوانين يخالفان العنوان العادى مغفلاً فيهما ذكر الأسمـاء الأعلام . فالعنوان فيهما بالبساطة هو : " كتاب أرســطو على المذاهب " أو : " كتاب أرسطو على مذاهب الفلاسفة " فالعنوان الأوّل هو لمخطوطة فى مكتبة سنت مرك فى البندقيــة q . والثانى لمخطوطة فى الفاتيكان Ba بحسب تعريف بيكر . واختلاف هاتين الروايتين مهم من حيث افتراض أن الشكوك كانت متسللة حتى فى الأزمان القديمة إلى صحة العنوان المشهور . ومن المحتمل أنهم لم يكونوا ليتعرّفوا إكسينوفان وزينون فى الجزء الأوّل والثانى (ب ١ و ٢ و ٣ و ٤) . وتلقاء هذا الغموض استحبوا عدم التعيين . فقد كان وسمهم الكتاب بأنه " على المذاهب الفلسفية " لا مســئولية فيه لأنه هو مع ذلك على سعته صحيح إن لم يكن مضبوطا . وما كنت لأتخذ هــذا الوسم دون غيره ولكنه يلزم أن يقام له وزن ولذلك ذكرته .

أما وقد تحدّد العنوان وبيّن على هذه الصورة فمن هو مؤلف الكتاب ؟ أأرسطو هو أم هو آخر ؟ .

مخطوطة فى الفاتيكان مرقومة Ra طبعة برلين تنسب هذا الكتاب إلى تيوفراسط أو على الأقل هى تدرجه ضمن كتب أخرى كلها لتلميذ أرســطو وخليفته . وإن ما يجعــل لهذا الفرض محلا من الشبه بالحق والثقة هو أن سمپليسيوس فى شرحه على كتاب الطبيعة (الورقة 6A) يستشهد بفقرة من تيوفراســط فيها ينقل هذا المؤلف عن إكسينوفان آراء مطابقة تمـام المطابقة لمـا نقرؤه فى هــذا الكتاب . ولا شك فى أن هذين السببين هما الحاملان م . برنديس فى " تاريخه للفلسفة الإغريقية واللاتينية " (جزء ١ ص ٣٥٨) على أن يسحب هذا الكتاب من أرسطو ليردّه إلى تيوفراسط . ولكن هذا التغيير لم يحل محل القبول من ذوق علماء اللغة ولو أنه صادر

عن حكم لا يقل عنهم فى العلم ولا فى الحذق ، فقد صرح م . تيودور برج أن هذا الكتاب على رأيه ليس أحق بتيوفراسط منه بأستاذه .

وإنى هنا على رأى ملاخ وأرى كما يرى أن ذلك تجاوز أبعد جدا مما ينبغى . وقد نبهت الساعة أن هذا الكتاب لم يكن ليكتب بالعناية المطلوبة مادام الفلاسفة الذين تنقدفيه مذاهبهم ليسوا معينين بأسمائهم ولكن فى مجموع تأليف أرسطو كما نقلته الينا القرون كم من غلطات من هذا النوع، وكم من إهمال فى التحرير، وكم من قطع لم تتم ، وكم من صحف مشوّشة حتى فى أجمل كتبه مثل " ما بعد الطبيعة " مثلا ! على أن الأسـباب التى حملت أرسطو على أن يترك كل مخطوطاته فى حالة نقص معروفة . فانه لم يكد ينشر شيئا مدّة حياته . ولم يكن إلا حين ناهزت سنه الخمسين عوّل على إظهار شىء من تعاليمه . فلما فوجئ بالحركة الموجهة ضدّ المقدونيين بعد وفاة الإسكندر واضـطر الى هجرة آتينا على عجل مشرّدا منفيا لم يسكن إلى محـل طمأنينة أن عاجلته المنون لا تعرف كيف كانت ولكن المعروف أنهـا كانت ميتة عنيفة فى سن الثانية والستين . فجمع تيوفراسط كل ما كان تركه أستاذه من الأعمال والأوراق، ولم ينشر منها شيئا هو نفســه أيضا فيما يظهر . و بقية الحكاية معروفة فإن العـالم الغربىّ لم يكد يعرف مؤلفات أرســطو إلا حينما جىء بها من آتينا بعناية « سـلا » فرتبت بطريقة حسنت أو ساءت بعناية «أندرونيكوس الرودسىّ» .

وقد يكون من الغريب أن مخطوطات أهملها المؤلف بحكم الضرورة وأهملها خليفته الأوّل هى أحسن نظاما فى الترتيب من غيرها . فإن التشـويش أو بالأولى النقص فى كتيبنا هـذا لا يطعن فيه . بل إنى قائل إن هذا الكتاب على ما وجدناه عليه ليس فيه من عدم النظام والخرم مثل ما فى مؤلفات أرسطو التى لا شك فى صحة نسبتها اليه . بل قد يكون هذا الكتاب أبعد عن سوء التأليف فان الأجزاء الثلاثة التى يتألف منها متميز بعضها عن بعض ومتتابعة من غير خلط، وعرض المذاهب المنتقدة فيه هو من الوضوح والتنسيق بمكان . واذا كان لم يتقبل على العموم بقبول حسن فذلك لأن طابعيه الأولين قد شوّهوه بأغلاط شتى تلافتها من بعد ذلك عناية المتأخرين

وحذفهم حتى لم يبق منها شيء . وإنى ألفت إلى هــذا نظر القارئ الفطن الذى يريد فحص هذا الكتاب الصغير لأن يأخذ بالطبعة التى أصلحها ملاخ وبترجمتى هذه .

ومهما يكن هــذا الكتاب " فى ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس " ظنينــا فى نسبته الى أرســطو فانه لا شيء فيه يبعده عن مدرســة المشائين الملاصقة عهدا بأرســطو . وإنى لألقى القياد الى رأى ملاخ الذى يميل الى اعتبار هــذا الكتاب خلاصــة من مؤلفات أرســطو التى ذكرها ديوچين اللايرثى كما ذكرناه آنفا . وقد تكون هذه الخلاصة من وضع بعض المشائين ، كما يحتمل أن يكون تيوفراسط قد اقتبس كذلك من مؤلفات أرسطو ما رواه عن إكسينوفان كما يذكره لنا سمبليسيوس . وإن فى مؤلفات أرسطو لخلاصات من هذا القبيل . والشاهد على ذلك أسلوب "علم الأخلاق الكبير" وأسلوب "علم الأخلاق الى أوديم" فانهما ليسا الا تحاليل ممتعة كثيرا أو قليلا لكتابه "علم الأخلاق الى نيقوماخوس" . ولقد أستطيع أن أستنتج أنه إن كان هــذا الكتاب ليس من عمل أرسطو ولا من عمل تيوفراسط فهو على أقل ما يكون من زمان لا يبعد كثيرا عن زمانهما . وهذا وحده يكفى فى أن يجعل له أهميةً إنكارها محال .

ولقد تأخذ بى القيمة العالية لمــا يحويه هــذا الكتاب بالنظر الى تحريره فضلا عن أن ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس رجال ثلاثة كبار لا يمكن لتاريخ الفلسفة أن يهمــل تذكارهم . ولو أنهم هنا لم يرتبوا على مقتضى الترتيب الزمانى فإن هــذا لا ينقص قيمة القول فيهم . ولن تجد فى أى كتاب آخر قولا على ثلاثة الفلاســفة المذكورين مستفيضا كما فى هذا الكتاب ولا شك فى أنه يرغب فى أزيد من ذلك ، ولكن هذه المقاطيع هى كل ما لدينا عن مجموع مذاهبهم ، والشكر علينا واجب لمن حفظ الكتاب على هــذه الصورة . فإن مدرسة إيليا على رغم أغلاطها بالغة غاية المجد وإنه الى جانب آرائها الدقيقة الخافية فى وحدة الموجود ولا تحركه فمن المشوق الاستماع الى نظرياتها السامية العميقة على وجود الله وقدرته الكلية . وبهذه المثابة فان إكسينوفان الذى يعتبر مؤسس مدرسة إيليا رجل كبير المقام وإنه قد تنبأ قبــل

سقراط وأفلاطون بنبوءات خليقة بهما . وميليسوس وان لم يكن فى مستوى إكسينوفان يستحق على الأقل ألّا ينسى . وأما غرغياس فهما كان سفسطائيا فهو لا يحط مطلقا قدر الطائفــة التى يضعونه فيها، وفى الحق حسبنا أن نذكر أن أفلاطون وضع تحت هذا الاسم الشهير واحدة من أجمل محاوراته .

ولكن كيف فى النقد الموجه لمدرســة إيليا ومذاهب أهلها يغفل المؤلف أمر زينون؟ كان اسم زينون فى عنوان الكتاب فى أكثر النسخ المخطوطة فلماذا لم يكن له وجود فى صلب الكتاب؟ من أين هذا الإغفال وهذا النقص؟ . يرى ملاخ بحق أن هذا الكتاب الذى ليس له الآن إلا ثلاثة أجزاء كان يجب أن يكون فيما سبق مؤلفا من أربعة أجزاء، وأن نقد زينون كان يجب أن يتلو نقد إكسينوفان . وهذا الفرض مقبول وقد يستنتج طبعا من أن أرسطو قد فحص مذاهب زينون كما فحص مذاهب الفلاسفة الثلاثة الآخرين . ويؤيد ملاخ هذه القرينة بفقرة فى هذا الكتاب (ب ٥ ف ٣) حيث ذُكر فيها اسم زينون عقب اسم ميليسوس بالصراحة . والى هذه الفقرة يمكن أن يضاف أيضا فقرتان تكادان تكونان فى المعنى عينه (ب ٦ ف ٦ و ٩) . وهكذا دون أن نخرج من هــذا الكتاب الصغير يمكننا أن نجد براهين تكفى للقول بأنه كان لهذا الكتاب جزء رابع أفرد القول فيه على زينون ولكنه غير موجود الآن . وهذا الجزء كان يأتى فى الترتيب عقب الجزء الخاص بإكسينوفان .

وفوق ذلك فان فى الفقرة الأولى من الباب الثانى يرى أن ميليسوس مســمى ومقربا من اكسينوفان الذى لا يجيء فحص مذهبه إلا بعد فحص مذهب ميليسوس . فيظهر من المحقق إذًا أن غرض مؤلف هذا الكتاب الصغير أن يدرس ميليسوس قبل إكسينوفان . كذلك يوجد هذا الترتيب فى فهرس ديوچين اللايرثى . فإن كتاب أرسطو على ميليسوس مقدّم على كتبه على غرغياس و إكسينوفان و زينون . ولكنه لو روعى الترتيب الزمنى كما كان يجب أن يعمل لكان إكسينوفان هو الأوّل وزينون الثانى وميليسوس الثالث وغرغياس الأخير . لا ينبغى أن يعلق على هذه المسائل من حيث الترتيب الزمنى أهمية كبرى . ولكن تعاقب المذاهب لا يجوز فهمه اذا

خلطت العصور من غير ترتيب وإنما ينفع الفلسفة ذاتها أن يتحرج فى ترتيب عصورها بالتسلسل على قدر الامكان .

يوشك ألا يكون من الأهميــة بمكان ذكر أن يكون أرسـطو هو الذى أخطأ فى الترتيب اذا كان هو مؤلف الكتاب أو أن مختصره هو الذى ارتكب هذا الخطأ فإنى تارك الى جانبٍ مسئلة الترتيب التى هى مادية محضــة لأقول بعض كلمات على الفلاسفة الثلاثة المذكورين فى كتابنا هذا .

اشتهر إكسينوفان بأنه كان رئيسا لمدرسة إيليا وهذا هو المجد الذى يسند عادة إليه وإن كان أفلاطون فى الفقرة الوحيدة التى ذكر فيها إكسينو فان يشـير ، فيما يظهر ، إلى أن مدرسة إيليا أقدم منه (السفسطائى ص ٢٤١ من ترجمة كوزان — وص ١١٩ ب ٤٤ من الطبعة الإغريقية فى طورينو سـنة ١٨٣٩) . لمـا نفى إكسينو فان من وطنه كولوفون إلى يونيا آسيا الصغرى يظهر أنه هاجر إلى صقلية واحتمى فيها بمدينة زنكل ثم بقطنة ، ثم ذهب إلى إيليا التى كان قد أسسها حديثا الفوكيون سنة ٥٣٦ قبل الميلاد على شواطئ إغريقا الكبرى وعلى بحر طرهينيا ، وأنشأ فيها هو نفسه هذه المدرسة التى اشتهرت بها تلك المدينة الجديدة . ولايدرى أمات بهـا أم رجـع إلى كولوفون . والظاهر أنه عمر طويلا متى سـلم بصحة مانقــل الينا من بعض أبيات يقول فيها[1] : إن سـنه أربت على الثانية والتسعين . وفى الحق أن هــذه الأبيات يمكن أن تفسر بمعنى آخر تدل به على أن إكسينوفان كانت سنه وقتئذ سبعة وسـتين عاما وأن الحوادث التى قيل فيها الشـعر حصلت حين لم يبلغ عمره إلا خمسة وعشرين، فانه يقول : " اذا صح أنى أستطيع الكلام على هذه الأشياء بصورة مضبوطة" . يقول ديوجين اللايرثى : إنه ظهرت آثاره نحو السادسة والستين أولمبية يعنى نحو السنة ٥٤٠ وبفرض أنه كانت سـنه فى هذا الحين ٤٥ أو ٥٠ سنة فيكون ميلاده متأخرا قليلا عما يفترض له إذ يقال : إنه ولد سنة ٦١٧ قبل الميلاد .

(١) ديوجين اللايرثى ك ٩ ب ٢ ص ٢٣٤ طبعة فيرمين ديدو .

وإن ما يحمل على الظن بأن ميلاد إكسينوفان يجب أن يكون أقرب من ذلك هو أنه استشهد بفيثاغورث[1] الذى ربما قبـل آراءه فى التناسخ . ولقد نعلم بشهادة شيشيرون الصريحـة (الجمهورية ك ٢ ب ١٥) أن فيثاغورث لم يأت سيباريس وقروطون إلا فى سـنة ٦٢ أولمبية أى السنة الرابعـة من حكم طرخان العظيم أعنى سنة ٥٣٠ أفيكون من المحتمل أن إكسينوفان تكلم عن فيثاغورث وهو حى بما تكلم به . وحينئذ ألا يلزم عليه أن يُنزل بالعصر الذى عاش فيه وبميلاده الى أنزل من ذلك . واليك هذه الأبيات :

« لما رأى ذات يوم كلبا يضربه بالسوط صاحبه »

« أخذته الشفقة بهذا الكائن الشقى »

« فقال : لا تضرب تلك هى روح صديق »

« تعرفته بسماع صراخه »

وقد زاد ديوجين اللايرثى الذى روى هـذه الأبيات فى ترجمة فيثاغورث — فى موضع آخر[2] أن إكسينوفان كان يحارب مذهب حكيم ساموس ومذاهب طاليس وإبيمينيد كما أنه كان ينقد بحـدّة ما كان يصوّر به هيزيود وهوميروس الآلهة وشهواتهم ونقائصهم . وقد كان إكسينوفان يودع أفكاره القصائد والحماسيات التى كان يقرضها . بل قد يكون محتملا أنه كان يرتزق على دأب "رهبسود" بإنشاد قصائده ليطرب السامعين ويستجدى سخاءهم .

واذا كان إكسينوفان قد طعن فى آراء طاليس وفيثاغورث وإبيمينيد فيجب أن يكون متأخرا عنهم وليس محالا أن يكون قد عاش الى زمن الحرب الأولى الميدية (سنة ٤٩٠ قبل المسيح) .

(١) ديوجين اللايرثى ك ٨ ب ٨ ص ٢١٣ طبعة ديدو .

(٢) ديوجين اللايرثى ك ١١ ب ٢ ص ٢٣١ طبعة ديدو .

وهناك واقعة قد لا يستطاع الشك فيها ما دام أرسطو يشهد لهـا (الميتافيزيقا ك ١ ص ١٤٦ ترجمة كوزان) . وهى أن پرمينيد كان تلميذ إكسينوفان . وعلى هذه النقطة كل القدماء على وفاق . غير أننا نعلم يقينا من أفلاطون (تيتيت ص ١٥٤ — والسفسطائى ص ١٦٤ ترجمـة كوزان) أنه حينما جاء پرمينيـد آتينا مع زينون كانت سنه ٦٥ سنة(البرمينيد ص ٦ ترجمة كوزان وص ٧٥١ طبعة طورينو ١٨٣٩).
وبفرض أن سقراط كان حديث السن عند حواره پرمينيد المنقول لنا فى المحـاورة المشهورة بهذا الاسم ولم يكن عمره إلا عشرين سنة ، فإن هذا ينقلنا الى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد . وعلى هذا الفرض يكون پرمينيد قد ولد فى سنة ٥١٥ وليتلق العلم على إكسينوفان يلزم أن يكون هذا الأخير قد مات فى نحو العهد الذى ذكرناه آنفا .

غير أنى تارك مرة أخرى هـذه المجادلات التاريخيـة[1] لأقف برهة عنـد آراء إكسينوفان الفلسفية التى لها فى نظرى أهمية أخرى . ولئن كان فيما يتعلق به نقطة مجمع عليها فإنمـا هى أن أفكاره فى الآلهة ، بل يمكن أن يقال أفكاره فى الله، كانت أصح وأرقى من أفكار معاصريه . وهذا الكتاب الذى نترجمه يكفى وحده فى إثبات هذه الدعوى،غير أن الشواهد على ذلك متواترة أكثرها جوهرية شاهد إكسينوفان نفســه . ولم تخدع المسيحية فى أمره فان كليمان السكندرى (استروماتس ك ٥ ص ٦٠١) يثنى على فيلسوف كولوفون بأنه نزه الله تعالى عن التجسد وبأنه قال :

” واحد قـدير على كل شىء ملك الأشـدّين قوة فالله لا يشبهنا لا بالعقـل “
” ولا بالجسم وإن الناس بتصويرهم الآلهة على صورتهم يسندون إليهم أفكارهم “
”وأصواتهم ووجوههم“ .

ويروى كليمان السكندرى فوق ذلك أبياتا أخرى تكرر هذه الفكرة عينها فى قالب آخر، وفيها يقول إكسينوفان :

---

(١) ر . التحقيق الخاص لفكتور كوزان فى الجزء الأوّل من القطع الفلسفية .

" اذا كان للثيران والأســود أيدٍ تصوّر كما يصوّر الناس لأعطت الآلهة التى "
" تصوّرها أجساما أشبه بأجسامها، ولكانت الخيل تصوّرهم بصور خيل والثيران"
تصــورهم بصورة ثيران " .

منذ إكسينوفان قلدت هذه الأبيات التى هى غاية فى الحق ألف مرة. ولكيلا يصوّر النــاس الله على صورتهــم حين يحاولون تصــو يره اضطروا أن يكفوا على الاطلاق عن تمثيله كما يهدى اليه بعض الديانات المتشدّدة الى الغاية .

بعد أبيات إكسينوفان يمكن الاســتظهار بشهادة أرسطو فى مؤلفاته الأخرى غير هــذا الكتاب الذى نترجمه مثل ما فى الخطابة : (ك ٢ ب ٢٣) حيث ينقل أنه على رأى إكسينوفان أن " من الإلحاد الاعتقاد بولادة الآلهة و بموتهم لأنه على كل واحد من الوجهين تقع برهة لا يكون للآلهة وجود " . و فى موضع آخر بعد هذا بقليل يروى أرسطو جواب إكسينوفان على أهل إيليا الذين كانوا يسألونه : أيجب عليهم أن يقرّبوا قربانا إلى " لوقوتوا " ويجأروا بالنواح عليها؟ فقال لهم : "إذا صح فى نظركم أنها آلهة فلا ينبغى أن تبكوها . فإن لم تكن إلا هالكة فلا ينبغى أن تقرّب لهــا القرابين " . يسند بلو طرخس أيضا إلى إكسينوفان فكرة ممــاثلة لهــذه فيها أن المخاطبين هم المصريون عوضا عن أهل إيليــا ، وأوز يريس عوضا عن عذراء لوقوتوا ص ٤٦٣ وأما طريوس ص ٩٣٣ طبعــة فرمين ديدو " إيزيد وأوز يريد " .

من هذه الأفكار السامية الحقــة فى حق الله تفهــم علة حَنَق إكسينوفان على الشعراء الذين كانوا يحطون من الجلالة القدســية والذين هم كهوميروس وهيز يود لا يحجمون عن أن يسندوا إلى الآلهة كل ما يحط من الشرف فى نظر الناس كالسرقة والزنا والكذب والغــدر (سكستوس أمپــيريكوس بيرون هيپوتيب . ك ١ ب ٣٣ ص ٩٩ طبعة ١٨٤٢ . (Adversus Mathem. Physicos) ك ٩ ص ٦١٢ . (Grammaticos) ك ١ ص ١١٢) .

وفى موضع آخر تكلم أرسطو أيضا على آراء إكسينوفان هذه. وفى كتابه "الشعر" ذكر أن الفيلسوف كان يطعن فى المعانى التى يتصوّرها العامة فى حق الآلهـة (ر. الشعر ب ٢٥ ف ١١ ص ١٤٢ من ترجمتى) .

وأخيرا ذكر أرسطو إكسينوفان أيضا فيما بعد الطبيعة (ك ١ ب ٤ ص ١٤٦ ترجمة كوزان سنة ١٨٣٨) .

وفى هذا الموضع الأخير لم يحفل أرسطو بنظريات إكسينوفان على الوحدة التى خلطها بالله فلم ير فى هذه النظريات ما ينبغى من الضبط من حيث إن هذه الوحدة ليست عقليـة كوحدة برمينيد ولا مادية كوحدة ميليسـوس . بل يزيد على ذلك أيضا أن أفكار إكسينوفان فى هـذه النقطة أفكار جافيـة كأفكار ميليسوس الذى لا يفرق بينه و بينه .

ها نحن أولاء قد أتينا على كل ما وجد فى أرسطو تقريبـا على إكسينوفان . ولكن تلك الفقرة المذكورة فى " ما بعـد الطبيعة " عظيمة الأهمية من حيث إنها ترينا رأى أرسطو فى أن مذاهب ميليسوس ليست بعيدة عن مذاهب إكسينوفان. وذلك يدلنا على حكمة الجمع بينهما فى كتاب واحد إذا كان أرسـطو هو مؤلف هـذا الكتاب و إن لم يكن فكيف تسنى لمؤلف آخر أن يجمع بينهما دون أن يقـرب بينهما قسرا . غير أنه كان يلزم مراعاة للـترتيب الزمانى أن يتكلم على ميليسوس بعـد إكسينوفان. ولكن ربمـا كان هذا مجرّد خطأ مادى فى الوضع سببه إهمال نساخ. ولمـا أنه ليس بين الجزأين الخاصين بإكسينوفان وميليسوس ارتباط ضرورى ؛ فليس فى التشويش مستنكر ولا مستعصى عن الفهم .

أما ميليسوس الذى نضعه فى الصف الثانى سواء فى الأهمية والترتيب الزمانى فانه رجل يسترعى الاهتمام وإن كان أقل رفعة من سابقه . قد ولد فى ساموس كفيثاغورث وتبوأ فيها مركزا عظيما ودافع عن وطنه بمهارة وشجاعة عند ما حاصره الآتينيون قبل حرب پيلوپونيز بخمس عشرة سـنة . ولقد نجح ميليسوس فى كسر الحصـار واتخذ لقومه منه مخرجا قادهم به حتى أتلف أعمال الحصـار ووصل الى

أسطول الأعداء وخرّبه كله تقريبا . كل ذلك فى غيبة پيريكليس الذى كان قد غادر الحصار لملاقاة السفن الفينيقية الآتية لنصرة مدينة ساموس . فأمكن المدينة أن تحصل على ما نقصها بالحصـار من التموين وذلك بفضل النصر الذى أحرزه ميليسوس . ولكن الدائرة قد دارت على أهل ساموس حين رجع پيريكليس من غيبته فانهـزم ميليسوس فى حرب برية واضطرت المدينة الى التسليم على شروط أقسى ما تكون . لم يذكر طوسيديدالذى روى هذه الوقائع (كـ ١ ب١١٦) ميليسوس، غير أن بلوطرخس ذكره فى ترجمة پيريكليس (ب ٢٦ ف ٣ ص ١٩٩ من طبعة فيرمين ديدو) على صورة لاتحتمل الشك؛ لأنه يقول بالصراحة : إن ميليسوس بن إيتا جين كان فيلسوفا . وزاد على ذلك بلوطرخس نقلا عن أرسطو من غير أن يبين موضع النقل : أن ميليسوس كان قد هزم قبل ذلك پيريكليس فى واقعة بحرية أخرى . وذلك إنمـا يعطى من مقدرة ميليسوس الحربية فكرة أسمى .

ومهما يكن من الأمر فان من المحقق أن ميليسوس كان به تحت ثيـاب الفيلسوف وطنىّ وسياسىّ وقائد بحرى ورجل حرب . وذلك من الندرة فى تاريخ الفلسفة بحيث يجب علينا التنبيه اليه كما فعل بلوطرخس (باب ٣٢ص ١٣٧٧ طبعة فيرمين ديدو Adversùs Coloten) . ولمـا أن ساموس قد سامهـا الآتينيون صنوف القسوة فمن المظنون أن ميليسوس ذلك الوطنى الغيور والذى كان له حظ عظيم فى مقاومة الفـاتحين لم يشأ أن يبـقى تحت الحكم الآتينى وأنه هاجر فى هـذا الظرف العسير . وكان ذلك فى الأولمبية الرابعة والثمانين أى السنة ٤٤١ قبل الميلاد . وهـذا التاريخ مضبوط ومتفق تمـاما مع شهادة أبللودور التى نقلها الينـا ديوچين اللايرثى (كـ ٩ ب ٤ ص ٢٣٣ طبعة فيرمين ديدو) .

كذلك لا يرى لمـاذا لم يمكن أن يكون ميليسوس تلميـذا لپرمينيد كما يقوله أيضا ديوچين اللا يرثى . فان التواريخ لا تقف دون ذلك . ولمـا أن ميليسوس هو من أتباع مدرسة إيليا فيمكن بسهولة أن يكون تلقى مذاهبه من خليفة إكسينوفان . ولقد قرن أرسطو مرات عديدة ذكر پرمينيد بذكر ميليسوس فى كتاب الطبيعة (كـ ١

ب ٢ ف ١ و ٥ ص ٤٣٣ و ٤٣٦ من ترجمتى) ليفندهمـا جميعا فى نظرية وحدة الموجود ولا تحركه . كذلك فعـل أفلاطون فى كتابه " تييتت " (ترجمـة كوزان ص ١٤٤) . وإن هذا على التأكيد لا يكفى لإثبات أنه كان بين الفيلسوفين علاقة أستاذ وتلميذ، غير أن هـذه التقاريب لا تنفى هـذا الظن الكثير الاحتمال فى شىء (ر . أيضا الطبيعـة ك ١ ب ٣ ف ٩ و ب ٤ ف ١) . وفى ما بعد الطبيعة فى الفقرة التى استشهدنا بها آنفا اسم ميليسوس مقترن باسم پرمينيد. وكذلك فى كتاب السماء (ك ٣ ب ١ ف ٢ ص ٢٢٣ من ترجمتى) . ومن ذلك أستنتج أن دعوى ديوچين اللايرثى مهما كانت فريدة لا ترفض بهذا الازدراء الذى لاقت من بعض مؤرخى الفلسفة . فان ميليسوس لمـا هاجر إلى إيليا فى إغريقا الكبرى يمكن جيدا أنه قد سمع دروس پرمينيد الذى استمر يلقى دروس إكسينوفان .

وعلى جملة من القول لا يعرف شىء عن حياته؛ ولكن من العدل أن يفترض أن نهايتها كانت مطابقة لبدايتها .

كان كتاب ميليسوس موسوما " فى الوجود " بل ربمـا كان موسـوما "فى الطبيعة" عنوان شائع جدّ الشيوع عند أكثر فلاسفة تلك الأزمان القديمة وإذ الطبيعة فى مجموعها هى موضوع درسهم حتى يتهيأ لهم تحليل مفصل ما كان ليؤسس إلا على مشاهدات أكثر عددا . نحن نعرف مؤلف ميليسوس هذا بالمختصر الموجود فى هذا الكتاب الذى نترجمه وبالشواهد التى نقلها سمپليسيوس فى شرحه على الطبيعة لأرسطو إما لأنه كان بين يديه النسخة الأصلية لكتاب ميليسوس وإما، وهو الأرجح، لأنه لم يكن لديه إلا ملخصات تيوفراسط الذى يستشهد به . لا أريد أن أختصر أنا أيضـا تلك المختصرات المختلفـة ولكنى أقنع بأن أحيـل على قطع ميليسوس التى سوف نذكرها بعدُ أخذا عن إسبلدنج وملاخ . وفيهـا يرى مذهب الفيلسوف السموسى ، على ما وصـل إلينا بالأقل . وزيادة على ذلك يرى لمـاذا كان كتابنا الصغير أمينا على المؤلف الذى يعترفه للناس فى حين أنه ينقض مذهبه ! .

بعد إكسينوفان وميليسوس لا أقول شيئا عن زينون ما دام كتابنا لا يتكلم عنه وإن ذكره الوارد فى عناوين بعض المخطوطات يجب أن يعتبر كسهو . فيبقى غرغياس الذى يجب أن يكون كلامنا عليه موجزا جدا لأنه معروف أكثر ولأنه لا يكاد يكون إلا سفسطائيا[1] .

ولد غرغياس فى ليونتيوم بصقلية نحو الواحدة والسبعين أولمبية وبلغ من الكبر مبلغا عظيما حتى لقد بلغ على ما يظهر الثامنة والتسعين أولمبية أعنى أنه لم يمت إلا فى سن الثامنة أو التاسعة بعد المائة كما يقول كل كتاب الزمن القديم بالإجماع . ولا يعرف عن حياته العملية تفاصيل طويلة . أما عائلته فالظاهر أنها كانت، فيما يظهر، عائلة ممتازة وكان أخوه "هيروديكوس"، الذى لا ينبغى أن يلتبس بهيروديكوس السلمبرى، طبيبا حاذقا (ر . غرغياس لأفلاطون ص ١٨٥ و ٢٠٩ ترجمة كوزان). وهذا يدل فيما يظهر على أنه كان فى سعة من العيش وعلى جانب عظيم من الثقافة العقلية . وأما غرغياس فانه اجتهد على الأخص فى الخطابة وكانت فنا مخترعا حديثا وقتئذ حصل منه على اسم كبير فى صقلية وأفاد من تعليمه إياه فوائد أكبر . ولا شك فى أن قدرته الخطابية هى التى أكسبته ثقة مواطنيه إذ استنجدوا آتينا ضد سيراقوزة والمدائن الأخرى الدورية . فبعثوا غرغياس يطلب مساعدة الجمهورية ويظهر أن التاريخ المضبوط لسفارته هذه هو السنة الثانية للأولمبياد الثامنة والثمانين أى سنة ٤٢٧ قبل الميلاد . ويظهر أن سقراط الذى رآه بلا شك لم يكن ليستهين بفصاحته التى كثر اللغط بشأنها فى آتينا وصارت مصدر ثروة لهذا المعلم الحسن البيان (ر . هيپياس لأفلاطون ص ١٠٠ ترجمة كوزان) . ولقد ظُن أن أرسطوفان فى روايته المضحكة عن الطيور كان يريد أن يستهزئ بغرغياس لأنه كان يرى أسلوبه منتفخا وغير طبيعى .

(١) ر . التحقيق الخاص (H. E. Foss, Halis Saxonum , in 8º,1828)

منذ هذه السفارة المشهورة التى ربمـا أتبعها غرغياس بالعودة ثانية إلى آتينا بل بالاقامة فيها لم يعرف لحياته العملية أثرآخر . وكل ما يعلم عنه أنه فى آخر حياته أقام فى تِساليا حيث اسمع إليه "إيزوقراط" وأنه عاش زمنا طويلا فى لارِسا أثرى مدن تلك الجهة بسبب نفوذ عائلة الأللويين . ولئن رجعنا إلى كلمة طيبة رواها أرسطو (السياسة ك ٣ ب ٩ ص ١٢٧ من ترجمتى طبعة ثانية) لوجدنا أن غرغياس لم يكن عظيم الاحترام لوطنيــة اللارسيين ولا يعلم أن هذا السفسطائى الشهير قـد مات بين ظهرانى هؤلاء . ومع أنه صار من الثروة على جانب عظيم ومن الزهو بحيث إنه وضع لنفسه تمثالا من الذهب فى معبد دلفوس فإنه كما يقال كان على بقية من قناعة تضرب بهـا الأمثال . ويقال : إن تقشفه المتناهى هو الذى أطال عمره إلى ذلك الحدّ . ويزعم لوسيان خبثا منـه بلا شك أن غرغياس لـما ملّ الحيـاة ترك نفسه يموت جوعا (Macrobioi ب ٢٣ ص ٦٤٣ طبعة فيرمين ديدو) .

ولم يكن مشرّفا مركز غرغياس فى المحاورة التى وضعها أفلاطون وسماها بآسمه . ففيهـا يبين له سقراط أن فن الخطابة الذي يزعمه ليس فنا كما يزعم وضيّق عليه فى المناقشة حتى بهت بأن جعله يقع فى التناقض المبين وألجأه إلى تبرير الظلم والقسوة . وساء دفاع غرغياس عن دعواه الخاسرة غير أنه كان يسبغ عليه من القصد وحسن الذوق ما لم يكن لبولوس وعلى الأخص قليقليس اللذين يسوقان المعانى التى لا يجيدان فهمها سوقا إلى النهاية . وينصبان نفسيهما أشـياعا عميا للقوّة على الحق وللشر على الخير وللضلال على الهدى . ولقد يتعرف من دهاء غرغياس خلقه العام الذى يسند إليه بل ربما كان الى هذا الدهاء أيضا ينسب تأثير مركزه السياسىّ أيضا فانه لم يكن فى بلده ويجب عليه أن يدارى الآتينيين الذين كان ينتظر منهم نصرة وطنه، يداريهم حتى فى المناقشات النظرية البحتة .

وأما كتاب غرغياس فكان عنوانه "فى اللاموجود أو فى الطبيعة" ولا يعلم ماذا كان يحوى على العموم ولكنه يرى على قدر الكفاية من كتيبنا هذا ماذا كانت

فكرته العامة . فى الواقع إنما هى لا أدرية مطلقة . وفى هــذه النقطة لا محل للتردّد فى الحكم فان سكستوس أمبيريكوس الذى يظهر أنه كان بين يديه نسخة غرغياس نفسها قــد نقل إلينا كما بيناه آنفا تحليــلا مطابقا تمــام المطابقة لمــا سنجده هنــا (ك ٧ ص ٢٨٥ — ٢٩٠ طبعة ١٨٤٢ Adversus Mathematicos, Logicos).

وإنه ليضع غرغياس فى صــف الفلاسفة الذين يأبون على الإنسان أية ملكة للحكم على حقيقــة الأشياء وينكرون إمكان الاهتــداء لذلك . وما ذلك إلا مذهب فقير يحوى فى نفسه كما فى كل لا أدرية مطلقة تناقضا ليس منه محيص . ولمــا تزعزع الإيمــان بالمنطق تزعزع بالأخلاق على السواء فلا عجب أن يكون سقراط قد أقام حربا عوانا على السفسطائيين الذين يفسدون العقول والأخلاق .

يظهر أن كتاب غرغياس الذى فى عنوانه وحده ازدراء بالذوق العام قد ألف أو ظهر فى الأولمبية الرابعة والتسعين أعنى سنة ٤٠٣ قبل الميلاد . وكان ذلك فى آخر حرب بيلوبونيز وكان الظرف سيئا للتنازع فى حقيقة الأشياء إذ كانت إغريقا كلها تعانى من الشرور ما لاشبهة فيه . ومتى يمكن أن تكون اللا أدرية فى وقت مناسب؟ لقــد كان ذلك لأربع سنين قبــل الحكم على سقراط إذ نشأت ضلالة أخرى كان يمكن للّا أدرى أن يســخر منها كما يسخر من هزيمة آتينا فى نزاعها مع هذا الحكيم جزاء له على ما كاله لها من صنوف التهكم . ومع ذلك فان غرغياس فى شيخوخته الطويلة قد عاش بعد سقراط وهجر أيضا آتينا إلى بلاد أقل منها قرًى فيها لم تكن لا أدريته لتعزيه بعض الشىء عن نفيه .

ولكى تقدّر فكرة غرغياس تقديرا تاما قد أثبتُّ قطعة سكستوس أمبيريكوس . فمن السهل مقارنتها بكتيبنا هذا الذى لها به ارتباط بيّن .

يجب أن يرى بناء على كل ما تقدّم أن كتابنا الصغير مهما كان فيه من النقص والعيوب والغموض حتى بعد البحوث التى تناولته لا يزال على جانب من الأهمية . وحين كان النص مملوءا بالأغلاط كان يمكن إهماله واعتباره غير معقول تقريبا فأما

منذ ملاخ فقـد أصبح هذا الازدراء لا محـل له وأنا من جهتى دون أن أكون مرتاحا تمـاما لا أجد أن هذا الكتاب أكثر غموضا من كثير من الكتب الأخرى فى مؤلفات أرسطو ، مع الإصلاحات التى تناولته والتى هى مقبولة جد القبول لأن أكثرها قام الدليـل على صحته من المخطوطات التى درست خير دراسـة ، مع هذه الإصلاحات يقف القارئ جيدا على ما أراده المؤلف وإن أسلوبه لمن البيان على قدر المطلوب . فان لم تكن هـذه الرسالة التى ليست بعد كل شىء إلا مجموع مذكرات إن لم تكن من قلم أرسطو فانها ليست غير خليقـة بأن تنسب اليه كما قد ظن ذلك زمانا طويلا . وعلى الأخص فليست قليلة الفائدة من حيث تاريخ الفلسفة . وبهذا العنوان وعلى هذا الاعتبار يستوصى بها كل أصدقاء الفلسفة القديمة .

أما فيما يتعلق بموضوع المذاهب وبمركز مدرسة إيليا فقـد قلت بعض كلمات فى مقدّمتى على هذا المجلد . وتصديت لأن أبين فى هذا البحث أن الفلسفة الإغريقية جدّتنا المحـترمة كانت نشأت باجتماع ظروف سعيدة قبل الميـلاد بستة قرون فى المستعمرات التى أسست على شطوط آسيا الصغرى . وقد أعلنت هذا الحادث كواحد من أعظم تواريخ العقـل البشرى . وعينت الحوادث السياسـية الكبرى التى فى وسطها نتجت هـذه النتيجة . واسـتخلصت من هـذه اللوحة مهما كان موضعها من قلة الكمال نتائج قـد تكون أوسع من إطارها . ألا إنما فى تلك البيئة يجب أن نحل فلاسفتنا لنفهمهم جد الفهم ولنقدر حق قدرها تلك القيمة السامية لهؤلاء الأساتذة معلمى الحكمة القـديمة والذين مهدوا لنـا فلسفتنا الحاليـة والذين لا يزالون يشجعوننا حتى على هذا البعد الشاسع .

في
ميليسوس وفي إكسينوفان وفي غرغياس

مذاهب ميليسوس

الباب الأوّل

الموجود هو أزليّ غير متناه واحد ولا متحرّك — أركان الوحدة ونتائجها — الاختلاط — ظاهر الأشياء هو ضدّ الوحدة — الحذر الذي ينبغي أخذه من شهادة الحواس — ردود على نظرية الوحدة وعلى اللاأدرية — الآراء المضادة لهذا المذهب — شواهد من هيزيود وبعض فلاسفة آخرين .

§ ١ — هو يقـرّر أنه إن يكن من شيء فذلك الشيء يجب أن يكون أزليـا ما دام أنه — على رأيه — من المحال أبدا أن يتولد شيء من لاشيء . وسواء أكان في الواقع أن الكل قـد خلق أم أن الكل لم يكن يخلق فيلزم على ذلك في الفرضين أن الأشياء التي خلقت تكون أخرجت من لا شيء مادام أنه ما من واحد من جميع

ب ١ — مذاهب ميليسوس — زدت هذا العنوان الذي ليس في الأصل الإغريقي . ر . ما سبق في التحقيق الذي أجريناه على هذا العنوان وعلى نسبة المذاهب التي يشملها البابان الأوّلان الى ميليسوس .

§ ١ — هو يقرّر — حفظت عبارة النص على إبهامها . وقد كان يحسن أن يسمى الفيلسوف بالتصريح . ومع العنوان الذي سمحت لنفسي بوضعه لهذا البـاب يذهب الشك في الشخص المقصـود . ولكني لم أسمح لنفسي بأن أدخل هـذه الزيادة على النص نفسه في أول جملة وفي بدء هذه الرسالة . وأما في غضون الأبواب فقد زدت اسم ميليسوس مرات عدّة كما فعلت بالنسـبة لإكسينوفان وغرغياس، وفيما يتعلق بالإسناد الى ميليسوس ر . ما سيأتي ب ٤ ف ١ . — إن يكن من شيء — ر . ما سوف يلي من قطع ميليسوس القطعة الأولى . — على رأيه — زدت هذه العبارة لأؤدّي قوة النص الإغريقي . — أم أن الكل لم يكن يخلق — وأنه لم يكن الا عدد ما من الأشياء كان قد خلق . — في الفرضين — النص ليس على هذا القدر من الصراحة .

الأشياء التى تكونت على هذا النحو كان يوجد من قبل . § ٢ — وأنه اذا قيل إن من الأشياء ما كان موجودا من قبل ومنها ما جاء بعد ذلك لينضم اليه نتج من ذلك أن الكل الذى هو واحد قد زاد بالعدد و بالكم . وهذا نفسه الذى به يصير أكثر عددا وأكبر يجب أن يأتى أولا من لا شىء لأن الأكثر لا يمكن أن يكون فى الأقل ولا الأكبر فى الأصغر .

§ ٣ — ومتى كان الكل أزليا يجب أن يكون بهذا عينه لا متناهيا لأنه لا يكون هناك مبدأ يأتى منه كما أنه لا يكون له آخر متى بلغه انتهى . وكل لا متناه يجب ضرورة أن يكون واحدا لأنه اذا وجد عدّة لا متناهيات بل لا متناهيان اثنان حدّد بعضها بعضا على التكافؤ . § ٤ — ولما كان واحدا وجب أن يكون متشابها فى جميع أجزائه لأنه اذا كان غير متشابه فبهذا وحده لا يكون بعدُ واحدا . ولما لم يكن واحدا كان كثرة . ولما كان الواحد أزليا لا قابلا لأن يقاس متشابها فى جميع أجزائه وجب أن يكون غير متحرك لأنه لا يمكن أن يتحرك إلا فى شىء ينطلق أمامه ولكن الانطلاق لا يمكن أن يكون إلا للذهاب فى المِلء أو فى الخلو . فمن جهة المِلء لا يمكن بعدُ أن يقبل شيئا ومن جهة أخرى الخلو نفسه ليس شيئا .

— التى تكونت على هذا النحو — والتى هى بالنتيجة ليست أزلية .

§ ٢ — أن الكل الذى هو واحد — عبارة النص هى بالبساطة "الواحد". — بالعدد و بالكم — عبارة النص : "يصير متعددا وأعظم" .

§ ٣ — كان الكل أزليا — ر . ما سوف يجىء فى قطع ميليسوس القطعتين ٢ و ٣ . — بهذا عينه لا متناهيا — يكاد يكون ذلك تكرارا لأن الأزلى ليس الا اللامتناهى فى المدّة . — حدّد بعضها بعضا على التكافؤ — تلك هى العبارات عينها التى ينقلها سمپليسيوس . ر . ما سوف يجىء من قطع ميليسيوس القطعتين ٣ و ١٠ .

§ ٤ — وجب أن يكون متشابها فى جميع أجزائه — راجع قطع ميليسوس القطعة ٤ . — وجب أن يكون غير متحرك — راجع القطعة ٤ . — فى شىء ينطلق أمامه — راجع القطعة ٥ من قطع ميليسوس . — الخلو نفسه ليس شيئا — راجع القطعة الآنفة الذكر .

§ ٥ — لما كان الواحد هو ما قلنا آنفا ينتج من ذلك أنه لا يمكن أن يلحقه تعب ولا ألم ويجب أن يكون سليما و بغير مرض . كما أنه لا يمكن أن يغير وضعه ليتخذ أحسن منه ولا أن يتحوّل ليأخذ نوعا آخر ولا أن يختلط بشيء آخر . وفي كل هذه الأوضاع الواحد يصير كثرة و إذاً يكون اللاموجود هو المتولد . والموجود يكون هو الذى قد فسد بالضرورة . § ٦ — وكل هذا محال مطلقا . وفى الحق إذا كان الواحد مقولا على الخليط لأنه تألف من عدة أشياء فيلزم حينئذ أن يكون مسبوقا بوجود عدّة أشياء وأن هذه الأشياء تكون قد تحرّكت بعضها نحو الأخرى . وليس الاختلاط فى الواقع إلا تركب عدّة أشياء فى شيء واحد أو إنما هو تجمع بين الاشياء المختلطة عن طريق التصنيف . وعلى هذا النحو قد تختلط الأشياء لأنها تنفصل بعضها عن الأخرى . ولما أن هذا الجمع يحصل فى سحق الأشياء فقد يجب أن يوجد جليا كل واحد منها برفع الأشياء الأولى التى اختلطت باقترابها بعضها من بعض . وليس توجد واحدة من هاتين الحالتين .

§ ٧ — وهكذا على هذه الطريقة تكون الأشياء، على رأى ميليسوس، متكثرة ولا تظهر لنا البتة بوحدة، وبالنتيجة لما أنه ليس ممكنا أن يكون الحال هكذا على هذا الوجه وأنه لا يمكن أن تكون الأشياء متكثرة فيلزم القول بأن هذا ليس إلا ظاهرا

---

§ ٥ — لا يمكن أن يلحقه تعب ولا ألم — يمكن أن تحمل هذه العبارة على المادى أو على المعنوى على السواء ر . القطعة ٤ من قطع ميليسوس . — سليما و بغير مرض — ربما كانت هذه المعانى أضيق مما ينبغى وفيها يعتبر الواحد كما لو كان جدا إنسانيا ر . القطعة ١١ . — هو المتولد — هذه هى عبارة النص الإغريقى بالضبط .

§ ٦ — اذا كان الواحد مقولا على الخليط — ر . على نظرية الاختلاط ما سبق فى كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١٠ . — التصنيف — يظهر أن الكلمة التى يستخدمها النص هنا كانت خاصة بلهجة الابدرياتيين . ر . تفسير سمبليسيوس على كتاب السماء الورقة ١٥١ . — لأنها تنفصل — أو يمكن أن تنفصل . ومن المحتمل أن يكون لفظ فصل هاهنا مأخوذا على معنى تميز . — فى سحق الأشياء — هذه هى عبارة النص وان لم تكن مضبوطة تماما .

§ ٧ — على رأى ميليسوس — زدت هذه العبارة لأحصل النص فى كل قوّته . — ليس الا ظاهرا خدّاعا — تلك هى لا أدرية مدرسة إيليا التى بإيثارها العقل أكثر مما ينبغى لم تبق للحواس ما يتناسب

خداعا كما أنه مع ذلك يوجد كثير من الأشياء تخدع حواسنا وتغرّها ولكن العقل يؤكد لنا أن تلك الأشياء ليست موجودة، بل هو يؤكد لنا أن الموجود لا يمكن أن يكون كثرة وأنه واحد أزلى لا متناه متشابه فى جميع أجزائه .

§ ٨ — وحينئذ هل تكون عنايتنا الأولى بعدم قبول كل ظاهر وألّا نثق منه إلا بما هو الأحق ؟ ولكن إذا كان كل ما يظهر لنا أنه حق ليس صحيحا ولا يستحق على ذلك تصديقنا فقد نحسن صنعا بعدم قبول هذه القاعدة أيضا : أنه لاشىء البتة يمكن أن يأتى من لا شىء لأنه ربما كان هذا أيضا واحدا من تلك الآراء القليلة الصدق والكثيرة العدد التى نحن جميعا قد تصوّرناها بواسطة إدراكات قليلة الصدق أو كثيرته .

§ ٩ — ولكن إذا كانت كل إدراكاتنا ليست فاسدة وإذا كان بعض آحادها صحيحا فيلزم أن يختار إما الرأى الذى قام الدليل على صحته وإما الآراء التى تظهر أنها

معها ر . فيما سوف يجىء شيئا من هذه المعانى فى القطعة ١٧ من قطع ميليسوس . — العقل يؤكد لنا — اذا طبق هذا فى حق الله فالنظرية لا جدال فيها فوحدانيته بديهية فى حكم العقل كلا نهايته وكامل قدرته . ولكن ذلك لا يمنع تكثر الكائنات بأشخاصها ويلزم العقل التسليم به من غير أن يستطيع مع ذلك أن يفسره .

§ ٨ — هل تكون عنايتنا — صيغة الإثبات هنا أولى فيما يظهر ولكنى اضطررت الى اتباع النص . وهذا المرهو أتم ماتركه لنا الأقدمون على نمط مدرسة إيليا ومنطقها . — كل ظاهر — أو كل ما يظهر لعقلنا لأن المراد هنا ليس هو الظاهر الحسى . — ليس صحيحا ولايستحق على ذلك تصديقنا — ليس النص على هذا القدر من السعة . — بعدم قبول هذه القاعدة أيضا — الأمر على الضد من ذلك فان مدرسة إيليا قد قبلت هذه القاعدة كل القبول واتخذتها أساسا لنظرياتها على الأزلية ووحدة الموجود . — قليلة الصدق — ليس النص على هذا القدر من التعيين ، ولكنه على التحقيق يشمل هذا المعنى .

§ ٩ — كل ادراكاتنا ليست فاسدة — فى هذا التحفظ شرف عظيم لمدرسة إيليا ويجب اعتباره والاعتداد به . فان السفسطائيين وعلى الخصوص فروطاغوراس قد ذهبوا بعيدا فى المعنى المضاد بأن قرروا أن الانسان هو معيار الكل وقد جرهم هذا الافراط الى لا أدرية غرغياس المطلقة . ر . فيما يلى الباب الخامس والسادس من هذا الكتاب وتحليل مذهب غرغياس الذى قام به سكستوس أمبيريكوس . — إما الرأى الذى قام الدليل على صحته — مبدأ جميل قد كرره فيما بعد أفلاطون وديكارت بصورة أخرى ليست أشدّ جزما . — التى تظهر أنها أحق — والتى هى غير قابلة للايضاح وصالحة ، من ثم ، لإيضاح سائر البقية . هذا هو المذهب العظيم لأرسطوطاليس فى الأنالوطيقا الثانية . وهذا هو الأساس الذى اليه يستند كل برهان سواء أكان هذا الأساس مكشوفا أو مخبأ . ر . ترجمتنا لأنالوطيقا الثانية ، منطق ارسطو ج ٣ ك ١ ب ٢ ص ٩ .

أحق . لأن هذه الأخيرة تكون دائما أمتن من الآراء التى يجب أن يدلل عليها من بعد بمساعدة تلك المبادئ الأولى .

§ ١٠ — فلنسلم، إذا شئت، بأن هذين الرأيين مضادّان أحدهما للآخر كما يفترض ميليسوس : بادئ بدء أنه عند تأييد الكثرة يُضطر الى استخراجها من اللاموجود . ثم لما كان هذا محالا وجب أن يُستنتج من ذلك أن الموجودات ليست متكثرة والموجود بما هو موجود فقط هو لامتناه وبما هو لامتناه هو واحد. § ١١ — نزعم أن هذين الرأيين لا يثبتان لا أحدهما ولا الآخر أن الموجود هو واحد أو أنه كثرة. ولكن إذا كان أحد الاثنين أحق وأمتن فتكون النتائج التى تستنتج منه هى أيضا أجلى وضوحا . فان كان لنا هذان الاعتقادان معا أن لا شىء يمكن أن يأتى من لا شىء وأن الموجودات هى متكثرة ومتحركة فلما أن هذا الأخير يظهر لنا حقيقا بالثقة فهو أولى من الآخر بتصديق الناس . و بالنتيجة إذا كان هذان الرأيان هما متضادّين فى الواقع و إذا كان من المحال أن شيئا يأتى من لاشىء وأن الموجودات متعدّدة فإن هاتين النظريتين تتباطلان وتتفاسدان على التكافؤ .

— بمساعدة تلك المبادئ الأولى — التى هى فى ذاتها غير قابلة للبرهان لأنها بديهية .

§ ١٠ — كما يفترض ميليسوس — عبارة النص هى فقط « كما يفترضه » ر. ما سبق ف ١ والتحقيق . وهذه الجملة كلها قلقة فى ترجمتنا كما هى، كذلك فى النص الإغريقى . — يضطر الى استخراجها من اللاموجود — ر. ما سبق آنفا ف ١ .

§ ١١ — نزعم — قد لا تكون عبارة النص على هذه الصراحة . — فتكون النتائج التى تستنتج — أو النتائج التى تستخرج منها . على أن من البيّن أن المبدأ الذى يسارمنه بما أنه هو ذاته أمتن فالبرهان الذى ينتج منه هو أمتن أيضا . — هذان الاعتقادان — العبارة الإغريقية تدل مباشرة على " فرضين وهميين " . — لا شىء يمكن أن يأتى من لاشىء — هذا حق متى طبق على موجودات الطبيعة ولكنه ليس حقا بهذا المقدار متى طبق فى حق الله . وحينما يكون الأمر متعلقا بالله فيلزم أن يوصل الى خلق حقيق . — الموجودات هى متكثرة ومتحركة — كما تشهد لنا به حواسنا شهادة غير مجرّحة . — هاتين النظريتين تتباطلان — وحينئذ يمكن أن شيئا ما يأتى من العدم وأن الموجودات هى متحركة .

§ ١٢ — لكن لماذا إذًا يكون رأى ميليسوس أحق! إنه يمكن أيضا تأييد الرأى المضاد ما دام أن ميليسوس قد وضح استدلاله من غير أن يكون قد دلل على أن الرأى الذى يصدر عنه هو الحق أو على الأقل أنه أمتن من الرأى الذى يقصد الى أن يبرهن على فساده . وهذا من جانبه ليس إلا فرضا محضا أن يرى أن مجيء الأشياء من لا شيء أشبه بالحق من أن تكون متعددة . § ١٣ — ولقد أصاب من قال على ضد ذلك ها هنا إن أشياء لم تكن قد كانت وإن كثيرا من الأشياء أُخرج من العدم . وليس هؤلاء الذين افتكروا هذه الأفكار من أناس كيفما اتفق . بل هم مشهورون بأنهم أعقل الناس . مثال ذلك قال هيزيود :

"كان العماء موجودا قبل كل الأشياء
"ثم ظهرت الأرض ذات الصدر الفسيح
"وهى الأساس الأزلى لكل ما تحمل
" ... ...
"ثم بعد ذلك العشق الذى هو أقدر الآلهة".

---

§ ١٢ — رأى ميليسوس — عبارة النص غير معينة ولا تسمى ميليسوس ر . ما سبق ف ١ . — مادام أن ميليسوس — التنبيه السابق . — الذى يقصد الى أن يبرهن على فساده — عبارة النص ببساطة " التى عليه يبرهن " . — ليس إلا فرضا محضا — الحد الذى يستعمله النص هاهنا هو بعينه من جهة الاشتقاق الذى فى الفقرة السابقة . — أشبه بالحق — أو بعبارة أخرى أن الخلق من العدم أكثر احتمالا من وحدانية الموجود . فانه يمكن أن يفهم على وجه أحسن أن الأشياء أتى بها من لا شيء من أن يفهم أنها متعددة . والسبب فى ذلك أن التعدد بديهى فيما يظهر فى حين أن الخلقة مختفى فى ظلمات الماضى والبداية .

§ ١٣ — قد كانت — هذه الجملة فى المخطوطات واردة على صيغة النفى لا على صيغة الإثبات كما ينبه اليه م . مللاخ . وقد اقترح إسپلدنج محوها . وإنى أرى كما يرى م . مللاخ أنها ضرورية لتتابع المعانى . — من أناس كيفما اتفق — من العوام . — هيزيود — راجع التيوجونى البيت ١١٦ وما بعده ص ٣ من طبعة فيرمين ديدو . وإن هذه الأبيات التى لم يستشهد بها ها هنا بالنص موجودة فى الطبيعة لأرسطو . ك ١ ب ٢ ف ٧ ص ١٤٢ من ترجمتنا وفى ما بعد الطبيعة ك ١ ب ٣ ص ١٣٨ من ترجمة كوزان .

فعلى رأى هيزيود سائر الأشياء تولد من هذا ولكن المبادئ الأول لم تتولد من شيء . §١٤ — ومن الفلاسفة من يقولون بأن لاشيء يكون وأن الكل يصير وهم يؤكدون كذلك أن كل الأشياء التى تصير تولد من أشياء غير موجودة . و بالنتيجة يمكن أن يقال إن عند بعض الفلاسفة الصيرورة يمكن أن تنتج حتى من اللاموجود .

— لم تتولد من شيء — أولى بهذا أن يكون نتيجة مستخرجة من أفكار هيزيود لا فكرة من أفكاره الخاصة .

§ ١٤ — ومن الفلاسفة — كان من الحسن أن يسمى هؤلاء الفلاسفة الآخرين . — بأن لاشيء يكون — أو يوجد . — وأن الكل يصير — قد يكون هذا هو رأى هيرقليطس إذ يظن أن كل الأشياء هى فى مدّ أبدىّ . — تولد من أشياء غير موجودة — النتيجة بينة بذاتها فيما يظهر وأن ما يصير لم يكن قبل أن يصير . — الصيرورة يمكن أن تخرج حتى من اللاموجود — أو أن الأشياء التى تتولد تخرج من أشياء ليست موجودة .

البـاب الثـانى

تتمة تفنيد ميليسوس — ردود على مبدأ أنه ليس شىء يأتى من لاشىء — تولد الأشياء وكونها بعضها من بعض على التكافؤ — نظريات أمبيدقل وأنكساغوراس وديموقريطس وبرمينيد وزينون — شواهد من شعر أمبيدقل وهزيود — الموجود ليس ضرورة واحدا أزليا ولا متناهيا .

---

§ ١ — نحن لا نشتغل ببحث ما اذا كان ما يقوله ممكنا أو ممتنعا . لكن هنا نقطة يجب علينا أن نعيرها بعض الالتفات وهى ما إذا كانت مثل تلك النتائج تنتج بلا تخلف من فروضه أو إذا كانت الأشياء يمكن أن تكون ضدّ ما يعتقد لأنه يمكن فى الحق أن يكون الواقع مخالفا تمام المخالفة . § ٢ — فهو يقرر بادئ بدء أن ليس شىء يمكن أن يأتى مما هو ليس موجودا . ولكن يرِد عليه هذا السؤال : أمن الضرورى إذًا أن تكون جميع الأشياء بلا استثناء غير مخلوقة ؟ أو ليس من الممكن أيضا أن تأتى الأشياء بعضها من بعض وأن هذه السلسلة يمكن أن تتمشى إلى ما لا نهاية ؟ أو ليس من الممكن أيضا أن تكون رجعى دائرية بحيث إن الواحد يأتى من الآخر وأنه على ذلك يوجد دائما موجود ما وأن كل واحد قد أمكن أن يخرج على هذا النحو من جميع الأخر على التكافؤ فى عدد غير متناه من المرات ؟ على هذا المعنى لا شىء

---

§ ١ — ما اذا كان ما يقوله — ميليسوس وقد حفظت النص على ما فيه من عدم التعيين الشخصى . — بعض الالتفات — و ربما يمكن أن يقال "التفاتا جديا" . — من فروضه — أو "المبادئ التى يسلم بها" .

§ ٢ — فهو يقرر بادئ بدء — ليس النص على هذا القدر من الضبط وعبارته عامة وهى ما دام قد تقرر ... الخ . — بلا استثناء — زدت هذا القيد لأحصل كل قوة العبارة الإغريقية . — غير مخلوقة — ر . ماسبق فى الفقرة الأولى حيث هذا التحفظ . بعض الأشياء هى أزلية وغير مخلوقة والبعض الآخر ليس كذلك . — أن تأتى الأشياء بعضها من بعض — هذا ممكن بلا شك ولكن لابد بادئ بدء من افتراض وجود بعض أشياء تكون أزلية بالنتيجة . وهذا الاعتراض لا يرد مباشرة على نظرية ميليسوس . — رجعى دائرية — هذا هو ما ذكر آنفا بعبارة أخرى . ولكن الكون ليكون على التكافؤ يلزم ضرورة أن يكون مسبوقا بوجود تمّا قد لا يكون أزليا وباقيا . — يوجد دائما موجود ما — مؤقت ووسيط ولكن التعاقب مع ذلك هو أزلى إذا لم تكن الموجودات أزلية .

يمنع أن الكل قد خلق وأُصير حتى مع التسليم بذلك الفرض أنه ليس شيء يمكن البتة أن يأتى من لا شيء . وبما أن الموجودات على ذلك غير متناهية فيمكن إذًا ، كما يشاؤه ، أن تسمى بجميع الأسماء التى لا تناسب إلا الوحدة لأنه يطبق هو أيضا على اللامتناهى كيفية أنه كل وأنه يسمى كلا .

§ ٣ — حتى من غير أن يفرض أن عدد الموجودات غير متناه يمكن أن يفهم أن كونها دائرىّ . فاذا كان كل يصير وأن لا شيء يوجد كما يزعم بعضهم فكيف يوجد إذًا أشياء أزلية ؟ ولكن ميليسوس يتكلم عن الموجود كأنه كائن وكأنه مسلم به على الاطلاق . فإنه يقول : " إذا الموجود لم يصر وإذا هو يكون فيلزم أن يكون أزليا" . وهذا إنما هو تسليم بأن الوجود يتعلق ضرورة بالأشياء . § ٤ — وأكثر من ذلك أنه مع الافتراض ، بقدر ما يراد من الافتراض ، بأن اللا موجود لا يمكن أن يصير وأن الموجود لا يمكن أن ينعدم البتة فما الذى يمنع أيضا أن من الأشياء ما تولد ومنها ما تكون أزلية ؟ تلك إنما هى نظرية أمبيدقل نفسه . فإنه مع أنه مسلم وفقا لرأى ميليسوس بأن من الممتنع أن أى شيء اتفق يخرج مما لم يكن وأنه

— أن الكل قد خلق — فى التعاقب لا فى البدء . — أنه كل وأنه يسمى كلا — وبعبارة أخرى اللامتناهى هو كل وهذا هو ما يسمى بالكل .

§ ٣ — كونها — بعضها بواسطة البعض الآخر . — دائرىّ — وبالنتيجة على التكافؤ ، فان الثانى يكون الأول كما أن الأول قد كوّن الثانى . — كما يزعم بعضهم — هيرقليطس وفروطاغوراس مثلا . — ولكن ميليسوس — عبارة النص : "ولكنه" ر . ماسوف يجىء القطعة الأولى وما يليها من قطع ميليسوس . — فانه يقول — هذه الصيغة تدل على أن القول المروىّ هو من كلام ميليسوس .

§ ٤ — بأن اللاموجود لا يمكن أن يصير — يعنى أن ما لم يكن لا يمكن أن يكون أبدا . — وأن الموجود لا يمكن أن ينعدم — وأنه أزلى . — من الأشياء — التى هى موجودة أو التى وجدت فيما سبق . — نظرية أمبيدقل — لم يذكر أبيات أمبيدقل بنصها ولكن المعنى قد حصل بالضبط . ر . قطع أمبيدقل البيتين ١٠٢ و١٠٣ طبعة فيرمن ديدو ص ٣ . — وفقا لرأى ميليسوس — ليس الاسم فى النص

لا سبيل مطلقا لأن شيئا وجد مرّة يمكن أن ينعدم البتة " ما دام أن الموجود يبقى دائما حيث أمكن وضعه" مع كل هذا لا يزال هذا الفيلسوف يؤيد أن من الأشياء ما هو أزلى كالنار والماء والأرض والهواء وأنه إنما من هذه الأشياء أتت وتأتى جميع الأخر . وعلى رأيه ليس للوجودات كون آخر غير هـذا . وأن الكون ليس فى الحقيقة إلا اختلاطا وتحللا . وهذا ما يسمى عاميا كون الأشياء وطبعها .

§ ٥ — ومع ذلك فإن أمبيدقل يزعم أن الصيرورة لاتنطبق على الأشياء الأزلية وأن ما هو موجود لا يصير . فتلك فى نظره محالات واضحة إذ يقول : "كيف يمكن فى الحق أن يقال: إن شيئا يزيد الكل؟ ومن أين يأتى ذلك الشيء؟" "إنما هو من اختلاط النار وتركبها ومن جميع العناصر التى تصحبها أن خرج تكثر" "الأشياء . وبانفصال هـذه العناصر وتباعد بعضها عن بعض تنعدم الأشياء من" "جديد . والتكثر يأتى من الاختلاط والتفرق ولو أنه بالطبع لا يوجد إلا أربعة" "عناصر بصرف النظر عن العلل بل عنصر واحد أحد" .

الإغريق ولكنه يستنتج من العبارة نفسها التى استخدمها المؤلف . — ما دام أن الموجود يبقى دائما — هـذا الشاهد بيت من أبيات أمبيدقل روى بمعناه بالضبط دون لفظه . ر . البيت ١٠٤ فى المرجع السابق . — كالنار والماء ... الخ — الأربعة العناصر التى يسلم بها أمبيدقل أيضا . — إلا اختلاطا وتحللا — تلك هى عبارة أمبيدقل بالنص . ر . قطع أمبيدقل البيتين ١٠٠ و ١٠١ فى المرجع السابق . و إن أرسطو يذكر أيضا هذا البيت فى كتاب الكون والفساد ك٢ ب ٦ ف ٦ . — عاميا — عبارة النص : عند الناس . ر . قطع أمبيدقل البيت ١٠١

§ ٥ — ومع ذلك فان أمبيدقل — النص لايسمى هاهنا أمبيدقل . ولكن كل ما يلى يثبت تماما أن القول إنما هو بصدده . — الصيرورة — أو التولد . — كيف يمكن فى الحق — ليست هـذه تعابير أمبيدقل بالضبط ولكن المعنى هو معناه . ر . قطعه البيتين ٩٤ و ٩٥ فى المرجع السابق ذكره . و ر . أيضا الطبيعة لأرسطو ك ٨ ب ١ ص ٤٥٥ من ترجمتنا . — بصرف النظر عن العلل — عبارة النص : دون العلل ، ومن المحتمل أن أمبيدقل يعنى هاهنا بالعلل العشق والتنافر اللذين يجمعان أو يحللان الأشياء بأن يكونا و يفسدا دوريا السفيروس . ر . الطبيعة لأرسطو ك ٣ ب ٤ ف ١٣ ص ٩٠٣ من ترجمتنا .

§ ٦ — حتى مع افتراض أن العناصر لا متناهية منذ الأصل لتكوّن الأشياء بتركبها وتفسدها بافتراقها كما يدعى أحيانا أنه كذلك كان يفكر أنكساغورس الذى كان يعتبر هذه العناصر الأزلية غير المتناهية كمصدر لجميع الأشياء التى تتكوّن . وقد لا ينتج من هذا أيضا أن الكل هو أزلى بلا استثناء . بل يوجد دائما بعض أشياء قد تأتى وتكون أتت من موجودات متقدّمة وتفنى فى جواهر أخرى .

§ ٧ — بل يمكن أيضا ألّا يكون إلا صورة واحدة للكل كما كان يؤكده أنكسيمندروس وأنكسيمين إذ يؤيدان أحدهما أن الكل هو من الماء والآخر وهو أنكسيمين أن الكل إنما هو من الهواء . § ٨ — وإنما هذه هى أيضا نظرية جميع من يفهمون على هذا النحو "الكل" كوحدة . وذلك إنما هو تبعا لأن "الواحد" يتغير بالصور أو بعدد أكبر أو أصغر وتبعا لأنه رقيق قليلا أو كثيرا أو لأنه سميك أن الأشياء مهما كانت متعددة ولا متناهية تتوالد . وحينئذ "الواحد" مع بقائه هو هو يكوّن بقية الأشياء ويشكلها .

---

§ ٦ — بتركبها ... بافتراقها — على حسب نظريات أمبيدقل . — انكساغوراس — ر . الطبيعة لأرسطو ك ٣ ب ٤ ف ٨ ص ٩٠ من ترجمتنا . — بلا استثناء — أضفت هذه الكلمات . — فى جواهر أخرى — هذا التعبير يكاد لا يكون أرسطوطاليا . وليس من عادته أن يستعمل لفظ الجوهر فى مثل هذا المعنى .

§ ٧ — ألا يكون إلّا صورة واحدة — هذه الجملة هى الترجمة المضبوطة للنص الإغريقى ولكن ما يلى يثبت أن المعنى بلفظ "الصورة" هو "العنصر" وإن آراء أنكسيمندروس وأنكسيمين هى معروفة حق المعرفة فإن أحدهما يريد أن يستخرج كل العالم من الماء كما كان يزعم طاليس والآخر يريد أن يستخرج العالم من الهواء .

§ ٨ — كوحدة — أو كواحد . ولقد حفظت أسلوب النص وربما كان أجلى من ذلك أن يتكلم على اتحاد المادة وحينئذ يرجع الى مذهب الذرات كما سنبين فيما بعد بمناسبة ديمقريطس . — تبعا لأن الواحد يتغير بالصور — الجملة طويلة بعض الشىء ولكنها كذلك أيضا فى النص الإغريقى فوجب علينا الاحتفاظ بأسلوبها . — يكوّن ... ويشكلها — ليس فى النص إلا فعل واحد .

§ ٩ — أما ديمقريطس فانه من ناحيته يقول على السواء إن الماء والهواء وكل واحد من الأشياء المختلفة هكذا هى متحدة وإنه لافرق بينها إلا فى المجرى والتماس والاتجاه . وما المانع أيضا، فى هذا الفرض، من أن الأشياء المتكثرة تتولد وتنعدم ما دام "الواحد" يتغير أبدا من الموجود إلى الموجود بالفروق التى ذُكرت من غير أن "الكل" فى مجموعه يصير بذلك أبدا لا أصغر ولا أكبر ؟ § ١٠ — وفوق هذا ما ذا يمنع أن أجساما متعددة كما يشاء تتولد من أجسام أخر وتحلل إلى أجسام أخر أيضا بحيث تكون دائما على كمية متساوية فى تحللها و بحيث إنها تنعدم من جديد .

§ ١١ — لكن حتى مع التسليم بهذا والتسليم بأنه يوجد شىء غير مخلوق فماذا يزيد هذا فى إثبات أن الموجود هو لا متناه ؟ على رأى ميليسوس الموجود لا متناه إذا هو يوجد وألّا يكون قد ولد البتة . لأن الحدود على رأيه هى هنا

---

§ ٩ — ديمقريطس — هو فى طريقته أيضا نصير الوحدة لأن ذراته هى على الاطلاق متماثلة ولا تختلف إلا بالعدد و بالصورة و بالتماس و بالحركة . — الأشياء المختلفة هكذا — كان الأحسن أن يقول يظهر لنا أنها مختلفة بهذا القدر لأنها فى الواقع هى بعينها على حسب ديمقريطس . — فى المجرى والتماس والاتجاه — هذه الكلمات الثلاثة مستعارة من ديمقريطس والظاهر أنه هو واضعها أو على الأقل هو الذى فى المجموعة نقلها من معناها العادى . على أنى لا أجد هذا المر من هذا الكتاب موجودا فى قطع ديمقريطس الإغريقية لفيرمين ديدو . فان المجرى والتماس والاتجاه متعلقة بالذرات اذ تتركب فى الخلو بعضها مع بعض . — من الموجود الى الموجود — دون أن شيئا ما يمكن أن يتولد من العدم وذلك بأن الذرات متصوّرة أزلية ر . كتاب السماء ك ٣ ب ٤ ف ٥ ص ٢٥٠ من ترجمتنا .

§ ١٠ — وفوق هذا — هذا يظهر أنه تبع للأفكار المنسوبة هاهنا الى ديمقريطس . وهذه الفقرة لا تكاد تكون إلا تكريرا لما سبق . — على كمية متساوية — الكمية والعدد الكلى للذرات لا ينقصان ، وفقط المركبات التى تركبها تلك الأجزاء التى لا تتجزأ هى التى تحتوى منها على عدد أكبر أو أصغر .

§ ١١ — أن الموجود هو لا متناه — ليس النص على هذا القدر من الضبط واللفظ الذى استعمله هو غير محدد . — على رأى ميليسوس — هذا يتعلق بميليسوس لا بديمقريطس ولكن النص قد وضع الفعل مطابقا لضمير الغائب من غير أن يعين بالاسم الفيلسوف الذى يقصد تعيينه . — اذا هو يوجد — ر . ماسبق ف ١ . — وألا يكون قد ولد البتة — إن لانهاية الموجود تنتج ، على رأى ميليسوس ، من أزليته .

بداية الكون ونهايته . غير أن الموجود مع أنه غير مخلوق ألا يمكن أن يكون له حدود أخرى غير المذكورة آنفا ؟ فاذا كان اللا متناهى قد خلق فلا بدّ من أن يكون له على رأى ميليسوس هذه البداية التى منها يخرج ليكون .

§ ١٢ — فما ذا يمنع إذًا — حتى بدون أن يكون قد كوّن — أن يكون له بالأقل بداية ؟ لا البداية التى منها أتى — اذا شئت — بل بداية أخرى . وأن الأشياء مع كونها أزلية يتحدّد بعضها ببعض على طريق التكافؤ § ١٣ — بل ما ذا يمنع أن " الكل " الذى يكون غير مخلوق أن يكون لا متناهيا وأن جميع الأشياء التى هى فيه تكون متناهية باعتبار أن لها بالبساطة بداية ونهاية فى كونها .

§ ١٤ — ألا يمكن أيضا كما يبغى پرمينيد أن " الكل " مع أنه واحد وغير مخلوق يكون متناهيا " بأن يكون من جميع الجهات مشابها لكتلة كرة مضبوطة الشكل وأن يكون متساوى الأبعاد من المركز من غير حاجة أصلا الى أن يكون

— بداية الكون — أو بعبارة أخرى "بداية تغير الموجود" . لأن الموجود بما هو أزلى يمكن أن يصير غير ما هو ويتحوّل ولكنه لا يولد على الحقيقة . — حدود أخرى غير المذكورة آنفا — يعنى ابتداء التغايير التى يمكن أن يعانيها ونهايتها . — على رأى ميليسوس — أضفت هذه الكلمات التى تستنتج من سياق الكلام ومن التعبير الذى يستعمله المؤلف ر . فيما سوف يلى القطعة ٢ من قطع ميليسوس .

§ ١٢ — حتى بدون أن يكون قد كوّن — أعنى مع بقائه أزليا . — بل بداية أخرى — هذا لا ينطبق الا على التغير الذى يصير الموجود غير ما هو ويحيله من غير أن ينزع شيئا من أزليته . — يتحدد بعضها ببعض — بأن تتوالد على طريقة التكافؤ .

§ ١٣ — متناهية — بالكم دون أن تكونه بالعدد وأن يكوّن بعضها بعضا بتسلسل مؤبد . — بالبساطة — زدت هذه الكلمة التى تفهم من القرينة فيما يظهر لى .

§ ١٤ — كما يبغى پرمينيد — يظهر على حسب هذه الفقرة أن رسالتنا الصغيرة هذه مع انطباقها على ميليسوس وإكسينوفان على وجه الخصوص قد تكون انتقادا عاما لمدرسة إيليا . ر . قطع پرمينيد البيت ١٠٢ وما بعده فى القطع الفلسفية الإغريقية لفيرمين ديدوص ص ١٢٤

فى الجزء الفلانى أو الفلانى أكبر أو أجمد مما هو ؟ " . § ١٥ — ولما أن له وسطا وأطرافا فله حدّ مهما كان غير مخلوق ما دام أن " الكل " مع أنه واحد كما يعترف به ميليسوس نفسه فانه، من حيث كونه جسما، كل أجزائه بلا استثناء مشابهة بعضها لبعض . ومن هذه الجهة إنما هو يقرّر التشابه المطلق " للكل " ولا يقول كما يقول فلاسفة آخرون إن " الكل " مشابه لشيء آخر غير ذاته . تلك هى النظرية التى يبطلها أنكساغوراس بقوله : إذا كان اللا متناهى مشابها من جهة أن يكون مشابها لمغاير له فمن ثم هما اثنان بل أكثر . وحينئذ لا يوجد بعد لا "واحد" ولا لا متناه . § ١٦ — ولكن قد يمكن أن ميليسوس يعنى هو أيضا أن اللا متناهى مشابه إضافيا لذاته أو يقول بعبارة أخرى إن " الكل " هو متشابه لأن أجزاءه متشابهة بما أن هذا " الكل " هو مع ذلك من الماء أو من الأرض أو من شيء آخر .

§ ١٧ — من البيّن أن ميليسوس مع تسليمه هكذا بالوحدة يرى أن كل جزء من الأجزاء هو نفسه جسم لا يمكن أن يكون لا متناهيا . لأن " الكل "

§ ١٥ — ميليسوس نفسه — ليس فى النص الاسم الظاهر بل هو استخدم ضمير الغائب كما هو الحال فى كل موطن . — هو يقرر — أى ميليسوس ولكن هذا يمكن على سواء أيضا أن ينطبق على مذهب برمينيد كما يرى فى الأبيات التى ذكرت آنفا . — التى يبطلها أنكساغوراس — قد يمكن أن يفهم منه أيضا كما فهم م . ملاخ " التى يؤيدها أنكساغوراس" . وعلى ذلك يكون أنكساغوراس من رأى ميليسوس وبرمينيد ، عوضا عن أنه يبطل رأى الفلاسفة الذين يقررون أن الكل هو مشابه لآخر غيره وهذا فى الواقع شيء واحد . ر . قطع أنكساغوراس لشاوباخ ص ١٠١ . ولكن نظرية أنكساغوراس يظهر أنها ترجع فقط الى العقل لا الى العالم . فان العقل الأعلى لا يمكن فى الحق أن يتغير فإنه دائما مشابه لذاته ولا يمكن أن يكون شبيها لأى ما كان .

§ ١٦ — ميليسوس — التنبيه السابق، أى أن ميليسوس ليس مسمى ها هنا أيضا . — إضافيا لذاته — النص أقل ضبطا : " هل يعنى الشبيه نسبيا إليه " .

§ ١٧ — ميليسوس — كررت ها هنا أيضا اسم ميليسوس كما فعلت فيما سبق ولو لم يكن مذكورا فى النص . — كل جزء من الأجزاء هو نفسه جسم — ر . ماسوف يلى من قطع ميليسوس القطعة ١٦ ،

هو وحده لا متناه . و بالنتيجة أن هذه الأجزاء التى ليست مخلوقة أيضا يصلح بعضها حدودا لبعض على التكافؤ. § ١٨ — ولكن إذا كان "الكل" أزليا ولا متناهيا فكيف يمكن أن يكون "واحدا" مع كونه جسما ؟ ثم إذا كان مركبا من أجزاء متغايرة فاذًا يعترف ميليسوس نفسه بأن "الكل" هو كثير ومتعدّد . ومع التسليم بأنه من الماء أو من الأرض أو من أى عنصر آخر فحينئذ يكون للوجود عدّة أجزاء كما أن زينون يحاول أيضا أن يثبت أن "الكل" يجب أن يكون له أجزاء كثيرة إذا كان هو واحدا على الوجه الذى يدعون .

§ ١٩ — ومتى كانت أجزاؤه متعددة لزم أن يكون بعضها أصغر و بعضها أكبر أعنى مختلفة جدّا الاختلاف حتّى بدون أن يأتى التخالف من زيادة جسم ما أو فقد جسم ما. ولكن إذا كان "الكل" ليس له جسم ولا طول ولا عرض فكيف يكون لا متناهيا ؟ وما المانع إذًا أن يكون بمجموعه كثرة وواحدا بالعدد؟ بل ما المانع أن الأشياء مع كونها هكذا متكثرة وأكثر من واحد أن تكون على عظم غير متناه ؟ § ٢٠ — قد يزعم إكسينوفان أن عمق الأرض وعمق الهواء غير متناه . ولكن

— هو وحده لا متناه — زدت كلمة « وحده » لبيان الفكرة . — يصلح بعضها حدودا لبعض على التكافؤ — ر . ما سبق ف ١٢ .

§ ١٨ — مع كونه جسما — أى أنه بالنتيجة ذو أجزاء مختلفة . — ميليسوس نفسه — اسم ميليسوس ليس مذكورا فى النص الذى ليس فيه دائما إلا ضمير غائب . — كما أن زينون يحاول أيضا أن يثبت — ان ذكر زينون هذا يسمح لنا أن نقدر أن رسالتنا الصغيرة هذه كان ينبغى أن تعرض أيضا لمذهبه على حدة . ر . التحقيق الذى سبق .

§ ١٩ — بعضها أصغر — حتى من غير اختلاف الامتدادات يكفى أن توجد عدة أجزاء لتكون مميزة ولو كانت مع ذلك متساوية تمام التساوى . — من زيادة جسم ما — لا يمكن أن تكون زيادة ولا نقص لأى ما مادام أن المقصود هو "الكل" . — متكثرة وأكثر من واحد — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — على عظم غير متناه — عبارة النص بالضبط "غير متناهية فى العظم" .

§ ٢٠ — قد يزعم إكسينوفان — رأى إكسينوفان هذا مذكور فى كتاب السماء ك ٢ ب ١٣ ف ٧

أميدقل يبطل هذه النظرية إذ يبين فى انتقاده المحكم أنه إذا كانت الأشياء كما يزعمون فمن المحال مطلقا أن تكون البتة .

" إن أسس الكرة والأثير غير الملموس التى كثر ما يكلموننا عنها ليست "
" إلا كلمات فارغات يكررها لسان الحمق بلا داع " .

§ ٢١ — لكن العالم يمكن أن يكون واحدا من غير أن يكون هناك سخف فى افتراض أنه ليس متشابها فى جميع أجزائه . وفى الحق إذا كان العالم كله ماء أو كله نارا أو أى عنصر آخر من هذا القبيل فيمكن جيدا أن يقال بوجود عدّة أشياء ولو أن الموجود يبقى واحدا وأنه يلزم دائما أن يكون كل واحد من هذه العناصر مشابها لذاته . لأنه لا يمكن أن يكون الجزء الفلانى متخلخلا والآخر كثيفا إلا أن يوجد خلو فى باطن المتخلخل . ولكن لا شيء يمنع أنه بالنسبة لبعض الأجزاء يوجد فى المتخلخل خلو منفصل تماما بحيث إن جزءا بعينه من "الكل" يكون كثيفا وآخر بعينه يكون متخلخلا مع أن الكل مع ذلك باق هو ما هو . ولكن لما أن " الكل " ملء فالمتخلخل حينئذ لا يكون أقل امتلاء من الكثيف .

§ ٢٢ — وإذا كان "الكل" غير مخلوق فكيف يمكن أن يستنتج من هذا وحده أنه لا متناه وأنه لا يمكن أن يوجد أيضا واحد بعينه أو آخر يكون متناهيا

ص ١٩٤ من ترجمتنا . فى تلك الفقرة أيضا يذكر أرسطو انتقاد أميدقل ويستشهد بالبيت عينه الذى استشهد به هنا .

§ ٢١ — أنه ليس متشابها فى جميع أجزائه — إن تخالف الأجزاء لا يمنع الوحدة بل قد يكون شرطها . — بوجود عدّة أشياء — أو بعبارة أخرى أن الموجودات متكثرة بما هى موجودات خاصة ، وإن هذا غير مانع وحدة المجموع . — لأنه لا يمكن — يقدّر ملاخ أن هذه هى نظرية ميليسوس التى يبطلها المؤلف ولا شيء فى النص يعزز أو يرفض هذا التقدير . — خلو فى باطن المتخلخل — اضطررت لاستخدام هذه الصيغة لتحصيل كل قوّة النص الاغريقى . — باق هو ما هو — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — لما أن "الكل" ملء — يمكن أن تقدر هنا هذه العبارة «على رأى ميليسوس» على حسب تقدير ملاخ . ر . القطعة ٥ من قطع ميليسوس .

§ ٢٢ — من هذا وحده — يظهر لى أن الرد واضح للغاية وما دام العالم واحدا فيظهر أن من الضرورى أن يكون لا متناهيا . لأنه من المحال على عقلنا أن يفترض له حدودا .

مثله ؟ ولمـاذا يستلزم كونه غير مخلوق التسليم فوق ذلك بأنه واحد وأنه لا متناه بهذا السبب وحده؟ وكيف حينئذ يكون اللامتناهى هو ذلك "الكل" الذى يتوهمونه؟ .

§ ٢٣ — يقول ميليسوس إن الموجود لا متحرك إذا كان ليس ثم من خلو . لأن الأشياء لا تتحرك البتة إلا بأن تتغير بالأين . غير أنه بادئ بدء كثير من الناس من لا يوافقون على هـذه النقطة ومع تسليمهم بوجود الخلو فانهم لا يقبلون أن يكون جسما . يمكن أن يعنى بالأشـياء هنا نحو ما يعنيه بها هيزيود حين يقول فى الخلقة " إنمـا هو العماء الذى ظهر بادئ الأمر " مفترضا بذلك أنه كان يلزم قبل كل شىء أن يوجد محل للموجودات . هـذا هو ما يعنى بالخلو الذى يعتـبر كنوع آنية تكون خالية من وسطها .

§ ٢٤ — على أنه حتى مع عدم وجود خلو فان العـالم يمكن أن يتحرك أيضا على السواء . وإن أنكساغوراس الذى اشتغل أيضا بهذه المسئلة لم يقنع بإثبات أنه لا يوجد خلو بل أثبت فوق ذلك أن الموجودات تتحرك على سواء من غير أن

— ولمـاذا يستلزم — هذا ليس فى معظمه الا تكريرا لمـا سبق . — يتوهمونه — صيغة النص صيغة جمع يمكن أن تعود على ميليسوس وإكسينوفان و پرمينيد وزينون .

§ ٢٣ — يقول ميليسوس — . وهنا أيضا ليس ميليسوس مذكورا بالاسم . — بأن تتغير بالأين — تلك هى حركة النقلة . ولكن حركة الاستحالة يمكن أن تحصل من غير تغير فى الأين . — هيزيود — ر . ماسبق . ب ١ ف ١٣ — فى الخلقة — وأحسن من هذا "فى كون الأشياء" . — العماء الذى ظهر بادئ الأمر — العماء لا يشتبه بالخلو . إنه ، اذا شئت ، عدم النظام ولكن الأشياء موجودة ما دام تدخل العقل ضروريا لتنظيمها . — هذا هو ما يعنى بالخلو — هذا متنازع فيه جدا فان العماء لم يكن ليفهم قط على هذا المعنى .

§ ٢٤ — فان العالم يمكن أن يتحرك أيضا على السواء — أو "أن ذلك لا يمنع حصول الحركة" . — أنكساغوراس الذى اشتغل أيضا بهذه المسئلة — وفى رواية بعض المخطوطات " الذى اشتغل بهذه المسئلة من قبله" . — أنه لا يوجد خلو — ر . الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٨ ف ٣ ص ١٩٤ من ترجمتنا حيث لا يظهر على أرسطو أنه قدر تقديرا حسنا نظريات أنكساغوراس على الخلو كما فعل هنا .

يكون الخلو ضروريا . § ٢٥ — وفى هـذا المعنى عينه قال أمبيدقل إن الأشياء متى تم تركيبها تحركت طوال الزمان من غير أن يوجد ، على رأيه ، ما لا يفيد فى "الكل" ولا أن يوجد خلو كذلك . وفى الحق من أين يمكن أن يحدث الخلو؟ يقول أمبيدقل لأن الأشياء متى تركبت فى صورة واحدة بطريقة أنها تؤلف الوحدة:

" فلا شىء يكون خلوا ولا شىء زائد "

أليس يمكن فى الواقع أن الأشياء تتحرك بعضها فى بعض وأن الكل يكون دائريا ما دام أن الشىء يتغير الى آخر وهذا الآخر الى ثالث . وما دام أن شيئا بعينه يتغير دائما آخر الأمر الى الأول ؟ .

§ ٢٦ — وفوق ذلك لا ينبغى نسيان تغير الصورة هـذا الذى يغير الشىء ولو أنه يبقى فى الحيز عينه ، تغير يسميه فلاسفة آخرون وميليسوس نفسه الاستحالة وإذًا لا شىء مما قال يدفع أن هـذا النوع من الحركة يوجد فى الأشياء حينما تمر من الأبيض الى الأسود أو من المر الى الحلو لأنه ليكن الخلو غير موجود وليكن الملىء لا يمكن أن يقبل شيئا فذلك لا يمنع الاستحالة أن تكون ممكنة .

---

§ ٢٥ — متى تم تركيبها — بواسطة العشق على حسب أمبيدقل وتم افتراقها بعد ذلك بالتنافر . ر . الطبيعة لأرسطو ك ٨ ب ١ ف ٤ ص ٤٥٥ من ترجمتنا . — طوال الزمان — ليس معنى ذلك أبديا ولكن المقصود هنا هو فى مسافة من الزمن فيها السفيروس ينبسط أو ينقبض فى ذاته (ر. تعليقات كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١ ف ١٠) . — يقول أمبيدقل — ر . قطع أمبيدقل البيتين ٩٤ و ١٦٦ من القطع الفلسفية الإغريقية طبعة فيرمين ديدو . — فى صورة واحدة — هـذه عبارة النص بعينها . — فلا شىء يكون خلوا — البيت ليس مذكورا بتمامه فى النص . — وأن الكل يكون دائريا — يظهر جليا أن هـذا هو رأى أمبيدقل فان العشق والتنافر بفعلهما على التناوب يؤلفان تماما شكل دائرة .

§ ٢٦ — وميليسوس نفسه — وليس اسم ميليسوس مذكورا فى هـذه الفقرة أيضا. ر . ما سبق ب ١ ف ١ . — الاستحالة — ر . فى الطبيعة ما يختص بحركة الاستحالة ك ٣ ب ١ ف ٨ ص ٧١ من ترجمتنا وكذلك الكون والفساد ك ١ ب ٤ . — الاستحالة أن تكون ممكنة — حركة الاستحالة بما أنها تقع فى الشىء ذاته لا حاجة لها بحيز جديد كحركة النقلة بل ولا كحركة النمو ذاتها .

§ ٢٧ — وبالتبع فلا ضرورة لأن كلا يكون أزليا وأن كلا يكون واحدا أو لأن "الكل" يكون لامتناهيا . ولاضرورة أيضا لأن يوجد عدّة لامتناهيات ولا وحدة متماثلة فى كل مكان ولاوحدة غير متحركة سواء مع ذلك وجدت الوحدة أو الكثرة .

§ ٢٨ — ومتى سلم هـذا لا يرى شىء فى نظريات ميليسوس يدفع أن الموجودات تتغير ترتيبا وكيفا ما دامت الحـركة هى هكذا فى الوحدة التى تختلف حينئذ بالأكثر و بالأقل والتى تستحيل بطرائق شتى بدون أن ينضم اليها شىء أو اذا انضم اليها شىء فبدون أن يكون هـذا الشىء جسما واذا كانت عدّة أشـياء هى التى تنضم فبدون ألّا تزيد على أن تمتزج بعضها ببعض وتنفصل على التكافؤ .

§ ٢٩ — ولكن الاختلاط ليس فيما يظهر هو الجمع أو التركيب اللذين يتكلم عنهما ميليسوس واللذين بدونهما ربما تنعزل الأشياء فى الحال بل بدونهما لا تظهر الأشياء باستقلالها التام إلا بعد أن يباعد بين بعضها و بين البعض الآخر إذ هى

---

§ ٢٧ — وبالتبع — يظهر أن هذا هو ملخص الاعتراضات السابقة كلها ولكن النتيجة لا يظهر أنها لازمة . — كلا يكون أزليا — كما يزعم ميليسوس . وهذه الجملة التى هى محرفة فى أكثر المخطوطات هى كما أؤديها الآن فى مخطوطة ليبزج وكذلك فى ترجمة فليسيانو كما نبه اليه ملاخ .

§ ٢٨ — فى نظريات ميليسوس — بدلا من الاسم الظاهر ليس فى النص إلا ضمير غير معين والظاهر أنه يكفى قبول حركة الاستحالة ليتهدم دفعة واحدة مذهب ميليسوس فى وحدة الموجود ولا تحركه . — ترتيبا وكيفا — عبارة النص بالضبط "أن تكون الموجودات مرتبة على وجه آخر ولا تكون مستحيلة" . — بالأكثر و بالأقل — مثال ذلك أن تكون أكثر أو أقل بياضا ، أكثر أو أقل سوادا لأن الكلام هنا هو بصدد استحالة بسيطة وليس مقصودا غيرها حتى ولا النمو . — فبدون أن يكون هذا الشىء جسما — والواقع أن فى الاستحالة ليست هنا إضافة ما من أى نوع كان . فان الاستحالة تقع بحركة للوجود داخلية بحتة . — أن تمتزج بعضها ببعض — كما يمكن الكيوف أن تختلط وأن تنفصل على التكافؤ فى موجود واحد أحد بعينه .

§ ٢٩ — اللذين يتكلم عنهما ميليسوس — الملاحظة ها هنا كالملاحظة السابقة فيما يتعلق بذكر اسم ميليسوس الذى لم يذكر اسمه هنا أيضا . والظاهر أن العبارتين المذكورتين فى هذا الممر هى من خصائص لغة ميليسوس الفلسفية . — بدونهما — جملة النص فيها من التحير والتردد ما فى الترجمة وهاك شرحا يمكن

تحاجب ، فى حين أنه يلزم لوجود اختلاط حقيقى أن كل أجزاء الشيء المختلط تكون بحيث لا يمكن حل تركيبها بعـدُ . لكن بشرط أن كل واحد من الأجزاء المخلوطة يكون على وفاق تام مع مجموع الخليط لأنه بمـا أنه لا يوجد جواهر فردة فينتج من ذلك أن كل جزء هو مختلط مع كل جزء كيفما اتفق مشابه مطلقا للكل .

أن ينير الفكرة : "لا يفهم ميليسوس حق الفهم ما هو الاختلاط اذ يسميه جمعا وتركيبا . وهو يظن أنه فى الخليط يمكن عند الارادة عزل الأشياء من جديد فى الحال أو على الأقل عزلها تماما بعد تنقية بها يظهر كل واحد منها على الحالة الخاصة به . وليس الاختلاط هو ذلك أبدا . ولأجل أن يكون حقيقيا يلزم أن تكون الأجزاء فيه مركبة تماما بحيث لا يمكن حل ذلك التركيب وأن كل جزء يكون مشابها مطلقا للكل الذى هو منه . لا يوجد جواهر فردة ومن ثم كل جزء من الخليط هو بالضرورة مشابه للكل الذى هو منه جزء كيفما اتفق" .

— لوجود اختلاط حقيقى — ر . على نظرية الاختلاط ما سبق فى كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١٠ .

— بما أنه لا يوجد جواهر فردة — قد أبطل دائما أرسطو مذهب الجزء الذى لا يتجزأ لديمقريطس . ر . الطبيعة المرجع المذكور قبلا .

مذاهب إكسينوفان

الباب الثالث

نظرية إكسينوفان فى حق الله — الأزلية — القدرة — أحدية الله — يجب أن يتصوّر كأنه فلك — الله منزه عن الحركة والسكون ومنزه عن أن يكون متناهيا ولا لا متناهيا .

§ ١ — هو يقـول إن يوجد من شىء فمحال أن هذا الشىء كان مخلوقا مطبقا هذا فى حق الله ما دام أنه يلزم بالضرورة أن كل ما هو كائن يتكوّن من الشبيه أو من اللاشبيه . وكلا الأمرين غير ممكن ، فإنه بادئ بدء ليس تولد الشـبيه من الشـبيه أولى من أن يلد الشبيه نفسـه لأن هـذا يخالف التضايف المتكافئ الذى بين المتساوين والأشـباه . وثانيا ليس من الممكن أن غير الشبيه يخرج من غير الشبيه . فاذا كان، فى الحق، الأقوى يخرج من الأضعف و إذا كان الأكبر يأتى من الأصـغر والأحسن من الأقبح أو بالعكس الأقبح من الأحسن فيكون حينئذ الموجود يأتى من اللاموجود وهـذا محال قطعا . § ٢ — اذًا يلزم أن يستنتج من كل هذا أن الله أزلى . إذا كان الله هو سيد الموجودات فيلزم، على رأى إكسينوفان،

§ ب ٣ — مذاهب إكسينوفان — لا ريب فى صحة هذا العنوان فان أربعة المخطوطات مخطوطة سان مارك ومخطوطة الفاتيكان ومخطوطة أوربين ومخطوطة باريس تذكره بغـاية الوضـوح . وبعض مخطوطات أ ز ى فيها هذا العنوان الخطأ : "فى زينون" . وان بحث النظريات مثبت قطعا أن الكلام إنما هو بصدد اكسينوفان ر . ما سبق فى "التحقيق" .

§ ١ — هو يقـول — ليس اكسينوفان مذكورا بالاسم هنـا كما كان الأمر فى ميليسـوس ر . ماسبق ب ١ ف ١ . ولم أشأ أن أذكر اسمه فى الجملة الأولى من هذه الرسالة ولكنى سأفعل فيما بعد حتى تكون الفكرة أشد جلاء . — إن يوجد من شىء — هذا الشك ، فيما يرى «برنديس» ، مضاد لآراء اكسينوفان "(comment ationes Eleadicac)" ص ٢٧ ف ١ فهو يرى خطأ أن بداية هذا الباب تكرير لبداية الباب الأول على ميليسوس . — مطبقا هـذا فى حق الله — لا على العالم كما يفعل ميليسوس فيما يظهر . — تولد ... يلد — هذا التكرير هو فى النص . — بين المتساوين — بالكم . — والأشباه — بالكيف . — وثانيا — أضفت هذه الكلمة لزيادة البيان .

§ ٢ — أن الله أزلى — ان اسم الأزلى هو الاسم الخاص لله فى كثير من الأحوال فان الله هـو الموجود بذاته والذى كان موجودا دائما كما أنه يوجد دائما . جاء فى التوراة "أنا الموجود" . و إن فكرة إكسينوفان

أن يكون أيضا أحدا لأنه لو كان فيه اثنان أو عدّة فمن ثم لا يكون إذاً سيد جميع الموجودات ولا أكبرها مادام من ثمّ أن كل واحد من هذه الموجودات المتكثرة قد يكون مطلقا مشابها له تماما . إن ما يحقق اللهَ في الواقع والقدرة الإلٰهية إنما هو أن يتسلط على وجه السيادة ولا يكون مسلطا عليه . أن يكون سيد الجميع وأقدرهم . وبالنتيجة مادام أنه ليس الأقدر فإنه يفقد بنسبة ذلك شيئا من ألوهيته . وإن كانوا عدّة وكان بعضهم أعلى أو أدنى من الآخرين من بعض الوجوه فأولئك ليسوا آلهة بعد . لأن ماهية الإلٰه ألّا يعلو عليه أحد . وإن كانوا عدّة متساوين فمن ثم ليس هذا بعدُ طبع الإلٰه الذي هو أن يكون الأحسن لأن المساوي ليس بالبداهة أقبح ولا أحسن من مساويه .

§ ٣ — ولما كان الله هو حينئذ كما ذكر آنفا لزم ضرورة أن يكون واحدا وإلا لا يمكن أن ينفذ كل ما يشاء . لا يمكنه ذلك مادام فيه آلهة أخر . فيلزم حينئذ أن يكون أحدا § ٤ — ولأنه أحد فهو مشابه لذاته على الاطلاق . يرى من كل جهة ويسمع من كل جهة وعنده جميع الجهات على مقياس واحد . وإلا لزم أن بعض أجزاء الإلٰه تكون حاكمة ومحكومة على التناوب . وهذا ممتنع بيّن الامتناع .

هي ها هنا تلك الفكرة بعينها . — على رأى إكسينوفان — لم يذكر النص اسم إكسينوفان وليس هنا الا اسم إشارة غير معين . ر . ما سبق ف ١ . — أكبرها — عبارة النص بالضبط « أحسنها » . ويلزم أن يلاحظ أن تدليل إكسينوفان هذا متين متانة وجلى جلاء . وقد تقدم بنحو قرن مذاهب سقراط وأفلاطون ويجب الاعتقاد بأنه رشح لتلك المذاهب . وكثيرا ما اتهم إكسينوفان بالشرك ولكن هذا الشرك لا أثر له ها هنا . واذا كان الله مدمجا في العالم فلا محل للقول بأنه المولى والقادر على كل شيء . — لأن ماهية الإله — كما يستطيع عقل الانسان أن يفهمها .

§ ٣ — لزم ضرورة أن يكون واحدا — الأدلة اللاحقة ليست أقل في قوتها من السابقة . فان قدرة الله الكاملة تستتبع وحدانيته . وان الذي حصل هنا هو فكرة إكسينوفان دون عبارته . وقد حاول مللاخ أن يقوّم الأبيات في هذا الموطن وقد قوّم ثلاثة منها ولم يذكرها طبعا في قطع إكسينوفان .

§ ٤ — يرى من كل جهة — كان يمكن المؤلف أن يذكر بيت إكسينوفان بنصه الذي حفظه لنا أيضا « سكستوس أمبيريكوس » "... Adversùs mathematicos physicos ... ..." ك ٩ ف ١١٤ ص ٥٩٦ طبعة ١٨٤٢ ينقد سكستوس أمبيريكوس وصف الإله هذا ويرى أنه لا ينبغي أن يسند اليه إلا حاسة واحدة البصر مثلا .

§ ٥ — ولما كان الله مشابها لذاته مطلقا ومن كل وجه لزم أن يكون فلكيا لأنه ليس كذلك فى جزء بعينه دون أن يكونه فى أى جزء آخر لكنه كذلك فى جميع الأجزاء بلا استثناء .

§ ٦ — ومادام الله أزليا أحدا فلكيا فينتج منه أنه لا يمكن أن يكون لا متناهيا ولا أن يكون متناهيا . فانما اللا موجود هو اللامتناهى مادام ليس له أول ولا وسط ولا آخر ولا أى جزء آخر . وهذا هو اللامتناهى . ولكن الموجود ليس كاللا موجود والموجودات ما دامت متكثرة فانها يحدّ بعضها بعضا على التبادل . فالأحد لا يمكن أن يشبه لا باللا موجود ولا بالموجودات المتكثرة ما دام الأحد لا يحدّه شىء .

§ ٧ — الأحد — الذى إكسينوفان يسميه الله — لما كان كذلك لا يمكن أن يتحرك ولا أن يكون لا متحركا . فان اللاموجود هو فى الحق لا متحرك لأنه لاموجود يأتى فيه ولا هو يمكن أن يذهب فى موجود آخر . ولا حركة إلا متى كانت

---

§ ٥ — أن يكون فلكيا — تلك هى استعارة جاء بها إكسينوفان بعد أن عاب هو نفسه الصور الباطلة التى بها يحاول الضعف الانسانى أن يتمثل بها الله . الله هو الفلك الذى مركزه هو كل مكان والذى محيطه ليس فى أى مكان ر . أفكار باسكال طبعة م . ى . هافيت ص ٣ سنة ١٨٥٢ . — بلا استثناء — قد أضفت هذا القيد . ويذكر ملاخ بحق بفقرة مشابهة لهذه تماما فى كتاب السماء ك ١ ب ١ ف ٥ ص ٥ من ترجمتنا .

§ ٦ — لامتناهيا ...... متناهيا — يظهر على الضد أن معنى اللانهاية يتمشى تماما مع معنى الله فان الأزلى معناه غير المتناهى فى الزمان . والقدير معناه غير المتناهى فى القدرة الخ . — فانما اللا موجود هو اللامتناهى — إنما يكون بمجرد سوء الاستعمال للألفاظ أن يخلط بين اللاموجود واللامتناهى فان اللا موجود ليس الا اللامتعين . وفى اللغة اليونانية المعنيان مندمجان فى كلمة واحدة . — ولا أى جزء آخر — كل هذا هو من البداهة بمكان ما دام أن اللاموجود غير موجود . — يحد بعضها بعضا على التبادل — أو «هى متناهية بعضها بالنسبة للبعض الآخر» . — فالأحد لا يمكن أن يشبه — الا بنفسه . إنه الموجود ما دام أنه الكل وليس هو فى الكثرة مادام أنه الوحدة عينها .

§ ٧ — الذى إكسينوفان يسميه الله — ليس إكسينوفان مذكورا هنا كما أنه ليس مذكورا فى الفقرة الأولى . وقد يكون هذا الرأى هو سبب اتهام إكسينوفان بالشرك . لكن الله يمكن أن يكون أحدا مع تميزه عن العالم . — أن يتحرك ولا أن يكون لامتحركا — فى الواقع أن من العسير تصور أن الله لا متحرك كما هو من العسير أن يتصوّر فى حركة . أما عند أرسطو فانه المحرك غير المتحرك الذى يعطى الحركة للطبيعة بأسرها التى يجذبها اليه وهو باق هو نفسه فى سكون أبدى غير متجزئ ، ليس له أجزاء لا جسمانى الخ

الموجودات أكثر من واحد لأن من الضرورى للحركة أن واحدا يتحرك فى الآخر. ولا يمكن أن يتحرك شىء فى اللاموجود ما دام أن اللاموجود لا يوجد مطلقا فى أية جهة . وإذا كانت الأشياء تتغير بعضها الى بعض فحينئذ يكون الموجود أكثر من واحد .

§ ٨ — فانظر كيف يزعم إكسينوفان أنه يلزم شيئان على الأقل أو أكثر من واحد لكى توجد الحركة ، وأن اللاشىء هو فى سكون ولا متحرك ، وأن الأحد على ضد ذلك لا يمكن أن يكون فى سكون ولا أن يكون فى حركة لأنه لا يشبه اللاموجود ولا الموجودات المتكثرة .

§ ٩ — ومن كل هذه الوجوه فهذا — على رأى إكسينوفان — هو الله أزلى أحد متشابه من كل جهة وفلكى لا لا متناه ولا متناه لا هو فى سكون ولا هو فى حركة .

ر . ك ٨ من الطبيعة الباب الأخير وما بعد الطبيعة ك ١٢ ب ٥ وراجع أيضا قطع إكسينوفان المقطوعة الرابعة التى حفظها "سمپليسيوس" و "تفسير الطبيعة لأرسطو" الورقة ٦ a Fragmenta philosopherum grecorum طبعة فيرمين ديدوص ١٠١ . — فان اللا موجود هو فى الحق لا متحرك — هذا هو تابع لنظريات إكسينوفان كما يدل عليه صوغ الجملة الإغريقية . — لأنه لا موجود يأتى فيه — ما دام أن اللا موجود هو غير موجود . — ولا حركة — عبارة النص ليست على هذا القدر من الضبط . — لأن من الضرورى للحركة — أضفت هذه الكلمات إذ ظهر لى أنها ضرورية . — فى اللا موجود — عبارة النص بالضبط "نحو اللا موجود" . وهو ما يظهر لى قليل الضبط .

§ ٨ — فانظر كيف يزعم إكسينوفان — عبارة النص غير معينة وليس هنا اسم اشارة ولكن صوغ الجملة بصيغة الحال يستتبع أن العبارة هى تحصيل فكرة اكسينوفان . — على الأقل — أضفت هاتين الكلمتين . — اللاشىء — هذا هو لفظ النص بعينه . — لأنه لا يشبه... — قد يكون الدليل غير قوى فيما يظهر بل يمكن أن يعلو الموجودات الى اللا نهاية من غير أن يشبهها بوجه ما .

§ ٩ — على رأى اكسينوفان — الملاحظة عينها التى أبديت فى الفقرة السابقة . فان اكسينوفان لم يسم هنا أيضا ولكن لاشك فى أن الأمر بصدده .

البـاب الرابـع

إبطال نظريات إكسينوفان — استشهاد من ميليسوس — كيف يلزم أن يعنى بقدرة الله — الله ليس فلكيا — إنه لا متناه — وحدانية الله ليست منافية لكونه متناهيا — فى نفى الحركة عن الله — فى الحركة التى يمكن تصورها فى حق الله — استشهاد من زينون .

---

§ ١ — ننبه تنبيها أوّلا ، وهو أن إكسينوفان كميليسوس يفترض أن كل ما يولد و يصير يتولد من الموجود . ومع ذلك فماذا يمنع من أن ما يولد لا يولد لا من الشبيه ولا من اللاشبيه بل يولد من اللاموجود ؟ ولكن الله ليس لا مخلوقا أكثر من الباقى إذا كانت كل الأشياء آتية من الشبيه أو من اللاشبيه . ذلك هو ما لا يمكن . و بالنتيجة إما أنه لا شىء خارج عن الله و إما أن يكون سائر الأشياء هى أيضا أزلية . § ٢ — ولكن إكسينوفان يقبل فوق ذلك أن الله هو المولى . يريد بذلك أن يقول إنه الأقدر والأحسن . ليس هذا مايعتقده العامة و إنهم ليقبلون أن الآلهة فى كثير من الأشياء أعلى بعضها من بعض . على ذلك لم يستعر إكسينوفان هذا الرأى الجرىء من إجماع العامة . ولكن متى قيل إن الله هو القادر على كل

---

§ ١ — كميليسوس — هاهنا ميليسوس مذكور بالاسم وهذا دليل آخر على أن الجزء الأوّل من هذه الرسالة خاص به ر . ما سبق ب ١ ف ١ والتحقيق . — يفترض — عبارة النص هى على هذا المقدار من القوة . — يولد و يصير — ليس فى النص إلا كلمة واحدة . — ولا من اللاشبيه — هذه الكلمات التى ليست فى المخطوطات قد وضعها مللاخ تبعا لترجمة فيليسيانو . — ولكن الله ليس لا مخلوقا — يظهر أن هذا هو رد من أرسطو على مذهب إكسينوفان . ولكن من الجائز أيضا أن يكون ردا من إكسينوفان موجها للنظريات المضادة لنظرياته . — لا شىء خارج عن الله — هذا الرأى هو من الآراء التى يمكن أنها سببت اتهام إكسينوفان بالشرك . "خارج عن الله" هى رواية مخطوطة ليبزج وقد كانت موجودة فى ترجمة فيليسيانو كما نبه اليه مللاخ بحق .

§ ٢ — إكسينوفان يقبل — كذلك ليس هنا اسم إكسينوفان أيضا . — ما يعتقده العامة — أو "مايجب أن يكون معتقدا طبقا للقانون" . — أعلى بعضها من بعض — كذلك الاله "مارس" هو أشد الآلهة حربا وأشجعهم و"زهرة" أجمل الآلهات و"مينرفة" أحكمهم و"أپلون" أعلمهم ... الخ . — لم يستعر إكسينوفان — لم يذكر هنا أيضا اسم إكسينوفان ولكن هذا مدح جميل لمذهبه ولمحمته . فانه كان ضد الآراء الشائعة فى زمانه .

شيء فليس معناه أن هذا هو طبع الله بالنسبة لواحد آخر بل هذا هو شأنه الخاص بالنسبة لذاته . أما فى علاقته مع الغير فمن الجائز تماما أن الله لا يقدر عليه بعلوه وقوته التى ليس لها من شبيه بل بضعف الأغيار . وإنه لا أحد يعنى على هذا الوجه قدرة الله بل يفهم الناس أن الله له بذاته كل ما يوجد من الأحسن وأنه منزه عن النقص أيا كان ، وأن له كل ما هو طيب وجميل . وبهذه الكمالات كلها فله أيضا كمال القدرة الكاملة .

§ ٣ — حقا أنه قد يمكن أيضا التسليم بوجود آلهة متعددة موصوفة بالصفات عينها جامعة بين أكبر الكمالات الممكنة مادام أنها أكبر قدرة من سائر الموجودات دون أن يكون بعضها أقوى من البعض الآخر ولكنه يوجد أيضا على ما يظهر موجودات أخرى غيره . § ٤ — فى الحق هو يزعم أن الله هو القدير ، ويلزم ضرورة أن يكون أقدر من بعض الموجودات ، ولكن بهذا السبب وهو أن الله هو الأحد لا يليق أن يقال إنه يبصر من كل ناحية ويسمع من كل ناحية لأنه ليس لأنه قد لا يبصر من الجزء الفلانى أو الفلانى أنه لا يحسن البصر بل فقط أنه

— بالنسبة لواحد آخر — كل هذا التدليل غاية فى التعمق و يعطى فكرة سامية عن عبقرية إكسينوفان .
— التى ليس لها من شبيه — أضفت هذه الكلمات . — فله أيضا كمال القدرة الكاملة — ليس النص على هذا القدر من الضبط . فإن عبارته فيها ما فيها من الإبهام . ولكن المعنى لا ريب فيه .

§ ٣ — حقا أنه قد يمكن أيضا التسليم — هذه هى بالتقريب كل ملحمة هو ميروس ولو أن آلهة ذلك الشاعر بينها بعض التبعية فان المشترى هو الأكبر والأقوى بينهم جميعا . — موجودات أخرى غيره — أو " موجودات أخرى غيرهم " وقد آثرت تلقاء تردد النص أن أرجع الضمير الى الله عوضا عن الآلهة .

§ ٤ — هو يزعم — حافظت على صيغة النص عوضا عن أن أكرر اسم إكسينوفان . — من بعض الموجودات — هذا هو إصلاح من عند ملاخ وهذا الإصلاح ضرورى ، فيما يظهر ، ولو أنه لاتجيزه أية مخطوطة . ولكن فيليسيانوفى ترجمته كان لديه رواية من هذا القبيل فيما يظهر . — أن الله هو الأحد — كما يدعى إكسينوفان . — من الجزء الفلانى أو الفلانى — ليس النص على هذا القدر من الضبط .

لا يبصر من ذلك الجزء بعينه . بل ربما أيضا حينما يقرر أن الله يحس من كل جهة كان معنى ذلك بالبساطة أنه بهذه الطريقة يكون أيضا أكمل ما دام أنه متشابه فى جميع أجزائه .

§ ٥ — اذا كان الأمر كما قرر آنفا فلماذا يعطى صورة فلك ؟ لماذا لا يكون أولى به شكل آخر مادام أنه يسمع من كل جهة ويرى من كل جهة؟ لأنه كما أننا حين نقول إن الإسبيداج أبيض فى كل نواحيه لا نريد أن نعنى شيئا آخر إلا أن يكون البياض منتشرا فى جميع أجزائه، كذلك ما الذى يمنع حينما يقال إن الله يرى ويسمع ويتسلط من كل مكان أن يفهم أن أىّ جزء من الله كيفما اتفق، له دائما هذه الصفات؟ ولا يلزم لذلك بعدُ أن يكون الله فلكيا كما لا يلزم أن يكونه الإسبيداج.

§ ٦ — وفوق ذلك كيف يمكن أن الله من حيث هو جسم ومن حيث إن له عظما لا يكون متناهيا ولا لا متناهيا ما دام اللامتناهى إنما يقع على ما ليس له حدّ مع

— متشابه فى جميع أجزائه — لا شك فى أن إكسينوفان يريد أن يقول بالبساطة إن الله شاهد فى كل مكان .

§ ٥ — كما قرر آنفا — على حسب نظرية إكسينوفان . — صورة فلك — هذا فى الحق مذهب مضاد لآراء الفيلسوف الذى يعيب الصفات والصور التى يسندها العامىّ الى الآلهة . ذلك هو أيضا قليل الشبه بالمعقول كمذهب المشبهة المعروف . — يسمع من كل جهة — الفلك هو الوحدة وهذا التصوير لا يتفق ومعنى أن الله لا متناه . — إن الإسبيداج أبيض فى كل نواحيه — هذا التشبيه بالإسبيداج ليس منقادا ويظهر عليه نوع من الشطط . — أىّ جزء من الله كيفما اتفق — هذه النظريات ينبغى أن تظهر أشدّ ارتقاء عن الزمان الذى كان يقررها فيه إكسينوفان . ولا يمكن الشك فى أنها نظرياته مع الشهادات التى نقلها لنا الزمن القديم أجمع . — أن يكونه الإسبيداج — راجع ملاحظتنا على التشبيه بالإسبيداج . ومع ذلك فان الفكرة صحيحة فى موضوعها ولو كان فى شكلها شىء من الشذوذ .

§ ٦ — وفوق ذلك — ردّ جديد من المؤلف على نظريات إكسينوفان . — متناهيا ولا لامتناهيا — فى الحق من المحال على عقلنا أن يفهم الله إلا على جهة اللامتناهى . — ما ليس له حدّ — هذا حق ولكن ما سيلى ليس كذلك حقا فإن ما هو قابل لأن يكون له حدود لا يمكن أن يكون أبدا لامتناهيا

قابليته لأن يكون له حدّ؟ فإن الحدّ يجب أن يقع على العظم وعلى العدد وعلى كل كمية أيا كانت بحيث إن عظما لا حدّ له هو يسمى لا متناهيا . § ٧ — ومتى جُعل الله فلكيا فمن الضروريّ أن يكون له حدّ لأن له نهايات ما دام أن له مركزا على أبعد مسافة ممكنة من الحدّ . وإذاً لابدّ له من مركز ما دام فلكيا، إذ أنه يعنى بفلكيّ ما له مركز على مسافة متساوية من النهايات . ولا فرق بين أن يقال إن للجسم حدّا وإن له نهايات .

§ ٨ — اذا كان اللاموجود لامتناهيا فلم لايكون الموجود لامتناهيا كذلك ؟ ما المانع أن يكون للوجود وللاموجود بعض كيوف مشتركة ومتماثلة ؟ فإنه لا يمكن فعلا أن يحس اللاموجود . وكيف يحس ما ليس موجودا . وكذلك يمكن تماما ألّا يحس فعلا ماهو موجود . يمكن قول الاثنين معا وتصوّرهما معا . اللاموجود ليس أبيض ولكن هل ينتج من ذلك وجوب القول بأن كل الموجودات بيض

حتى ولو لم يكن له حدود . وهذا ليس إلا اللا محدد واللا معين . — عظما لا حدّ له هو يسمى لا متناهيا — وربما كان الأولى أن يقال "كما" وحينئذ يكون التعبير أعم .

§ ٧ — ومتى جعل الله فلكيا — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — فمن الضرورى أن يكون له حد — هذا يناقض فكرة لانهاية الله ، وارد شديد القوة . — إذ أنه يعنى بفلكى — هذا فى الواقع هو تعريف الفلك كما هو تعريف الدائرة على السواء بفارق واحد هو مابين الجسم وبين السطح . — حدا ... نهايات — هذا التماثل موجود فى اللغة الفرنساوية كما هو فى اللغة الإغريقية لأنه فى الذهن دون أن يكون فى اللفظ فقط .

§٨ — اذا كان اللاموجود لامتناهيا — هذه الرواية هى التى كانت عند فيليسيانو كما تدل عليه ترجمته وهى الوحيدة التى يمكن قبولها بالنظر الى سياق النص وان كانت لا توجد فى المخطوطات . — بعض كيوف — "أو حالات" عبارة النص غير محررة . — يحس ما ليس موجودا — ظننت واجبا علىّ أن أضيف هذه الجملة . فان هذا التكرير ليس فى النص . — الاثنين — اللذين ينطبقان على السواء على الموجود وعلى اللا موجود . وفى الحق أن ما لا يحس وما لا يدرك بوجه ما هو بالنسبة لنا كأنه لا موجود ولو كان موجودا . إنه بالنسبة لنا هو اللا موجود ولو لم يكنه فى الواقع . — وجوب القول — ليس النص على هذا القدر من السعة .

حتى لا يسند شيء واحد الى الموجود والى اللاموجود ؟ أو لا يمكن أن يوجد بين الموجودات واحد لا يكون أبيض ؟ واذا كان الأمر هكذا على نقيض القاعدة العتيقة أن الموجود لا ينحصر فى أن يكون له أكثر منه فى ألا يكون له فاللا متناهى قد يقبل أيضا سلبا ثانيا . وبالنتيجة فالموجود أيضا يمكن أن يكون لا متناهيا أو أن يكون له حدّ .

§ ٩ — ولكن ربما يكون من غير المعقول أن تلزق اللا نهاية باللاموجود . فانه لا يمكن أن يقال على كل شيء إنه لا متناه لا لشيء إلا لأنه ليس له حدّ، كما أنه لا يقال مثلا على اللاموجود إنه غير متساو . § ١٠ — ولكن بما أن الله واحد فلماذا لا يكون له حدّ ؟ لاشك فى ذلك ولكن لا يمكن أن يكون له حدّ تلقاء إله آخر . اذا كان الله واحدا كله فيلزم أن تكون جميع أجزاء الله لا تكون

— لا يكون أبيض — كما أن اللاموجود لا يكونه كذلك . — سلبا ثانيا — ليس المعنى بين الظهور لأن اللامتناهى ليس هو ذاته سلبا . فانه لا سلب إلا فى اللامحدود واللامعين ، وقد يمكن التدليل من جهات نظر شتى على أن اللامتناهى أقوى وجودا من المتناهى أو بالأولى هو الموجود الحقيق الوحيد . من هذا ترى كيف أن الله هو لا متناه من أى ناحية يعتبره عقلنا الضعيف سواء فى الزمان وفى المكان وفى القدرة وفى العدل وفى الرحمة... الخ . — القاعدة العتيقة — لا أعرف مؤلفا آخر قد ذكر هذه القاعدة . وربما كان لهذا المتن معنى آخر غير المعنى الذى اخترته وقد يعنى به بالبساطة "على ضدّ ما ذكر آنفا" . وكنت أختار هذا المعنى اذا كانت هذه العبارة كررت ولو بجزئها فيما تقدّم . ولكنى لا أراها جلية فيه . — وبالنتيجة فالموجود أيضا يمكن أن يكون لا متناهيا — لا يظهر أن هذه النتيجة لازمة ولكن الفكرة صادقة . فانما الموجود فى الواقع هو اللامتناهى، فى حين أن اللاموجود لا يمكن أن يسمى بهذا الاسم إلا بالنسبة للوجود الذى هو سلب له .

§ ٩ — أن تلزق — يظهر لى أن هذا النوع من الابتذال موجود أيضا فى النص . — اللانهاية — والأحسن : "معنى اللانهاية" . — لا لشيء إلا لأنه ليس له حد — بين أن الفرق كبير جدا بين اللامتناهى واللا محدود . — مثلا — أضفت هذه الكلمة .

§ ١٠ — لاشك فى ذلك ولكن لا يمكن أن يكون له حد . — ليست عبارة النص على هذا المقدار من البيان ولكن الفكرة بينة فيما يظهر ولو أن المخطوطات ليست متفقة الرواية . — تلقاء إله آخر — عبارة النص "تلقاء إله" ومع ذلك فان كل هذا الموطن قد أصلح تبعا لما ارتأى "برانديز" وتبرره ترجمة فيليسيانو .

أيضا إلا وحدة محضة . لأنه لايفهم، إذا كانت الأشياء المتكثرة يحدّ بعضها بعضا بالتبادل ، أنه يلزم على ذلك أن الأحد يكون لا حدّ له . لأن الكثرة والوحدة لها عدّة محمولات متشابهة تماما والموجود مشترك بين إحداهما وبين الأخرى . فقد يكون من الغريب أن يذهب الى إنكار وجود الله، ما دام وجود الكثرة أمرا مسلما، حتى لا يشبه الله الأشياء فى هذا المعنى .

§ ١١ — لماذا الله مع كونه واحدا لا يكون متناهيا ولا يكون له حدود ، كما يقوله برمينيد وهو يعترف لله بالوحدانية حين يشبهه

« بالفلك المستدير تماما والمتساوى فى جميع النقط
ابتداء من المركز ... ... »

فى الواقع أن شيئا يمكن أن يكون له بالضرورة حدّ من غير أن يكون ذلك بالإضافة الى شيء مّا . كما أنه ليس من الضرورى أن ما له حدّ يكون له حدّ إضافى كالمتناهى بالنسبة لغير المتناهى الذى يليه . أن يكون متناهيا إنما هو أن يكون له نهايات، ولكن ما له نهايات ليست له بالضرورة بالنسبة الى شيء مّا . بل يوجد بعض أشياء تكون معا متناهية وملامسة شيئا مّا، ولكن من الأشياء أيضا ما هى متناهية وليست كذلك بالإضافة الى شيء مّا .

— وحدة محضة — فى هذا ما فى الملاحظة السابقة . — الأحد يكون لا حدّ له — ليس هاهنا رواية أخرى ولكن الفكرة ليست جلية البيان ولو أن العبارة ذاتها جلية . فان الموجود مفهوما على جهة الوحدة التى تشمل الكل هو بالضرورة لا متناه . — الكثرة والوحدة — ر . ما سبق ب ٨ حيث الموجود واللاموجود مقارنان أيضا فى هذا المعنى . — وجود الله... وجود الكثرة — هذا التكرار هو فى النص . — فى هذا المعنى — عبارة النص هى كذلك مبهمة . والتناقض المشار اليه هاهنا قد تكرر فى نظريات الإسكندريين وقد ذهبوا فيه الى حدّ إنكار الوجود على الأحد كما كانوا يتصوّرونه مع إثباتهم الوجود للأشياء الجزئية .

§ ١١ — كما يقوله برمينيد — هذا البيت قد ذكره أرسطو بجزئه فى الطبيعة ك ٣ ب ٩ ف ٤ ص ١٢٦ من ترجمتنا . ر . أيضا مقطوعات برمينيد البيتين ١٠٣ و ١٠٤ طبعة فيرمين ديدو . — ابتداء من المركز — أو "من مركزه" هذا هو تعريف الفلك كما تعطيه الهندسة . — من غير أن يكون ذلك بالاضافة الى شيء ما — الظاهر على ضدّ ذلك أن معنى الحدّ يستتبع ضرورة معنى الاضافة . — حدّ إضافى — أو بالإضافة الى شيء ما . — وملامسة شيئا ما — هذا هو معنى المتناهى بعينه . — وليست كذلك بالإضافة الى شيء ما — كان ينبغى أن يذكر المؤلف هذه الأشياء على نحو أضبط من هذا .

§ ١٢ — ومن جهة نظر أخرى القول بأن الموجود والأحد ليسا لا متحركين ولا يتحركان مع ذلك بحجة أن اللاموجود لا يتحرك إنما هو قول من الغرابة بمكان ما سبقه على الأقل . إنه لا تماثل قطعا ، كما قد يمكن أن يظن ، بين أن يقال إن شيئا لا يتحرك و بين أن يقال إنه لا متحرك . فمن جهةٍ إنما هذا هو سلب للحركة على جهة ما يقال على شيء إنه لا يكون مساو يا ؛ وهذا يمكن أن يصدق حتى على اللاموجود ، فى حين أنه من جهة أخرى يقال على شيء إنه لا متحرك لأنه فعلا على حال ما ، كما أنه يقال على شيء إنه لامساو ؛ فهنا السكون هو ضدّ الحركة كما أن على العموم جميع السلوب المكوّنة من همزة الإزالة تنطبق على أضداد . حق أن يقال على اللاموجود إنه لا يتحرك ولكنه ليس حقا أن يقال على اللاموجود إنه فى سكون . كما أنه لا ينبغى أن يقال إنه لا متحرك وهذا ماله المدلول بعينه . ولكن إكسينوفان يستعمل فى حق اللاموجود لفظ السكون و يقول إن اللاموجود هو فى سكون لأنه لا نقلة له .

---

§ ١٢ — ليسا لا متحركين ولا يتحركان مع ذلك — ر. ماسبق ب ٣ ف ٧ ور بما كان يلزم وضع صيغة المفرد موضع صيغة المثنى فان الموجود والواحد متحدان كلاهما . — إن شيئا لا يتحرك وبين أن يقال إنه لامتحرك — فى اللغة العادية لا فرق بين هذين التعبيرين . ولكنه يمكن أيضا تمييزهما كما قد كان ها هنا . فمتى يقال على شيء إنه لا يتحرك فذلك بأن فى طبيعته إمكان التحرك ومتى يقال على ضدّ ذلك : إنه لا متحرك فذلك بما أنه ممتنع الحركة على الاطلاق . — وهذا يمكن أن يصدق حتى على اللا موجود — ولو أن اللاموجود بكونه لا شيئا يمكن أن يوصف بكل كيف أو أن يسلب كل كيف على السواء . — لأنه فعلا على حال ما — العبارة مبهمة ولم أشأ أن أحررها . — كما أن على العموم جميع السلوب المكونة — ربما لم يكن هذا إلا تذييلا أضافه بعض المفسرين . — إنه لا يتحرك — يعنى أنه دائما ينبغى أن يتكلم على اللاموجود بالصيغة السلبية . ومتى يقال على الضد من ذلك " موجود ساكن " و " موجود لا متحرك " فتلكم إيجابات لا يحتملها اللاموجود . وكل ذلك غامض دقيق . — وهذا ماله المدلول بعينه — باعتبار أن لا فرق إلا فى شكل العبارة بعض الشيء . — إكسينوفان — عبارة النص هى " هذا " ر . ب ٣ ف ا و ب ا ف ا .

§ ١٣ — وكما قلنا آنفا قد يكون من الخطأ الجزم — لا لشيء سوى أن محمولا يصلح حمله على المعدوم — بأن هذا القول لا يكون صالحا بعدُ للحمل على الموجود خصوصا اذا كانت الكلمة التى تستعمل لذلك ليست إلا سلبا نحو قولهم : لا يتحرك ولا ينتقل؛ فانى أكرر أن كثيرا من المحمولات ما يجوز حمله أيضا على الموجودات لأنه يوجد اشياء كثيرة لا يصدق عليها القول بأنها ليست آحادا بحجة أن المعدوم ليس واحدا . ثم إنه يوجد أشـياء فيها السلوب بعينها تنتج الأضـداد فيما يظهر . فمثلا من الضرورى أن يوجد إما مساواة وإما لا مساواة ما دام هناك كمّ؛ وأنه كذلك يوجد إما زوج وإما فرد ما دام هناك عدد . وكذلك أيضا يلزم أن يوجد إما حركة وإما سكون ما دام هناك جسم .

§ ١٤ — غير أنه اذا قيل إن الله والأحد لا يتحرك البتة لأن الأشياء المتكثرة تتحرك بعضها نحو البعض الآخر، فما الذى يمنع أيضا أن الله يتحرك بأن يسعى نحو شيء آخر؟ هذا قطعا ليس لأنه ليس إلا الله بل لأنه لا واحد أحد إلا الله . واذا لم

---

§ ١٣ — وكما قلنا آنفا — ر . ما سبق ف ٨ و ف ١٢ . — ليست إلا سلبا — سلبا له بالنتيجة علاقة باللاموجود أكثر منها بالموجود . — أكرر — ر . ما سبق ف ٧ و ٨ . — أيضا على الموجودات — التى يمكن حملها على اللاموجود . — ليسـت آحادا — أى لا تكون وحدة . وكل الأشياء الشخصية هى فى هذه الحالة . — تنتج الأضداد فيما يظهر — قد كان ينبغى أن يقال : «الأضداد أعيانها» كما يظهر أن ذلك ينتج من الأمثلة المضروبة . — إما حركة وإما سكون — هذه النتيجة ليست أقل ضرورة من الاثنين الأخريين . غير أن المقابلة الصريحة لا توجد إلا فى المثل الأول حيث المساواة واللامساواة معبر عنهما بكلمتين أصلهما واحد ولا تختلفان إلا بالسلب وفى المثـل الثانى والثالث الكلمات مختلفة ولها جميعا صورة الإيجاب ولم أستطع فى لغتنا "الفرنسية" أن أحصل هذه الفروق مع شدّة رغبتى فيها .

§ ١٤ — لا يتحرك البتة — قد حفظت صيغة المفرد لأن الله والأحد متحدان . — بأنه يسعى نحو شيء آخر — قد حافظت على تردّد النص ولكن الفكرة ليست صحيحة لأن الله بأنه فى كل مكان لا يمكن أن يتحرك كالموجودات الجزئية نحو مكان لم يكن فيه . — ليس إلا الله — الفكرة تبقى غامضة كالعبارة خصوصا متى اذّكر أن إكسينوفان فيما سبق قد جعل الله على كل شيء قديرا .

يتحرك هو ذاته فما المانع أن أجزاء الله بتحركها بعضها نحو بعض أن يكون الله هو أيضا له حركة دائرية ؟ .

§ ١٥ — لكن على هذا لا يكون بعدُ واحدا كما يعنى زينون إنما هو متعدّد كما قد نبه اليه ؛ لأن زينون يقرّر أن الله جسم سواء جعله هو الكل الذى نرى أو سماه باسم آخر . وإذا كان الله لا جسمانيا فكيف يكون فى الواقع فلكيا ؟ ويلزم أن يكون لا جسمانيا أعنى لم يكن أصلا لكى لا يكون له حركة ولا سكون . وإذا كان جسما فما المانع أن يتحرك كما قد قيل ؟ .

— أجزاء الله — هذا فيما يظهر إدماج الله والعالم كما قد اتهم به إكسينوفان . — له حركة دائرية — باعتبار أن الحركة الدائرية هى وحدها التى يمكن أن تكون لامتناهية وأزلية . ر . الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ص ٥٢٩ من ترجمتنا .

§ ١٥ — زينون — إن ذكر زينون بالصراحة يجيز الاعتقاد ، فيما يظهر ، بأن هذه الرسالة يجب أن يكون لها جزء رابع فيه الكلام على زينون كما أن الكلام فى الثلاثة الأخر على ميليسوس و إكسينوفان وغرغياس ر . ما سبق فى التحقيق . — إنما هو متعدّد — الترجمة الحرفية للنص هى "كثير من الأشياء" . — الذى نرى — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — يكون فى الواقع فلكيا — كما فيما سبق ف ١١ فى بيت برمينيد . — أن يكون لا جسمانيا — هذا هو بالضبط ما يؤيده أرسطو فى الباب الأخير من الطبيعة ف ٢٦ ص ٥٦٩ من ترجمتنا . — كما قد قيل — أو "كما قد قلت آنفا" .

مذاهب غرغياس

الباب الخامس

النظريات الثلاث الأصلية لغرغياس : على الوجود وعلى امتناع العلم وعلى نقل العلم — على النظرية الأولى يجمع غرغياس بين الآراء السابقة — ميليسوس وزينون — بسط مذهب غرغياس فى امتناع الموجود والمعدوم على السواء .

§ ١ — هو يقرر أن لا شيء بموجود حقيقة، وأنه إن يوجد من شيء فهذا الشيء يبقى مجهولا عندنا، وأنه إن يوجد شيء ويمكن لامرئ العلم به فإنه لا يمكن التعبير عنه للأغيار .

§ ٢ — فيما يتعلق بهذا القول الأوّل الذى هو أن لا شيء بموجود حقيقة يؤلف غرغياس بين نظريات فلاسفة آخرين، إذ يقررون أفكارا متناقضة فى أمر الحقيقة كما تظهر لنا . اعتقدوا : هؤلاء أنه لا شيء إلا الوحدة وأن الكثرة ممتنعة؛ وأولئك، على ضدّ ذلك، أن الكثرة وحدها هى الحقيقية وأن الوحدة ليست حقيقية . ذلك بأن بعضهم يرون الأشياء غير مخلوقة والآخرين يرونها مخلوقة .

---

§ ١ — هو يقرر — ر . ما سبق ب ١ ف ١ و ب ٣ ف ١ . غرغياس ليس مذكورا هنا وشأنه فى ذلك شأن ميليسوس و إكسينوفان . ولكن بمخطوطة ليبزج عنوان هذا الجزء من الكتاب : "فى أرسطوطاليس على غرغياس" ولا يمكن أن يكون هاهنا أقل شك فى أمر الفيلسوف الذى يخصه هذا التحليل ر . التحقيق السابق . — لا شيء بموجود حقيقة — ر . فيما سبق ب ١ ما يتعلق بميليسوس وفيما بعد تحليل سكستوس أمپيريكوس لمذهب غرغياس .

§٢ — غرغياس — فى هذه الفقرة أيضا لم يسم غرغياس وليس بها إلا فعل مسند الى ضمير الغائب . — كما تظهر لنا — أو "كما تظهر لهم" . — يرونها مخلوقة — ر . كتاب السماء ك ١ ب ١٠ ص ٨٣ من ترجمتنا .

§ ٣ — يؤلف غرغياس بين هذين الرأيين ليدلل هكذا : " يقول إنه يلزم ضرورة إن كان شيء موجودا أن يكون هذا الشيء لا واحدا ولا كثرة ، وأن تكون الأشياء لا غير مخلوقة ولا مخلوقة . وحينئذ لا شيء بموجود . وإذا كان فى الواقع شيء فيلزم أن يكون إما أحدهما وإما الآخر". فأما أنه لا وحدة ولا كثرة وأن الأشياء ليست لا مخلوقة ولا غير مخلوقة فإنه يحاول إيضاح ذلك إما كميليسوس وإما كزينون بعد برهانه الخاص به إذ يثبت على طريقته أن الموجود واللا موجود لا يوجدان لا أحدهما ولا الآخر. § ٤ — فعنده أنه إذا كان ممكنا أن اللاموجود يكون اللاموجود فيكون اللاموجود ليس بأقل وجودا من الموجود . لأن هذا اللاموجود يكون اللاموجود، كما أن الموجود يكون الموجود؛ بحيث إنه لا يمكن أن يقال على الأشياء إنها تكون بأقوى من أن يقال عليها إنها لا تكون . § ٥ — يقول غرغياس : "إذا كان اللاموجود موجودا فمن ثم لا يكون الموجود بعدُ مقابله لأنه إذا اللاموجود يكون فيلزم أن الموجود لا يكون . وبالنتيجة أنه لا شيء بموجود؛

---

§ ٣ — يؤلف غرغياس — كذلك هنا لم يسم غرغياس . — يقول ... لا واحدا ولا كثرة — ر . ماسيلى . تحليل سكستوس أمبيريكوس فى أوله . — أن يكون إما أحدهما وإما الآخر — قد حفظت عبارة النص فى ترددها كله . وبعبارة أخرى " يلزم أن يكون ما كان إما واحدا أو كثرة . ويلزم أن يكون إما مخلوقا وإما لا مخلوقا " . — إما كميليسوس وإما كزينون — من هذه الفقرة التى قد ذكر فيها ميليسوس وزينون بالاسم يمكن استنتاج هاتين النتيجتين : أولا أن الجزء الأول من هذا الكتاب يتعلق تماما بميليسوس ، وثانيا أن هذا الكتاب ناقص منه جزء كان فيه تحليل آراء زينون كما حللت آراء ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس . ر . التحقيق . — أن الموجود واللاموجود — عبارة النص حرفيا هى "أن الموجود واللاموجود لا يكونان" .

§ ٤ — أن اللاموجود يكون اللاموجود — كل السفسطة تعتمد على فعل " الكون " مسندا الى اللاموجود. ومادام أنه يقال على اللاموجود إنه كائن فيمكن أن يستنتج منه أنه هو والموجود سيان . وتلك هى دقائق غير جدية . وقد أحسن أفلاطون وسقراط فى أنهما سخرا بهذه السفسطة . — أن يقال على — ليس النص على هذا القدر من الصراحة .

§ ٥ — يقول غرغياس — ليس فى النص الا أن الفعل مسند الى ضمير الغائب ولم يسم غرغياس ولكنى اضطررت لإظهاره لبيان الفكرة فى الترجمة . — مقابله — لفظة المقابلة أعم من التضاد . ر .

إلا أن يكون الموجود واللاموجود شيئا واحدا بعينه . ولكن إنما هما فى الواقع شيء واحد ومن ثم لا يوجد شيء . لأن اللاموجود ليس يكون، فالموجود ليس يكون كذلك مادام أنه مماثل للاموجود" . هذا هو تدليل غرغياس حرفا بحرف .

المقولات ب ١٠ ص ١٠٩ من ترجمتنا . — شيئا واحدا بعينه — ويظن غرغياس أنه قد برهن على أنهما متماثلان . — ومن ثم لا يوجد شيء — قد يمكن أيضا أن يستنتج منه أن الكل موجود الموجود واللاموجود على السواء . وتكون هذه النتيجة صحيحة كالأخرى . — حرفا بحرف — أضفت هذا القيد لأحصل قوة النص الإغريق .

الباب السادس

نقض نظرية غرغياس الأولى — شاهد من ميليسوس وزينون — الموجود واللاموجود لا يشتبهان . والحركة هي ممكنة — شاهد من مقالات لوكيبس — نقض نظرية غرغياس الثانية على امتناع العلم . ونقض النظرية الثالثة على امتناع نقل العلم بعد كسبه — إيذان بأن نظريات الفلاسفة القدماء ستدرس بعد دراسة خاصـــة .

---

§ ١ — لا ينتج البتـة من أدلة غرغياس أن لا شيء يوجد . لأنك ترى كيف يدلل على الأشياء التي يحاول إثباتها . اذا كان اللاموجود يوجد أو بعبارة أعم لو أن اللاشيء يوجد فالموجود هو كذلك اللاموجود على السواء .

§ ٢ — ولكن لا يظهر البتة أن الأمر هكذا ولا أن هناك أدنى ضرورة لأن يوجد اللاموجود . كما يكون الحال في شيئين أحدهما يكون حقيقة والآخر لا يزيد على أن يظهر . فيلزم بالضرورة أن يكون أحدهما حقا والآخر ليس كذلك . كذلك من أن اللاموجود لا يوجد لا ينتج أن الاثنين أو أحدهما يجب أن يكونا أو ألّا يكونا . يقول غرغياس : لأن اللاموجود ليس بأقل وجودا من الموجود اذا كان "ليس يكون" هو أيضا شيئا ما . لذلك لا يقال البتة إن اللاموجود يكون البتة بأي

---

§ ١ — أدلة غرغياس — هنا أيضا ليس غرغياس مسمى . وليس في النص كما قد سبق الا فعل مسند الى ضمير الغائب . — يحاول إثباتها — عبارة النص بالضبط : " التي يبرهن عليها " . وقد ظهر لي أن أسلوب عبارتي أفضـــل . — لو أن اللاشيء يوجد — هـــذه عبارة النص نفسها وربما كان الأحسن أن يقال "اذا لم يوجد شيء" . — فالموجود هو كذلك اللا موجود على السواء — يعني أن الموجود هو اللا موجود كما هو الموجود على السواء .

§ ٢ — أدنى ضرورة — أدنى ضرورة للبرهان الذي يلجئ الى الاستنتاج الموجه لجهة أو لأخرى . — لا يزيد على أن يظهر — عبارة النص هي فقط "يظهر" . — من أن اللا موجود لا يوجد — عبارة النص ليست على هذا القدر من الصراحة . — يقول غرغياس — اسم غرغياس ليس مذكورا . — اذا كان "ليس يكون" هو أيضا شيئا ما — التناقض بين بيانا حتى في الألفاظ ولكن السفسطائي ما كان لينظر في الأمر عن كثب هكذا . — لا يقال البتـة — لا أحد إلا السفسطائيين كغرغياس والآخرين يعني

وجه كان . فاذا كان اللاموجود هو فى حالة اللاوجود فحينئذ لا يكون اللاموجود على النحو الذى يكون عليه الموجود لأنه ليس إلا فى حالة اللاوجود بخلاف الموجود فإنه موجود فعلا .

§ ٣ — إذا كان حقا أن اللاموجود قد وجد بطريقة مطلقة فيكون على الأقل عجيبا أن يقال إن اللا موجود موجود . ولكن إذا كان هذا هكذا بالمصادفة فكيف إذًا يكون الحال أبدا بالنسبة للأشياء التى يرجح فى أمرها أن تكون على ألا تكون ؟ لأنه يظهر أن النقيض نفسه قد يمكن أن يكون حقيقيا أيضا .

§ ٤ — اذا كان اللاموجود يكون وكان الموجود يكون أيضا، إذًا فالكل موجود ما دام أن كل ما هو موجود وكل ما ليس بموجود كلاهما كائن من غير فرق، وأنه ليس من الضرورى البتة إذا كان الموجود كائنا أن يكون الموجود غير كائن . عبثا يقال إن اللاموجود يكون والموجود لا يكون فإن ذلك لم يؤثر شيئا فى أن جميع الأشياء موجودة مادام أننا لو صدّقنا ذلك القول لأصبحت الأشياء التى لا تكون كائنة .

البتة بأن يؤتى اللا موجود أقل حقيقة ولا أدنى وجود . — فى حالة اللا وجود — إنما يدور الإبهام على صيغة المصدر مادام أن اللا موجود هو اللا وجود فانه موجود فى الحقيقة كالوجود سواء بسواء .
— على النحو الذى يكون عليه الموجود — الجواب ليس قاطعا .

§ ٣ — قد وجد بطريقة مطلقة — أى على حد سواء هو والموجود ذاته . — عجيبا — ربما كان فى الأسلوب الإغريقى نوع من التهكم يناسب فى الواقع كل المناسبة الرد على هذه الدقائق . — فى أمرها أن تكون على ألا تكون — هذا بين بذاته ولكن غرغياس إذاً ينال الظفر وقد استنتج منه أن لاشىء بموجود . فالدليل حينئذ مزدوج الغاية فانه يمكن أن يستنتج منه الوجود كما يستنتج منه اللاوجود سواء بسواء . — النقيض نفسه — يعنى "نقيض ما يقال هو أيضا حقيق كالذى يقال" .

§ ٤ — اللا موجود يكون — كما يزعم غرغياس . — كلاهما كائن — احتفظت بعبارة النص إن لم تكن قطعية فان اللا موجود حقيقة كالموجود فان السلب صادق كالإيجاب سواء بسواء . — من غير فرق — أضفت هذه العبارة التى تؤخذ من أسلوب النص . — ليس من الضرورى البتة — من حيث إن فى نظريات غرغياس، المتناقضات صادقة على السواء وأن الأمر وضده يمكن إقامة الدليل عليهما أحدهما كالآخر .
— لو صدقنا ذلك القول — عبارة النص هى "على حسب تدليل هذا" يعنى غرغياس .

§ ٥ — ولكن إذا كان "يكون ولا يكون" شيئا واحدا فمن ثم لا يمكن أن يقال بعدُ على شيء إنه يكون كما لا يمكن كذلك أن يقال عليه إنه لا يكون . لأنه كما أن غرغياس يقرر أنه إذا كان اللاموجود والموجود هما شيئا واحدا، فالموجود ليس يكون بأشدّ وجودا من اللا موجود بحيث ينتج أن لا شيء بموجود . كذلك يمكن أن يؤيد العكس أن الكل موجود لأنه لما أن اللا موجود هو كالموجود تماما فيستنتج منه أن الكل موجود بالحقيقة .

§ ٦ — بعد هذا الدليل هو يقيم دليلا آخر يقول : إن يوجد من شيء فإما أن يكون هذا الشيء لامخلوقا وإما أن يكون مخلوقا . فاذا كان لا مخلوقا فهو لامتناه، على ما يفترض غرغياس بحسب مبادئ ميليسوس . ولكن اللامتناهي ليس في مكان ما، ما دام أنه ليس فى نفسه ولا فى غيره، وحينئذ يكون إذًا لا متناهيان أو عدّة لا متناهيات هذا الذى فى الآخر وذاك الذى الآخر فيه . ولما لم يكن فى مكان ما فهو لا شيء، على حسب أدلة زينون على حيز الموجودات . وبهذه الأدلة يستنتج غرغياس أن الموجود لا مخلوق .

---

§ ٥ — شيئا واحدا — يعنى فى النظرية التى يعنى المؤلف بإبطالها . — أن يقال بعد — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . — كما أن غرغياس يقرر — عبارة النص هى "هذا" . — إذا كان اللاموجود والموجود هما شيئا واحدا بعينه — هذا هو أساس سفسطة غرغياس . — أن لا شيء بموجود — وبعبارة أخرى أن لا شيء موجود لا صادقا ولا كاذبا . — العكس — أو بعبارة أخرى " بعكس القضية " — أن الكل موجود بالحقيقة — النص ليس على هذا القدر من السعة . ر . ما سيلى فى تحليل سكستوس أمبيريكوس .

§ ٦ — على ما يفترض غرغياس — كذلك هاهنا ليس غرغياس مذكورا بالاسم . — ميليسوس — ميليسوس مذكور بالاسم صراحة ر . ما سبق ب ٥ ف ٣ والتحقيق السابق . — ولكن اللامتناهى ليس فى محل ما — وبما هو ليس فى مكان فيستنتج منه أنه ليس موجودا البتة كما سيذكر فيما سيلى . — زينون — ر . ما سبق ب ٥ ف ٣ . — على حيز الموجودات — زدت المضاف اليه الأخير . راجع فيما يتعلق بنظرية زينون الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٣ ف ٦ ص ١٤٦ من ترجمتنا و ب ٥ ف ١٠ ص ١٦١ . — يستنتج غرغياس — ليس غرغياس مذكورا بالاسم والنص ليس على هذا القدر من البيان . ر . ما سيلى تحليل سكستوس أمبيريكوس حيث هذا التدليل على بسطة من البيان .

§ ٧ — ولكن الموجود لا يمكن كذلك أن يكون قد خلق . فانه لا يمكن في الواقع أن يكون قد خرج من الموجود ولا من المعدوم . لأنه إذا كان الموجود يسقط وهو مخلوق فلم يكن إذًا الموجود، كما أن اللاموجود لا يكون بعدُ اللاموجود من وقت أن يصير شيئا ما . ومن جهة أخرى الموجود لا يمكن أيضا أن يأتى من اللاموجود ؛ لأنه إذا كان اللاموجود لا يكون فممتنع من ثم أن أيًّا كان يتولد من لا شيء . و إذا كان بالمصادفة اللاموجود يوجد فإن الأسباب التى تجعل الموجود لا يأتى من الموجود هى عينها تجعله لا يأتى أيضا من اللاموجود الذى هو كائن .

§ ٨ — فاذا كان حينئذ من الضرورى، ما دام أن شيئا ما موجود، أن هذا الشيء يكون لا مخلوقا أو مخلوقا وأن كلا الأمرين ممتنع، فيلتج منه أنه ممتنع أيضا أن يوجد أىّ شيء ما .

§ ٩ — يقول غرغياس : زد على هذا أنه إذا شيء يوجد فيلزم أن يكون هذا الشيء واحدا أو كثرة . فاذا لم يكن لا واحدا ولا كثرة فينتج منه ألّا يوجد شيء . ذلك الشيء لا يمكن أن يكون واحدا، لأن "الواحد" يجب أن يكون لا جسمانيا

---

§ ٧ — لا يمكن كذلك أن يكون قد خلق — أو "أنه قد صار" هذا هو الجزء الثانى من تدليل غرغياس . — فانه لا يمكن فى الواقع — على حسب تدليل غرغياس . — يسقط — هذه هى عبارة النص بعينها ؛ فإن الموجود ليصير يجب أن يفقد كرامة الوجود و يبتدئ فى ألا يكون بعد ليصير شيئا ما . — اللاموجود لا يكون بعد اللاموجود — ولكن يظهر ها هنا أن اللاموجود عوضا عن أن يسقط فهو يسمو بوجه ما ليصير شيئا ما . وتلك دقائق لفظية . — أيا كان يتولد من لا شيء — هذا هو مبدأ ميليسوس. ر . ب ١ ف ١ — بالمصادفة — أضفت هذه الكلمة .

§ ٨ — لا مخلوقا أو مخلوقا — ر . ما سبق ف ٦ وقد اضطررت الى استعمال لا مخلوق ومخلوق لأنى لم أجد خيرا منهما فى لغتنا (الفرنسية) ولكنهما لا تحصلان بالضبط معنى الكلمات اليونانية . فان شيئا إذا صار فذلك بأنه ليس أزليا وبالأقل من جهة أن يصير وأن يتغير بالنتيجة . فاذا كان على الضد أزليا فما كان ليصير بل يبقى هو ما هو . — ممتنع ... ممتنع — هذا التكرير هو فى النص . ر . فيما سيلى هذا التدليل مبسوطا بأكثر من ذلك فى تحليل سكستوس أمبيريكوس .

§ ٩ — يقول غرغياس — النص لا يذكر غرغياس بالاسم وليس به إلا فعل مسند الى ضمير

واللاجسمانى هو لا شىء ، كما يقول غرغياس متبعا فى ذلك رأيا يقـرب كثيرا من رأى زينون . و بمـا أن الموجود لا واحد، فإنه ليس أيضا كثرة من باب أولى . ولكن الموجود بمـا هو لا واحد ولا كثرة فهو غير موجود البتة . و بالنتيجة يقول غرغياس أيضا : إذا كان كذلك فما هو إلا لا شىء . وفى الواقع اذا لم يكن لا واحدا ولا كثرة فانما هو ليس أيا كان .

§ ١٠ — يزيد على ذلك : لكن لا شىء ليس فى حركة ؛ لأنه إذا كان الموجود فى حركة فلا يكون بعدُ هو ما هو . وحينئذ الموجود لا يكون بعدُ واللاموجود يصير شيئا . وفوق ذلك بما أن الموجود يتحرك وينقطع عن أن يكون متصلا بانتقاله فعلى هذا المعنى هو لا يكون بعدُ . وبالنتيجة إذا كان متحركا فى جميع أجزائه فهو منقسم فى جميعها على الإطلاق، وإذا كان هكذا فليس موجودا البتة . وفى هذا الصدد يقول غرغياس : إن الموجود هو ناقص من جهة ما هو منقسم — وهو يتكلم على التجربة عوضا عن أن يتكلم على الخلو كما كتبه لوكيبس فيما يسمى بمقالاته .

الغائب . ر . فيما يتعلق بهذا الدليل الجديد تحليل سكستوس أمبيريكوس . — يقول غرغياس — ليس فى النص اسم غرغياس . — رأى زينون — ر . ما سبق آنفا ف ٦ و ب ٥ ف ٣ . — يقول غرغياس أيضا — لم يسم هنا أيضا .

§ ١٠ — لا شىء ليس فى حركة — هذا الجزء من تدليل غرغياس ليس موجودا فى تحليل سكستوس أمبيريكوس . وربما كانت هذه الأدلة ضد الحركة متعلقة بزينون أكثر من تعلقها بغرغياس . ولكن لا شىء فى النص يدل على أنه يلزم نسبتها هنا الى زينون . — فلا يكون بعد هو ما هو — لأن الحركة تقتضى دائما تغيرا . — وحينئذ الموجود لا يكون بعد — اذا كان الموجود لا ينعدم بكله فبالأقل يفقد منه جزء ويكون هو الذى يصير غير ما كان . — وينقطع عن أن يكون متصلا — لا يرى لأى شىء يمكن أن يكون هذا لازما فإن الموجود يمكن ألا يفقد شيئا من اتصاله بنقلته . — فى جميع أجزائه — عبارة النص ليست بينة جد البيان . — يقول غرغياس — ليس فى النص هنا أيضا اسم غرغياس . — لوكيبس فيما يسمى بمقالاته — يظهر أن المؤلف ، كما نبه اليه ملاخ ليس هنا واثقا من كتاب لوكيبس . ر . قطع ديمقريطس لملاخ ص ٣٧٤ ، يقـول ديوجين اللايرتى ب ٩ ف ٤٦ طبعة فيرمين ديدوص ٢٣٨ إن تيوفراسط كان ينسب إلى لوكيبس كتابا معنونا "نظام العالم الكبير" الذى كان المعتقد دائما أنه لديمقريطس . ر . أيضا فيما سبق آراء لوكيبس على الخلو فى كتاب الكون والفساد ك ١ ب ٨ ف ٥ ص ٨٩ وقد يظهر جليا على حسب هـذه الفقرة الأخيرة أن لوكيبس كان قد كتب بعض مؤلفات يظهر أن المؤلف قد استخلص منها ما يقوله هنا .

§ ١١ — يظن غرغياس أنه فى هذا قد وفّى البيان حقه . يقول : إذا ثبت حينئذ أن لا شىء فالكل حينئذ يعزب عن علمنا . فلم يبق بعدُ من ثم إلا ما يُتصوّر . واللاموجود ما دام أنه غير كائن فـلا يمكن البتـة تصوّره . ومتى كان هـذا كان من المحال ، على رأى غرغياس ، ألّا يكون هنـاك شىء باطـل بل لا يكون خطأ أن يقال مثلا : إن "العربات تدرج على أمواج البحر" لأن كل هـذا حق كما أن نقيضه حق . § ١٢ — ولكن كيف توجد الأشياء التى ترى أو التى تسمع بهـذا السبب وحده وهو أن يُتصوّر كل واحد منها ؟ فاذا لم يكن ذلك هو السبب الذى يجعلها تكون ، و إذا كانت الأشـياء التى نتصوّرها لا توجد من أجل ذلك أيضا ، فهل للأشياء التى نشاهدها وجود أدخل فى باب الحقيقة والفعل من الأشـياء التى نتصوّرها؟ . § ١٣ — فى الواقع ، كما أنه ممكن جدّا أن كثيرا من الناس يشاهد الأشياء فكذلك من جهة أخرى كثير من الناس يتصوّرها أيضا . فالأشياء الذهنية هى إذاً على الاطلاق مثل الأشياء الخارجية . ولكنه لا يدرى أىّ الفريقين هو الحقيقىّ . و بالنتيجة إن يوجد من شىء فمن المحال أن تكون الأشياء معلومة لنا .

---

§ ١١ — غرغياس — ليس غرغياس مذكورا هنا أيضا بالاسم . — فالكل حينئذ يعزب عن علمنا — هـذه هى النظرية الثانية لغرغياس . ر . ما سبق ب ٥ ف ١ وتحليل سكستوس أمبير يكوس . — فلم يبق بعد من ثم — ليس النص على هذا القدر من البيان . — فلا يمكن البتة تصوره — وغرغياس مع ذلك يتصور اللاموجود ما دام أنه يتكلم عنه . وكل هذا مبسوط فى تحليل سكستوس أمبير يكوس . — على رأى غرغياس — كذلك لم يسم هنـا . — العربات تدرج على أمواج البحر — ر . فيما يلى تحليل سكستوس أمبير يكوس حيث هذا المثل مذكور ومضاف إلى مثل غيره .

§ ١٢ — ولكن كيف — قد احتفظت بصيغة النص . ولكن من البين أن الجملة هنا غاية فى الإيجاز وأن الفكرة ليست مبسوطة البسط الكافى . وتحليل سكستوس أفضل فى هذا الموطن . — لا توجد من أجل ذلك أيضا — لأننا نبصرها وفى هذا مجاوزة باللا أدرية إلى مدى بعيد . ولكن تلك كانت هى عادة السفسطائيين إذ يلذ لهم أن يقتحموا الذوق العام .

§ ١٣ — هى إذا على الاطلاق مثل الأشياء الخارجية — ليس النص على هذا القدر من الصراحة . والتعبير الإغريقى أعم ولكن المعنى بين الجلاء . — ولكنه لا يدرى — تلك سفسطة محضة لأنه فى هذا الخصوص ، اللا أدرى لا يتردّد أكثر من العامى و يعتقد حقيقة إدراكاته . — و بالنتيجة — النتيجة ليست لازمة . وفى تحليل سكستوس هذا الدليل أقوى وأمتن دون أن يكون بالغا حد القوّة .

§ ١٤ — يقول غرغياس : حتى مع التسليم بأنها معلومة لنا فهل يمكننا أن ننقل التعبير عنها إلى الغير ؟ كيف يمكن الإنسان أن يعلم غيره بطريق الكلام ما قد شاهده هو بالنظر؟ وكيف يمكن الإنسان لمجرد سماعه شيئا أن يفهمه جليا اذا لم يكن قد رآه؟ وفى الواقع كما أن النظر لا يدرك الأصوات كذلك السمع لا يسمع الألوان ولا يسمع إلا الأصوات ؛ فالذى يتكلم يتكلم كلاما ولا يتكلم لونا ولا أىّ شىء آخر أيا كان . § ١٥ — لكن كيف يمكن أن يلتمس المرء فى كلام الغير شيئا لم يكن هو نفسه قد تصوّره ؟ هل يتفق بالمصادفة أن توجد دلالة أخرى ، تعطيك فكرة الشىء إن لم يكن لونه حينما يرى وصوته حينما يسمع ؟ لأن المبدأ هاهنا على رأى غرغياس ليس هو لا الصوت ولا اللون بل هو مجرّد الكلام . فلا يفتكر الإنسان لونا بل يراه ولا يفتكر صوتا بل يسمعه .

§ ١٦ — لنفترض ، إذا شئت ، أن ذلك ممكن وأن الذى يتكلم يعلم الشىء وعند الحاجة يمكنه أن يعرفه فكيف أن الذى يسمع الكلام يكون موقنا بأنه يفهم الشىء بعينه على هذا النحو ؟ لأنه ليس ممكنا أن يكون الشىء بعينه فى آن واحد فى كائنات عدّة

§ ١٤ — حتى مع التسليم — مناقشة النقطة الثالثة . ر . ما سبق ب ٥ ف ١ ، وتحليل سكستوس أمبيريكوس . — يقول غرغياس — ليس فى النص إلا فعل مسند إلى ضمير الغائب . — لا يدرك الأصوات — قد كان الأحسن أن يقال : «لا يرى الأصوات» ولكنى اتبعت النص الذى يتخذ تعبيرا عاما كالذى اتخذته . — فالذى يتكلم يتكلم كلاما — هذا التكرير فى النص .

§ ١٥ — أن يلتمس — هذه هى عبارة النص بعينها . — بالمصادفة — أضفت هذه الكلمة لبيان الفكرة . — دلالة أخرى — ليس النص على هذا القدر من الضبط . — على رأى غرغياس — ليس غرغياس مذكورا بالاسم هنا . وأن المعنى الذى أختاره فى ترجمتى هو الأحسن فيما يظهر لى . ولكن يمكن أن تفهم هذه النقطة على وجه آخر : «الذى يتكلم لا يتكلم لا الصوت ولا اللون إنه لا يتكلم إلا الكلام» ولا يكون هذا إلا تكريرا لما قيل آنفا ، وهذا هو الذى حملنى على اتخاذ المعنى الذى اخترته .

§ ١٦ — وعند الحاجة — أضفت هذه العبارة . — أن يعرفه — «أن يقرأه» متى كان مكتوبا . — يكون موقنا — عبارة النص «يفهمه» . — أن يكون الشىء بعينه فى آن واحد — هذا يقتضى أن يكون الشىء حقيقيا فى الذهن كما هو فى الخارج وهذا ما قد ذكر فيما سبق . وعلى حسب هذه النظرية يمكن

وفى كائنات منفصلة لأنه حينئذ يكون الشيء الواحد عدّة . يقول غرغياس : ولكن شيئا واحدا ولو كان فى آن واحد فى عدّة أذهان وكان فيها هو بعينــه فلا شيء يمنع أنه يظهر متماثلا عنــد جميع الأشخاص الذين هم أنفسهم ليسوا متمــاثلين فى الظاهر والذين هم ليسوا على استعداد واحد بعينه . § ١٧ — لنسلم أيضا أنهم فى استعداد واحد أفلا يكونون إذًا آثنين بالأقل أو عدّة؟ ولكن الشخص بعينه ليس له فى الوقت الواحد إحساسات متشابهة فإن سمعه و بصره يعطيانه إحساسات مختلفة ، والإحساسات التى به فى الحال هى مغايرة لإحساسات سابقة . فباطل إذًا أن تظن أن غيرك يمكن أن يكون له إدراكات شبيهة بإدراكاتك فى أىّ شيء كان . § ١٨ — على هذا لا يمكن العلم بشيء ما مع التسليم بوجود شيء ما . خصوصا أنه لا يمكن البتة للإنسان أن يعــلم غيره ما يعلم هو ؛ لأن الأشياء ليست أقوالا وأنه لا شخص يمكنه البتة أن يفهم بالضبط ما يفهمه شخص آخر .

§ ١٩ — كل هــذه المسائل المحيرة قد أثارها فلاسفة آخرون أقدم عهدا . وسندرس هذه النظريات عند البحث الذى سنعقده لمذاهبهم المختلفة .

أن يقال على الشيء إنه محال لا لشيء إلا لأنه معا فى عدة أحياز أو موجودات . ومع ذلك ففى الفــكرة شطط . — الشيء الواحد — عبارة النص «الواحد» . — يقول غرغياس — لم يذكر فى النص اسمه . — فى الظاهر — زدت هذه العبارة . — على استعداد واحد بعينه — عبارة النص غير محدّدة .

§ ١٧ — أفلا يكونون إذا اثنين — ليس المعنى بينا وقد حاولت أن أبينه باضافة كلمة "بالأقل" . ومع ذلك يظهر لى أنه يمكن قبول سلسلة هذه المعانى التى هى مؤتلفة التناج بعضها مع بعض . — فى الوقت الواحد — عبارة النص هى كالعبارة المذكورة فى الفقرة السابقة ولكنه يكملها بأن أضاف اليها كلمة الوقت التى ربما يلزم أن تكون مقدّرة فى الفقرة السابقة .

§ ١٨ — على هذا لا يمكن العلم بشيء ما — ملخص نظرية غرغياس . ر . ما سبق ب ٥ ف ١ . — مع التسليم بوجود شيء ما — النقطة الأولى التى كان ينكرها غرغياس الذى هو من التبصر واللاأدرية بمكان .

§ ١٩ — أقدم عهدا — من غرغياس . وربما عنى هيرقليدس الآفيزومى . — الذى سنعقده — ليس النص على هذا القدر من الصراحة ولكن يظهر أنه يعد بكتاب آخر بعد هذا .

قطع من ميليسوس

١

قال سمبليسيوس فى شرحه كتاب الطبيعة لأرسطو (الورقة ٢٢) : فلننظر إذاً الى أدلة ميليسوس وهو الأول الذى أنحى عليه أرسطو . إن ميليسوس معتمدا على مبادئ الطبيعيين[1] فى كون الأشياء وفسادها، يبدأ كتابه بالعبارات الآتية :

«إن لم يوجد شىء كيف يمكن بأى حال اعتبار هـذا اللاشىء كأنه شىء ما ؟
«إن كان يوجد شىء ما فهذا الشىء إما مولود و إما أزلى . فان كان مولودا وكان قد
« كوّن فهو لا يمكن أن يأتى إلا من الموجود أو من اللاموجود. ولكن ليس ممكنا أن
«ما ليس شيئا ، وبالأولى ما هو موجود على الاطلاق، يمكن البتة أن يأتى مما ليس
«موجودا . كما لا يمكن أيضا أن يأتى مما هو موجود لأن الموجود حينئذ يكون قد وجد
«ولم يكن به من حاجة الى أن يصير وأن يوجد . إذاً الموجود لا يمكن أن يصير
«و إذاً فهو أزلى . ومن جهة أخرى الموجود لا يمكن أن يفسد؛ لأنه ليس ممكنا أن
«الموجود يتغـير إلى لا موجود . وتلك هى نقطة يوافق عليها الطبيعيون . ليس
«ممكنا أيضـا أن الموجود يتغير الى اللاموجود لأنه بهذه الطريقة أيضا الموجود
«يبقى ولا يفسـد . على ذلك فالموجود ما كان ليمكن أن يولد وإنه لن ينعـدم ؛
«فقد كان وسيكون أبدا» .

٢

سمبليسيوس . المرجع السابق .

« لكن إذا كان ما قد ولد له أوّل فالذى لم يولد ليس له أوّل . فاذا كان الموجود
« ليس مولودا فلا يمكن أن يكون له أوّل كذلك . ويمكن أن يزاد على ذلك أن ما قد
« فسد له آخر، ولكن إذا كان شىء غير قابل للفساد فليس له آخر ممكن . إذاً فالموجود
« بما هو غير قابل للفساد ليس له من آخر. وما ليس له لا أوّل ولا آخر هو بهذا عينه
« لا متناه . و إذاً فالموجود لا متناه » .

(١) الطبيعيون . هم فلاسفة مدرسة يونيا . ر. الطبيعة لأرسطو ك ١ ب ٢ ف ١ ص ٤٣٣ من ترجمتنا .

٣

سمبليسيوس . المرجع السابق .

« إذا كان الموجود لا متناهيا فهو واحد . لأنه إذا كان موجودان فلا يمكن
« أن يكونا لا متناهيين ما دام أنهما يحدّان بعضهما بعضا . وبما أن الموجود هو
« لا متناه فالموجودات لا يمكن أن تكون كثرة . وإذًا فالموجود هو واحد » .

٤

سمبليسيوس . المرجع السابق .

« إذا كان الموجود واحدا فهو بالتبع لامتحرك . لأن الموجود بما هو واحد هو
« على الدوام مشبه لذاته . الموجود بما هو باق على الدوام شبيها لذاته لا يمكن أن ينعدم
« ولا أن ينمو ولا أن يتغير ولا أن يتأثر ولا أن يضمحل . فاذا كان يعانى أدنى
« واحد من تلك التأثرات فلا يكون بعدُ واحدا . لأن موجودا يعانى حركة من
« أىّ جنس كان يتغير من حالة مّا إلى أخرى . والموجود لا يمكن أن يكون شيئا إلا
« الموجود . وبالنتيجة الموجود لا يمكن أن يكون له حركة » .

٥

سمبليسيوس . المرجع السابق .

« ومن جهة أخرى لا شيء من الموجود يمكن أن يكون خلوا لأن الخلو ليس شيئا .
« واللاشيء لا يمكن أن يكون . وإذًا فالموجود لا يتحرك . لأنه ما دام أنه لا خلو
« فلا مكان فيه يمكنه أن يتحيز . ولكن ليس ممكنا أن يدخل الموجود فى ذاته
« ما دام أنه يلزم على ذلك إذًا أن يكون أكثر تخلخلا أو أكثر كثافة مما هو . وهذا
« ممتنع لأن المتخلخل لا يمكن أن يكون مليئا كالكثيف وما هو متخلخل هو أشدّ
« خلوا مما يمكن الكثيف أن يكونه . إذًا الخلو لا يوجد . للحكم على الموجود
« أهو ملء أم لا فذلك يمكن معرفته بأن ينظر هل هو يمكنه أو لا يمكنه أن يقبل
« فى ذاته شيئا مّا . فان لم يقبل فذلك بأنه ملء . وإن يقبل فذلك بأنه ليس مليئا .

« لكن إذا لم يكن خلو فمن ثم كل شيء ملء. وإذا كان الكل مليئا فلا حركة بعدُ .
« لأنه ليس ممكنا أن تقع الحركة فى الملء كما نقوله حين نتكلم على الأجسام . وأخيرا
« فالموجود الذى هو الكل لا يمكن أن يتحرك فى الموجود ما دام أنه لا شيء خارج
« عنه، ولا فى اللاموجود ما دام اللاموجود ليس موجودا » .

٦

سمپليسيوس . الورقة ٣٤

« لإثبات أن الموجود لا يمكن أن يكون قد خلق يعتمد ميليسوس على هذه القاعدة
« العامة : ماقد كان قد كان دائما و يكون دائما . لأنه إذا كان قد ولد فى لحظة ما ،
« فيلزم أنه لم يكن شيئا قبل أن يولد . فإذا لم يكن شيئا حينئذ فقد كان من
« الممتنع أن شيئا يولد من لا شيء » .

٧

سمپليسيوس . الورقة ٧، ٩، ٢٣ .

« قد وجه نقد الى ميليسوس هو أن لفظ البداية متعدّد المعانى . فعوضا عن
« أن يأخذ البداية بالإضافة إلى الزمان الخاص بالموجود الكائن أخذ البداية بالإضافة
« الى الشيء تلك البداية التى لا يمكن أن تنطبق على الأشياء التى تتغير دفعة واحدة .
« فلقد رأى ميليسوس، حتى قبل أرسطوطاليس ، أن كل جسم متناه مع أنه أزلىّ
« ليس له إلا قوة متناهية وأن هذا الجسم معتبرا فىّ ذاته فهو دائما على حدّ الزمان
« ... ... بحيث إنه بما أن له من جهة العظم بداية ونهاية يجب أن تكونا
« كلتاهما له على السواء بالإضافة الى الزمان . وعلى التكافؤ : ماله بداية ونهاية بالإضافة
« إلى الزمان لا يمكن معا أن يكون الكل. ومن أجل ذلك يسند ميليسوس برهانه إلى
« البداية والنهاية مطبقتين فقط على الزمان . ولا يسمى بلا بداية وبلا نهاية ما ليس الكل .
« يعنى ما ليس معا العالم أجمع . وهذا لا ينطبق إلا على الأشياء التى لا أجزاء لها

« وغير المتناهية فى وجودها ، وينطبق على الخصوص على الموجود المطلق ما دام
« الموجود المطلق هو بالضبط الكل . وهاك مع ذلك أقوال ميليسوس أعيانها :

« على ذلك ما لم يكن قد كُوِّن فهو كائن دائما وقد كان دائما وسيكون دائما ؛
« فليس له أول ولا آخر، ولكنه لامتناه . فاذا كان قد كُوِّن فيكون له أول لأنه يكون
« قد بدأ يصير فى حين مّا ؛ ويكون له أيضا آخر لأنه يكون قد انقطع أيضا عن أن
« يصير . فإذا لم يكن قد بدأ قط واذا لم يكن قد انتهى قط فذلك بأنه قد كان
« دائما ويكون دائما بما أنه ليس له لا أول ولا آخر . لأن ماليس الكل لا يمكن
« أن يصل إلى أن يكونه » .

٨

سمبليسيوس . الورقة ٢٣ .

« كما أن الموجود أزلىّ كذلك يلزم أن يكون عظمه أبديا لا متناهيا » .

٩

سمبليسيوس . المرجع السابق .

« ماله أول وآخر لا يمكن البتة أن يكون أزليا ولا لا متناهيا » .

١٠

سمبليسيوس . المرجع السابق .

«إذا لم يكن هو أحدا فهو يحدّ آخر» .

١١

سمبليسيوس . الورقة ٢٤ .

إن لغة ميليسوس نفسه يمكن أن تكون قديمة ولكنها ليست غامضة . وقد يمكننا أن نضع تحت الأنظار هذه المؤلفات العتيقة حتى يتهيأ للذين يقرءونها أن يكونوا قضاة يحسنون الحكم فى إيضاحات أضبط وأوفى . وهاك اذًا ما يقول ميليسوس ملخصا ما قد بسطه فى الماضى ومتابعا نظريته على الحركة :

« على هذا إذًا فالعالم، الكل، هو أزلىّ لامتناه واحد ومتشابه . إنه لا يمكن أن
« يفنى ولا يمكن أن ينمو ولا يمكن أن تتغير صورته ولا يمكن أن يقبل ولا يمكن أن
« يضمحل . فإذا هو عانى شيئا من ذلك فلا يكون واحدا . وفى الحق أنه إذا صار
« الموجود غيرًا فيلزم ضرورة ألّا يكون متشابها ، وأن الموجود الأوّل يفنى وأن
« اللاموجود يصير . ولو اقتضى الكل ثلاثين ألف عام ليصير غيرًا لأنتهى بأن يفنى
« فى كل ما يلى من الزمان» .

١٢

سمپليسيوس . المرجع السابق .

« ولكن لا يمكن أن تتغير صورته؛ لأن النظام المتقدّم للعالم لا ينعدم والنظام
« الذى لم يكن بعدُ لا يتكوّن . ولكن ما دام أنه لا شىء يولد من جديد وما دام
« أنه لا شىء ينعدم وما دام أنه لا شىء يتغير كيف يمكن أن أىّ موجود اتفق يمكن
« أن تتغير صورته؟ إنه يكون قد تحوّل من قبلُ إذا كان يمكن أن يصير غير ما هو» .

١٣

سمپليسيوس . المرجع السابق .

« إنه لا ينفعل لأن الكل لا يمكن أن ينفعل ما دام أنه لا يمكن أن شيئا قابلا
« يكون أزليا . ومن ثم لن يكون له بعدُ قوة شىء يكون فى كمال الصحة . وكذلك هو
« لا يكون متشابها إذا كان ينفعل . إنه لا يمكن أن ينفعل إلا إذا فقد أو كسب
« شيئا . وبهذا وحده ينقطع عن أن يكون متشابها . كذلك ليس من الممكن أن شيئا
« صحيحا ينفعل بأى ما كان ؛ لأنه حينئذ الموجود وهذا الصحيح ينعدم واللاموجود
« يكون . والدليل عينه الذى ينطبق على الانفعال ينطبق أيضا على أىّ اضمحلال مّا
« للموجود » .

١٤

سمبليسيوس القطعة ٩ و ١٧ و ٢٤ .

« لا شيء من الخلو بموجود ؛ لأن الخلو ليس شيئا . وبما هو لا شيء لا يمكن
« أن يكون . الموجود لا يتحرك لأنه لا محل يمكنه أن يستقر فيه ولكن الكل هو ملء .
« إذا كان خلو فالموجود يتحيز فى الخلو . ولكن ما دام أنه لا خلو فلا محل
« يستقر فيه . ما دام الكل ملئا فلا حركة . كذلك لا يكون لا كثيفا ولا متخلخلا
« لأنه ليس ممكنا أن يكون المتخلخل مليئا كالكثيف سواء بسواء . والمتخلخل هو
« أخلى من الكثيف . إليك كيف يلزم الحكم فى الملء والخلو .
« إذا كان شيء يتحيز أو يقبل شيئا ما فذلك بأنه ليس مليئا . فاذا لم يتحيز أو اذا لم
« يقبل فذلك بأنه ملء . إذًا ليس إلا الملء إذا لم يكن خلو . إذا كان إذًا الكل هو
« ملئا فلا حركة ممكنة » .

١٥

سمبليسيوس . المرجع السابق الورقة ٢٤ .

« إذا تجزأ الموجود تحرك ، ولكن حينئذ لا يتحرك كله معا » .

١٦

سمبليسيوس . ما سبق الورقة ١٩

« إذا كان الموجود يوجد فيلزم أن يكون واحدا . وبما هو واحد يلزم فى آن
« واحد ألّا يكون جسما . لأنه إذا كان له سمك كان له أيضا أجزاء ولا يكون بعدُ
« واحدا » .

١٧

سمبليسيوس . شرح كتاب السماء . الورقة ١٧٣ .

« أوسيب وهو يستشهد أرسطوقلس (Preparation Evangelique XV)
« هذا هو إذًا الدليل الأقوى على إثبات وحدة الموجود . ولكن هناك من جهة أخرى أدلة

«تثبتها أيضا . إن كان موجودات متكثرة فيلزم أن يكون كل واحد منها كالموجود
«الذى أُثبتت وحدته . إذا كان الأرض والنار، و إذا كان الهواء والحديد، والذهب
«والنار، إذا كان الحى والميت ، إذا كان الأبيض والأسود وسائر الأشياء التى يعتبرها
«الناس حقائق ، هى موجودة فى الواقع كما يقال ، فيلزم أن يكون كل شيء على الحقيقة هو
«ما قد ظهر لنا بادئ الأمر ، وأنه لا يتغير حاله ، وأنه لا يصير غيرًا بل يبقى دائما هو ما هو .
«ولكنا نعتقد فى حالة الأشياء الراهنة أننا نحسن رؤيتها ونحسن استماعها ونحسن إدراكها .
«فالحار يظهر لنا أنه يصير باردا والبارد يصير حارا والصلب يصير لينا واللين يصير
«صلبا والحيّ يظهر لنا أنه يموت و يتولد ثانيا مما ليس حيا بعدُ ، فالكل بلا استثناء يظهر
«لنا أنه يصير غيرًا . ولا شيء يظهر بأنه يبقى فى الحالة بعينها التى كان فيها والتى هو فيها .
«الحديد نفسه مهما كان صلبا ينبرى بملامسة الأصبع . والذهب والحجر وأيّ جسم آخر مما
«يظهر لنا صلبا هكذا تأتى من الماء كما يأتى منه الأرض والحجر . و بالنتيجة يمكن أن
«يقال إننا لا نرى ولا نعرف الموجودات فى حقائقها . على ذلك فكل ذلك أبعد من
«أن يتطابق . إننا نقول حقا على بعض الأشياء إنها أزلية ومع ذلك نرى صورها كلها
«وخواصها كلها تتغير تحت أعيننا وتنقطع عن أن تكون على ما قد كنا رأيناها عليه
«فى كل حالة خاصة . إذًا يلزم التسليم بأننا لا نحسن رؤية الأشياء وأن ظهور الأشياء
«لنا متكثرة إنما هو خطأ . لأنها لو كانت حقيقية ما تغيرت ولكنها تكون على ما يظهر
«لنا كل واحد منها أنه موجود ، مادام أنه لا شيء فوق الموجود الحقيقى . ففى التغير
«قد هلك الموجود ، وهذا الذى يتكوّن هو اللاموجود . حينئذ مرة ثانية إذا كانت
« الأشياء متكثرة كما يقال فيلزم أنها كانت على الإطلاق كما يكون الموجود الأحد » .

تحليل نظرية غرغيــاس

لسكستوس أمپيريكوس

"Adversus Mathemadicos-logicos"

«ك ٧، ص ٣٨٥، طبعة ١٨٤٢»

قال سكستوس بعد أن أثنى على فروطاغوراس وأوتيديم وريونيسودور الذين لم يعترفوا بالموجود وبالحقيقة إلا فى الإضافى :

«غرغياس الليونتيومى قد تبوأ مكانا أيضا فى طائفة الفلاسفة الذين أنكروا ملكة « الحكم . ولكنه لم يتخـذ فى هجماته الطريقة التى اتخـذها فروطاغوراس . فإنه « فى كتابه المعنون " فى اللاموجود أو فى الطبيعة " يقرر النقط الثلاث الآتيـة : « أوّلا أنه لا شىء بموجود . وثانيا أنه إذا كان شىء موجودا فذلك الشىء هو غير « قابل لأن يدركه الإنسان. وأخيرا وثالثا أن هذا الشىء لو كان قابلا لإدراكنا لمـا « أمكن التعبير عنه ولا تفهيمه الغير .

«إليـك كيف يثبت النقطة الأولى وهى أن لا شىء بموجود . إذا كان شىء «موجودا فانمـا هو الموجود أو اللاموجود أو الموجود واللاموجود معـا . ولكن «الموجود ليس موجودا كما سيبسطه . واللاموجود كذلك ليس موجودا كما سيبينه . «وأخيرا ما هو معا موجود ولا موجود لا يوجد كما سيبينه . إذًا لا شىء بموجود . «بديهى أن اللاموجود غير موجود . لأنه إذا كان اللاموجود موجودا فينتج منـه «أنه يوجد ولا يوجد معا . لأنه من جهة أنه متصوّر لا موجودا فلن يوجد؛ «ومن جهة أنه اللاموجود فهو سيوجد من جديد وعلى العكس .ولكن من السخف «أن شيئا يكون ولا يكون معا . إذًا اللاموجود غير موجود البتة . أضف إلى ذلك «أنه من جهـة نظر أخرى إذا كان اللاموجود موجودا فالموجود حينئذ لا يوجد «لأنهما على التكافؤ ضدان أحدهما للآخر، و إذا كان الموجود يصل إلى اللاموجود «فاللاموجود يصل إلى الموجود .

«ولكن ما دام الموجود ليس موجودا فاللاموجود ليس موجودا من باب أولى .
« على هـذا أقول : إن الموجود ليس موجودا . لأنه إذا كان الموجود موجودا فإما
« أن يكون أزليا وإما أن يكون مخلوقا وإما أن يكون معا أزليا ومخلوقا . ولكن ،
« كما سنبرهنه ، الموجود ليس لا أزليـا ولا مخلوقا ولا كليهما معا . أقول : إذًا إن
« الموجود لا يكون . لأنه إذا كان الموجود أزليا ، مادام أنه يجب الابتداء بذلك ،
« فليس له أول وكل ما يولد له أول . والأزلى بما هو لم يخلق لا يمكن أن يكون له
« أول ما . وبما هو ليس له أول فهو لا متناه . وبما هو لا متناه فليس فى أى مكان ما .
« وفى الحق أنه إذا كان فى مكان ما فيلزم أنه كان موجود آخر غيره وفيـه يوجد .
« وإذا كان الموجود محويا هكذا فى شىء ما فلا يكون بعـدُ لا متناهيا ما دام أن
« الحـاوى هو أكبر من المحوى . ولا يمكن أن يكون شىء أكبر من اللامتناهى .
« إذًا اللامتناهى ليس فى حيز ما .

«ولكن اللامتناهى لا يمكن أن يكون كذلك محويا فى ذاته لأنه إذا يكون المحل
«والحالّ يشتبهان ويصير الموجود اثنين : المحل أولا ثم الجسم ، فان ما فيـه الجسم
«هو الحـيز وما فى الحـيز هو الجسم . ولكن هـذا سخف . وبالنتيجة فالموجود
«ليس كذلك حالّا فى ذاته . وبالنتيجة أيضا إذا كان الموجود أزليا فهو لا متناه .
«وبما هو لا متناه فهو ليس فى أى حيز . وبما هو ليس فى حيز فهو غير موجود . إذا
« كان إذًا الموجود أزليا فلا يمكن أن يكون له كذلك أول .

« ومن جهة أخرى الموجود لا يمكن كذلك أن يكون قـد خلق . فاذا كان
«بالمصادفة قد ولد فيجب أن يكون قد أتى من الموجود أو من اللاموجود . ولكنه
«لا يمكن أن يكون قد أتى من الموجود لأنه إذا كان الموجود موجوداً فذلك بأنه
«لم يكن قد ولد وأنه موجود من قبل . ولا من اللاموجود مادام اللاموجود لا يمكن
«أن يكوّن شيئا ما أيا كان مادام أن ماهو قادر على أن يكوّن شيئا يجب بالضرورة
«أن يكون قد شارك فى الوجود . إذًا فالموجود لا يمكن أن يكون قد خلق .

«وقد يُثبت بالأدلة عينها أن الموجود لا يمكن أن يكون الاثنين معا . أعنى
« أزليا ومخلوقا معا . وفى الحق أن هذين المعنيين يتفاسدان . وإذا كان الموجود
« أزليا فهو لم يولد . وإذا ولد فليس أزليا . حينئذ مرة أخرى ، الموجود بما هو
« لا أزلى ولا مخلوق ولا الاثنان معا فذلك بأنه لا يوجد البتة .

«دليل آخر: إذا كان الموجود يوجد فهو واحد أو كثرة . ولكن الموجود ليس
«واحدا ولا متكثرا كما سنرى ذلك . ومن ثم فالموجود ليس البتة . فاذا افتُرض
«واحدا فهو إما كمّ وإما متصل وإما عظم ما وإما جسم . ولكن ماهو فى أى مّا من
«هذه الأحوال ليس بعدُ واحدا . وفى الحق أنه إذا كان الموجود كمّا فيكون منقسما .
«وإذا كان متصلا فيمكن فصله . وإذا افترض له فى الذهن عظم فلا يكون بعدُ غير
«منقسم . وإذا ذُهب إلى حد أن يجعل جسما فإذًا يكون له الأبعاد الثلاثة ، وبعبارة
«أخرى يكون له طول وعرض وعمق . ويكون مما لا يستطاع تأييده أن يدعى
«أن الموجود ليس على الإطلاق شيئا من ذلك كله . وإذًا فالموجود ليس واحدا .

«أقول : إن الموجود ليس كذلك متكثرا لأنه ما دام ليس واحدا لا يمكن بعدُ
«أن يكون كثرة . وفى الحق أن كثرة لا تتألف إلا من تركب الوحدات . ومتى
«نفيت الوحدة انتفت الكثرة حتما .

«حينئذ على ما تقدم كله يرى جليا أن الموجود ليس أكثر وجودا من اللاموجود .
«ويمكن أن يستنتج منه أن الموجود ليس كذلك الموجود واللاموجود معا . إذا
« كان الموجود، فى الحق، هو ما يوجد وما لا يوجد فحينئذ اللاموجود يتحد مع الموجود
«فى أمر الوجود . ومن ثم لا يوجد لا أحدهما ولا الآخر . فأما أن اللاموجود
«لا يوجد فهذا موضع اتفاق جميع الناس . ولكن قد قرر آنفا أن الموجود يتماثل مع
«اللاموجود . فالموجود إذًا ليس يوجد كذلك . ولكن إذا كان الموجود مماثلا
«للاموجود فلا يمكن أن يكون الاثنين معا . فاذا كان الاثنين معا فلا يكون
«مماثلا وإذا كان مماثلا فلا يكون الاثنين . وينتج منه أن الموجود هو لا شيء .

«لأنه إذا لم يكن لا الموجود ولا اللاموجود ولا كليهما، ولا شيء وراء ذلك، فذلك
«بأن الموجود ليس شيئا .

«الان يلزمنا أن نوضح أنه إن كان من شيء فذلك الشيء غير معروف للإنسان وأن
« عقله لا يمكن أن يفهمه. يقول غرغياس : إذا كانت تصوّرات عقلنا ليست
«موجودات فالموجود لا يمكن أن يتصوّر. وذلك بسيط كل البساطة. وفي الحق،
«كما أنه إذا كانت الأشياء التي نتصوّرها بيضاء هي في الحقيقة متصوّرة بيضاء فكذلك
« الأشـياء المتصوّرة ليست موجودات، فينتج منه بالضرورة الحتمية أنه لا يمكن
«أن نتصوّر موجودات حقيقية. وهذا دليل صحيح تام الصحة ومنتج جد الإنتاج .
«فاذا كانت الأشياء المتصوّرة ليست موجودات فالموجود لا يمكن أن يتصوّر .
«الأشـياء المتصوّرة ليست موجـودات كما سـنقرره . وذلك فرض أول ينبغي
«التسليم به . إذًا الموجود ليس متصوّرا . فأما أن الأشـياء المتصوّرة ليست
«موجودات فذلك ما هو بين بذاته . لأنه إذا كانت التصوّرات هي الحقـائق
«فحينئذ كل ما يتصوّر يوجد وعلى الوجه الذى تُصـوّر به أيا كان هـذا الوجه .
«وهذا هو سخيف بالبداهة وافتراضه غير معقول بالمرة . مثال ذلك : إذا شاء المرء
«أن يفترض إنسانا يطـير في الأجواء وعربات تدرج على الأمواج، فلا ينتج من
«ذلك وحده أن الإنسان يستطيع أن يطير والعربات تدرج على أمواج البحر. على
«هذا فالتصوّرات التي نتصوّر ليست حقائق .

«يلزم أن يزاد على هـذا أنه اذا كانت الأشياء المتصوّرة موجودات فينتج منه
«أن الأشياء التي ليست موجودة لا يمكن أن تتصوّر. لأن الخواص المتضادة تتعلق
«بالأضـداد . واللاموجود هو نقيض الموجود . فاذا كان إذًا الموجود يمكن أن
«يتصوّر كما قد يعتقد فينتج منه أن اللاموجود لا يمكن أن يتصوّر. وهذا سخف .
«لأن الإنسان يتصوّر "سيلا" و"الشيميز" وأشياء شتى أخرى ليس لها وجود ما .
«إذًا الموجود ليس متصوّرا . وكما أن الأشياء المرئية هي بذلك يقال عليها إنها قابلة
«لأن ترى وأن الأشياء المسموعة يمكن أن يقال عليها إنهـا قابلة لأن تسمع لأن

«الإنسان يسمعها وأن المرء لا ينكر الأشياء المرئية لأنه لا يسمعها كما أنه لا ينكر الأشياء
«القابلة لأن تسمع بحجة أنه لا يراها فان كل واحد من هذه الأشياء يجب أن يحكم
«عليه بحاسته الخاصة لا بحاسة أجنبية ، كذلك الأمر فى الأشياء المتصورة لأنه
«لا يمكن أن تُرى بالنظر ولا أن تسمع بالسمع ما دام أنها مدركة بالحاسة الخاصة
«بها . وبالتبع إذا كان امرؤ يتصور العربات تدرج على المياه ولا يراها فلا يلزم منه
«إنكار أن العربات تدرج على الماء . ولكن هذا سخف . وإذًا فالموجود ليس
«متصوّرا ولا يمكن أن يُفهم .

«ولكن بافتراض أنه يُفهم فلا يمكن نقله الى الغير . وفى الحق أن الموجودات
«التى يمكن للمرء أن يراها ويسمعها وعلى وجه العموم أن يحسها هى مفروضة خارجة
«عنا ومن بينها المرئيات مدركة بالنظر وما يمكن سمعها مدركة بالسمع دون أن يكون
«البتة عكس ممكن ، فكيف يمكن حينئذ التعبير عنها للغير . وفى الواقع أن طريقة
«الإيضاح التى عندنا هى الكلام ، والكلام ليس هو الأشياء نفسها ولا الموجودات .
«إذًا ليست الموجودات هى التى نعبر عنها للغير بل هو الكلام وحده الذى هو على
«الإطلاق خلاف الحقائق أعينها . وإذًا فكما أن المرئى لا يمكن أن يصير قابلا لأن
«يسمع وعلى التكافؤ ، فكذلك الموجود المفروض أنه خارج عنا لا يمكن أن يصير هو
«كلامنا . وبما أن الكلام ليس موجودا فليس من الممكن التعبير عن شىء ما للغير .
«وفى الواقع أن المقالة — كما يقول غرغياس — لا تتألف إلا من أشياء خارجية
«تأتى فتقع فى ذهننا أعنى أشياء تدركها حواسنا . وعلى هذا فعلى أثر تسلط ذوق ما فى
«الأشياء المذوقة يتكون عندنا الكلام الذى نعبر به عن هذا الكيف الخاص .
«وتبعا لتدخل اللون يتكوّن الكلام الذى نعبر به عنه . فاذا كان هذا هكذا فليس
«الكلام هو الذى يمثل ما هو فى الخارج بل هو الشىء الخارجى الذى يعيّن الكلام .
«لا يمكن أن يقال : إن الكلام هو على الوجه الذى عليه الأشياء المرئية أو المسموعة
«بحيث إن الكلام بافتراضه يمكن أن يستدل به على الموجودات والموضوعات

«الخارجية . يقول غرغياس : لأنه إذا كان الكلام هو أيضا موضوعا فهو يختلف
«بالأقل عن جميع الموضوعات الأخرى . ومثال ذلك أية مسافة لا تكون بين
«الأشياء المرئية و بين الكلمات التى تعبر عنها؟ وفى الحق أنه إنما يختلف العضو الذى
«تدرك به الأشياء المرئيـة والذى يدرك به الكلام الذى يعبر عنهـا . وعلى ذلك
فالكلام لا يمكن أن يبين الجزء الأعظم للأشياء الخارجية بذواتها، كما أنّ أكثر الأشياء
«لا يمكن على التبادل أن يبين بعضها طبع البعض الآخر.

« تلك هى أدلة غرغياس التى هى على قدر قيمتها تفسد كل مقيـاس للحق،
« لأنه ليس بعـدُ من مقياس ما دام أنّ الموجود ليس موجودا، وأنه لا يمكن أن
« يعلم، وأنه ليس قابلا لأن يُنقل علمه إلى الغير».

راجع أيضـا Hypotyposes pyrrhoniennes ك ٢ ب ٦ ف ٥٧ و ٥٩
و ٦٤ — ص ١٣٤ و ١٣٦ من طبعة سنة ١٨٤٢

وكان تمـام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت
٢٧ شوّال سنة ١٣٥٠ (٥ مارس سنة ١٩٣٢) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦١٧/١٩٢٨/١٥٠٠)

